دوستويفسكى

الأبله

رواية فى مجلدين

المجلد الثانى

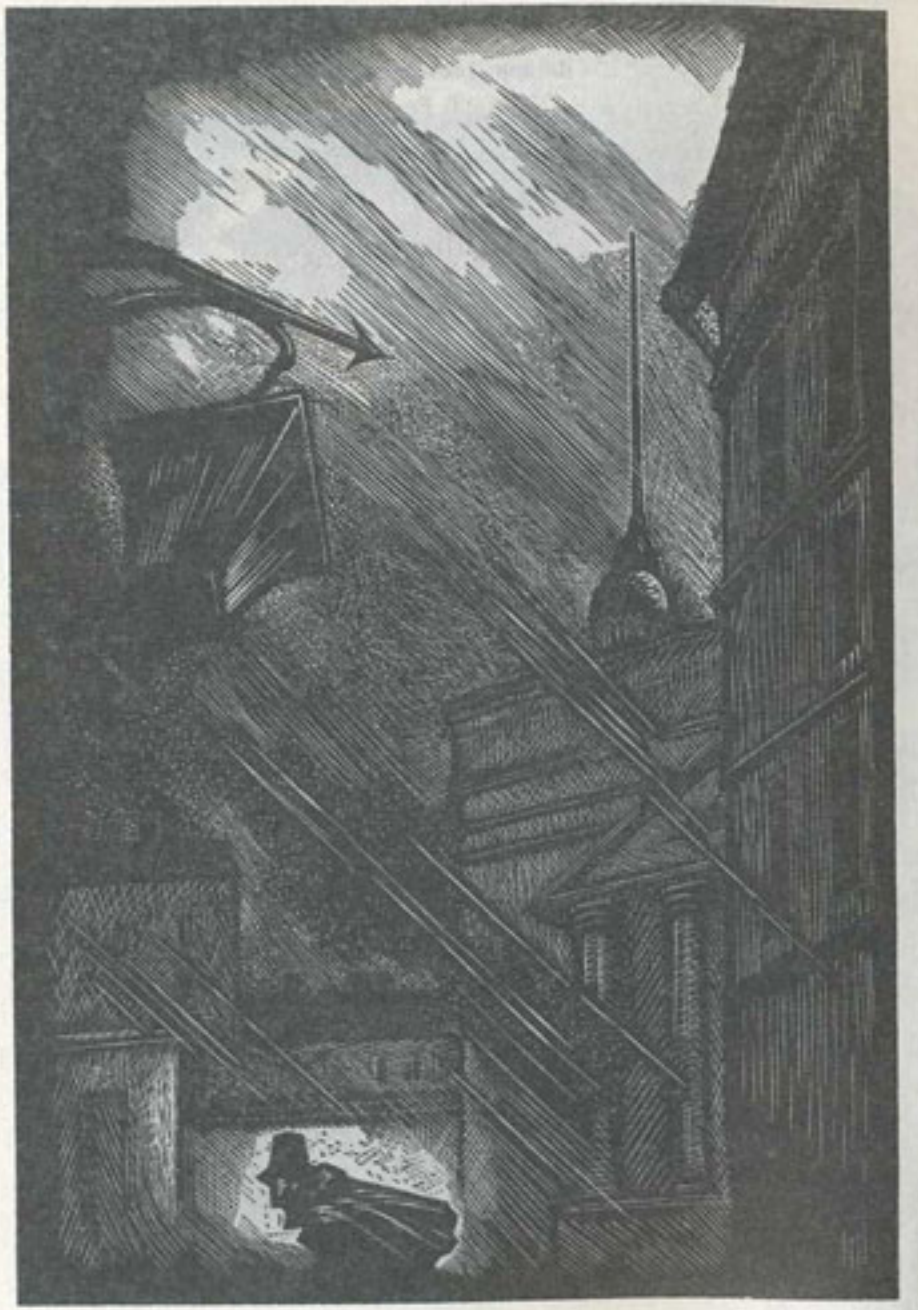

ترجمة د . سامى الدروبـى
مراجعة د . ابو بكر يوسف
رسوم أ . غونتشاروف

Федор Достоевский
ИДИОТ. Роман

Книга II
Части III и IV

На арабском языке

© المراجعة والرسوم — دار «رادوغا» ، ١٩٨٥
طبع فى الاتحاد السوفييتى

Д 4702010100-548 / 031(05)-85 067-85

ISBN 5-05-000077-7
ISBN 5-05-000079-3

الجزء الثالث

يشتكى عندنا دائما من أننا يعوزنا أناس عمليون . فيقال ان هناك مثلا وفرة فى رجال السياسة ، وان هناك أيضا كثيرا من الجنرالات ، واننا اذا احتجنا الى رؤساء للمشروعات ، أيا كان العدد الذى نريده منهم ، فسوف نجد ضالتنا من جميع أنواعهم فورا . أما الناس العمليون فلا نقع عليهم ، أو قل على الأقل ان جميع الملأ يتشكون من أنهم لا يقعون عليهم . فيقال ان بعض الخطوط الحديدية لا وجود فيها لموظفين يحسنون القيام بأعمالهم البتة ؛ ويزعم بعضهم انه يستحيل كل الاستحالة على شركة من شركات الملاحة أن يتوفر لها ادارة ولو على درجة متوسطة من الكفاءة . فتارةً يصل الى علمنا أن عربات الركاب ، على خط جديد من خطوط السكك الحديدية ، قد تصادمت أو تهاوت مع جسر من الجسور . وتارةً نقرأ أن قطارا بقى متعطلا وسط حقل من الثلج حتى أوشك أن يقضى هناك الشتاء فاذا بالمسافرين الذين كانوا راكبين لبضع ساعات ، يلبثون فى الثلج خمسة أيام . وتارةً يُروى أن ألوفا كثيرة من بودات[1] البضائع قد فسدت لبقائها فى مكانها شهرين أو ثلاثة أشهر بانتظار نقلها . وتارةً يُذكر (وبالمناسبة نقول أن هذا شىء حتى لا يُصدَّق) أن واحدا من موظفى الادارة ، هو مراقب من المراقبين قد صفع وكيل أحد التجار ، الذى كان يستعجله شحن البضاعة ، ثم برر فعلته بأنه «غضب» . ويبدو أن

---

[1] البود مقياس وزن روسى قديم يساوى ١٦,٣ كغ .

الوظائف تبلغ من الكثرة فى دوائر الدولة أن المرء يشعر بالرعب حين يفكّر فيها . ان جميع الناس عملوا موظفين فى الحكومة ، أو يعملون موظفين أو يأملون أن يعملوا موظفين . هل يصدّق العقل أن هذه المادة الوفيرة لا تصلح لأن تتألف منها ادارة مناسبة لشركة ملاحة ؟

هذا سؤال يجيب عنه بعضهم أحيانا اجابة مسرفة فى البساطة ، حتى لتبلغ من اسرافها أن المرء لا يصدّقها . يقول هؤلاء : صحيح أن جميع الناس فى بلادنا عملوا موظفين أو ما يزالون يعملون موظفين ، فهذا يدوم منذ مائتى عام ، يتوارثه الناس أحفادا عن أجداد ، على غرار خير قدوة أخذناها عن الألمان . والذين يعملون فى الوظائف هم بأعينهم أبعد الناس عن الروح العملية ؛ حتى ان الفكر التجريدى وفقدان المعرفة العملية كانا ما يزالان الى عهد قريب يُعدّان بين الموظفين أنفسهم فضيلةً بارزة وصفة ممتازة . لكن كلامنا عن الموظفين ليس فى محله اذ كان غرضنا فى الواقع أن نتحدث عن الناس العمليين عامةً . هنا نستطيع أن نقول فى غير شبهة ان الوجل وفقدان المبادرة الشخصية كانا يُعدّان دائما فى بلادنا خيرَ علامة أساسية يُعرف بها الانسان العملى . وحتى فى زماننا هذا ما يزال الناس يرون هذا الرأى . ولكن لماذا نتهم أنفسنا فقط ، هذا اذا صحّ أن فى هذا الرأى اتهاما ؟ ان فقدان التفرد والاصالة قد عُدّ دائما فى جميع البلاد وفى جميع الازمان ميزة اولى وخير علامة للشخص العملى الحاذق الذى يمتلك الحس العملى . ان تسعة وتسعين فى المائة من الناس على الأقل كانوا يرون هذا الرأى دائما (هذا على أقل تقدير) ، وواحد

فى المائة منهم فقط كان دائما وما يزال لا يرى ذلك الرأى .

ان المخترعين والعباقرة قد نظر اليهم المجتمع فى جميع الازمان تقريبا نظرته الى أناس حمقى ، وذلك فى بداية نشاطهم (وفى آخره فى كثير جدا من الأحيان) . هذه ملاحظة معروفة شائعة حتى لتكاد تكون مبذولة . فطوال عشرات السنين مثلا ظل الناس يودعون أموالهم فى مصرف لومبارد» مختزنين المليارات بفائدة ٤ ٪ ، فلما توقف مصرف لومبارد عن العمل ، فصار كل انسان متروكا لمبادرته الشخصية ، كان لا بد أن نرى أكثر تلك الملايين تتبخّر بين أيدى محتالين وفى غمرة حمى الأسهم ، وذلك ما كانت تتطلبه حتى الآداب والأخلاق الحسنة ، وانما أقول الاخلاق الحسنة بالذات . اذا كان الوجل المحتشم والابتعاد الكبير عن التفرد والاصالة قد عدّهما مجتمعنا فى رأى جميع الناس حتى الآن ميزةً ملازمةً لكل انسان عملى محترم ، فان تغيير المرء طريقة سلوكه فجأةً تغييرا كبيرا لا بد أن يكون فيه شئ يجافى اللياقة الى حد كبير بل وشئ من قلة الأدب . أى أم ، على سبيل المثال ، تحب أولادها بحنان ، ولا تخاف خوفا قد يهوى بها الى المرض اذا هى رأت ابنها أو بنتها يبتعدان ولو قليلا عن السكة المرسومة ؟ «لا ، الأفضل أن يكون سعيدا وأن يعيش فى يسر بدون تفرد واصالة» . ان كل أم تفكر هذا التفكير وهى تهدهد ولدها . أما المربيات عندنا فانهن من قديم الزمان يهدهدن أولادنا فى مهودهم بأغنيتهن الأبدية : «الذهب سيحوطك ، وجنرالا سوف تصبح» . هكذا نرى أنه حتى مربيات أولادنا قد نظرن دائما الى لقب الجنرال على أنه المقياس الأسمى

للسعادة الروسية . معنى ذلك أن هذه الرتبة تعدّ بالتالى المثل الأعلى القومى الأوسع شهرة للهناءة الرائعة الهادئة . وفى الواقع ، أى رجل فى روسيا لم يكن متأكدا من أنه بالغ رتبة جنرال فى آخر المطاف ، وصائر الى اختزان مبلغ من المال فى مصرف لومبارد ، متى استطاع ان ينجح على نحو ما فى الامتحانات المطلوبة ، ومتى خدم الدولة خمسة وثلاثين عاما ؟ على هذا النحو انما كان الروسى يحصل آخر الأمر ، دون جهد تقريبا ، على سمعة الرجل القادر العملى . والواقع ان الرجل الوحيد الذى لم يكن يستطيع أن يصبح جنرالا عندنا هو الرجل ذو التفرد أو بعبارة اخرى الرجل القلق . قد يشتمل هذا على سوء فهم الى حد ما . ولكن هذا عموما يبدو صحيحا . ولقد كان مجتمعنا منصفا تماما وهو يعرّف مثله الأعلى فى الانسان العملى هذا النحو من التعريف . ولكن ها نحن قد نأينا كثيرا عن موضوعنا ، وهو أن نقدم بضع ايضاحات عن أسرة ايبانتشين المعروفة لنا . ان أفراد أسرة ايبانتشين أو على الاقل الميالون منهم الى التأمل أكثر من الباقين ، يعانون دائما من خصلة تكاد تكون مشتركة بينهم جميعا هى نقيض تلك الميزات التى تحدثنا عنها منذ قليل . ولقد كانوا يشتبهون أحيانا فى أن الأمور عندهم لا تجرى كما تجرى عند سائر الناس ، دون أن يدركوا ذلك ادراكا تاما (وهو أمر صعب ادراكه على كل حال) . ان الطريق المستوية الممهدة بالنسبة الى الآخرين هى بالنسبة اليهم وعرة ملأى بالحجارة . الناس ينزلقون على السكة انزلاقا سهلا لينا ، أما هم فينزلقون عنها فى كل لحظة . لدى الآخرين يسيطر دائما وجل محتشم ، أما

لديهم فلا شئ من ذلك . صحيح أن اليزافيتا بروكوفيفنا كانت تنتابها مخاوف فيها غلو ، ولكن تلك المخاوف لا تشبه فى شئ وجل المجتمعات الراقية المحتشم الذى كان يُحزن أفراد اسرة ايبانتشين حرمانُهم منه . ولعل اليزافيتا بروكوفيفنا كانت الوحيدة التى يحزنها ذلك على كل حال . فقد كانت الآنسات ما يزلن صغيرات رغم أنهن ينعمن بفكر نقاد ساخر وفيه ذكاء وفطنة ونباهة . أما الجنرال فكان ينفذ الى غور الاشياء (ولو بشىء من البطء والصعوبة) ، لكنه فى الحالات المربكة لا يزيد على أن يهمهم قائلا : همْ ! ، ثم ينتهى به الأمر الى الاعتماد على اليزافيتا بروكوفيفنا اعتمادا كاملا بحيث تقع التبعة كلها عليها وحدها . لا يمكن أن نقول مع ذلك ان هذه الأسرة تتميز مثلا الى درجة بعيدة بروح المبادرة الخاصة ولا أنها تتحول عن الطريق الممهد لأنها تبيح لنفسها أن تنقاد لميل واعٍ الى التفرد والأصالة الامر الذى من شأنه أن يكون غير لائق تماما . آه ، لا ، ابدا ! لم يكن ثمة شئ من هذا فى حقيقة الأمر ، لم يكن ثمة شئ يشتمل من جهتها على سابق قصد واع . ومع ذلك فهذه الأسرة ، مهما نقل أنها أسرةٌ محترمة ، لم تكن فى الحساب الأخير ما ينبغى لها أن تكون على وجه الدقة والتمام حتى يصدق عليها التعريف الشائع للأسرة المحترمة . وقد اعتقدت اليزافيتا بروكوفيفنا فى الآونة الأخيرة أنها وحدها ، بما تتصف به من طبع «شقى» ، هى سبب هذا الشذوذ ، فما كان من هذا الاعتقاد الا أن زاد آلامها . فكانت تؤاخذ نفسها فى كل لحظة على «غرابتها الغبية غير اللائقة» ، حتى لقد أخذت تتعذب من الارتياب وترتبك

دائما . فلا تجد مخرجا من أيسر المشكلات ، وما تنفك تضخّم شقاءها .

لقد قلنا منذ بداية قصتنا أن أسرة ايبانتشين كانت تحظى بتقدير ينعقد عليه اجماع الناس حقا . فحتى الجنرال ايفان فيدوروفتش نفسه ، رغم أنه مغمور الأصل ، كان يُستقبل فى كل مكان بتعظيم لا مراء فيه . ولقد كان يستحق هذا التعظيم على كل حال ، أولا لأنه ليس «أى شخص» ، ولأنه رجل طائل الثراء ؛ وثانيا لأنه مستقيم تماما رغم أنه محدود الذكاء . غير أن شيئا من ثقل الفكر ميزة تكاد تكون ضرورية فيما يظهر ، فان لم تكن ضرورية لكل رجل منخرط فى الأعمال ، فهى ضرورية على الأقل لكل رجل حريص بكل عناية على كسب الأموال . وأخيرا كان الجنرال راقى الآداب . كان متواضعا ، وكان يعرف كيف يصمت ، دون أن يتيح لأحد مع ذلك أن يدوس على قدميه ، لا بسبب رتبته فحسب ، بل لأنه رجل شريف ونبيل . والأهم أنه كان رجلا له سند قوى يحميه . أما اليزافيتا بروكوفيفنا فهى تنحدر من أسرة طيبة كما سبق أن قلنا . والمحتد لا يكون له وزن كبير فى بلادنا ان لم تشفعه علاقات وصلات لا بد منها . وقد حصّلت اليزافيتا بروكوفيفنا هذه العلاقات والصلات آخر الأمر . لقد ظفرت باحترام وأخيرا بمودة أناس كان لا بد للجميع أن يقتدوا بهم فيعظّموها ويستقبلوها . ومما لا شك فيه أن أحزانها العائلية لم يكن لها أسباب تسوغها ، أو هى ترجع الى أسباب تافهة يضخّمها خيالها تضخيما مضحكا . ولكن يكفى أن يكون للمرء ثؤلول فى أنفه أو جبينه حتى يتخيل أن

جميع الناس لا يفكرون الا فى النظر الى هذا الثؤلول ، وفى الضحك منه ، وفى نقد صاحبه بسببه ، ولو كان صاحبه هذا هو مكتشف أمريكا . ومما لا شك فيه أيضا أن اليزافيتا بروكوفيفنا كانت تُعدُّ فى المجتمع «غريبة الأطوار» ، دون أن يقلّل هذا من الاحترام الذى كانت تُحاط به من كل يد . لكنها أصبحت تشك فى هذا الاحترام آخر الأمر ، فكان هذا هو شقاءها كله . فهى حين تنظر الى بناتها تتألم متخيلة بأنها تسىء باستمرار الى مستقبلهن وأن طبعها مضحك ، غير لائق ، لا يطاق ، ومع ذلك كان هذا نفسه هو ما تتهم به دائما بناتها وتأخذه عليهن وتأخذه على ايفان فيدوروفتش ، فهى تشاجرهن وتشاجره أياما بكاملها ، دون أن تكف عن أن تحبهم جميعا حبا يمضى الى حد نكران الذات ، ويكاد يبلغ الهوى العارم .

وكان يعذّبها خاصةً أن تتصور أن بناتها قد أخذن يصحبن «غريبات الأطوار» ، مثلها هى أيضا ، وأنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد فى المجتمع الراقى فتيات من نوعهن . كانت ما تنفك تردد على نفسها قولها : «لسوف يصبحن من أنصار المذهب العدمى» . وقد أخذت هذه الفكرة الحزينة تترسخ فى ذهنها مزيدا من الترسخ العميق فى السنة الأخيرة ولا سيما فى الاونة الأخيرة . وكانت تتساءل فى كل لحظة : «فأولا : لماذا لا يتزوجن ؟ السبب تعذيب أمهن . ذلك هو هدف وجودهن . ولا غرابة فى هذا على كل حال . فهو ثمرة الأفكار الجديدة ، وهو خاصةً ثمرة تلك القضية اللعينة ، قضية المرأة ! ألم تتخيل آجلايا منذ ستة أشهر أن تقص شعرها الرائع ؟ (يا الهى ! حتى

شعرى أنا لم يكن مثل شعرها فى غضارة صبـــاى !)
لقد أمسكت المقص بيدها ، وأوشكت أن تفعل فعلتها
لولا أن تضرعت اليها جاثيةً على ركبتى . . ولنسلِّم أن آجلايا
أرادت أن تقص شعرها بدافع الشر ، لتعذّب أمها ، فهى
فتاة شريرة ، طاغية ، مدلّلة ، والمـــهـــم أنها شريرة شريرة
شريرة ! . . ولكن ما قولنا بألكسندرا البدينة ؟ ألم توشك
أن تقلّدها فتقصّ شعرها لا بدافع الشر أو النزوة بل بصدق
حمقاء استطاعت آجلايا ان تدخل فى روعها أنها اذا حلقت
رأسها فسوف تنام نوما أهدأ وسوف تتخلص من الصداع ؟
وما أكثر الرجال الذين تقدموا يخطبونهن منذ خمس سنين !
والحق كان بينهم رجال ممتازون ، بل رائعون ! وماذا
ينتظرن ؟ لماذا لا يتزوجن ؟ لا سبب غير ايذاء أمهن .
ولا سبب آخر !»

وأخيرا توشك الشمس أن تشرق على قلبها ، قلب
الأم . ان احدى بناتها ، آديلائيدا على الأقل ، تهم أن
تتزوج أخيرا . «هذه واحدة على الأقل تنزل عن ذراعى !»
كذلك قالت اليزافيتا بروكوفيفنا حين اتيح لها أن تعبـــر
عن ذات نفسها بصوت مسموع (ولكنها كانت تقول بينها
وبين نفسها ألفاظا أملأ بالعاطفة والحنو الى حد كبير) .
ولقد تمّ الأمر على أحسن نحو ، وأليق صورة . فحتـــى
المجتمع الراقى أخذ يتحدث عن ذلك بتقدير واحترام .
ان الخطيب رجل معروف . انه أمير . وهو ثرى . وهو حسن
الطبع . وقد حظى فوق ذلك باستلطافها . هل يرغب المرء
فى أكثر من ذلك ؟ على أن مستقبل آديلائيدا كان كما
فى السابق لا يثير فى نفس الأم من المخاوف مثل الذى

يثيره مستقبل اختيها ، رغم أن الميول الفنية لدى هذه
البنت الوسطى قد ألقت أحيانا اضطرابا عميقا فى قلب
اليزافيتا بروكوفيفنا الذى كان يعذّبه شك متصل لا ينقطع ،
ولكنها قد انتهت الى القول من باب تعزية نفسها : «ان
للفتاة طبعا مرحا فى مقابل ذلك ، وان لها فوق هذا كثيرا
من سداد الرأى . فلن تضيع اذن» . وكانت تخاف على
آجلايا خاصةً . أما عن ألكسندرا ، البنت الكـــبرى ،
فكانت أليزافيتا بروكوفيفنا لا تدرى هى نفسها فى حقيقة
الأمر أينبغى لها أن تقلق عليها أم لا ؟ كان يخيّل اليها
أحيانا أن هذه البنت «لم يبق لها مستقبل» . انها فى
الخامسة والعشرين من عمرها . فستبقى عانسا اذن . «بينما
هى جميلة هذا الجمال !» . وكانت أليزافيتا بروكوفيفنا
حتى تبكى ليالى بكاملها مفكّرةً فى ألكسندرا ، بينما تكون
ألكسندرا ايفانوفنا فى تلك الليالى نفسها غارقة فى نوم هادئ
هادئ . «ما حقيقة أمر هذه البنت ؟ أهى من أنصار
المذهب العدمى ، أم هى غبية حمقاء لا أكثر من ذلك ؟» .
أما أنها ليست غبية حمقاء ، فذلك أمر كانت تعرفه
أليزافيتا بروكوفيفنا أيضا حق المعرفة ، حتى لقد كانـــت
تحترم آراء ألكسندرا ايفانوفنا احتراما كبيرا ، وكان يسرها
أن تستشيرها . ولكن لا شك فى أن ألكسندرا «دجاجة
مبتلة» : «انها تبلغ من فرط الهدوء أنه لا يهزّها شىء ، ولكن
«الدجاجة المبتلة» ليست هادئة . إف ! . . انهن يفقدننى
صوابى !» كانت تحس نحو ألكسندرا ايفانوفنا بحنان رقيق
لا يُفسَّر ، أقوى حتى من شعور الحنان الذى تحسه نحو آجلايا ،
مع أن آجلايا هى معبودتها . غير أن تلك الاندفاعات

الغاضبة (التى كانت المظهر الرئيسى لما يضطرم فى نفسها من عطف الأم وحنوها) وكذلك تلك المشاكسات وتلك الألقاب ، كقولها «دجاجة مبتلة» لم تكن تزيد على أن تثير فى ألكسندرا الابتسام . كان الأمر يصل أحيانا الى أن أتفه الأمور تثير غضب أليزافيتا بروكوفيفنا الشديد وتخرجها عن طورها . من ذلك ، على سبيل المثال ، أن ألكسندرا ايفانوفنا كانت تحب أن تنام مدةً طويلةً ، وكانت ترى فى العادة أحلاما كثيرة . ولكن تلك الأحلام كانت تتميز دائما بتفاهة نادرة ، وكانت بريئة براءة أحلام طفل فى السابعة من عمره . فأخذت حتى هذه البراءة تغيظ الأم وتحنقها ، لا يدرى أحد لماذا . من ذلك أن ألكسندرا ايفانوفنا رأت فى حلمها ذات ليلة تسع دجاجات فقام الشجار بينها وبين أمها بسبب ذلك الحلم . لماذا ؟ انه يصعب على المرء أن يجيب عن هذا السؤال . فى مرة واحدة فقط ، اتفق لها أن رأت حلما فيه شئ من الطرافة : رأت راهبا معتكفا فى غرفة مظلمة خافت أن تدخلها . وأسرعت اختاها المنفجرتان بالضحك تقصان بظفر على أليزافيتا بروكوفيفنا ذلك الحلم . فغضبت الأم من جديد ووصفتهن جميعا بأنهن بلهاوات . وقالت تحدث نفسها : «هِمْ . . . انها هادئة هدوء الحمقاء . هى «دجاجة مبتلة» تماما . لا سبيل الى هزّها . لكنها تشعر بالحزن . ان نظرتها تتجلل أحيانا بأسى وكآبة . ما مصدر حزنها ؟ ما هو ؟» . وكانت أليزافيتا بروكوفيفنا تلقى هذا السؤال أحيانا على ايفان فيدوروفتش ، تلقيه على عادتها بلهجة صارمة عصبية تطلب جوابا على الفور . فكان ايفان فيدوروفتش يهمهم ويقطّب حاجبيه .

ويهز بكتفيه ، ثم يعلن أخيرا وهو يباعد ذراعيه :

— هى فى حاجة الى زوج !

فتنفجر أليزافيتا بروكوفيفنا أخيرا انفجار قنبلة قاتلة :

— أسأل الله ، على الأقل ، أن لا يكون ذلك الزوج مثلك ، أن لا يشبهك لا فى آرائك ولا فى أحكامك يا ايفان فيدوروفتش ، أن لا يكون فظا غليظا مثلك يا ايفان فيدوروفتش . . .

فكان ايفان فيدوروفتش يولّى هاربا فى الحال ، اما اليزافيتا بروكوفيفنا فتهدأ بعد **انفجارها** . ثم لا يفوتها ، طبعا ، فى مساء ذلك اليوم نفسه أن تبدى بشاشة عظيمة ولطافة غير معهودة ، فهى تظهر رقة وعذوبة واحتراما وتوقيرا لزوجها «الفظ الغليظ» ايفان فيدوروفتش ، لزوجها الطيب العزيز الحبيب المعبود ايفان فيدوروفتش . ذلك أنها قد أحبته طوال حياتها ، وحتى كانت تعشقه ، وذلك ما كان ايفان فيدوروفتش نفسه يعلمه حق العلم ، ويكافئ عليه اليزافيتا بروكوفيفنا بتقدير لا حدود له .

ولكن العذاب الأساسى ، العذاب الدائم المقيم فى قلب اليزافيتا بروكوفيفنا انما كان بنتها آجلايا .

كانت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول لنفسها : «انها مثلى تماما . هى صورتى من جميع النواحى : شيطان صغير مستبد خبيث ! عدمية ، غريبة الأطوار ، مجنونة ، شريرة ، شريرة ! آه . . . يا رب ! كم ستكون تعيسة !» .

غير أن الشمس كانت قد أشرقت فأنارت ولطّفت كل شئ ، فترة قصيرة على الأقل كما سبق وقلنا أعلاه . لقد عاشت اليزافيتا بروكوفيفنا قرابة شهر ، متحررةً تماما تقريبا

من جميع أنواع القلق والغم التى كانت تستبد بها . أخذ الناس فى المجتمع الراقى ، بمناسبة زواج آديلائيدا القريب ، يتكلمون أيضا عن آجلايا . وكانت آجلايا تتصرف فى كل مكان تصرفا رائعا ، كانت لبقة السلوك متوقدة الذهن . وفى هيئتها ظفر وشئ من كبرياء ولكنه يناسبها كثيرا ! وهى منذ شهر كامل تعامل أمها معاملة فيها أكبر الملاطفة وأعظم البشاشة ! («صحيح أنه ما يزال ينبغى أن يُدرس يفغينى بافلوفتش هذا دراسة جيدة ، وأن تُعرف حقيقته معرفة صحيحة . ثم ان آجلايا نفسها لا تظهر له من المودة أكثر مما تظهر للآخرين على كل حال») . ولكن آجلايا قد أصبحت فتاةً بارعة الفتنة على حين فجأة ! ثم ما أجملها ! رباه ! ما أجملها ! وانها لتزداد جمالا فى كل يوم ! ولكن . . .

ولكن ما ان ظهر هذا الأمير الصغير الوغد ، ما ان ظهر هذا الأبله المعتوه ، حتى انقلب كل شئ رأسا على عقب من جديد ، وانقلب البيت عاليه سافله !

فماذا حدث ؟

الحق أنه لم يحدث شىء الا فى نظر اليزافيتا بروكوفيفنا . ولكن اليزافيتا بروكوفيفنا انما كانت تتميز بأنها كانت ترى دائما فى ترابط وتشابك الحوادث العادية جدا عبر القلق المسيطر على نفسها شيئا يخيفها خوفا أليما يغذيه الخيال ولا يمكن ان يفسره عقل وبالتالى فهو أشد وأثقل خوف ، حتى لقد كانت تسقط بسبب ذلك مريضةً فى بعض الأحيان . ففى أى حال أصبحت اذن حين أخذ ينبثق الآن فجأة بالفعل فى وسط اختلاط الهواجس السخيفة الوهمية شئ بدا

أن له خطورة حقيقية فكأنه يسوِّغ القلق والشك والريب .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا محدثةً نفسها طوال الطريق بينما كانت تقود الأمير ، ثم فى دارها حين أجلسته الى المائدة المستديرة التى كانت تتحلق حولها الأسرة كلها : «كيف تجرأوا أن يكتبوا الىَّ تلك الرسالة المنحوسة الغفل التى تدعى ان لهذه **المخلوقة** علاقات بآجلايا ؟ بل كيف أمكن أن تخطر هذه الفكرة على بالهم ؟ لسوف أموت من شعورى بالعار لو صدّقت كلمة واحدة منها ، أو أظهرتُ آجلايا على الرسالة ! يسخرون هذا السخر منا نحن آل ايبانتشين ! وذلك كله بسبب ايفان فيدوروفتش . ذلك كله بسببك انت يا ايفان فيدوروفتش ! آه . . . لماذا لم نذهب الى جزيرة يالاجين» ؟ لقد قلت أن علينا أن نذهب الى يالاجين ! ربما كانت فاريا هى التى كتبت تلك الرسالة . أنا أعلم ذلك ؛ أو ربما . . ذلك كله ذنب ايفان فيدوروفتش ! لقد دبرت تلك **المخلوقة** له مثل هذه المكيدة تذكيرا بعلاقات قديمة لتجعله فى وضع مضحكٍ . تصرفت تماما كما فى السابق حين كان يحمل اليها لآلئ بينما كانت هى تضحك عليه كما لو كان معتوها وتخدعه . . . ولكن فى نهاية الأمر قد تعرضت سمعتنا نحن للسوء . لقد تعرضت سمعة بناتك للسوء ، يا ايفان فيدوروفتش ، بناتك اللواتى هن أوانس أرقى مجتمع ، وفتيات على أهبة الزواج . لقد كنّ حاضرات هناك ؛ بقين هناك ، فسمعن كل شئ ، حتى لقد أقحمن فى حكاية الاولاد» أيضا . هناك أيضا كنّ حاضرات وسمعن الكلام فابتهجْ اذن ! لن أغفر لهذا الأمير الصغير الشقى ، لن أغفر له فى يوم من الأيام !

ولماذا أرى آجلايا مهتاجة الأعصاب الى هذا الحد منذ ثلاثة أيام ؟ لماذا أراها فيما يشبه الشجار مع أختيها ، حتى مع ألكسندرا التى كانت من شدة احترامها لها تقبّل دائما يدها كأم ؟ لماذا أصبح تصرفها خلال ثلاثة أيام لغزا للجميع ؟ وما شأن جافريلا ايفولجين هنا ؟ لماذا أخذت تكيل له المديح أمس واليوم ، ثم انفجرت باكية منتحبة ؟ لماذا تتكلم تلك الرسالة الغفل عن هذا «الفارس الفقير» اللعين بينما لم تطلع آجلايا حتى اختيها على رسالة الأمير ؟ ولماذا . . . أسرعت اليه كالمجنونة واقتدته بنفسى الى هنا ؟ يا الهى ! لقد فقدت صوابى . ماذا دهانى ؟ تكلمت مع شاب عن أسرار بنتى ، لا سيما . . . حين تكون هذه الأسرار متعلقة به أو تكاد ! رباه ! الحمد لله على أنه أبله . . . وأنه . . . وأنه . . صديق الأسرة ! ولكن هل يمكن أن تفتتن آجلايا بمثل هذا الطِرح ؟ رباه ! ما هذا الذى أقوله ! اف ! اننا شاذون . . . يحسن أن نوضع وراء واجهة زجاجية ليتفرج الناس علينا بعشرة كوبيكات . . . ولا سيما أنا ! لن أغفر لك هذا يا ايفان فيدوروفتش ، لن أغفره لك فى يوم من الأيام ! ولماذا لا تسىء هى معاملته ؟ لقد وعدت بأن تسىء معاملته . ثم هى لا تفعل من ذلك شيئا ! انظروا ! انها تلتهمه بعينيها التهاما ، وتبقى صامتة ولا تعزم أمرها على الابتعاد . وهى التى حظرت عليه مع ذلك أن يعود . . . أما هو فانه يجلس شاحب الوجه شحوبا شديدا . وهذا الثرثار اللعين يفغينى بافلوفتش يحتكر الحديث كله ! ما من أحد يستطيع ، ازاء هذا السيل المتدفق من ثرثرته ، أن يدسّ كلمة واحدة ! فى وسعى أن أخرج كل

شىء الى النور فورا لو أمكننى أن أدير دفة الحديث . . .» .

كان الأمير جالسا الى المائدة المستديرة ، شاحب الوجه أو يكاد بالفعل . كان يلوح عليه أن هلعا شديدا يسيطر عليه ، هلعا يخالطه فى بعض اللحظات نوع من نشوة يغزو قلبه ولا يستطيع هو نفسه أن يفهمه . آه ! لشد ما كان يخشى أن يختلس نظرة الى ذلك الركن الذى تحدّق اليه منه عينان سوداوان يعرفهما حق المعرفة . ومع ذلك ما كان أعظم السعادة التى كانت تغمره وهو يجد نفسه مرة أخرى فى هذه الأسرة ، وسيسمع ذلك الصوت المألوف ، وذلك بعد الذى كتبته اليه . «ما عساها تقول الآن يا رب !» . لم يكن قد فتح فاه بعد ، وكان يصيخ بسمعه الى أحاديث يفغينى بافلوفتش الذى كان «يتدفق فى الكلام تدفقا غزيرا» ، والذى كان من النادر أن يعانى هذا الانتعاش والرضى عن النفس كما هو الآن فى هذا المساء . أصاخ اليه الأمير بسمعه مدة طويلة دون أن يفهم شيئا تقريبا مما كان يقوله . وكانت الأسرة كلها حاضرة ، الا ايفان فيدوروفتش الذى لم يكن قد رجع من بطرسبرج بعد . وكان الأمير «شـ . . .» أحد الحضور أيضا . وكان هؤلاء كما بـــدا ينتوون أن ينصرفوا بعد قليل ، قبل موعد الشاى ، ليذهبوا الى سماع الموسيقى» . كان الحديث يدور على موضوع يبدو أنه طُرح على مائدة البحث قبل وصول الأمير . ولم يلبث أن ظهر كوليا على الشرفة ، لا يدرى أحد من أين انبجس فجأة . قال الأمير يحدث نفسه : «يُستقبل اذن كما كان يُستقبل فى الماضى» .

ان مسكن آل ايبانتشين فيللا فخمة مبنية على طراز

الشاليهات السويسرية ، مزينة فى اناقة من كل الجهات بأزهار وخضرة . كانت تتوسط حوض أزهار ان كان صغير الأبعاد فانه رائع الجمال . وكان الحفل كله مجتمعا على الشرفة ، كما فى بيت الأمير ، لكن الشرفة هنا أفسح قليلا وألطف ترتيبا .

ولم يكن يبدو أن موضوع الحديث يناسب ذوق جميع الحضور . وأغلب الظن أنه بدأ بمناقشة حامية ، وكان الجميع يرغبون حتما أن ينحرفوا الى موضوع آخر لولا أن عناد يفغينى بافلوفتش قد ازداد كما بدا ، دون أن يحفل بالأثر الذى يحدثه فى النفوس . وكأن ظهور الأمير أثاره مزيدا من الاثارة . وقد عبست اليزافيتا بروكوفيفنا وتجهمت سحنتها دون أن تفهم كل ما كان يُقال . ولم تنصرف آجلايا بل ظلت فى مكانها متنحيةً ، فى الركن تقريبا ، تصغى الى الكلام وتلتزم صمتا عنيدا فلا تفتح فمها بكلمة واحدة .

أجاب يفغينى بافلوفتش قائلا بحرارة :

— اسمحوا لى ، أنا لا أعترض على اللبرالية أى اعتراض . ليست اللبرالية شرا . انها جزء ضرورى متمم من مجموع كلى لا بد أن يتحلل أو يتجمد بدونها . ان حق اللبرالية فى الوجود لا يختلف عن حق أى مذهب من المذاهب المتطرفة فى المحافظة . لكننى أحارب اللبرالية الروسية ، وأعود فأكرر لكم أننى اذا كنت أحاربها فلأن اللبرالى الروسى لبرالى ليس **روسيا** . أرونى لبراليا روسيا ، فأقبله أمامكم على الفور .

قالت ألكسندرا ايفانوفنا التى كانت مهتاجة أشد الاهتياج ، وكانت خداها أشد احمرارا منهما فى العادة :

— هذا اذا رضى هو أن يقبلك !

فحدثت اليزافيتا بروكوفيفنا نفسها تقول : «هذه واحدة لا يهزها شئ ولا يحركها شئ ، لا همَّ الا النوم والطعام ، ثم اذا هى تندفع مرةً واحدةً فى العام وتتفوه بكلام يحيرك !» .

ولاحظ الأمير عرضا أن ألكسندرا ايفانوفنا كانت تبدو مستاءةً من أن ترى يفغينى بافلوفتش يتكلم بلهجة تبلغ هذا المبلغ من المرح فى معالجة موضوع جدى ، وكأنما يأخذه الحماس والمزاح فى آن واحد .

تابع يفغينى بافلوفتش كلامه قائلا :

— كنت أقول قبل وصولك يا أمير أننا لم نعرف حتى الآن فى روسيا الا اللبراليين الذين تحدروا من طبقتين احداهما طبقة مالكى الأطيان السابقة (وهذه طبقة أُلغيت) والأخرى طبقة طلاب اللاهوت . واذ أن هاتين الطبقتين قد استحالتا فى النهاية الى فئتين منغلقتين منعزلتين انعزالا تاما عن الأمة ، واذ أن انعزالهما يشتد ويقوى جيلا بعد جيل ، فانه ينتج عن ذلك أن جميع ما فعلوه أو يفعلونه لا يمثل أى طابع قومى . . .

اعترض الأمير «شـ . .» قائلا :

— كيف هذا ؟ هل كل ما فعلوه ليس فيه شئ روسى ؟

— ليس فيه شئ قومى على كل حال . فحتى لو كان عملهم روسيا فانه ليس قوميا . ان اللبراليين عندنا ليس فيهم شئ روسى ، كما أن المحافظين عندنا ليس فيهم شئ روسى أيضا . . . تستطيع أن تكون على يقين من أن الأمة لن تعترف لا الآن ولا فى المستقبل بشئ مما يكون قد فعله مالكو الأطيان وطلاب اللاهوت . . .

قال الأمير «ش. . .» محتجا بحرارة :

— عظيم ! كيف يمكنك أن ترى مثل هذا الرأى المتناقض ، اذا كنت جادا فيما تقول ؟ لا أستطيع أن أسمح بمثل هذا التهجم على مالكى الأطيان الروس . ألست أنت نفسك واحدا من مالكى الأطيان الروس ؟

— ولكننى لا أتكلم عن مالك الأطيان الروسى بالمعنى الذى يبدو أنك تفهمه . هذه طبقة محترمة ، على الأقل لأننى واحد من ابنائها ، ولا سيما الآن ، بعد أن لم يبق لها وجود . . .

قاطعته ألكسندرا ايفانوفنا سائلة :

— هل صحيح أننا ، حتى فى الأدب ، لم يكن لدينا أى شئ قومى ؟

— لست متبحرا فى الأدب ، ولكننى أعتقد أن الأدب الروسى كله ليس فيه شئ روسى ، ربما باستثناء لومونوسوف ، وبوشكين ، وجوجول .

قالت آديلائيدا ضاحكة :

— أولا هذا ليس بقليل . ثم ثانيا اذا كان أحد هؤلاء من أبناء الشعب فان الاثنين الآخرين هما من طبقة مالكى الأطيان .

— صحيح . ومع ذلك لا تتعجلى الفوز والانتصار . لأن هؤلاء الثلاثة هم حتى الآن الوحيدون من جميع الكتاب الروس الذين استطاع كل واحد منهم أن يقول شيئا **خاصا به** بالفعل لم يكن مستعارا بل كان مستمدا من نفسه . فلذلك أصبح هؤلاء الثلاثة أن يمثلوا طابعا قوميا . ان الروسى الذى يقول أو يكتب أو يفعل شيئا **خاصا به** ، شيئا مستمدا من

ذاته فليس هو بالمحاكاة أو الاستعارة ، ان هذا الروسى يصبح قوميا بالضرورة ، حتى ولو كانت لغته الروسية رديئة . تلك عندى من المسلّمات البديهية . على أن ما بدأنا الحديث عنه ليس هو الأدب بل هو الاشتراكيون . فبصدد الاشتراكيين انما انخرطنا فى المناقشة . فأؤكد اذن أنه لم يوجد عندنا ولا يوجد عندنا اشتراكى واحد روسى لان جميع الاشتراكيين عندنا انما انحدروا هم أيضا من طبقة مالكى الأطيان أو من طبقة طلاب اللاهوت . ان جميع اشتراكيينا المعروفين الذين يعلنون عن أنفسهم أنهم اشتراكيون ، سواء فى داخل البلاد أو فى الخارج ، ليسوا الا لبراليين خرجوا من صفوف مالكى الأطيان فى عهد القنانة . لماذا تضحكون ؟ ارونى كتبهم ، ارونى مذاهبهم ومذكراتهم ، فأتعهّد لكم ، دون أن أكون ناقدا محترفا ، بأن أكتب نقدا أدبيا مقنعا مبينا بوضوح كوضوح النهار أن كل صفحة من صفحات كتبهم وكراساتهم ومذكراتهم انما هى قبل كل شئ من صنع مالك سابق من مالكى الأطيان الروس . ان حنقهم ، واستياءهم ، وسخرهم الفكه ، ان ذلك كله تفوح منه رائحة مالك الأطيان (حتى من عهد ما قبل فاموسوف !) . ان حماساتهم ودموعهم قد تكون صادقة ، ولكنها حماسات ودموع رجل من مالكى الأطيان ، أو طلاب اللاهوت . . . أما تزالون تضحكون ؟ أتضحك أنت أيضا يا أمير ؟ ألست توافقنى اذن على رأيى ؟

الحق أن الضحك كان عاما شاملا . وكان الأمير نفسه يبتسم .

قال الأمير وقد انقطع عن الابتسام بغتة ، وانتفض

انتفاضة تلميذ فوجئ مذنبا :

— لا أستطيع بعد أن أقول جازما أأنا أوافقك على رأيك أم لا ، ولكنى أؤكد لك أننى أجد فى الاصغاء الى كلامك لذة قصوى . . .

نطق الأمير بهذه الكلمات وكأنه يختنق اختناقا . حتى لقد تصبب على جبينه عرق بارد . هذه هى الكلمات الاولى التى نطق بها منذ وصوله . وأغراه أن يلقى نظرة حواليه ، لكنه لم يجسر ، ولاحظ يفغينى بافلوفتش حركته فابتسم ، ثم تابع كلامه قائلا بتلك اللهجة نفسها من الاندفاع الشديد المفتعل والحرارة المصطنعة وهو يكاد يضحك فى الوقت نفسه حتى من أقواله :

— سأذكر لكم واقعة أيها السادة ، واقعة أعتقد أن قد كان لى وحدى فضل ملاحظتها وحتى اكتشافها . فما من أحد ، على الاقل ، سبق أن تكلم عليها أو كتب عنها حتى الآن . ان هذه الواقعة تحدد كل ماهية اللبرالية الروسية من ذلك النوع الذى اتحدث عنه . أولا : ما هى اللبرالية على وجه العموم ان لم تكن الهجوم على نظام الأمور القائم ؟ (خطأ أو صوابا ، تلك مسألة أخرى) أليس كذلك ؟ فاليكم الآن الواقعة التى لاحظتها : ان اللبرالية الروسية لا تهاجم نظاما للأمور قائما . ان ما تستهدفه هو جوهر حياتنا ، هو هذه الحياة نفسها ، هو روسيا نفسها لا التنظيم الروسى . ان اللبرالى الذى أحدثكم عنه يمضى الى حد جحود روسيا نفسها ، اى انه يبغض ويضرب أمه التى ولدته . ان كل واقعة روسية عن الشقاء والفشل تحمله على الضحك وتبعث فى نفسه ما يشبه الفرح . انه يكره العادات الشعبية وتاريخ

روسيا ويبغض كل شئ . وعذره الوحيد ، اذا كان له عذر ، هو أنه لا يدرك ما يفعل ، ويظن أن هذا الكره الذى يحمله لروسيا هو اللبرالية الخصبة للغاية . (آه ! ما اكثر اللبراليين الذين نصادفهم فى بلادنا ويصفق لهم الناس ، وهم فى حقيقة أمرهم ربما على غير علم منهم ، أشد المحافظين غباء وأكثرهم عتوا !) لقد كان كره روسيا منذ قليل بمثابة الحب الحقيقى للوطن فى نظر بعض اللبراليين عندنا الذين كانوا يفاخرون بأنهم يدركون حقيقة حب الوطن ادراكا أوضح من ادراك غيرهم له . لكنهم صاروا الآن اكثر صراحة وأخذوا يخجلون حتى من تعبير «حب الوطن» فأستبعدت حتى الفكرة التى تقابل هذا التعبير بوصفها فكرة ضارة تافهة . هذه هى واقعة محققة أؤكدها و . . . ينبغى ان نعزم أمرنا على ذكر الحقيقة بكل بساطة وصدق . وفى نفس الوقت نحن ههنا ازاء ظاهرة لم يسبق لها مثيل فى أى زمان ولا فى أى مكان . ما من قرن من القرون ، وما من شعب من الشعوب ، بدت فيه هذه الظاهرة . وهذا يدل اذن على أنها عارضة وأنها قد تكون زائلة . ذلك أمر لا أنفيه . لا يمكن ان يكون فى أى مكان لبرالى يكره وطنه . فكيف يفسَّر ظهور هذه الحالة فى بلادنا ؟ يفسَّر هذا بما ذكرته من قبل وهو أن اللبرالى الروسى ليس روسيا بعد . اننى لا أرى سببا آخر .

رد الأمير «ش. . .» قائلا برصانة :

— اننى أعد كل ما قلته الآن مزاحا يا يفغينى بافلوفتش . . .

قالت ألكسندرا ايفانوفنا :

— أنا لم أرَ جميع اللبراليين ولذلك لا أستطيع أن

أحكم عليهم ، ولكننى استأت أثناء سماعى كلامك . فانك قد بدأت من حالة خاصة فعممتها فوقعت فى التجنى .

أجاب يفغينى بافلوفتش :

— حالة خاصة ؟ آ . . . قيلت الكلمة . أهى حالة خاصة أم لا ؟ ما رأيك يا أمير ؟

قال الأمير :

— يجب أن أعترف أنا أيضا أننى رأيت قليلا من اللبراليين وأننى لم أعاشرهم . . كثيرا . ولكن يبدو لى أنك قد تكون على صواب الى حد ما ، وأن تلك اللبرالية الروسية التى تحدثت عنها ميَّالة فى الواقع بعض الشئ الى كراهية روسيا نفسها لا النظام السائد فيها . طبعا ، ليس هذا صادقا الا بعض الصدق ، طبعا ، أن هذا الرأى لا يمكن أبدا أن يكون منصفا بالنسبة للجميع . . .

ارتبك الأمير ولم يكمل كلامه . ورغم انفعاله كله فقد أثار الحديث اهتمامه الشديد . ان من سماته المميزة تلك السذاجة العميقة التى كان يصغى بها الى الموضوعات التى تثير انتباهه والتى تُلاحَظ فى أجوبته التى يجيب بها حين يسألونه اثناء ذلك ؛ وهى تظهر فى سحنته وحتى فى وضع جسمه ، وتكشف فى هذه وتلك عن ايمان لا يتوقع السخرية والتهكم . ولقد اعتاد يفغينى بافلوفتش منذ زمن طويل أن لا يخاطبه الا وعلى شفتيه ابتسامة صغيرة خاصة ، أما الآن فانه حين سمع اجابته نظر اليه بكثير من الجد والرصانة كأنه لم يتوقع أبدا هذه الاجابة . ثم قال :

— هكذا ! . . غريب . انك لتدهشنى حقا . هل كنت فى اجابتك جادا يا أمير ؟ حقا ؟

فسأله الأمير مستغربا :

— ألم يكن سؤالك أنت جادا ؟

ضحك الحضور .

قالت آديلائيدا :

— ثق به ! ان يفغينى بافلوفتش يستغفل الجميع على الدوام ! ليتك تعرف عما يتحدث أحيانا متظاهرا بأكبر الجد !

وقالت ألكسندرا بلهجة قاطعة :

— فى رأيى أن هذا الحديث شاق متعب ، وأنه كان من الأفضل أن لا ننخرط فيه . لقد كنا ننتوى القيام بنزهة . . .

فهتف يفغينى بافلوفتس يقول :

— هيّا بنا ! الامسية رائعة ! لكننى أحرص على أن أبرهن لكم أننى ، فى هذه المرة ، قد تكلمت جادا كل الجد . أريد خاصةً أن أبيِّن هذا للأمير . (لقد أثرت اهتمامى اثارة قوية يا أمير ، وانى لأحلف لك أننى أقل خفة مما يبدو علىَّ بلا شك ، رغم أننى انسان خفيف فى حقيقة الامر !) ثم . . . اذا سمحتموا لى أيها السادة سألقى على الأمير سؤالا أخيرا لاشباع حب الاطلاع فى نفسى شخصيا ، وسيختتم الحديث به . ان هذا السؤال قد خطر ببالى ، كما لو عمدا ، منذ ساعتين (هأنت ذا ترى يا أمير أنه يتفق لى أيضا أحيانا أن أفكر فى أمور جدية) . ولقد اهتديت الى حل لذلك السؤال ، لكننى أريد أن أعرف رأى الأمير . لقد ذكرت منذ لحظة عبارة «حالة خاصة» . ان لهذا التعبير معنى خاصا عندنا ، نسمعه كثيرا .

منذ قليل كان الجميع يتحدثون ويكتبون عن حادثة مصرع ستة أشخاص بيد شاب قتلهم جميعا قتلا رهيباء وعن تلك المرافعة الغريبة التى قام بها المحامى ، اذ أعلن أن فكرة قتل هؤلاء الأشخاص الستة كان **طبيعيا** أن تخطر ببال القاتل لأنه كان فى حالة فقر شديد . ليست هذه هى الكلمات التى أستُعملت لكن يبدو ان لها نفس المعنى أو معنى مماثل . وأحسب أن المحامى حين أصدر ذلك الرأى الغريب كان يؤمن تماما بأنه يقول اكثر الأشياء لبرالية وانسانية وتقدمية مما يمكن قوله فى عصرنا . فما رأيكم ؟ هل هذا الفساد فى الأفكار والمعتقدات وهذا الانحراف الرائع للرأى هما حالة خاصة أم ظاهرة عامة ؟

انفجر الجميع يضحكون .

قالت ألكسندرا وآديلائيدا ضاحكتين :

— بل هذه حالة خاصة طبعا .

وقال الأمير «شـ . . .» مضيفا :

— اسمح لى أن أذكّرك يا يفغينى يافلوفتش أن مزاحاتك قد فقدت طرافتها !

لم يسمع يفغينى بافلوفتش هذه الملاحظة ، وكان يحس نظرة الأمير ليف نيقولايفتش الرصينة المتفحصة ، فتابع كلامه سائلا :

— ما رأيك يا أمير ؟ ماذا تعتقد ؟ أهى حالة خاصة أم ظاهرة عامة ؟ اعترف لك بأننى وضعت هذا السؤال لالقائه عليك أنت .

قال الأمير برفق وهدوء ، ولكن بثبات وصلابة :

— لا ، ما هذه حالة خاصة .

صاح الأمير «شـ . . .» قائلا فى شئ من غضب :

— حنانيك يا ليف نيقولايفتش ، ألا ترى أنه ينصب لك فخا ؟ واضح أنه يسخر ، وأنه أراد أن تكون أنت مدار سخريته .

قال الأمير وقد احمر وجهه :

— كنت أظن أن يفغينى بافلوفتش يتكلم جادا .

وخفض عينيه .

واستأنف الأمير «شـ . . .» كلامه فقال :

— يا عزيزى الأمير ، هلاّ تذكرت الحديث الذى جرى مرةً بيننا منذ ثلاثة أشهر تقريبا ! لقد تحدثنا بالذات عن أنه يمكن للمرء أن يعثر فى محاكمنا الفتية حديثة النشوء على محامين ممتازين موهوبين وما أكثر عددهم ! وما أكثر الأحكام الرائعة الى أقصى حد التى صدرت عن المحلفين ! كم كنتَ سعيدا وكم كنتُ سعيدا حينذاك أن أرى سعادتك . . . واتفقنا على أن من حقنا أن نعتز وأن نفخر . . . فما تلك المرافعة الحمقاء وتلك الحجة العجيبة اذن الا حادث عارض بالطبع ، الا حالة من ألف .

فكّر الأمير ليف نيقولايفتش لحظةً ، ثم أجاب بلهجة تدل على أكبر الاقتناع ، ولكن دون أن يرفع نبرته ، حتى لقد كان فى صوته شئ من وجل :

— كل ما أردت أن أقوله هو أن هذا الفساد فى الأفكار والمعتقدات (على حد تعبير يفغينى بافلوفتش) يصادف فى أحيان كثيرة جدا ، فهو — وا أسفاه — أقرب بكثير الى أن يكون ظاهرة عامة منه الى أن يُعدّ حالة خاصة . فلو لا أنه شائع هذا الشيوع كله فلعلنا كنا لا نرى جرائم كهذه

الجرائم التى لا يتصورها الخيال . . .

— جرائم لا يتصورها الخيال ؟ أؤكد لك أن نفس الجرائم كانت فى الماضى ولعلها كانت أقسى وأبشع . هذه الجرائم قد عرفتها جميع الأزمان ، لا فى بلادنا وحدها بل فى كل مكان ، وأعتقد أنها ستظل تُرتكب زمنا طويلا جدا . كل ما هنالك من فرق هو أن العلنية فى الماضى كانت عندنا قليلة فى حين أننا أصبحنا الآن نتحدث عنهم بصوت مسموع وحتى نكتب عنهم ولذلك يبدو أن هؤلاء المجرمين لم يظهروا الا الآن . هذا هو خطؤك يا أمير ، هذا هو خطؤك الساذج البرىء . صدقنى .

بهذا ختم الأمير «ش. . .» كلامه وهو يبتسم ابتسامة ساخرة .

قال الأمير :

— أعرف تماما أن الجرائم كانت فى الماضى لا تقل عددا ولا تقل هولا . لقد زرت سجونا منذ زمن غير طويل ، فأتيح لى أن أعرف عددا من المحكوم عليهم ومن المجرمين . ان بينهم مجرمين أفظع من ذلك الذى جرى عليه حديثنا . ولا يشعر أحدهم بشئ من عذاب الضمير بعد أن يكون قد قتل عشرة أشخاص . ولكن اليك ما لاحظته : ان أعتى أولئك القتلة وأكثرهم خلوا من عذاب الضمير يعرف مع ذلك أنه **مجرم** ، أى انه فى شعوره ووعيه يدرك أنه أذنب وان كان لا يحس بأى ندم . تلك كانت حالة كل واحد منهم . لكن هؤلاء الذين يتكلم عنهم يفغينى بافلوفتش أصبحوا لا يريدون أن يعدوا أنفسهم مجرمين . فهم فى قرارة أنفسهم يعتقدون أنهم على حق بل وأنهم

أحسنوا صنعا ، أو يعتقدون بشئ من هذا القبيل . هذا فى رأيى فارق كبير . ولاحظ أن هؤلاء جميعا شبان ، أى أن سنهم هى السن التى يكون فيها الانسان أعجز ما يكون عن مقاومة تأثير الأفكار المنحرفة .

كان الأمير «ش. . .» قد كف عن الضحك فهو يصغى الى الأمير باستغراب . وكانت ألكسندرا ايفانوفنا تريد منذ مدة طويلة أن تبدى ملاحظة لكنها لزمت الصمت كأن فكرة خاصة صدَّتها عن ذلك . أما يفغينى بافلوفتش فكان ينظر الى الأمير بدهشة واضحة ، وبدون أية سخرية فى هذه المرة .

وتدخلت اليزافيتا بروكوفيفنا فجأة تقول :

— ما بالك ، أيها السيد العزيز ، تحدِّق اليه هذا التحديق ، مشدوه الهيئة ؟ أكنت تظنه أغبى منك ، عاجزا عن التفكير على غرارك ؟

قال يفغينى بافلوفتش :

— كلا ، لم أكن أظن ذلك ، ولكن كيف أمكنك يا أمير (اغفر لى سؤالى) : اذا كنت ترى الأمور وتلاحظها الى هذا الحد فكيف أمكنك (معذرة مرة أخرى) فى تلك القضية الغريبة . . . القضية التى حدثت منذ ايام . . . بشأن . . . بوردوفسكى فيما أظن . . . كيف أمكنك أن لا تلاحظ هذا الفساد نفسه فى الأفكار والأخلاق ؟ لقد كان الأمر أمر هذا الفساد نفسه تماما ! لقد تراءى لى حينذاك أنك لم تدرك هذا البتة .

انبرت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول متحمسةً :

— أيها السيد العزيز ، ها نحن قد أدركنا كل شىء

فنجلس هنا ونتباهى أمام الأمير ، بينما هو الذى تلقى اليوم رسالةً من أحدهم ، من رئيسهم ، من ذلك الذى كان مبثور الوجه ، هل تتذكرينه يا ألكسندرا ؟ وفى هذه الرسالة يستغفر الشابُّ الأميرَ — بطريقته طبعا — ويعلن له أنه قطع صلته بالرفيق الذى حرَّضه فى ذلك اليوم — هل تتذكرين يا ألكسندرا ؟ — وأنه بعد الآن يثق بالأمير أكثر من غيره . أما نحن فلم نتلق مثل هذه الرسالة ، وان كنا نعرف كيف نتعالى عليه .

صاح كوليا قائلا :

— وايبوليت أيضا جاء للتو ليقيم عندنا هنا .

فقال الأمير سائلا بشىء من القلق :

— كيف ؟ أهو هنا الآن ؟

— وصل فور انصرافك مع اليزافيتا بروكوفيفنا . أنا أحضرته بعربة !

فارت اليزافيتا بروكوفيفنا فجأة ، ناسيةً أنها قد مدحت الأمير منذ هنيهة ، وقالت :

— أراهن على أنه قد مضى أمس الى علية المسكن التى يقيم فيها هذا الولد الشرير ، فركع أمامه طالبا غفرانه ، راجيا منه أن يتكرم بالمجئ ليقيم هنا . هل مضيتَ أمس ؟ لقد اعترفت أنت نفسك بذلك منذ قليل . صحيح أم لا ؟ أركعت أمامه أم لا ؟

هتف كوليا يقول :

— انه لم يركع . بالعكس تماما . ايبوليت هو الذى تناول بالأمس يدَ الأمير فقبَّلها مرتين . رأيت المشهد بعينى . بهذا انتهى توضيح الأمور . ثم قال الأمير إن

صحة ايبوليت ستتحسن فى الريف ، فوافق ايبوليت فورا على أن يجئ الى هنا بعد ان تتحسن حالته .

دمدم الأمير وهو ينهض ويتناول قبعته :

— كلامك ليس فى محله يا كوليا . لماذا تقص هذا ؟ اننى . . .

فسألته اليزافيتا بروكوفيفنا وهى تستوقفه :

— الى أين تذهب ؟

واستأنف كوليا كلامه بحرارة :

— لا تقلق يا أمير . لا تذهب اليه فتفسد عليه راحته . لقد نام بعد متاعب الرحلة . وهو مغتبط سعيد . أعتقد يا أمير بأن من الأفضل كثيرا أن لا تلتقيا اليوم . أرجئ لقاءه الى غد حتى لا تحرجه مرةً اخرى . لقد قال فى هذا الصباح انه منذ ستة أشهر لم يشعر بمثل ما يشعر به اليوم من ارتياح وقوة . حتى ان سعاله قلَّ الى الثلث .

لاحظ الأمير أن آجلايا قد غيَّرت مكانها فجأة لتقترب من المائدة . كان لا يجرؤ أن ينظر اليها ، لكنه كان بكل كيانه يشعر أنها تنظر اليه فى تلك اللحظة وربما كانت نظرتها تعبر عن تهديد ولا شك أن عينيها السوداوين كانتا تعبران عن الغضب وأن وجهها قد تخضب بحمرة شديدة .

قال يفغينى بافلوفتش :

— يخيَّل الىَّ يا نيقولاى آردالیونوفتش انك قد أخطأت اذ جئت به الى هنا ، اذا كان هو ذلك الفتى المصدور الذى انفجر فى ذلك اليوم باكيا بدموع غريزة ، ودعا الحضور الى الاحتفال بدفنه . لقد تكلم عن جدار البيت المجاور ببلاغة تبلغ من القوة أنه لا بد من أن يحزن

على فراق ذلك الجدار . صدِّقنى .

— لا أصدق شيئا من هذا الكلام . لسوف يشاجرك ولسوف يضاربك ، ثم ينصرف . هذا أكيد .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا ذلك ، ثم شدت اليها سلَّة حياكتها باباء ، ناسيةً أن الجميع كانوا قد نهضوا عن أماكنهم قاصدين القيام بنزهة .

واستأنف يفغينى بافلوفتش كلامه مرة أخرى فقال :

— اننى أتذكر حماسته فى الكلام على ذلك الجدار . بدون ذلك الجدار لن يستطيع أن يموت ميتة فيها بلاغة . وهو يحرص على أن يموت ميتة فيها بلاغة .

دمدم الأمير قائلا :

— وماذا بعد ذلك ؟ اذا لم تشأ أن تغفر له فسوف يموت على كل حال بدون غفرانك . . . انه من أجل الأشجار انما جاء يقيم هنا .

— آه ! أنا من جهتى أغفر له كل شئ . تستطيع أن تبلغه هذا .

قال الأمير بهدوء وكأنه يتكلم على مضض ، وما زالت عيناه مطرقتين الى نقطة ثابتة فى الارض :

— ما هكذا يجب أن يُفهم الأمر . يجب أن توافق أنت على قبول غفرانه لك .

— وما شأنى أنا ؟ أى ذنب جنيت فى حقه ؟

— اذا كنت لا تفهم ، فـ . . ولكنك تفهم حق الفهم . لقد كانت رغبته حينذاك . . . هى أن يباركك جميعا وأن يتلقى مباركتكم له . ذلك هو الأمر كله .

تبادل الأمير «شـ . .» نظرة سريعة مع بعض الحضور .

ثم أسرع يقول بشئ من القلق :

— يا عزيزى الأمير ، ليست اقامة الجنة على الأرض بالأمر السهل كثيرا وما تسعى اليه أنت انما هو الجنة . الأمر صعب يا أمير ، أصعب كثيرا مما يصوِّر لك قلبك الطيب . من الأفضل أن ننهى الحديث . والا وقعنا فى الحرج من جديد ، وعندئذ . . .

قالت أليزافيتا بروكوفيفنا بلهجة حادة :

— هيا نمض الى سماع الموسيقى .

ثم نهضت عن مكانها بحركة فيها غضب .

وحاكاها الجميع .

الفصل الثانى

اقترب الأمير من يفغينى بافلوفتش فجأة وأمسك يده ، وقال له بلهجة فيها حمّيا غريبة :

— يفغينى بافلوفتش ، ثق أننى أقدرك وأعتبرك خير الناس وأكثرهم نبلا رغم كل شئ . ثق بهذا . . .

وبلغ يفغينى بافلوفتش من الدهشة أنه تراجع خطوة الى وراء . وخلال لحظة من الوقت ، كظم رغبة عنيفة قوية فى الضحك . لكنه حين أنعم النظر فى الأمير تبيّن له وكأن الأمير ليس فى حالة طبيعية أو هو على الأقل فى حالة غير مألوفة . وهتف يقول :

— أراهن يا أمير أن هذا ليس ما كنت تنوى أن تقوله ، بل ربما كنت تريد ان توجه هذه الكلمات الى غيرى لا الىّ أنا ! . . . ولكن ماذا بك ؟ أتراك مريضا ؟

— جائز ، جائز جدا . لقد كانت ملاحظتك فى غاية الدقة اذ قلت أننى ربما كنت أريد أن اتوجه الى غيرك لا اليك أنت !

قال الأمير ذلك وابتسم ابتسامة غريبة بل حتى مضحكة . ثم بدت عليه الحماسة والحرارة فقال فجأة صائحا :

— لا تذكرنى بسلوكى الذى سلكته قبل ثلاثة أيام . . انى ما برحت أشعر بالخجل الشديد منذ ذلك الوقت . . . أنا أعلم أننى مذنب .

— ولكن . . . ما هو الشئ الرهيب الذى فعلته ؟

— أرى أنك ربما كنت تشعر بالخجل لى أكثر من الآخرين جميعا يا يفغينى بافلوفتش . ان وجهك يحمر ،

وهذه علامة القلب الطيب . سأنصرف فورا . ثق بهذا .

اتجهت اليزافيتا بروكوفيفنا بالكلام الى كوليا فسألته مروّعة الهيئة :

— ماذا دهاه ؟ هل نوباته تبدأ هكذا ؟

— لا تكترثى يا اليزافيتا بروكوفيفنا . ليست لى نوبة ، وسأنصرف فورا . أنا أعلم أننى . . . انسان حرمته الطبيعة . لقد لبثت مريضا طوال أربع وعشرين سنة ، أو قولوا الى السنة الرابعة والعشرين من عمرى . فاحسبوا اننى ما ازال مريضا . سأنصرف فورا ، فورا ، ثقوا بهذا . ليس يحمر وجهى خجلا ، — فانه ليكون شيئا غريبا أن يحمر وجهى خجلا من هذا ، أليس كذلك ؟ — لكن وجودى فى المجتمع زيادة . . . أقول هذا ليس بدافع الغرور . . . لقد فكرت ملياً خلال هذه الأيام الثلاثة فانتهيت الى أن من واجبى أن أنبئكم بذلك صادقا عند أول مناسبة . ثمة أفكار معينة ، أفكار رفيعة لا ينبغى أن أتناولها لأننى سأضحك جميع الناس من كل بد . . . لقد ذكّرنى الأمير «ش . . .» بهذا منذ قليل . . . ما من حركة من حركاتى تتميز بالتهذيب . اننى لا أعرف الحدود . لغتى لا تناسب المعانى التى فى ذهنى ، فهى لذلك تغض من قيمتها وتفسدها . لذلك لا يحق لى أن . . . ثم اننى شديد الاشتباه والارتياب . . . صحيح أننى . . . أننى مقتنع بان أحدا لا يمكن أن يهيننى فى هذا المنزل ، وأننى محبوب فيه أكثر مما أستحق . ولكنى أعلم (علما لا مجال للشك فيه) أن عشرين عاما من المرض لا بد أن تخلّف شيئا من الآثار ، وأن من المستحيل أن لا يسخر الناس منى . . . من حين الى حين . . . أليس كذلك ؟

وتلفت فيما حوله كأنه ينتظر جوابا أو قرارا . كان الجميع يقفون فى شدة الحيرة من هذه الاندفاعة المرضية التى لم يتوقعها أحد ، والتى لم يكن ثمة ما يدعو اليها على كل حال كما بدا ولكن هذه الاندفاعة كانت سببا لوقوع حادث غريب هو أن آجلايا صاحت فجأة :

— لماذا تقول هذا هنا ؟ لماذا تقول هذا لهم هم ؟ لهم هم !

كانت تبدو فى ذروة الاستياء . وكانت عيناها تسطعان . لبث الأمير أمامها صامتا كالأخرس ، واجتاح وجهه شحوب مفاجئ . وانفجرت آجلايا تقول :

— ليس هنا شخص واحد يستحق أن يسمع هذه الكلمات ! انهم جميعا لا يساوون خنصر يدك ، لا فكرا ولا قلبا ! أنت أشرف وأحسن منهم . أنت تفوقهم نبلا وطيبا وذكاء ! هنا أناس لا يستحقون أن يشيلوا المنديل الذى سقط من يديك الآن على الأرض . . . فلماذا تُذل كبرياءك وتجعلها أدنى منهم ؟ لماذا قلبت كل شىء فى نفسك رأسا على عقب ؟ لماذا لا تكون لك عزة وأنفة ؟

فقالت اليزافيتا بروكوفيفنا وهى ترفع يديها :

— رباه ! من كان يمكن أن يصدق هذا ؟

وصاح كوليا يقول متحمسا :

— مرحى ! الفارس الفقير ! . .

فانقضت آجلايا فجأة على اليزافيتا بروكوفيفنا وقد استبد بها انفجار من انفجارات الهستيريا التى لا تعرف حدودا ولا عقبات ، قائلة :

— اسكت ! كيف يجرؤ أحد أن يهينني هنا فى دارك ؟ لماذا يعذبونني جميعا من أولهم الى آخرهم ؟ لماذا يرهقونني منذ ثلاثة أيام بسببك يا أمير ؟ لن أتزوجك فى يوم من الأيام بحال من الأحوال ! اعلمْ اننى لن أفعل هذا فى يوم من الأيام بحال من الاحوال ! ضعْ هذا فى رأسك ! هل يمكن أن أتزوج انسانا مضحكا مثلك ! أنظر الى نفسك فى المرآة لترى مظهرك فى هذه اللحظة ! لماذا يناكدوننى زاعمين أننى سأتزوجك ؟ يجب عليك أن تعرف هذا ! لا شك أنك متواطئ معهم !

تمتمت آديلائيدا تقول مذعورة :

— لم يناكدها أحد فى وقت من الأوقات !

وهتفت ألكسندرا ايفانوفنا تضيف قائلة :

— لم يخطر ببال أحد أن يناكدها ولم يقل أحد كلمة واحدة عن هذا !

وقالت اليزافيتا بروكوفيفنا تسأل جميع الحضور وهى ترتعش غضبا :

— من ناكدها ؟ متى ناكدها أحد ؟ من ذا تجرأ أن يقول لها هذا ؟ أهى تهذى أم لا ؟

فصاحت آجلايا :

— هم جميعا من أولهم الى آخرهم قالوا هذا خلال هذه الأيام الثلاثة ! لن أتزوجه فى يوم من الأيام !

ثم انفجرت تبكى بدموع غزيرة ، وأخفت وجهها بمنديلها وتهالكت على كرسى .

— ولكنه حتى الآن لم يخطب . . .

فقال الأمير فجأة كمن يتكلم بغير ارادة :

— أنا لم أخطبك يا آجلايا ايفانوفنا .

فقالت اليزافيتا بروكوفيفنا فجأة بنبرة ممطوطة الكلمات تمتزج فيها الدهشة بالاستياء والهلع :

— ماذا — ا ؟ ما معنى هذ — ذ — ا — ا ؟

كانت لا تستطيع أن تصدق أذنيها ، فأخذ الأمير يقول مذعورا :

— قصدت . . . أردت أن أقول . . . أردت أن أشرح لآجلايا ايفانوفنا . . بل أردت أن أتشرف بأن أشرح لها أننى لم أنتو قط . . . أن أتشرف بخطبتها . . . وحتى فى يوم من الأيام . . . ليس لى فى هذا الأمر أى ذنب يا آجلايا ايفانوفنا ، الله يشهد أننى ليس لى أى ذنب ! أنا لم أنتو أن أخطبك فى يوم من الأيام ، حتى أن هذه الفكرة لم تخطر على بالى قط ، ولن تخطر على بالى أبدا ؛ لسوف ترين هذا ! ثقى بهذا ! لا بد أن شخصا شريرا وشى بى اليك متجنيا . فاطمئنى !

كان وهو يتكلم قد اقترب من آجلايا . فأزاحت المنديل الذى كان يغطى وجهها وألقت على الأمير نظرة سريعة . فرأت هيئته المروَّعة ، فأدركت معنى أقواله ، فانفجرت فجأة ضاحكة مقهقهة أمام وجهه . وقد بلغت ضحكتها التى لا تقاوم من قوة الفرح والاثارة للضحك وشدة السخرية أن آديلائيدا كانت اول من لا يتمالك نفسها وخاصة بعد أن نظرت الى الأمير أيضا فهرعت الى أختها واحتضنتها وانطلقت تضحك معها ذلك الضحك نفسه ، ذلك الضحك المرح الطفولى الذى لا يغالب . فلما رآهما الأمير على هذه الحال أخذ يبتسم فجأة هو نفسه ، وراح يقول معبرا عن الفرح والسعادة :

— آه . . . الحمد لله . . . الحمد لله ! . .

ولم تستطع ألكسندرا نفسها عندئذ أن تقاوم ، فأخذت تضحك هى أيضا من أعماق قلبها . وطال ضحك الأخوات الثلاث حتى لكأنه لا يريد أن ينتهى .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا مدمدمة :

— انهن لمجنونات ، فتارةً يروِّعنك ، وتارةً . . .

ولكن عدوى الضحك كانت قد سرت الى الأمير «ش. . .» ، والى يفغينى بافلوفتش ، والى كوليا الذى أصبح يضحك دون توقف . فأخذ الأمير يضحك أيضا مقتديا بهم .

هتفت آديلائيدا تقول :

— هلموا نتنزه ! هلموا ! ليأت الجميع ، ولينضم الينا الأمير من كل بد ! ليس هناك أى سبب يدعو الى انسحابك أيها الرجل اللطيف ! ما ألطفه يا آجلايا ! أليس هذا صحيحا يا ماما العزيزة ؟ وفوق ذلك ، يجب علىَّ حتما أن أقبِّله وأعانقه تقديرا . . . تقديرا للتوضيح الذى قدَّمه بين يدى آجلايا . maman عزيزتى ماما ، هل تأذنين لى أن أقبِّله ؟ وأنت يا آجلايا ، اسمحى لى أن أقبل أميرك !

بهذا هتفت اللعوب فاندفعت بالفعل الى الأمير وقبلته على جبينه . فتناول الأمير يديها ، وشدَّ عليها شدا بلغ من القوة أن آديلائيدا كادت تصرخ ، ونظر اليها بفرح لا نهاية له ، ثم حمل بسرعة يد الفتاة الى شفتيه فجأة فقبَّلها ثلاث مرات .

قالت آجلايا :

— هلموا ، فلنمش ! يا أمير ، ستكون أنت مرافقى . هل تأذنين يا maman ؟ للخطيب الذى رفض خطبتى منذ هنيهة ؟

ألم تعدل عنى الى الأبد يا أمير ؟ ولكن ما هكذا يمد رجل ذراعه الى سيدة لتتناولها ؟ ألا تعرف كيف تتأبط ذراع سيدة ؟ هكذا حسن ، هلمَّ نسر ، ولنكن فى المقدمة . هل تقبل أن نسير فى طليعة السائرين ، وأن نكون[1] tête-à-tête ؟

كانت تتكلم دون توقف وما تبرح تضحك فجأة من حين الى حين .

وكانت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول مردِّدة ، دون أن تعرف على وجه الدقة ما الذى كان يبهجها وممَّ كانت تغتبط :

— الحمد للّه ! الحمد للّه !

وحدث الأمير «شـ. . .» نفسه قائلا : «انهم لأناس غرباء للغاية !» . لقد قال هذه العبارة ربما للمرة المائة منذ أن أصبح يختلف اليهم ، ولكنه . . . كان يعجبه هؤلاء الناس الغرباء . أما الأمير فلعله كان لا يعجبه الى هذا الحد . وحين خرجوا للنزهة اربد وجه الأمير «شـ. . .» واكتست هيئته ما يشبه أن يكون همًا .

ان يفغينى بافلوفتش هو الذى كان يبدو أكثرهم ارتياحا . ولقد ظل طوال الطريق الى المحطة يسلى ألكسندرا وآديلائيدا . فكانت هاتان تضحكان لمزاحه ضحكا فيه اسراف فى المسايرة حتى أنه أخذ يشتبه عرضا فى أنهما ربما كانتا لا تصغيان الى كلامه ، فجعلته هذه الفكرة ، دون أن يفسِّر السبب ، ينفجر ضاحكا أخيرا ضحكا فيه من الصراحة مثل ما فيه من الانطلاق الذى لا تكلف فيه ولا اصطناع (ذلك كان طبعه !) . كانت الاختان مشرقتى المزاج ،

---

[1] وحيدين (بالفرنسية فى الأصل) .

لا تبرحان تنظران الى آجلايا التى كانت تسير مع الأمير فى طليعة السائرين . كان واضحا أن وضع اختهما الصغرى يبدو لهما لغزا لا تفهمانه . وكان الأمير «شـ. . .» ما ينفك يجهد فى التحدث الى أليزافيتا بروكوفيفنا عن أمور غريبة ، فلعله كان يريد أن يصرفها عن أفكارها وخواطرها ، لكنه لم يستطع الا أن يبث فى نفسها ضجرا رهيبا . كان يبدو أن خواطرها مختلطة تماما . فهى تجيب فى كلامها خبط عشواء ، أو هى لا تجيب البتة . على أن آجلايا ايفانوفنا لم تكن قد فرغت من طرح الألغاز فى ذلك المساء . وقد احتفظت للأمير وحده بآخرها . فحين أصبحا على مسافة مائة خطوة من المنزل أسرعت آجلايا تهمس فى أذن مرافقها الذى ما برح صامتا صمتا عنيدا :

— انظر يمنةً .

فأطاعها الأمير ونظر يمنة .

— انظر بمزيد من الانتباه ، هل ترى دكةً ، فى الحديقة ، هناك ، قرب تلك الشجرات الكبيرة الثلاث . . . دكةً خضراء ؟

فأجاب الأمير بأنه يرى الدكة . فسألته :

— هل يعجبك ذلك المكان ؟ اننى فى بعض الأحيان أجئ مبكرةً ، فى نحو الساعة السابعة ، حين يكون الجميع ما يزالون نائمين ، فأجلس هنالك وحيدة .

تمتم الأمير أن المكان رائع .

قالت له :

— والآن ابتعد . لا أريد الآن أن أسير متأبطة ذراعك ؛ بل من الأفضل ان تتأبط ذراعى ولكن لا تقل لى الآن

كلمة واحدة . أريد أن أخلو الى أفكارى . . .

الحق أن هذا الطلب كان نافلا . فان الأمير ما كان له أن ينطق بكلمة واحدة أثناء النزهة ولو لم تأمره هى بالصمت . خفق قلبه خفقانا شديدا عنيفا حين سمع كلامها المتعلق بالدكة . ولكنه عاد الى رشده بعد دقيقة ، وخجل من نفسه طاردا الفكرة السخيفة التى خطرت بباله .

من المعروف ، وكما يؤكد جميع الناس ، على الاقل ، أن الجمهور الذى يرتاد محطة بافلوفسك هو فى غير أيام الأحد «أرقى» منه فى أيام الأحد أو فى الأيام الأعياد ، أى الأيام التى يتوافد فيها اليها من بطرسبرج «أنواع شتى» من الناس . ولئن لم تكن الثياب هى ثياب يوم الأحد ، فانها انيقة . ومن العادات أن يأتى الناس ليسمعوا الموسيقى . ولعل الأوركسترا هنا أن يكون أحسن من جميع الأوركسترات فى الحدائق العامة عندنا ، ويعزف طرائف جديدة . وتسيطر هنا أعلى آداب اللياقة وأقصى درجات التمسك بالأصول رغم أن الجو العام يبدو عائليا بعض الشئ وحتى حميما . ولأن المجتمعين هم جميعا من المصطافين ، فانهم يجيئون الى هذا المكان ليتأمل بعضهم بعضا . ان أناسا كثيرين يجدون فى هذا متعةً كبرى ولا يدفعهم الى المجئ الا هذا الباعث وحده ، غير أن هناك أناسا آخرين انما يجيئون من أجل الموسيقى وفى سبيلها . والفضائح نادرة هنا أشد الندرة ، ولكن لا يخلو أن تقع حتى فى غير أيام الأحد . ذلك أمر لا يمكن تحاشيه .

كان المساء فى ذلك اليوم رائعا ، وكان الجمهور كبيرا . ان جميع الأماكن المجاورة للأوركسترا العازفة مشغولة ،

فجلس أفراد جماعتنا على كراسى بعيدة بعض البعد ، قرب باب الخروج الأيسر من المحطة . ان جمهرة الناس وألحان الموسيقى قد سَرّت عن اليزافيتا بروكوفيفنا قليلا ، وروَّحت عن بناتها وسلّتهن . وقد تبادلت البنات بعض النظرات مع عدد من معارفهن ، وهززن رؤوسهن بتحيات صغيرة لطيفة أرسلنها الى آخرين . وقد اتسع وقتهن كذلك لأن يدققن النظر فى ثياب الحضور وأن يلاحظن بعض أنواع الاغراب فيها فعلقن عليها بابتسامات ساخرة . وقد أغدق يفغينى بافلوفتش تحيات كثيرة هو أيضا . وقد اهتم بعضهم بآجلايا والأمير اللذين كانا ما يزالان معا . وسرعان ما أقترب من الأم والبنات شباب من معارفهن . وبقى منهم اثنان أو ثلاثة يثرثرون . انهم جميعا أصدقاء يفغينى بافلوفتش . أحدهم ضابط شاب هو فتى وسيم جميل فرح جدا وثرثار جدا ، سرعان ما عقد حديثا بينه وبين آجلايا ، وبذل كل جهوده ليأسر انتباه الفتاة التى أظهرت له كثيرا من اللطف والمرح . وقد طلب يفغينى بافلوفتش من الأمير أن يأذن له بتعريفه بهذا الصديق ، فلم يدرك الأمير ما طُلب منه الا بصعوبة ، ولكن التعارف تم ، فحيا الرجلان كل منهما الآخر وتصافحا . وألقى صديق يفغينى بافلوفتش على الأمير سؤالا لم يجب عنه الأمير ، أو قل أنه أجاب عنه بجمجمة بلغت من الغرابة أن الضابط حدّق فيه ثم نظر الى يفغينى بافلوفتش . وأدرك فورا لماذا خطر ببال صاحبه أن يعرّفه بالأمير فابتسم ابتسامة خفيفة والتفت نحو آجلايا من جديد . فكان يفغينى بافلوفتش الشخص الوحيد الذى لاحظ عندئذ أن آجلايا احمرت فى تلك اللحظة فجأة .

أما الأمير فانه لم يلاحظ حتى وجود آخرين يحدثون آجلايا ويلاطفونها . أكثر من ذلك أن هناك لحظات كان يبدو عليه أثناءها أنه ناسٍ أنه جالس الى جانب آجلايا . وفى بعض الأحيان كانت تستولى عليه رغبة فى أن ينصرف ذاهبا الى أى مكان ، وأن يختفى اختفاء كاملا . حتى أنه كان يتمنى أن يلجأ الى ملاذ مظلم مقفر يخلو فيه الى أفكاره ولا يستطيع أحد أن يهتدى اليه . أو كان على الأقل يتمنى أن يكون فى داره ، على الشرفة ، شريطة أن لا يكون الى جانبه أحد ، لا ليبيديف ولا أولاده فيرتمى على الديوان دافنا رأسه فى الوسادة ليبقى على تلك الحال يوما فليلةً فيوما آخر . وكان فى لحظات أخرى يحلم بالجبال ، ولا سيما بموقع هناك كان يحب كثيرا أن يستحضر ذكراه ، وهو المكان الذى كان يحب أن يزوره حين كان يعيش هناك وينظر منه الى القرية فى الأسفل ، والى شريط الشلال الأبيض الذى لا يكاد يُلاحظ فى الأسفل ، والى السحب البيضاء ، والى قصر قديم مهجور . آه ! لشد ما يتمنى أن يجد نفسه الآن هناك ، وأن يكون رأسه خاليا الا من فكرة واحدة — آه ! فكرة واحدة فقط طوال حياته — ولو دامت حياته ألف سنة ! وليُنس هنا نسيانا تاما . آه ! بل ان هذا لضرورى . ولعله كان من الأفضل أن لا يُعرف هنا قط ، وأن لا تكون هذه الصورة الا حلما . وعموما ، فسيان عنده أكان ذلك حلما أم واقعا ! فى بعض الأحيان كان الأمير يحدِّق فى آجلايا على حين فجأة ، ويلبث خمس دقائق لا يحوِّل بصره عن وجهها ، لكن نظرته كانت غريبة للغاية : فكأنه كان يحدّق الى شئ يقع منه

على مسافة فرسخين ، أو كأنه كان ينظر الى صورتها لا اليها نفسها .

قالت آجلايا تسأله فجأة وقد توقفت عن الكلام المرح والضحك مع من حولها :

— ما بالك تتفرس فىَّ هكذا يا أمير ؟ أنا خائفة منك . يتراءى لى أنك تريد أن تمد يدك لتلمس وجهى وتحسه . ما رأيك يا يفغينى بافلوفتش ؟ أليست نظرته كذلك ؟

أصغى الأمير الى كلماتها ، وكأنما أدهشه أن يراها تخاطبه هو . بدا عليه أنه أدرك معنى أقوالها ، ولو ادراكا ناقصا فى أغلب الظن . ولم يجب بحرف واحد ، لكنه اذ لاحظ أن آجلايا تضحك وأن الجميع يضحكون معها ، انفرج فمه فجأة وأخذ يفعل مثلهم . وتضاعف الضحك من حوله حينذاك . أما الضابط الذى كان بطبعه شديد المرح فيما يبدو فقد أخذ يقهقه قهقهة شديدة . وهمست آجلايا تقول لنفسها وقد استبد بها غضب شديد مفاجئ :

— أبله !

فدمدمت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول حانقةً :

— رباه ! أمعقول انها . . . أتراها فقدت عقلها تماما ؟

فقالت ألكسندرا تهمس فى أذن أمها واثقة :

— هذه مزحة . هذا تكرار لمزحتها فى ذلك اليوم مع «الفارس الفقير» ، لا أكثر من ذلك ! لقد عادت تناكده بطريقتها . ولكن هذه المزحة تفوق وتتجاوز حدود القصد . فيجب أن نضع لها نهاية يا maman ! منذ قليل كانت تلعب كممثلة ، فأخافتنا بلعبتها .

همست اليزافيتا بروكوفيفنا لها وقد خففت عنها ملاحظة ابنتها :

— من حسن الحظ أن من تعامله هذه المعاملة أبله كهذا الأبله .

وكان الأمير قد سمع أنه يوصف بأنه أبله ، فارتعش ، لكنه لم يرتعش بسبب هذا النعت الذى سرعان ما نسيه فورا . وانما لأنه لمح بين الجمهور ، غيرَ بعيد من المكان الذى كان جالسا فيه ، لمح من جانب — وهو لا يستطيع أبدا أن يحدد على وجه الدقة لا الموضع ولا النقطة ، — لمح وجها شاحبا ، له شعر أدكن مجعد ، وله ابتسامة ونظرة يعرفها حق المعرفة . ان هذا الوجه لم يزد على أن ظهر ظهورا خاطفا . من الممكن جدا أن هذه الرؤية كانت ثمرة خياله فقط . لم يبق من هذه الرؤية فى ذاكرته الا ابتسامة مصغَّرة ، وعينان ، ورباط عنق أخضر فاتح متأنق لدى الشخص الذى ظهر ذلك الظهور الخاطف . ترُى هل اندس الشخص فى الجمهور فغاب فيه أم هو تسلل فى المحطة ، ذلك ما لا يستطيع الأمير أيضا أن يحدده .

لكنه أخذ يتلفت فيما حوله ، قلقا مهموما مغموما ، بعد لحظة ، على حين فجأة . ان هذه الرؤية الاولى يمكن أن تنذر وأن تنبئ بظهور رؤية أخرى . بل ان هذا لأكيد لا شك فيه . كيف نسى امكان حدوث مثل هذا اللقاء حين ساروا متجهين الى المحطة ؟ صحيح أنه ربما لم يدرك عندئذ الى أين كان ذاهبا ، وذلك بسبب ما كان عليه من حالة نفسية خاصة . ولو استطاع أن يكون أكثر انتباها للاحظ منذ ربع ساعة أن آجلايا كانت تتلفت بسرعة

من حين الى حين كما لو أنها قلقة أيضا وكأنها تبحث أيضا عن شئ ما حولها . أما الآن وقد أصبح قلقه باديا للغاية فان انفعال آجلايا واضطرابها قد اشتدا وتفاقما ، فكلما نظر هو الى وراء أسرعت تقوم هى بهذه الحركة نفسها . وما لبثت هذه المخاوف أن وجدت ما يبررها .

فهذه عصبة يبلغ عدد أفرادها عشرة أشخاص على الأقل ظهرت فجأة من باب الخروج الجانبى من المحطة الذى كان الأمير وجماعة ايبانتشين قد اتخذوا أماكنهم على مقربة منه ؛ وفى مقدمة هذه العصبة تسير ثلاث نساء كانت اثنتان منهن جميلتين جمالا ساحرا لا يستغرب المرء أن يجرَّ وراءه هذا العدد الكبير كله من العُبَّاد . ولكن هؤلاء العبَّاد ، وشأنهم فى ذلك شأن اولئك النساء أنفسهن ، كانت لهم هيئة خاصة تميزهم تمييزا عن الجمهور المتجمع حول الموسيقى . وقد لاحظهم جميع الحضور تقريبا منذ دخلوا ، ولكن أكثر الناس تظاهروا بأنهم لم يروهم إطلاقا ، الا عددا من الشباب ابتسموا وتبادلوا بعض الملاحظات بصوت خافت . وكان من المستحيل على كل حال أن لا يرى المرء هؤلاء القادمين ، فمن الواضح أنهم دخلوا يعرضون أنفسهم ويضحكون ويتكلمون فى صخب . من الجائز أن يكون بينهم أفراد كثيرون سكارى ، رغم أن بعضهم كانوا يرتدون ثيابا فيها كثير من الاناقة والذوق . ولكنه كان بينهم كذلك أفراد يتميزون بغرابة هيئتهم وثيابهم معا ، كما أن وجوههم تبدو ملتهبة التهابا غريبا . وكان بين أفراد هذه العصبة بضعة عسكريين ، بل كان بينهم أيضا أناس متقدمون فى السن . كان بعضهم يرتدى ملابس متأنقة فضفاضة على آخر زى ، ويضعون

فى أصابعهم خواتم ، ويزينون عرى أكمامهم بأزرار فخمة ؛ ولهم سوالف وعلى رؤوسهم شعر مستعار ممتاز فاحم السواد . وعلى وجوههم تعبير عن النبالة الخاصة يخالطه بعض الاشمئزاز. ولكن المجتمع الراقى يفر منهم فراره من الطاعون . طبيعى أن بين مراكز التجمع فى المصايف عندنا توجد أماكن تتميز بحرص شديد على النظام الرزين ، وتتمتع بشهرة طيبة وسمعة عطرة . ولكن أشد الناس حذرا لا يضمن أن لا تسقط على رأسه فى أى لحظة من لحظات حياته قرميدة من سطح المنزل المجاور . ان هذه القرميدة هى التى كانت على وشك أن تقع على رأس الجمهور الوقور المتجمع حول الموسيقى .

للانتقال من المحطة الى الفسحة التى يستقر فيها الأوركسترا ، يجب هبوط درجات ثلاث . وقد وقفت العصبة أمام هذه الدرجات غير متجرأة على أن تهبط . غير أن احدى السيدات تقدمت ، فلم يجسر أن يتبعها من صحبها الا رجلان . فأما أحدهما فهو رجل متوسط العمر متواضع الهيئة حسن المظهر من جميع النواحى ، ولكن مظهره يدل بوضوح على أنه من الناس الذين ليس لهم جذور ، فلا يعرفون أحدا ولا يعرفهم أحد . وأما الآخر فهو رجل سيئ الهندام مشبوه الهيئة . ولم يصحب السيدة الغريبة الأطوار أحد غير هذين الرجلين . ثم ان السيدة ، حين هبطت الدرجات الثلاث ، لم تشأ حتى أن تلتفت الى وراء ، كما لو أنها لا تبالى أبدا أن يتبعها أو لا يتبعها أحد . وما برحت تضحك وتتكلم بصوت عال . ان ثيابها الفاخرة التى تتميز باناقة قصوى كانت مسرفة بعض الشئ . ومرّت أمام الأوركسترا لتنتقل الى الجهة الأخرى من الفسحة

حيث توجد مركبة ترابط عند حافة الطريق تنتظر أحدا .

لم يرها الأمير منذ أكثر من ثلاثة أشهر . انه منذ أن عاد الى بطرسبرج لم ينقض عليه يوم واحد الا انتوى أن يزورها . لكن لعل توجسا خفيا كان يصده عن ذلك . وهو لم يستطع ، على الأقل ، أن يتنبأ بالشعور الذى يمكن أن يحسه اذا هو لقيها ، رغم أنه حاول ، متخوفا ، أن يتصور أحيانا بخياله ذلك الشعور . ان الشىء الوحيد الذى كان يبدو له واضحا هو أن اللقاء سيكون شاقا . لقد استحضر عدة مرات خلال هذه الأشهر الستة الاحساس الأول الذى أيقظه فى نفسه وجه هذه المرأة . وحتى حين لم يكن تحت بصره الا صورة ذلك الوجه ، كان احساسه هذا احساسا ممضا جدا . انه يتذكر هذا . وان الشهر الذى قضاه بالبلدة الاقليمية وكان يلقاها أثناءه كل يوم تقريبا ، قد أحدث فى نفسه أثرا فظيعا جعله يطرد من ذهنه فى بعض الأحيان حتى ذكرى ذلك الماضى القريب . لقد كان فى وجه تلك المرأة دائما شئ يعذب نفسه عذابا مبرحا . انه فى حديث جرى بينه وبين روغوجين قد وصف شعوره هذا بأنه شعور شفقة لا نهاية لها . وهذه هى الحقيقة : ان هذا الوجه حتى على الصورة يوقظ فى نفسه جميع آلام الشفقة . ان شعور الشفقة هذا الذى بلغ حد العذاب بسبب هذه الكائنة لم يبارحه فى يوم من الأيام ، وما يزال مستبدا به الى الآن . آه . كلا . بل انه اشتد مزيدا من الاشتداد . ومع ذلك كان التفسير الذى قدّمه لروغوجين لا يرضيه . فالآن فقط يكشف له ظهورها المباغت ، ربما بحدس مباشر ، عن نقص ذلك التفسير ، وهو نقص لا يمكن أن

تملأه الا كلمات يمكن أن تعبِّر عن ذعره ، نعم عن ذعره ! والآن فى هذه اللحظة كان يحس به احساسا كاملا . لقد كانت هنالك أسباب خاصة تدعوه الى الاقتناع الكامل المطلق بأن هذه المرأة مجنونة . ان الشعور الذى نشب الآن فى نفس الأمير كان يشبه على وجه التقريب شعور رجل يحب امرأة أكثر مما يحب أى شئ فى هذا العالم ، أو يحدس أنه سيحبها هذا الحب ، ثم اذا هو يرى هذه المرأة على حين فجأة مكبلةً بالسلاسل وراء قضبان حديدية يشهر عليها الحارس عصاه .

همست آجلايا تسأله بسرعة وهى تلتفت اليه وتشده من يده بسذاجة :

— ماذا بك ؟

فأدار رأسه اليها وتفرس فيها ورأى فى عينيها السوداوين التماع شعلة لم يفهمها حينذاك . وجهد أن يبتسم لها ، لكنه حوَّل عنها بصره يمنةً من جديد على حين فجأة كأنه نسيها فى الحال وأخذ يراقب رؤيته الخارقة من جديد . ففى تلك اللحظة كانت ناستاسيا فيليبوفنا تمر قرب الكراسى التى تشغلها الآنسات . وكان يفغينى بافلوفتش يقص على ألكسندرا ايفانوفنا حكاية لا بد أنها كانت شائقة ومضحكة جدا فلقد كان يرويها فى سرعة بكثير من الحرارة والنشاط . لقد تذكر الأمير أن آجلايا قالت عندئذ فجأة بصوت خافت : «يا لها . . .»

ثم أمسكت فجأة عن الكلام ولم تكمل جملتها . غير أن ما قالته كان كافيا . وكانت ناستاسيا فيليبوفنا تمر كما لو انها لا ترى أحدا ، ثم اذا هى تلتفت نحوهم

فجأة ، كأنها ترى يفغينى بافلوفتش الآن فقط ، فتصيح وهى تتوقف عن السير حالا :

— آ ! ها هو اذن ! تارةً يعجز المرء عن أن يجده ، ولو بعث اليه الرسل ، وتارةً يعثر به كما لو عمدا حيث لا يتوقع أن يراه . . . كنت أظن أنك هناك . . . عند عمك !

احمر وجه يفغينى بافلوفتش احمرارا شديدا ، ورشق ناستاسيا فيليبوفنا بنظرة زاخرة بالغضب والحنق ، ثم أسرع يشيح بوجهه الى جهة أخرى .

— ماذا ؟! ألا تعلم ؟ انه لم يعرف شيئا بعد ! هل تصورتم هذا ؟ لقد انتحر عمك ! أطلق فى رأسه رصاصةً هذا الصباح ! علمت بذلك منذ قليل ، فى الساعة الثانية . ونصف سكان المدينة يعرفون النبأ الآن . بعضهم يقول أنه اختلس ثلاثمائة وخمسين ألف روبل من خزينة الدولة . وبعضهم الآخر يقول خمسمائة ألف . وأنا كنت أعوِّل على أنه سيورثك ثروة . لقد بدد كل شئ . كان عجوزا فى منتهى الدعارة . . . طيب ، وداعا ، [1] bonne chance ! ألن تذهب الى هناك حقا ؟ لقد عرفت كيف تقدم استقالتك فى الوقت المناسب . يا لك من ماكر ! ولكن هذه سخافات . لا شك أنك كنت تعرف كل شئ ، لا شك أنك كنت تعرف كل شئ سلفا . ربما كنت على علم بالأمر منذ أمس . . .

رغم أن لهجة الاستفزاز الوقحة هذه وتعمد التشديد على تعارف وصلة حميمة لا وجود لهما انما كانا يرميان

---

[1] أتمنى لك التوفيق ! (بالفرنسية فى الأصل) .

حتما الى غاية ، الأمر الذى لم يعد الآن أى مجال للشك فيه ، فان يفغينى بافلوفتش ظن فى البداية أن فى وسعه أن يخرج من المأزق بطريقة ما وألاّ يولى المرأة المسيئة أى انتباه . لكن أقوال ناستاسيا فيليبوفنا وقعت عليه كصاعقة فحين سمع أن عمه مات صار وجهه أبيض كالمنديل والتفت نحو المرأة التى حملته هذا النبأ . فما كان من أليزافيتا بروكوفيفنا الا أن أسرعت تنهض وتتصرف بما يشبه الركض ، مقتادةً كل عالمها ، الا الأمير ليف نيقولاييفتش الذى تلبث برهة كما لو كان مترددا ويفغينى بافلوفتش الذى ما يزال يقف مصعوقا . ولكن ما كاد آل ايبانتشين يقطعون عشرين خطوة حتى وقعت فضيحة رهيبة .

فان الضابط الذى كان يحدث آجلايا ، وهو صديق يفغينى بافلوفتش الحميم ، قد استاء استياء شديدا ، فها هو ذا يقول بصوت يكاد يكون عاليا :

— انما المرء فى حاجة هنا الى سوط . فما من وسيلة أخرى يمكن أن تنجح مع هذه المخلوقة !

(يبدو أنه كان فى الماضى أيضا نجيا ليفغينى بافلوفتش) .

التفتت ناستاسيا فيليبوفنا نحوه فى لمح البصر واتقدت عيناها . واندفعت الى شاب كان واقفا على مسافة خطوتين منها وكانت هى لا تعرفه اطلاقا ، فانتزعت من يديه عصا دقيقة مضفورة من خيزران فهوت بها على وجه الضابط الذى أهانها من أعلى الى أسفل ، بكل ما أوتيت من قوة . وقد حدث هذا كله بسرعة البرق . . . وخرج الضابط عن طوره فهجم على ناستاسيا فيليبوفنا التى لم يعد الى جانبها تابعاها : فالرجل المتوسط العمر الحسن المظهر قد

اختفى اختفاء تاما ، وأما الرجل السكران فقد انتحى جانبا وأخذ يضحك ملء حلقه . لا شك فى أن الشرطة كانت ستتدخل بعد دقيقة ، ولكن ناستاسيا فيليبوفنا كان يمكن أن تلقى أثناء تلك الدقيقة شرا كبيرا لولا أن جاءتها نجدة لم تكن فى الحسبان : ان الأمير ، وكان على مسافة خطوتين منها أيضا ، قد استطاع أن يمسك يدى الضابط من وراء . ولكن الضابط خلّص يديه منه ، ودفعه فى صدره بقوة ، حتى أن الأمير طار مسافة ثلاث خطوات وسقط فوق كرسى . ولكن ناستاسيا فيليبوفنا كان قد أصبح الى جانبها الآن مدافعان آخران . فأمام الضابط المهاجم كان قد وقف الملاكم — كاتب المقالة التى يعرف القارئ من أمرها ما يعرف ، وأحد الأعضاء العاملين القدامى فى عصبة روغوجين ؛ وها هو ذا يقدّم نفسه قائلا بتبجح :

— اسمى كيللر ، ملازم متقاعد ! فاذا كنت يا كابتن ، تريد استعمال الأيدى فأنا تحت أمرك بدلا من الجنس الضعيف ! اننى قوى فى الملاكمة الانجليزية . لا تدفعنى يا كابتن ! اننى أشاركك ألمك من الاهانة الدامية التى تلقيتها ، ولكننى لا أستطيع أن أسمح باستعمال القبضات ضد امرأة على مرأى من الناس . فاذا شئت أن تسوّى الأمر بطريقة أخرى ، كما يليق برجل مهذب . . . مهذب ، فان عليك طبعا أن تفهمنى ، يا كابتن . . .

ولكن الكابتن كان قد ثاب الى نفسه ، وأصبح لا يصغى الى كلام كيللر . وفى تلك اللحظة خرج روغوجين من بين الجمهور فتأبط ذراع ناستاسيا فيليبوفنا بسرعة ، واقتادها . كان يبدو منفعلا أشد الانفعال هو أيضا : كان

شاحب الوجه وكان يرتجف . لكن أتيح له وهو يقتاد ناستاسيا فيليبوفنا أن يقهقه بحنق أمام أنف الضابط ، وأن يقول بلهجة بائع منتصر :

ـــ هه ! ماذا ؟ أخذت ما تستحق ! دما فى بوزك ! هه !

سيطر الضابط على نفسه ، وأدرك تماما نوع هؤلاء الناس الذين يواجههم ، فقال بأدب (لكنه غطى وجهه بمنديله) للأمير الذى كان قد قام من سقطته :

ـــ أأنت الأمير ميشكين الذى أسعدنى أن أتعرف به ؟

ـــ انها مجنونة ! انها ملتاثة العقل ! أؤكد لك !

كذلك أجابه الأمير بصوت متقطع وهو يمد اليه لسبب ما يديه المرتعشتين .

قال الضابط :

ـــ أنا لا أستطيع طبعا أن اتباهى بمعرفتى لمثل هذه المعلومات . ولكن يهمنى أن أعرف اسمك .

ثم حيًّا بحركة من رأسه وانصرف ، فما هى الا خمس ثوان حتى كانت الشرطة قد وصلت فعلا ، ولكن بعد أن كان أواخر ممثلى المشهد قد غابوا عن المسرح . ولم تدم الفضيحة أكثر من دقيقتين على كل حال . وقد قام جزء من الجمهور وانصرف . واكتفى عدد من الأشخاص بأن غيَّروا أماكنهم . وسُرَّ بعض الناس بالحادث سرورا عظيما . ووجد فيه آخرون موضوعا مثيرا تدور عليه أحاديثهم . الخلاصة أن الأمر انتهى كما تنتهى أمثاله عادة . واستأنف الأوركسترا عزفه . تبع الأمير أسرة ايبانتشين . ولو أنه ، بعد أن دفعه الرجل فى صدره فسقط على كرسى ، خطر بباله أن ينظر

الى يساره أو اتسع وقته لأن ينظر الى يساره ، لكان رأى آجلايا واقفة على بعد عشرين خطوة منه ترقب الفضيحة رغم نداءات أمها وأختيها اللواتى كن قد قطعن مسافة طويلة . وقد هرع اليها الأمير «شـ . . .» ، واستطاع أن يحملها أخيرا على الانصراف بأقصى سرعة . وتذكرت اليزافيتا بروكوفيفنا ان آجلايا قد انضمت اليهن وهى فى حالة من الاضطراب الشديد تبعث على الاعتقاد بأنها لم تكن قد سمعت نداءاتهن . ولكنها بعد دقيقتين ، عند دخول الحديقة ، قالت بلهجة الاستخفاف والدلال ، المعهودة فيها :

ـــ انما أردت أن أعرف كيف ستنتهى المهزلة .

الفصل الثالث

ان الحادث الذى وقع فى المحطة قد صعق الأم والبنات الى حد الذعر تقريبا . فكانت اليزافيتا بروكوفيفنا ، وهى تحت وطأة الاضطراب والانفعال ، تقتاد بناتها هاربة بما يشبه الركض على طول الطريق المؤدى من المحطة الى الدار . وكان فى رأيها أن أمورا كثيرة جدا قد جرت وانكشفت أثناء ذلك الحادث ؛ حتى لقد أخذت تنبت فى ذهنها ، رغم الاضطراب والذعر ، أفكار حاسمة . وأدرك الجميع على كل حال أن شيئا شاذا غير عادى قد وقع ، وأن هناك سرا خارقا لعله أخذ ينكشف لحسن الحظ . ان يفغينى بافلوفتش ، رغم التأكيدات والشروح السابقة التى قدمها الأمير «شـ . . .» قد «سقط القناع عن وجهه الآن» ، وافتضح أمره وظهر على حقيقته ، و«ثبت ثبوتا قاطعا أن له علاقة بتلك المخلوقة» . ذلك كان رأى اليزافيتا بروكوفيفنا ، وحتى رأى بنتيها الكبريين أيضا . غير أن هذا الاستنتاج لم يزد على أن ضاعف الألغاز والأحجيات . ان الآنستين ، فى قرارة نفسيهما ، قد أغاظهما الى حد ما ذلك الذعر الشديد وذلك الفرار الواضح من جهة أمهما . ولكنهما لم تجسرا فى غمرة اضطراب اللحظة الاولى أن تثيرا قلقها بأسئلتهما . وفوق ذلك فقد بدا لهما لسبب ما أن أختهما ، آجلايا ايفانوفنا ، ربما كانت تعلم من أمر هذه القضية ما لا تعلمان وما لا تعلم أمهما . أما الأمير «شـ . . .» ، فكان مكفهر الهيئة مظلم الوجه ، غارقا فى تأملاته هو أيضا . لم توجه اليه اليزافيتا بروكوفيفنا ، طوال الطريق ، كلمة

واحدة ؛ ولكن لم يبد عليه أنه انتبه الى هذا . وقد حاولت آديلائيدا ان تسأله : «من هو ذلك العم الذى تحدثوا عنه للتو وما الذى حدث ببطرسبرج ؟» ، فكان لا يزيد على أن يجمجم بتكدر شديد ، مجيبا اجابة غامضة ، قائلا أن هناك معلومات يجب السؤال عنها ، وأن المسألة كلها سخافات بالتأكيد . فقالت آديلائيدا تجيبه «لا شك فى هذا» . وقد عدلت عن الالحاح فى السؤال . أما آجلايا فأصبحت فجأة هادئة هدوءا خارقا . كل ما هنالك أنها أثناء الطريق نبّهت الى أن سيرهم سريع مسرف فى السرعة . ونظرت مرة وراءها فلمحت الأمير محاولا اللحاق بهم . وحين لاحظت جهوده للحاق بهم ابتسمت ابتسامة ساخرة ، ثم لم تلتفت بعد ذلك الى جهته قط .

وأخيرا عند المنزل تقريبا ، التقوا بايفان فيدوروفتش الذى كان قد وصل من بطرسبرج منذ برهة فهبّ الآن الى لقائهم . وكانت الكلمة الاولى التى قالها هى أنه سأل عن يفغينى بافلوفتش . ولكن زوجته مرت بقربه متوحشة الهيئة ، دون أن تجيبه بل ودون أن تنظر اليه . وسرعان ما قرأ فى أعين بناته وفى عينى الأمير «شـ . . .» أن عاصفة قد ألمت بالمنزل . وعلى كل حال فقد كان وجهه ، حتى قبل أن يدرك ذلك ، يعبر هو نفسه عن قلق غير مألوف . فلم يلبث أن تأبط ذراع الأمير «شـ . . .» ، فأوقفه أمام مدخل المنزل ، وتبادل معه بضع كلمات بصوت خافت . فلما صعدا الى الشرفة بعد ذلك وذهبا الى جناح اليزافيتا بروكوفيفنا كان المرء يستطيع أن يعرف من ملامحهما القلقة أنهما قد أطلعا على نبأ خارق . والتأم الجمع كله شيئا فشيئا فى أعلى ، بجناح

أليزافيتا بروكوفيفنا ؛ ولم يبق فى الشرفة أخيرا الا الأمير الذى جلس فى ركن كأنه ينتظر شيئا ما . كان هو نفسه لا يعلم ما بقاؤه هنالك ، ولم يخطر بباله أن ينصرف وهو يرى هذا الاضطراب الذى شمل المنزل . لكأنه قد نسى الكون بأسره ، وكأنه مستعد لأن يبقى مسمَّرا سنتين متواصلتين فى المكان الذى أجلسوه فيه . وكانت تصل الى مسامعه من فوق ، بين الفينة والفينة ، أصداء مناقشة مضطربة . لا يدرى كم قضى من الوقت جالسا فى ذلك الركن . ولكن المساء قد جاء ، وأخذ الظلام يعم . وفجأة ظهرت آجلايا على الشرفة . كانت تبدو هادئة ، ولكنها شاحبة الوجه قليلا . وابتسمت ابتسامة يخالطها شئ من الحيرة حين رأت الأمير الذى كانت «لا تتوقع طبعا» أن تراه هنالك جالسا على كرسى فى الركن .

سألته وهى تدنو منه :

— ماذا تفعل هنا ؟

فتمتم الأمير بشىء ما فى خجل ، وأسرع ينهض . ولكن آجلايا لم تلبث أن جلست قربه فعاد يجلس . تفرست فيه بنظرة مفاجئة لكنها متفحصة ، ثم سرحت ببصرها من خلال النافذة كأنما لم يكن لها أى قصد ، وعادت تحدق الى الأمير . قال الأمير يحدث نفسه : «لعلها تريد أن تأخذ فى الضحك . لا ، لو كانت تريد ذلك لما أمسكت عنه» .

قالت بعد صمت :

— ربما تريد أن تشرب الشاى ؟ سأمر لك بشاى .

— لـ . . لا . . . لا أدرى . . .

— كيف يمكن ان لا تدرى هذا ! آ . . . بالمناسبة : اذا دعاك أحد الى مبارزة فما عساك تفعل ؟ هذا سؤال كنت أريد أن ألقيه عليك منذ قليل .

— ولكن من ذا الذى . . . لن يدعونى أحد الى مبارزة .

— هب ذلك حدث ، فهل تخاف كثيرا ؟

— أعتقد أننى . . . سأرتاع ارتياعا شديدا .

— حقا ؟ أنت اذن جبان ؟

— لـ . . لا ، قد لا أكون جبانا . فمن يخاف ويهرب فهو الجبان أما من يخاف ولا يهرب فليس جبانا .

كذلك أجاب الأمير مبتسما بعد لحظة تفكير .

— وأنت ؟ ألا تهرب ؟

فقال وهو يضحك أخيرا لهذه الاسئلة :

— قد لا أهرب .

فقالت بشئ من الزعل :

— أما أنا فلا أهرب بحال من الأحوال ، رغم أننى امرأة . ثم انك تسخر منى ، وتتلاعب تلاعبك المعهود ، لتزيد الاهتمام بك . قل لى : هل جرت العادة بأن يتم اطلاق النار فى المبارزات على مسافة اثنتى عشرة خطوة ؟ بل وعلى مسافة عشر خطوات أحيانا ؟ هل من المؤكد اذن أن يُقتل المتبارز أو أن يُجرح ؟

— يندر أن تصيب الطلقة فى المبارزات كما أظن .

— يندر ؟ لقد قتل بوشكين» .

— ربما كان ذلك مصادفة .

— لا . كانت المبارزة مبارزة موت ، وقد قتلوه .

— ان الرصاصة أصابته فى موضع أدنى من النقطة

التى صوَّب اليها دانتيس أغلب الظن ، وهى الصدر أو الرأس . ما من أحد يصوب الى النقطة التى يصيبها . ولقد كان جرح بوشكين اذن نتيجة مصادفة ، وثمرة خطأ فى التسديد . ان أناسا متخصصين هم الذين قالوا لى هذا الكلام .

— وأنا كلمت مرةً فى الأمر جنديا ذكر لى أن اللائحة توجب على الجنود عن عمد أن يصوبوا الى نصف الشخص حين ينتشرون . ذلك هو التعبير الوارد فى اللائحة : «نصف الشخص» . يجب اطلاق النار اذن لا الى الصدر ولا الى الرأس ، وانما الى وسط الجسم قصدا . وحين سألت أحد الضباط بعد ذلك فى هذا الموضوع أكد لى صحة هذا الكلام .

— هذا يصدق على التصويب من مسافة بعيدة .

— وهل تعرف كيف تطلق النار ؟

— لم أطلق رصاصة فى حياتى .

— هل معقول أنك لا تعرف حتى كيف تحشو مسدسا ؟

— لا أعرف . بل أعرف الطريقة لكننى لم أمارسها بنفسى أبدا .

— معنى هذا أنك لا تعرف . فهذه عملية تقتضى ممارسة عملية ! أصغ الىَّ واحفظ ما أقوله لك : تشترى فى أول الأمر بارودا ممتازا من بارود المسدسات . يجب أن لا يكون البارود رطبا (يقولون يجب الا يكون رطبا بل جافا جدا) ويجب أن يكون مسحوقا دقيقا . اطلب هذا النوع من البارود ، لا بارود المدفع . أما الرصاصات فيقولون أن المرء يتولى صبَّها بنفسه . هل عندك مسدسات ؟

أجاب الأمير وهو يضحك فجأة :

— لا ، ولا حاجة بى اليها .

— آه . . . يا للحماقة ! عليك أن تشترى مسدسات حتما ، مسدسات جيدة ، انجليزية أو فرنسية . يقال أنها خير المسدسات . وخذ بعد ذلك مقدارا من البارود ، يكفى لملء كستبان خياطة ، أو ربما كستبانين اثنين ، وصبّ البارود . من الأفضل أن يكون أكثر . ثم احش الماسورة لبادا (يقولون أنه لا بد من اللباد ، لا أدرى لماذا) . فى وسعك أن تأخذ اللباد من أى مكان ، من حشية ما مثلا ، أو من بطانة الباب . وبعد أن تدس اللباد تدخل الرصاصة . هل فهمت ؟ البارود أولا والرصاصة بعد ذلك . والا فلن تخرج الطلقة . لماذا تضحك ؟ أريد أن تتمرن على اطلاق النار كل يوم عدة مرات ، وأن تتعلم حتما كيف تصيب الهدف . هل ستفعل ؟

كان الأمير يضحك . ففرعت آجلايا الأرض بقدمها غاضبةً . اندهش الأمير بعض الشئ من جدها فى حديث كهذا الحديث . كان يحس احساسا غامضا بأن عليه أن يستعلمها عن شئ ما ، وأن يسألها عن شئ ما أخطر شأنا من طريقة حشو المسدسات على كل حال . ولكنه نسى كل هذا ما عدا شئ واحد هو أنه يراها جالسةً أمامه وأنه ينظر اليها . أما ما قد تحدثه عنه فأمر لا يكاد يعنيه فى تلك اللحظة .

وأخيرا نزل ايفان فيدوروفتش نفسه من الطابق الأعلى وظهر على الشرفة . كان يهم أن يخرج ، وكان متجهم الوجه مشغول البال ثابت العزم .

— آه . . . ليف نيقولايفتش . . . هذا أنت . . . الى أين أنت ذاهب الآن ؟ — هكذا سأل الأمير رغم أن ليف نيقولايفتش لم تبد عليه أية حركة تدل على أنه يريد الانصراف . — تعال . هناك كلمة أريد أن أقولها لك .

قالت آجلايا وهى تمد يدها للأمير :

— الى اللقاء !

كانت الشرفة قد خيَّم عليها الظلام بحيث أن الأمير لم يستطع فى تلك اللحظة أن يميِّز قسمات وجهها تمييزا واضحا . وبعد دقيقة ، بينما كان هو والجنرال قد خرجا من المنزل ، احمر احمرارا رهيبا على حين فجأة وضم يده اليمنى ضما قويا .

واتفق ان كان على ايفان فيدوروفتش أن يسير فى طريق الأمير ذاته . ورغم تأخر الوقت ، فقد أسرع ليبحث مع شخص من الأشخاص أمرا ما . فأخذ أثناء الطريق يحدث الأمير على حين فجأة بلهجة متعجلة وكلام مضطرب مفكك . كان اسم اليزافيتا بروكوفيفنا يتردد ذكره على لسانه كثيرا . فلو كان الأمير أقدر على الانتباه فى تلك اللحظة ، فلربما استطاع أن يدرك أن محدِّثه كان يريد أن يعرف منه أيضا شيئا ما ، او بالأحرى أن يسأله مباشرة وبصراحة عن شئ ما ، ولكنه لا يتمكن من مس النقطة الأساسية . ولكن الأمير ، ويا للخجل ، كان من البلبلة والذهول بحيث لم يسمع بداية الكلام الذى قاله له الجنرال ، فلما تسَّمر الجنرال أمامه موجها اليه سؤالا حادا ، اضطر أن يعترف بأنه لم يفهم شيئا .

هز الجنرال كتفيه . ثم استأنف كلامه فعاد يقول متدفقا :

— ما أعجبكم كلكم ، من جميع النواحى . أقول لك أننى لا أفهم شيئا البتة من خواطر اليزافيتا بروكوفيفنا ومخاوفها . انها فى حالة من العصبية والاضطراب ، وتنشج باكية ، وتقول أن سمعتنا ساءت وكرامتنا أهينت وشرفنا تلطخ . من فعل بنا هذا ؟ كيف تم ؟ مع من جرى ؟ متى حدث ؟ لماذا وقع ؟ اننى أعترف بأننى مذنب (وأدرك هذا) ولى أخطاء كبيرة ، ولكن ابتزازات تلك المرأة . . . المضطربة (التى تسلك فوق ذلك سلوكا شائنا) أمر يمكن أن تضع له الشرطة حدا فى النهاية . حتى أننى أنوى اليوم أن أذهب الى بعضهم وأن أتخذ اجراءات . وكل شئ يمكن أن يسوَّى بهدوء ورفق ، بل وبلطف ، ودون أية فضيحة بالاعتماد على بعض العلاقات . واني لأعترف أيضا بأن المستقبل يحمل أحداثا كبيرة ، وأن أمورا كثيرة تحتاج الى ايضاح . نحن بصدد مؤامرة . ولكن اذا كان لا يوجد هنا أحد يعرف شيئا ، واذا كان لا يوجد هناك أحد يعرف شيئا كذلك ؛ اذا كنت أنا لم أسمع بشئ ، واذا كنت أنت لم تسمع بشئ ، واذا لم يكن ثالث ولا رابع ولا خامس قد سمع بشئ أيضا ، فانى لأسألك : فمن تُرى يكون على علم بالأمر فى النهاية ؟ كيف تعلل أنت هذا ؟ لا يمكن أن يفسر هذا الا بأن القضية بنصفها سراب لا تمت الى الواقع بسبب ، كضوء القمر مثلا . . . او الأشباح الأخرى .

تمتم الأمير يقول وقد تذكر فجأة ، على ألم شديد ، كلَّ ما جرى فى النهار :

— هى مجنونة .

— لنسلّم بهذا ، اذا كنتَ عن تلك المرأة تتكلم . لقد فكّرت أنا أيضا فى الأمر مثل تفكيرك تقريبا ، فنمت نوما هادئا . لكننى ألاحظ الآن أن تفكيرهم هم هو الأسلم ، وأصبحت لا أعتقد بأنها مجنونة . صحيح أن هذه المرأة نزقة ، ولكنها ليست مجنونة بل ثاقبة النظر ومأكرة . ان تصرفها الطائش اليوم مع كابيتون الكسيفتش يدل على ذلك دلالة قاطعة . انها تتصرف تصرف محتال ، أو على أقل تقدير تصرف يسوعى لتبلغ هدفا معينا .

— من كابيتون الكسيفتش ؟

— آه . . . رباه ! ليف نيقولايفتش . . . انك اذن لا تصغى الىّ البتة . لقد كانت بداية كلامى اليك عن كابيتون الكسيفتش . لقد بلغت من الذهول لهذا الأمر أن ذراعىّ وساقىّ ما تزال ترتعد حتى الآن . وذلك هو السبب فى أننى تأخرت اليوم فى المدينة هذا التأخر كله . كابيتون الكسيفتش رادومسكى ، عم يفغينى بافلتش . . .

هتف الأمير :

— ماذا ؟

— أطلق النار على نفسه هذا الصباح ، عند الفجر ، الساعة السابعة . كان شيخا محترما فى السبعين من عمره ، ابيقوريا . وكما قالت هى تماما ، اختلس من مال الدولة ، اختلس مبلغا ضخما !

— من أين استطاعت أن . . .

— أن تعرف هذا ؟ هاها ! ما ان ظهرت هنا حتى تكونت حولها أركان عامة بكاملها . هل تعرف أية شخصيات

تختلف اليها الآن وتلتمس «شرف التعرف بها» ؟ فلا عجب أنها استطاعت أن تسمع شيئا من زوارها ، لأن بطرسبرج كلها تعرف النبأ الآن ، كما يعرفه على كل حال نصف سكان بافلوفسك أو ربما جميعهم . ولكن ما أدق الملاحظة التى قالتها ، على ما روى لى ، عن بدلة يفغينى بافلوفتش ، أى عن أنه استقال فى الوقت المناسب ! يا لها من غمزة جهنمية ! لا ، ان هذا لا يدل على جنون ! طبعا أنا أرفض أن أصدق أن يفغينى بافلوفتش قد أمكنه أن يتنبأ بالكارثة ، أى أن يعلم أنها ستحدث يوم كذا ، فى الساعة السابعة من الصباح ، الخ . ولكن لعله كان يحدس بذلك قبل حدوثه . أما أنا ، ونحن جميعا ، والأمير «شـ . . .» فكنا نحسب أن العجوز سيترك له ميراثا . شى فظيع ، فظيع ! على كل حال ، أفهم عنى ما أقول : اننى لا أتهم يفغينى بافلوفتش أى اتهام . هأناذا أسارع الى اعلان ذلك لك . غير أن فى الأمر شيئا مشبوها . ان الأمير «شـ . . .» فى غاية الذهول . لقد جرت الأمور كلها مجرى غريبا .

— ولكن ما هو الشىء المشبوه فى سلوك يفغينى بافلوفتش ؟

— لا شىء البتة ! لقد تصرف تصرفا نبيلا لا غبار عليه . ثم اننى لم أغمز أى غمز يقدح فيه . أظن أن ثروته الشخصية لا مراء فيها . ان اليزافيتا بروكوفيفنا لا تطيق طبعا حتى أن تسمع اسمه . . . ولكن الأمر الأخطر هو الكوارث المنزلية كلها أو قل هذه المشاجرات العائلية . . . أصبحت لا أعرف كيف اسميها ! . . والحق يقال أنك أنت يا ليف نيقولايفتش صديق للأسرة . فاليك اذن ما

قد اتضح الآن رغم أن الأمر ليس مؤكدا محققا بعد : الظاهر أن يفغينى بافلوفتش قد صارح آجلايا منذ أكثر من شهر ، وأنه فيما يظهر قد تلقى منها رفضا قاطعا .

هتف الأمير قائلا بحرارة :

— غير ممكن !

قال الجنرال وهو يرتعش دهشةً ويقف متسمرا فى مكانه :

— ولكن هل أنت على علم بشىء ؟ لعلنى يا صديقى العزيز قد أخطأت وجافيت الكياسة واللباقة حين حدثتك عن هذا . . . ولكنى انما فعلت لأنك . . . لأنك شخص . . . من الممكن أن أقول له . أتراك تعرف شيئا ما خاصا ؟

دمدم الأمير يقول :

— لا أعرف شيئا . . . عن يفغينى بافلتش .

— ولا أنا ! انهم . . . يا أخى ، انهم يريدون من كل بد ان يدفنونى ويقبرونى . انهم لا يريدون ان يدركوا أن هذا يشق على نفس رجل ، وأننى لن أحتمله . منذ قليل قام مشهد رهيب ! اننى أكلمك كما يكلم أب ابنه . أقسى ما فى الأمر أن آجلايا تسخر فعلا من أمها وتهزأ بها . أما الرفض الذى لعلها قابلت به يفغينى بافلوفتش منذ شهر ، وأما المصارحة القاطعة التى لعلها تمت بينهما ، فهذه تخمينات أختيها . . . وهى تخمينات قد تكون صحيحة على كل حال . لكن آجلايا انسانة متسلطة مستبدة غريبة الأطوار ذات نزوات ، الى حد لا يستطيع المرء أن يتصوره ! أظن أنها تملك جميع اندفاعات الروح النبيلة ، وجميع مزايا القلب والفكر اللامعة . لكنها ذات نزوات وسخرية ، الخلاصة

أن لها طبعا شيطانيا ، وان لها شطحات . منذ قليل ، تهكمت صراحةً على أمها ، وعلى أختيها ، وعلى الأمير «ش. . .» ؛ ناهيك عنى أنا ، أنا الذى قلَّما أنجو من سخرياتها . ولكن ما حيلتى فى هذا ؟ أنت تعلم مدى ما أحمله لها من حب حتى فى سخرياتها . ويخيَّل الىَّ أن هذا هو السبب فى أن هذه الشيطانة الصغيرة تحبنى حبا خاصا ، أعنى أنها تحبنى أكثر من سائر الآخرين . أراهن أنها قد أتيح لها أن تمارس سخريتها عليك أنت أيضا . لقد رأيتكما منذ قليل منهمكين فى الحديث بعد الزوبعة التى قامت فوق . كانت جالسةً الى جانبك كأن شيئا لم يحدث .

احمر الأمير احمرارا رهيبا ، وضم يده اليمنى ، لكنه لم ينطق بكلمة .

قال الجنرال فجأة ، بحرارة وتدفق :

— يا عزيزى الطيب ليف نيقولايفتش ! أنا . . . وحتى اليزافيتا بروكوفيفنا نفسها (التى عادت تحمل عليك وتقول فيك السوء ، وتعاملنى هذه المعاملة نفسها أنا أيضا بسببك ، لا أدرى لماذا) ، نحن نحبك مع ذلك ، نحبك حبا صادقا ونقدِّرك رغم كل شىء ، أعنى رغم المظاهر كلها . ولكن اعترف أنت نفسك يا صديقى العزيز ، اعترف أنت نفسك أنه لغز مفاجئ وأسى فظيع أن نسمع فجأة هذه الشيطانة الصغيرة الرابطة الجأش (وكانت عندئذ واقفة أمام أمها هناك ، فى هيئة تعبر عن أعمق الاحتقار لجميع أسئلتنا ، ولا سيما الأسئلة التى كنت ألقيها عليها أنا . . . ذلك أننى قد ارتكبت حماقة ، تباً لى ! فخطر ببالى أن

أعاملها معاملة قاسية لأننى رب الأسرة ، فارتكبت حماقة اذن) أقول أن نسمع فجأة هذه الشيطانة الرابطة الجأش تعلن بلهجة ساخرة ، أن تلك «المجنونة» (تلك هى الكلمة التى استعملتها ، وقد أدهشنى أنها قالت نفس ما تقوله أنت — «كيف لم تستطيعوا أن تلاحظوا ذلك من قبل ؟») أن تلك المجنونة «قد وضعت فى رأسها أن تجعلنى أتزوج الأمير ليف نيقولايفتش مهما كلف الأمر ، وذلكم هو السبب فى أنها تحاول اجلاء يفغينى بافلوفتش عن بيتنا» . . . ذلك هو كل ما قالته . فلم تقدّم أى تفسير آخر . ثم انفجرت ضاحكة ضحكا مجلجلا . ففغرت أفواهنا من شدة الذهول ، وخرجت هى صافقةً باب الغرفة صفقا قويا . ثم رُوى لى الحادث الذى وقع اليوم بينها وبينك ، و . . . و . . . اسمع أيها الأمير العزيز ، ما أنت بالرجل الذى يتأذى بسرعة ، بل أنت رجل عاقل ورصين كما لاحظتُ أنا ذلك ، ولكن . . . لا تزعل اذا قلت لك أنها تضحك عليك . أقسم بالله ! تضحك عليك ضحكَ طفلة ، فما ينبغى لك أن تحمل لها موجدةً . ولكن الأمر هو كذلك تماما . لا يذهبن بك الخيال بعيدا . انها تتسلى بك كما تتسلى بنا نحن جميعا أيضا ، تزجيةً للوقت وملئا للفراغ لا أكثر . هيَّا ، الى اللقاء ! هل تعرف عواطفنا نحوك ؟ وهل تعرف مدى صدقها ؟ وهى ثابتة لن يغيِّرها شىء أبدا . . . ولكن . . . يجب علىَّ أن أدخل هنا . الى اللقاء ! ندر أن كنت فى حياتى كسمكة فى غير مياهها (أهذا هو التعبير المستعمل ؟) كما أنا اليوم . . . يا له من اصطياف !

بقى الأمير وحده عند تقاطع الطرق ، ثم ألقى نظرةً

حواليه ، وأسرع يقطع شارعا فيقترب من نافذة مضاءة بأحد المنازل ، فيفض هنالك ورقة صغيرة ظل قابضا عليها قبضا قويا بيده اليمنى طوال مدة الحديث الذى جرى بينه وبين ايفان فيدوروفتش ؛ فيقرأ عليها فى الضوء الضعيف الخارج من تلك النافذة ، ما يلى :

«غدا ، فى الساعة السابعة من الصباح ، سأكون على الدكة الخضراء فى الحديقة ، وسأنتظرك . لقد قررت أن أحدثك فى أمر هام جدا ، يتعلق بك مباشرة .

P. S.[1] آمل أن لا تطلع على هذه الرسالة أحدا . لقد شعرت بشئ من تأنيب الضمير وأنا أسطر لك هذه التوصية بالكتمان ، ولكنى فكرت ووجدت أنك تستحقها فكتبتها وأنا محمرة خجلا بسبب طبعك المضحك .

P.P.S.S.[2] هى تلك الدكة الخضراء نفسها التى أريتك أياها منذ قليل . فلتخجل ! فقد اضطررت أن أضيف هذا أيضا» .

كانت الرسالة قد كتبت على عجل ، وطُويت باهمال ، قبل نزول آجلايا الى الشرفة بلحظة قصيرة فى أغلب الظن . شعر الأمير بانفعال عارم لا يغالب ، انفعال يشبه أن يكون جزعا ؛ ثم قبض على الورقة الصغيرة بيده قبضا قويا من جديد ، ووثب عن النافذة المضاءة متعجلا تعجلَ لص

---

[1] ملحوظة . (باللاتينية فى الأصل) .

[2] ملحوظة اخرى . (باللاتينية فى الأصل) .

فاجأه أحد . ولكن عند هذه الحركة اصطدم على حين فجأة بسيد كان وراءه تماما .

قال هذا السيد :

— اننى أرقبك يا أمير .

فهتف الأمير يقول مدهوشا :

— أهذا أنت يا كيللر ؟

— كنت أبحث عنك يا أمير . انتظرتك عند منزل أسرة ايبانتشين ، الذى لا أستطيع دخوله طبعا . وتابعتك خطوة خطوة أثناء سيرك مع الجنرال . أنا رهن أوامرك يا أمير . لك ان تتصرف بى كما تشاء . اننى مستعد أن أضحى بنفسى ، بل وأن أموت اذا لزم الأمر .

— ولكن . . . لماذا ؟

— لانك ستتلقى دعوة للمبارزة حتما . ان هذا الملازم مولوفتسوف ، وأنا أعرفه . . . لا معرفة شخصية . . . لن يبلع الاهانة . وهو ينظر الى أمثال روغوجين وأمثالى نظرته الى أوغاد طبعا ، ولعله فى هذا على حق ؛ فستكون أنت وحدك المسئول تجاهه اذن . لا بد من دفع الثمن يا أمير . وقد سمعت أنه استعلم عنك ، ولا بد أن يجيئك فى الغد أحد من أصدقائه ، هذا اذا لم يكن فى انتظارك بمنزلك منذ الآن . فاذا شرَّفتنى باختيارى شاهدا ، فاننى مستعد حتى أن ألبَس القلنسوة الحمراء . من أجل أن أقول لك هذا انما بحثت عنك يا أمير .

قال الأمير وهو ينفجر مقهقها فجأة ، على دهشة شديدة من كيللر :

— أنت أيضا تحدثنى عن مبارزة !

كان يقهقه قهقهة شديدة . أما كيللر الذى بدا عليه أنه كان كالواقف على رؤوس الابر ما لم يقم بواجبه فيعرض على الأمير أن يختاره شاهدا ، فانه كاد يشعر بأنه يُهان بهذا الضحك الغزير من الأمير .

— لقد قبضت يا أمير على يده منذ برهة . من الصعب على رجل نبيل أن يحتمل هذا ، ولا سيما اذا حدث على مرأى من الناس .

صاح الأمير يقول وهو ما يزال يضحك :

— ولكنه دفعنى فى صدرى ! ولا داعى الى أن نقتتل ! فسأعتذر له فينتهى كل شئ . واذا كان لا بد من الاقتتال فسوف نقتتل ! ألا فيلجأ الى السلاح . بل أنا لا أطلب الا هذا . هأ هأ ! اننى أعرف الآن كيف أحشو مسدسا ! هل تجيد حشو مسدس يا كيللر ؟ يجب أولا شراء بارود من بارود المسدسات ، أى بارود لا يكون رطبا ولا يكون خشنا كالبارود الذى يُستعمل فى حشو المدافع . بعد ذلك يجب وضع البارود قبل كل شئ ، ثم انتزاع لباد من بطانة أحد الأبواب ، ثم وضع الرصاصة بعد اللباد . حذار أن تضع الرصاصة قبل البارود ، لان الرصاصة لن تنطلق عندئذ . هل فهمت يا كيللر ؟ الرصاصة لن تنطلق . هأ هأ ! أليس هذا حجة رائعة يا صديقى كيللر ؟ آه يا كيللر ، هل تعلم أننى سأعانقك وسأقبِّلك فورا ؟ هأ هأ هأ ! كيف استطعت أن تقف أمامه فجأة حينذاك ؟ تعال اشرب عندى شمبانيا فى أقرب وقت ممكن . سنسكر جميعنا سكرا شديدا ! هل تعلم أن عندى اثنتى عشرة زجاجة فى قبو ليبيديف ؟ لقد عرضها علىَّ أمس الأول أى فى اليوم

التالى بعد وصولى اليه وقال أنها «فرصة» ، فاشتريتها منه كلها ! لسوف أجمع حفلا بكامله ! قل لى : هل ستنام هذه الليلة ؟

— كالعادة يا أمير .

— أتمنى لك اذن أحلاما جميلة ! هأ هأ ! . .

وقطع الأمير الشارع ، وغاب فى الحديقة ، تاركا كيللر فى حيرة وتفكير . ان كيللر لم يسبق له أن رأى الأمير فى حالة نفسية كهذه الحالة غرابة ، ولا كان فى وسعه أن يتخيله فى هذه الصورة .

قال كيللر يحدث نفسه : «لعله مصاب بحمى ، فانه رجل عصبى قد أثرت فيه الأحداث كلها ، ولكنه لن يخاف حتما ! ان أمثال هذا الانسان لا يهابون . قسما بالرب ! هِمْ . . . شمبانيا ! هذا خبر شائق . اثنتا عشرة زجاجة ! دستة زجاجات ! لا بأس ، مئونة محترمة . أراهن أن ليبيديف قد أخذها من أحد الذين يقترضون منه مالا على رهن . هِمْ . . . انه لطيف جدا ، هذا الأمير . الحق أنه نوع الرجل الذى يعجبنى . على كل حال ، لا يجوز تضييع الوقت . . . فاذا كان هناك شمبانيا ، فيجب انتهاز الفرصة . . . » .

لقد كان صحيحا فى الواقع أن الأمير كان فى حالة قريبة من الحمى .

ظل يطوِّف مدة طويلة فى ظلمات الحديقة ، و«اكتشف» أخيرا أنه يذرع ممرا من ممرات الحديقة . وانطبعت فى ذهنه ذكرى أنه قد قطع هذا الممر ثلاثين أو أربعين مرة ذهابا وايابا بين الدكة وبين شجرة قديمة مرتفعة يسهل تعرفها

تقع على بعد مائة خطوة لا أكثر . أما أن يتذكر فيم كان يفكر أثناء هذا التجوال الذى دام ساعةً على الأقل ، فلقد كان يستحيل عليه ذلك ولو أراده . ثم انه قد اهتدى الى فكرة سرعان ما جعلته ينفجر ضاحكا على حين فجأة . ولم يكن فى الفكرة ما يُضحك مع ذلك ، لكن رغبة فى الضحك ظلت تسيطر عليه . خطر بباله أن افتراض نشوب مبارزة كان من الممكن أن ينبت فى رؤوس أخرى لا رأس كيللر وحده ، وأن قصة حشو المسدس كان من الممكن الا تكون اذن ثمرة مصادفة . قال يحدث نفسه وهو يتوقف فجأة وقد باغتته فكرة أخرى : «عجيب ! منذ قليل ، حين نزلت الى الشرفة ووجدتنى جالسا فى ذلك الركن أذهلها جدا أن ترانى هناك . وضحكت كثيرا . . . وكلمتنى عن الشاى . ولكن الرسالة كانت مع ذلك فى يدها . هذا دليل قاطع على أنها لم تكن تشك فى أننى هناك ، على الشرفة . فما الذى أدهشها اذن ؟ هأ هأ هأ !»

واستلَّ الرسالة من جيبه فقبَّلها ، ولكنه سرعان ما توقف وشرد فكره . وقال يحدث نفسه بعد دقيقة بلهجة فيها شئ من الحزن : «ما أغرب هذا ! ما أغرب هذا !» . انه فى لحظات الفرح الشديد يشعر دائما بالحزن يجتاح قلبه ، لا يدرى هو نفسه لماذا .

ونظر حواليه بانتباه ، وأدهشه أن يكون قد جاء الى هذا المكان . وشعر بتعب شديد ، فاقترب من الدكة وجلس عليها . كان يرين على الجو حوله صمت عميق . ان الموسيقى قد انقطعت فى المحطة . ولعل الحديقة كلها خلت من كل انسان . لا شك ان الساعة كانت بعد الحادية عشرة

والنصف . الليل ساج دافئ مضئ . هى ليلة من ليالى بطرسبرج فى بداية شهر حزيران . غير أن الحديقة الكثيفة الظليلة فى ممر الأشجار الذى كان هو فيه ، كانت تامة الظلمة تقريبا .

لو قال له أحد فى تلك اللحظة أنه عاشق ، وأنه مولّه ، لرفض هذه الفكرة مشدوها ، وربما حتى مستاء . ولو أضاف أحد الى ذلك أن الرسالة الصغيرة التى كتبتها له آجلايا هى رسالة غرام ودعوة الى لقاء غرامى ، لاحمر خجلا عن صاحب مثل هذه الفكرة ، وربما دعاه الى مبارزة . كان صادقا فى هذا كل الصدق ، ولم يراوده أى شك مرةً ، ولم يسلّم بأقل فكرة «مزدوجة» عن احتمال أن تحبه هذه الفتاة بل وأن يحبها هو نفسه . لقد كان يرى أن احتمال أن تحب هذه الفتاة «رجلا مثله» شىء فظيع . وكان يتخيل أن كل ما يمكن أن تشتمل عليه هذه القضية من واقع لا يعدو أن يكون شيطنة من الفتاة ، وهى شيطنة كان الأمير يقبلها غير مكترث أبدا ، لانه كان يراها من طبيعة الأمور . وكانت مشاغله وهمومه منصبة على موضوع آخر مختلف كل الاختلاف . لقد صدّق الجنرالَ تصديقا كاملا حين كشف له الجنرال بأقواله عرضاً أثناء الانفعال أنها تضحك على الجميع ، وتضحك عليه هو خاصة ، الأمير . لم يجرح شعورَه هذا الكلام ولم يؤلمه أى ايلام . كان فى رأيه أن الأمر لا يمكن أن يكون غير هذا . الشئ الأساسى فى نظره هو أنه فى الصباح الباكر من الغد سوف يراها من جديد وسيجلس الى جانبها على هذه الدكة الخضراء ، وسوف يتأملها مصغيا الى ما ستقوله عن طريقة تعبئة المسدسات .

ولم يكن فى حاجة الى أكثر من هذا . مرةً أو مرتين تساءل عما تريد أن تكلمه فيه ، وعن ذلك الأمر الهام الذى يعنيه مباشرة ما عساه يكون ؟ على أنه لم يراوده فى لحظة من اللحظات أى شك فى حقيقة هذا «الأمر الهام» الذى ضربت له موعدا من أجله . ولكنه لا يكاد يفكر الآن فى هذا الأمر الهام حتى أنه لم يكن يحس بأدنى باعث على التفكير فيه .

وهذا وقع خطو هادئ على الرمل فى الممر يجعله يرفع رأسه . ورجل يصعب تمييز قسمات وجهه فى الظلام يقترب من الدكة ويجلس الى جانبه . اقترب الأمير من الرجل بسرعة ، حتى كاد يلمسه ، فرأى وجه روغوجين أصفر شاحبا .

جمجم روغوجين يقول من بين أسنانه :

— كنت أعرف أنك تحوم ههنا فى مكان ما . لم يطل بى البحث عنك .

هذه أول مرة يلتقيان فيها منذ لقائهما فى دهليز الفندق . وقد بلغ الأمير من الدهشة لظهور روغوجين المباغت أنه لبث مدة من الوقت شارد اللب . ان احساسا أليما قد شب فى قلبه . وبدا على روغوجين أنه أدرك الأثر الذى أحدثه فى الأمير . ورغم أن كلامه كان فى أول الأمر متقطعا وهو يتكلم كأنما بتحرر مصطنع ، لكن الأمير لم يلبث أن لاحظ أن روغوجين خال من أى اصطناع وحتى من أى ارتباك . ولئن كان فى حركاته وفى حديثه خراقة ، فان ذلك ليس الا مظهرا ، أما فى قرارة نفسه فان هذا الرجل لا يمكن أن يكون قد تغير .

سأله الأمير ليقول شيئا ما :

— كيف أمكنك . . . أن تكتشفنى هنا ؟

— سمعت كيللر يقول : «ذهب الى الحديقة» (مررت ببيتك) ، فقلت لنفسى : هذا ما حصل بالضبط .

— ماذا تعنى بقولك : «هذا ما حصل بالضبط» ؟

كذلك سأله الأمير فى قلق وهو يريد تفسير زلة لسانه .

فابتسم روغوجين ابتسامة قصيرة ، وتهرَّب من الشرح ، قائلا :

— تلقيت رسالتك يا ليف نيقولايفتش . لا فائدة من تكليف نفسك بهذا كله . . . وما حاجتك الى هذا ! أنا الآن آتٍ اليك رسولا منها . انها تطلب منك أن تذهب اليها حتما . هناك شئ مستعجل تريد أن تقوله لك . حتى انها تنتظرك فى هذا اليوم نفسه .

— سأذهب اليها غدا . أنا الآن عائد الى البيت فورا . هل تجئ . . . معى ؟

— علام أجئ معك ؟ لقد قلت لك كل شئ . استودعك الله .

سأله الأمير فى رفق :

— ألن تجئ اذن ؟

— انك لرجل عجيب يا ليف نيقولايفتش . لا تثير فى المرء الا الدهشة .

قال روغوجين ذلك وابتسم ابتسامة ساخرة .

سأله الأمير بحرارة ، ولكن بشئ من الحزن أيضا :

— لماذا ؟ من أين جاءتك هذه العداوة لى الآن ؟ هأنت ذا ترى الآن أن جميع تخميناتك كانت لا تقوم

على أساس . على أننى كنت أقدر أن كرهك لى لم ينقض بعد ، وهل تدرى لماذا ؟ لانك حاولت قتلى . ذلك هو السبب فى أن مقتك باق لا يزول . أما أنا فأقول لك أننى لا أعرف الا بارفيون روغوجين واحدا ، هو ذلك الذى تآخيت معه فى ذلك اليوم حين تبادلنا صليبينا . لقد كتبت لك هذا فى الرسالة التى بعثتها اليك أمس من أجل أن تنسى حتى لحظة الهذيان تلك ، فما تكلمنى عنها بعد الآن قط . لماذا تبتعد عنى ؟ لماذا تخبئ يدك ؟ أكرر لك أننى أرى أن ما حدث فى المرة الماضية لم يكن الا لحظة جنون وهذيان . اننى أقرأ فى نفسك الآن كل ما جرى ذلك اليوم كأننى أقرأ فى ذات نفسى . ان ما تخيلتَه لم يوجد ولا كان يمكن أن يوجد . فلماذا العداوة بيننا اذن ؟

قال روغوجين ضاحكا ساخرا من جديد ، فى الجواب على الكلمات الحارة التى انطلقت من الأمير على حين فجأة :

— أى عداوة يمكن أن تكون عندك !

وكان روغوجين يقف حقا متنحيا على بعد خطوتين من الأمير ، مخفيا يديه . وأضاف يقول ، ختاما للحديث ، بلهجة بطيئة وواعظة :

— أصبح يستحيل علىَّ استحالة تامة بعد الآن أن اختلف اليك يا ليف نيقولايفتش .

— أتكرهنى اذن الى هذا الحد ؟

— لا أحبك يا ليف نيقولايفتش . فعلام أختلف اليك ؟ آه يا أمير ، أنت مثل طفل صغير . اذا أراد

لعبةً أرادها فورا ، ولكنك لا تفهم من الأمر شيئا . ان كل ما تقوله لى الآن قد كتبته فى رسالتك كما هو ، ولكن أأنا لا أصدِّقك ؟ اننى أصدق كل كلمة من كلماتك . اننى أعلم أنك لم تخدعنى فى يوم من الأيام ، وأنك لن تخدعنى أبدا . ومع ذلك لا أحبك . لقد كتبت لى أنك نسيت كل شئ ، وأنك تتذكر روغوجين الذى بادلته صليبك ، لا روغوجين الذى أشهر عليك خنجرا . ولكن من أين تعرف عواطفى ؟ (ابتسم روغوجين ابتسامة ساخرة من جديد) لعلنى منذ ذلك اليوم لم أشعر بالندم على فعلتى مرةً واحدة ، بينما أنت أرسلت الىَّ غفرانك الأخوى . ولعلنى فى مساء ذلك اليوم نفسه قد انصرف فكرى الى شئ آخر تماما . أما ذلك الأمر . . .

— فنسيته !

بهذا أكمل له الأمير جملته وأردف يقول :

— وكيف لا ! بل اننى لأراهن على أنك ذهبت توا الى المحطة فركبت القطار الى بافلوفسك ، وجئت تسمع الموسيقى ، وتبعتها وراقبتها فى الجمهور ، كما فعلت اليوم . أتظن أنك أدهشتنى ؟ ولكن لولا أنك كنت عندئذ فى حالة نفسية لا تسمح لك أن تفكر الا فى شئ واحد ، لكان من الجائز أن لا تشهر علىَّ خنجرك . لقد أوجست ما ستقدم عليه من فعلة منذ الصباح ، حين رأيت وجهك . أتعرف ما الذى كان يلوح فى هيئتك ؟ لعل هذه الفكرة قد ومضت فى ذهنى لحظةً تبادلنا فيها صليبينا . لماذا أخذتنى فى تلك اللحظة الى أمك العجوز ؟ هل كنت تأمل أن توقف بذلك ذراعك ؟ لا يمكن أن يكون هذا ما خطر

ببالك . انك مثلى قد أحسست احساسا فحسب . . . لقد أحسسنا احساسا واحدا . لولا أنك أشهرت علىَّ يدك (والله هو الذى حوَّلها) أكان يمكننى أن أحتمل اليوم نظرتك ؟ لقد اشتبهت فيك ، ومعنى ذلك أننا ارتكبنا كلانا اثم الريبة (لا تقطب حاجبيك ! لماذا تضحك ؟) . تقول أنك «لم تندم» . ألا انك ما كنت لتستطيع أن تندم ولو أردت ، لانك لا تحبنى ، زيادةً على ذلك . حتى لو كنت ازاءك بريئا كملاك ، لما أمكنك أن تطيق احتمالى ، وستبقى على هذه الحال ما ظللت تظن أنها لا تحبك أنت بل تحبنى أنا . هذا غيرة . ولكن اليك الفكرة التى شغلت ذهنى فى خلال هذا الاسبوع والتى أحرص على أن أطلعك عليها يا بارفيون : هل تعلم أنها تحبك الآن ربما أكثر مما تحب أى انسان آخر ، وأن حبها من نوع يجعلها تحبك مزيدا من الحب كلما عذبتك مزيدا من التعذيب . لن تقول هى هذا فى يوم من الأيام ، ولكن يجب على المرء أن يعرف كيف يفهمه . لماذا تريد أن تتزوجك فى النهاية ؟ سوف تكشف لك عن هذا فى ذات يوم . ان بين النساء من يُردن أن يحبهن الرجل هذا النوع من الحب . ولها مثل هذا الطبع بالذات ! لا شك فى أن طبعك وحبك قد أثرا فيها تأثيرا كبيرا ! هل تعلم أن فى وسع امرأة أن تعذب رجلا تعذيبا قاسيا ، وأن تتخذه أضحوكة وتجعله موضع السخرية والتهكم ، دون أن يشعر ضميرها من ذلك بأى عذاب ؟ ذلك أنها ، كلما رأتك ، تقول لنفسها : «سوف أعذبه الآن تعذيبا قاتلا ، ولكننى سأعوِّضه عن هذا فى المستقبل حبا . . .» .

أصغى روغوجين الى كلام الأمير حتى النهاية ، ثم اذا هو ينفجر ضاحكا ، ويسأله :

— قل لى يا أمير ، أتراك وقعت أنت نفسك على امرأة من هذا النوع ؟ هل ما سمعته عنك صحيح ؟

فارتعش الأمير باختلاجة مفاجئة . وسأله :

— ماذا ؟ ماذا سمعت عنى ؟

ووقف وقد استبد به ارتباك هائل .

ظل روغوجين يضحك . كان قد أصغى الى كلام الأمير بشئ من حب الاطلاع وربما بشئ من التلذذ : ان ما كان يبدو فى الأمير من حماسة حارة مشرقة قد أثر فيه تأثيرا قويا وسرى عنه كثيرا .

قال مضيفا :

— ليس ما سمعته عنك فحسب بل أرى الآن بنفسى أن هذا هو الحقيقة . هل تكلمت فى لحظة من اللحظات كما تكلمت فى هذه اللحظة ؟ لكأن رجلا آخر كان يتكلم الآن بلسانك . لولا أننى سمعت عنك شيئا من هذا القبيل لما جئت الى هنا ساعيا اليك فى الحديقة وقد انتصف الليل .

— لا أفهمك البتة يا بارفيون سيميونتش .

— لقد شرحتْ لى أمرك منذ مدة طويلة ، واستطعت أن أرى بنفسى ، فى هذا اليوم ، كيف كنت جالسا الى جانب الأخرى أثناء سماع الموسيقى . لقد حلفتْ لى أمس واليوم أنك مولَّه بحب آجلايا ايفانتشينا . وهذا أمر لا يعنينى أبدا يا أمير ، ولا علاقة له بشأنى . فلئن أصبحت أنت

لا تحبها فانها هى ما تزال تحبك . هل تعلم أنها تريد أن تزوِّجك الأخرى مهما كلف الأمر ؟ لقد حلفت لتفعلن ذلك ! هىْ هىْ ! قالت لى : «لن أتزوجك ما لم يتحقق هذا . ويومَ يذهبان هما الى الكنيسة نذهب نحن أيضا» . هذا شئ لا أفهمه ولا استطعت أن أفهمه يوما : فاما أنها تحبك حبا لا حدود له واما . . . ولكن اذا كانت تحبك فكيف يمكن أن تريد تزويجك امرأة اخرى ؟ وهى تقول أيضا «أريد أن اراه سعيدا» . اذن فهى تحبك .

قال الأمير وقد أصغى الى روغوجين متألما :

— قلتُ لك وكتبت انها . . . لا تملك عقلها كاملا . . .

— الله أعلم ! قد تكون مخطئا فى هذا . . . على كل حال ، حين اصطحبتها اليوم عائدين من الموسيقى ، حدّدت لى اليوم قائلة : سنتزوج حتما بعد ثلاثة أسابيع ، وربما بعد أقل من ذلك . حلفت على ذلك أمام الايقونة التى أنزلتها وقبّلتها . هكذا يكون الأمر الآن متوقفا عليك يا أمير . هىْ هىْ !

— هذا كله هذيان ! ان ما تقوله لن يحدث أبدا ، لن يحدث أبدا ! سوف أجئ اليك غدا . . .

قال روغوجين :

— أية مجنونة هى ؟ لماذا تكون سليمة العقل فى نظر جميع الناس ، وتكون مختلة فى نظرك وحدك ؟ كيف كان يمكنها أن تكتب رسائل الى هناك ؟ ولو كانت مجنونة للوحظ ذلك من قراءة رسائلها هناك .

سأله الأمير مرتاعا :

— أية رسائل ؟

— انها تكتب رسائل الى هناك ، الى الأخرى ، وهذه تقرأ رسائلها . ألا تعرف هذا ؟ سوف تعرفه اذن . ستريك الرسائل هى نفسها حتما .

هتف الأمير قائلا :

— مستحيل تصديق هذا !

— آه ! أرى يا ليف نيقولايفتش أنك قطعت شوطا قصيرا من هذا الطريق وما زلت فى بدايته . انتظر قليلا : لسوف تصل من الأمر الى حيث يصبح لك شرطة خاصة ، والى حيث تتولى الحراسة بنفسك نهارا وليلا ، فتعرف كل خطوة تتم ، متى . . .

صاح الأمير يقول :

— كفى ! ولا تكلمنى فى هذا مرةً أخرى أبدا ! اسمع يا بارفيون : قبل وصولك بلحظة ، كنت أطوِّف هنا . وفجأة أخذت أضحك ، دون أن أعرف لماذا . ولكن السبب فى هذا أننى تذكرت أن غدا عيد ميلادى . والليل يوشك الآن أن ينتصف . هيّا ، لنحتفل بعيد ميلادى ! عندى خمرة ، سوف نشرب . وسوف تتمنى لى ما لا أعرف أن أتمناه لنفسى الآن . عنك أنت انما يجب أن يصدر هذا التمنى لى . أما أنا فسوف أتمنى لك السعادة الكاملة . والا فهات صليبى ! ردَّه الىَّ ! انك لم ترجعه الىَّ فى اليوم التالى ! أأنت تحمله ؟ أأنت تحمله الآن أيضا ؟

أجاب روغوجين :

— نعم أحمله .

— اذن هيّا ! لا أريد أن أدخل حياة جديدة بدونك ، وان حياة جديدة لتبدأ بالنسبة الىَّ ! ألا تعلم يا بارفيون أن حياتى الجديدة قد بدأت اليوم ؟

— الآن أرى وأعرف بنفسى أنها بدأت . وسوف أبلغها هى ذلك . لستَ فى حالتك الطبيعية يا ليف نيقولايفتش !

الفصل الرابع

حين اقترب الأمير بصحبة روغوجين من منزله ، أدهشه أشد الدهشة أن يرى شرفته تسطع بضياء قوى ويملؤها حفل كبير صاخب . كان الجمع المرح يضحك مقهقها ، ويتدفق فى الكلام تدفقا قويا ، وحتى يتناقش كما بدا بصرخات عالية . ان المرء يقدّر من أول نظرة أن الحشد يقضى وقتا مرحا الى أقصى حد . وبالفعل بعد أن صعد الأمير الى الشرفة ، وجد الجميع يشربون ، بل ويشربون شمبانيا . ويبدو أن هذه الحفلة قد بدأت منذ وقت غير قصير ، لان كثيرا من الضيوف كان قد أتيح لهم أن ينالوا قسطا كبيرا من الانشراح . وكانوا جميعا من معارف الأمير ، ولكن الغريب فى الأمر هو أن يراهم مجتمعين جميعهم دفعة واحدة كمن دعوا دعوة ، مع أنه لم يدع أحدا ، فهو لم يتذكر عيد ميلاده الا عرضا منذ برهة قصيرة .

دمدم روغوجين يقول للأمير وهو يصعد وراءه الى الشرفة :

— أغلب الظن أنك ذكرت لأحد أنك ستقدم شمبانيا ، فهرعوا اذن .

ثم اضاف يقول بلهجة فيها شىء من الحنق ، اذ تذكر بالطبع ماضيه غير البعيد :

— نحن نعرف هذا . يكفى أن تصفر لهم . . .

أحاط الجمع كله بالأمير بعد أن استقبله بصيحات وتمنيات . وكان البعض مسرفين فى الصخب ، وبعضهم الآخر أهدأ كثيرا . ولكن الجميع اسرعوا يهنئونه بعد ان سمعوا عن عيد الميلاد ، وانتظر كل واحد منهم دوره لتقديم

التهانى . وقد تعجب الأمير من حضور بعض الأشخاص ، من حضور بوردوفسكى مثلا . غير أن ما أدهشه أكثر من أى شىء آخر هو أن يجد يفغينى بافلوفتش فجأة فى صحبة مثل هذا الحشد . حتى أنه لم يكد يصدق عينيه ، وانتابه ما يشبه الذعر حين رآه .

وفى هذه الأثناء ، هرع ليبيديف ، وكان شديد احمرار الوجه ، يطفح اعجابا ، هرع يشرح الأمور ، وكان قد سكر **شديد السكر** . فاتضح من ثرثرته أن هذا الملأ كله قد اجتمع شمله على نحو طبيعى تماما ، بل وبمصادفة . فكان ايبوليت أول الوافدين ، لأنه وصل قبل حلول المساء . واذ شعر بتحسن كبير فى حالة صحته ، أراد أن ينتظر الأمير فى الشرفة . فقد جلس على ديوان . ثم التحق به ليبيديف الذى لم يلبث أن تبعته أسرته كلها أى بناته والجنرال ايفولجين . أما بوردوفسكى فقد وصل مع ايبوليت وكان يصحبه . ومر جانيا مع بتيتسين فدخلا ، منذ مدة قصيرة فيما يبدو (دخلا فى الوقت الذى كان يقع فيه حادث المحطة) . وبعد ذلك ظهر كيللر ، فأعلن ان اليوم عيد ميلاد الأمير ، وطالب بشمبانيا . أما يفغينى بافلوفتش فانه لم يحضر الا منذ نصف ساعة . وقد ألحّ كوليا أيضا ، بكل ما أوتى من قوة ، على ضرورة تقديم الشمبانيا واقامة احتفال . فقدّم ليبيديف الخمرة عن طيب خاطر .

دمدم ليبيديف يخاطب الأمير :

— ولكن هذه خمرتى أنا ! انا أتحمل النفقات ، لأحتفل بعيد ميلادك ولأهنئك . وسنولم كذلك وليمة صغيرة ، سنقدم طعاما خفيفا . ان بنتى تهيئه . لكن ، يا أمير

ليتك تعرف الموضوع الذى كنا نتناقش فيه . هل تذكر جملة هاملت هذه : «نكون أو لا نكون ؟» انه لموضوع عصرى ، عصرى جدا ! اسئلة وأجوبة . . . والسيد تيرنتيف لا يريد أن يرقد . . . إطلاقا ! على انه لم يشـــرب الا جرعة شمبانيا واحدة ، جرعة واحدة ، هذا لا يمكن أن يؤذيه . . . اقترب يا أمير ، واحسم المناقشة ! ان الجميع كانوا ينتظرونك ، ان الجميع كانوا لا ينتظرون الا سديد رأيك . . .

ولاحظ الأمير النظرةَ العذبة الملاطفة تلقيها عليه فيرا ليبيديفا وهى تسرع أيضا لكى تشق لنفسها طريقا بين الحشد من أجل أن تصل اليه . فكانت أول من مد الأمير اليه يده متجاوزا الجميع . فاحمرت سرورا وتمنت له «حياة سعيدة **منذ هذا اليوم بالذات**» . ثم اندفعت مسرعة الى المطبخ حيث كانت تهيئ وجبة الطعام الخفيفة . ولكنها كانت ، حتى قبل عودة الأمير ، تجئ الى الشرفة ، ما ان تسنح فرصة للانقطاع عن تهيئة الطعام وذلك لتصغى بكل سمعها الى المناقشات الحامية التى تدور بين الضيوف الى غير نهاية بعد أن أهاجتها الخمرة ، والتى كانت تتناول مسائل مجردة الى أبعد حدود التجريد ، غريبةً عنها الى أقصى درجات الغرابة . وكانت أختها الصغرى قد نامت فى الغرفة المجاورة فاغرة الفم على صندوق . أما الصبى ابن ليبيديف ، فقد بقى قرب كوليا وايبوليت . فاذا رأى الرائى وجهه المتحمس وحده أدرك أن الصبى مستعد لأن يبقى واقفا فى مكانه دون حراك ، عشر ساعات متتالية ، مستمتعا بسماع الحديث .

قال ايبوليت للأمير حين اقترب الأمير منه ليشد يده بعد مصافحة فيرا فورا :

— كنت أنتظرك على أحر من الجمر ، ويسرنى جدا أن أراك عائدا سعيدا هذه السعادة كلها .

— وكيف عرفت أننى «سعيد هذه السعادة كلها» ؟

— يبدو هذا فى وجهك . سلِّم على هؤلاء السادة ثم تعال اجلس هنا ، قريبا منا ، بسرعة .

وأضاف يقول ، ضاغطا على هذه الجملة ضغطا ذا دلالة :

— انتظرتك على أحر من الجمر !

سأله الأمير «أليس خطرا على صحته أن يسهر الى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟» ، فأجابه بأنه يستغرب هو نفسه كيف أمكنه أن يشعر برغبة فى الموت منذ ثلاثة أيام وبأنه لم يشعر يوما بمثل ما يشعر به فى هذا المساء من تحسن فى صحته .

وثب بوردوفسكى ناهضا ، فغمغم يقول أنه جـاء «هكذا . . .» ، «مصطحبا» ايبوليت وأنه أيضا سعيد برؤية الأمير ، وانه «كتب» فى رسالته «سخافات» ولكن «يسعده» الآن «حقا أن . . .» لكنه لم يكمل جملته ، وشدّ على يد الأمير مصافحا بقوة ، ثم جلس على كرسى . . .

حتى اذا فرغ الأمير من تحية الجميع ، اقترب من يفغينى بافلوفتش ، فسرعان ما تأبط هذا ذراعه وقال له هامسا :

— أريد أن أقول لك كلمتين لا أكثر . الأمر أمر هام جدا . فلننفرد دقيقة .

وهمس فى الأذن الأخرى من أذنى الأمير صوت آخر ، بينما تأبطت يد ثانية ذراعه الثانية :

— أريد أن اقول لك كلمتين .

فرأى الأمير أمامه فى دهشة شخصا مشعث الشعر للغاية ، أحمر الوجه ، ضاحكا ، غامزا ، سرعان ما عرفه : انه فرديشنكو ، اللّه وحده يعلم من أين انبجس .

سأله فرديشنكو :

— هل تتذكر فرديشنكو ؟

فصاح الأمير :

— من أين جئت ؟

وصاح كيللر الذى أسرع يقترب :

— انه نادم ! لقد كان مختبئا لأنه لم يشأ أن يظهر أمامك . كان مختبئا هناك ، فى ركن . انه نادم يا أمير . شعر بأنه مذنب .

— ولكن ما ذنبه ؟ ما ذنبه ؟

— أنا لقيته يا أمير ، فجئت به فورا . انه من خيرة أصدقائى . لكنه نادم .

— تشرفت بحضوركما يا سيدىَّ . اذهبا واجلسا مع الجميع . سأحضر حالا .

تخلص منهما الأمير أخيرا وهو يسرع الى يفغينى بافلوفتش .

قال يفغينى بافلوفتش :

— الجو فى بيتك طريف . لقد قضيت فى انتظارك نصف ساعة بسرور . اليك ما أريد أن أقوله لك يا ليف نيقولايفتش الفاضل . لقد رتبت كل شئ مع كورمشيف ، فجئت أطمئنك . لا تقلق . لقد نظر الى الأمر نظرة فيها

كثير من التعقل . لا سيما وأنه ، فى رأيى ، كان هو المخطئ .

— من هو كورمشيف هذا ؟

— ذلك الذى أمسكت ذراعيه منذ قليل . . . لقد بلغ من الغضب أنه كان يريد أن يرسل اليك فى الغد شهوده بدعوة للمبارزة .

— كفى . . دعك من هذه السخافة !

— هى سخافة طبعا . ولا شك أن الأمر كان سينتهى نهاية سيئة . . . غير أن أناسا من هذا النوع عندنا . . .

— أتراك قد أتيت لغرضٍ آخر يا يفغينى بافلوفتش ؟

قال يفغينى بافلوفتش ضاحكا :

— آ . . . طبعا ! هناك غرض آخر . غدا يا عزيزى الأمير ، عند مطلع الصبح ، سأسافر الى بطرسبرج بسبب تلك القضية المشئومة (قضية عمى) . تصور أن كل ما قيل فعلا ، وأن جميع الناس كانوا يعرفونه الا أنا . وقد أثر الأمر فىَّ تأثيرا شديدا حتى أن وقتى لم يتسع للذهاب الى هناك (الى أسرة ايبانتشين) ، ولن أستطيع ذلك غدا ، لأننى سأكون غدا ببطرسبرج . هل تفهم ؟ وقد أغيب عن هنا ثلاثة أيام . والخلاصة : لقد أصبحت أمورى سيئة . ورغم ان الأمر ليس على جانب كبير من الأهمية لكننى رأيت أن علىَّ أن أصارحك فى شئ ما صراحة تامة دون مزيد من الارجاء والتأجيل ، أى قبل سفرى . اذا سمحت لى فسأبقى الآن هنا أنتظر انصراف الناس . وليس هناك شئ يفضل هذا الانتظار عندى ، لأننى مضطرب اضطرابا شديدا فلا سبيل لى الى نوم . الخلاصة أننى ،

رغم ما تشتمل عليه هذه المطاردة للناس من مجافاة للباقة والكياسة والأدب ، أقول لك بصراحة أننى انما جئت اليك ملتمسا صداقتك يا عزيزى الأمير . انك انسان لا نظير له ، بمعنى أنك لا تكذب فى كل لحظة وربما كنت لا تكذب فى أية لحظة . وهناك قضية أحتاج فيها الى صديق وناصح ، فأنا الآن فى عداد الأشقياء فعلا . . .

وأخذ يضحك من جديد .

قال الأمير بعد دقيقة من تفكير :

— الشئ الوحيد المزعج هو أنك تريد انتظار انصرافهم ، ولكن لا يعلم الا الله متى ينصرفون . أفليس الأفضل أن نمضى الآن الى الحديقة ؟ سوف ينتظروننى حتما ، فأعتذر لهم .

— لا ، لا ، هناك أسباب تجعلنى أحب أن لا ينتبهوا الى أننا نبغى اجراء حديث غير عادى . ان بين هؤلاء الناس أفرادا يهتمون بالعلاقات بيننا اهتماما شديدا ، ألا تعرف ذلك يا أمير ؟ فالأفضل كثيرا أن يلاحظوا ان علاقتنا العادية هى أطيب العلاقات وليس فى الظروف الاستثنائية فقط . هل فهمت ؟ سوف ينصرفون بعد نحو ساعتين . وسأشغل من وقتك قرابة عشرين دقيقة ، أو نصف ساعة فى أكثر تقدير . . .

— أهلا وسهلا ، أرجوك . اننى سعيد بك جدا . ما كنت فى حاجة الى مثل هذا التفسير . ثم اننى أشكر لك أحرَّ الشكر كلمتك اللطيفة عن علاقات الصداقة بيننا . اعذرنى لأننى شارد الفكر اليوم ، ولا أستطيع البتة أن أركز انتباهى فى هذه اللحظة .

دمدم يفغينى بافلوفتش يقول وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :

— أرى هذا ! أرى هذا !

كان مرحا جدا فى ذلك المساء .

سأله الأمير منتعشا :

— ماذا ترى ؟

قال يفغينى بافلوفتش دون أن يجيب عن السؤال المباشر ، وهو ما يزال يبتسم :

— ألا تشتبه ، يا عزيزى الأمير ، فى أن لا يكون لزيارتى هذه من هدف الا أن أخدعك وان أحصل منك على بعض المعلومات عرضا ، هه ؟

قال الأمير وقد أخذ يضحك هو أيضا أخيرا :

— أما أنك جئت لتحصل على بعض المعلومات فذلك أمر لا ريب فيه البتة بل لعلك قررت أن تخدعنى الى حد ما . لكننى لا أخشاك . ثم أننى الآن لا يهمنى هذا الأمر ، هل تصدق ؟ ثم . . . ثم . . . ثم لما كنتُ قبل كل شئ مقتنعا بأنك انسان ممتاز فلعلنا سوف ننتهى فى آخر الأمر ، الى أن نصبح صديقين . لقد أعجبتنى كثيرا يا يفغينى بافلوفتش . لأنك . . . فى رأيى . . . رجل محترم جدا . . . جدا !

قال يفغينى بافلوفتش يختم الحديث :

— ان التعامل معك لطيف فى كل أمر من الأمور على كل حال ، أيا كان الباعث اليه . هيّا . . . سوف أشرب كأسا نخبَ صحتك . اننى سعيد جدا بلقائك . . .

وقطع كلامه فجأة ليسأل الأمير :

— آه . . . هل جاء هذا السيد ايبوليت ليقيم عندك ؟

— نعم .

— أظن أنه لن يموت الآن ، أليس كذلك ؟

— لماذا هذا السؤال ؟

— لا لشئ . لقد قضيت فى صحبته هنا نصف ساعة . . .

كان ايبوليت فى هذه الأثناء ينتظر الأمير ، وهو يلقى النظرات باستمرار الى الأمير ويفغينى بافلوفتش ، طوال مدة الحديث الذى جرى بينهما . فلما عادا نحو المائدة انتعش انتعاشا محموما . لقد كان قلقا ، مهتاجا اهتياجا شديدا . وكان جبينه يتصبب بالعرق . وكانت عيناه المتقدتان الملتمعتان تعبران عن قلق متصل متململ ، وعن نوع من نفاد الصبر لا يمكن تحديده . كانت نظرته تنتقل دون هدف من شئ الى آخر ، ومن شخص الى شخص ، دون أن تثبت على أى موضع . ورغم أنه كان حتى ذلك الحين قد شارك مشاركة فعّالة فى الحديث الصاخب الذى كان يدور من حوله ، فلقد كانت حماسته حماسة حمى لا أكثر . ولم يكن منصرفا الى الحديث بذاته . كان تفكيره متقطعا مفككا ، وكان يعبّر عن آرائه بلهجة فيها سخر واهمال ومفارقة . كان لا يكمل جمله ، وينقطع عن المناقشة التى يكون قد أثارها هو نفسه بحرارة محمومة قبل ذلك بدقيقة واحدة . وقد شعر الأمير بدهشة وأسف حين علم أنهم أباحوا له فى ذلك المساء أن يشرب كأسين كاملتين من الشمبانيا . فالكأس التى توجد على المائدة أمامه والتى تجرع بعضها كانت هى الكأس الثالثة . ولكن الأمير لم يعلم بهذا الا فيما بعد . أما الآن فانه لم يكن قادرا على أن يلاحظ أى شئ .

صاح ايبوليت يقول :

— اسمع اننى سعيد جدا بأن يقع عيد ميلادك فى هذا اليوم بالذات !

— لماذا ؟

— سوف ترى لماذا . اجلس بسرعة الى المائدة . أولا : لأن جميع . . . أصحابك حاضرون . لقد قدّرتُ أنهم سيجيئون عددا كبيرا ، وصدق تقديرى لأول مرة فى حياتى ! خسارة أننى لم أعلم بيوم عيد ميلادك من قبل . . . فلو علمت لحملت اليك هدية . . . هأ هأ ! لعلنى قد حملت فعلا هذه الهدية ! هل مطلع الصبح بعيد ؟

قال بتيتسين بعد أن نظر فى ساعته :

— يطلع الفجر بعد ساعتين فى أكثر تقدير .

قال أحدهم :

— ولكن ما حاجتنا الى الفجر اذا كان فى وسعنا أن نستغنى عنه الآن لنقرأ فى الخارج ؟

— ذلك أننى أريد أن أرى قليلا من شمس . هل نستطيع أن نشرب . نخب الشمس يا أمير ؟ ما رأيك ؟

كان ايبوليت يلقى أسئلة بلهجة قاسية ، مخاطبا جميع الناس من غير كلفة ، كأنه يصدر أوامر . ولكن كان يبدو أنه هو نفسه لا يلاحظ ذلك .

— فلنشرب اذا شئت ! ولكن يجدر بك أن تسكن وتهدأ يا ايبوليت ، أليس كذلك ؟

— انك تلحّ دائما علىّ بالنوم ، فانت مربيتى يا أمير ! متى طلعت الشمس وأخذت «تصدح فى قبة السماء» (من قائل هذا البيت من الشعر : «صدحت الشمس فى

قبة السماء» ؟ ليس لهذا الكلام معنى ، ولكنه جميل !)
فعندئذ سوف نرقد . يا ليبيديف ! هل الشمس ينبوع الحياة ؟
ما معنى هاتين الكلمتين «ينبوع الحياة» فى رؤيا القديس
يوحنا ؟ هل سمعت الكلام عن «الكوكب الافسنتى» ، يا
أمير ؟

— قيل لى أن ليبيديف يرى ان «الكوكب الافسنتى»
هو شبكة السكك الحديدية المنتشرة فى اوروبا .

فوثب ليبيديف ناهضا وصاح يقول ملوحا بذراعيه كأنه
كان يريد أن يلجم الضحك الذى انطلق من صدور الجميع :

— لا . . . اسمحوا لى . . . لا يمكن هكذا . . .
اسمحوا لى !

ثم التفت نحو الأمير فجأة فقال له :

— ان هؤلاء السادة . . . ان هؤلاء السادة جميعهم . . .
فى مسائل معينة . . . لا يستهون الا هذا . . .

قال ذلك ونقر المائدة نقرتين بدون تكليف ، فما
كان من هذا الا أن ضاعف الضحك .

كانت حالة ليبيديف فى هذا المساء كحالته «العادية»
فى كل مساء ، ولكنه كان فى هذه المرة أشد حرارة
واهتياجا مما يكون فى العادة ، وذلك بسبب تلك المناقشة
«العلمية» الطويلة التى سبقت . انه فى مثل هذه الحال
يبدى لمعارضيه ازدراء لا حدود له ، جليا كل الجلاء .

— الحال ليس كذلك ! لقد اتفقنا منذ نصف
ساعة يا أمير على أن لا نقاطع ولا نضحك حين يكون
أحدنا بسبيل الكلام ، وأن نفسح لكل فرد مجال التعبير
عن فكره واسعا كاملا . وللملحدين أنفسهم بعد ذلك أن

يعلنوا اعتراضاتهم اذا أرادوا . لقد أقمنا الجنرال رئيسا للجلسة .
نعم ! والاّ ماذا سيحصل ؟ من الممكن أن يجعلوا أى
انسان يفقد تسلسل أفكاره وهو يبدى فكرة رفيعة سامية
عميقة . . .

دوت أصوات تقول :

— ولكن تكلم ، تكلم ! ما من أحد يقاطعك !

— تكلم ، ولكن لا تهذر .

سأل أحدهم :

— ما «الكوكب الافسنتى» هذا ؟

فأجاب الجنرال ايفولجين وهو يجلس على كرسى الرئاسة
الحديثة مهيب المنظر :

— لا أعرف عن هذا الأمر شيئا البتة !

فتمتم كيللر وهو يتململ على كرسيه بهيئة تنم على نفاد
الصبر والشوق القوى :

— اننى أحب هذه المناقشات وهذه المشاجرات حبا
شديدا ! المناقشات العلمية طبعا ، يا أمير .

ثم التفت فجأة الى يفغينى بافلوفتش الذى كان جالسا
بقربه تقريبا ، فقال له :

— المناقشات العلمية والسياسية . لشد ما يشوقنى ما
أقرؤه فى الصحف عن مجلس النواب البريطانى . ليس موضوع
المجادلات والمناقشات هو الذى يفتننى (فما أنا سياسى) ،
وانما تفتننى الطريقة التى يعامل بها بعضهم البعض ، والأسلوب
الذى يستعملونه . انه اسلوب السياسيين اذا جاز التعبير :
«ان الفيكونت النبيل الذى يتخذ مكانه قبالتى . . .» ،
«ان الكونت النبيل الذى يشاطرنى رأيى . .» ، «ان معارضى

النبيل الذى أثار اقتراحه دهشة أوروبا . .» فهذه العبارات الجميلة كلها ، هذه الروح البرلمانية لدى شعب حر ، هى ما يغرينى أنا وأمثالى ! هذا يسحرنى يا أمير . لقد كنت فى قرارة نفسى فنانا على الدوام ، أحلف لك يا يفغينى بافلوفتش .

صاح جانيا من مكانه قائلا بلهجة هجومية :

— انت تستنتج اذن أن طرق السكة الحديدية شر لعين ، وأنها ستكون السبب فى هلاك الانسانية ، وانها السم الذى سينزل على الارض فيلوّث «ينابيع الحياة» ؟

كان جافريلا آرداليونوفتش ، ذلك المساء ، منتعشا انتعاشا خاصا ، وكان فرح المزاج حتى ليكاد يكون شاعرا بالانتصار والظفر فيما بدا للأمير . وواضح أن سؤاله لم يكن الا مزحة أراد بها استفزاز ليبيديف ، ولكنه لم يلبث أن تحمس هو نفسه .

أجابه ليبيديف وقد شعر أنه اخرج عن طوره وأنه فى الوقت نفسه سكران بلذة لا حدود لها :

— لا ، ليس طرق السكة الحديدية ! ان هذه الطرق لا تستطيع بذاتها أن تلوّث ينابيع الحياة . وانما اللعنة محققة على جملة الحال كله وعلى هذه الروح العلمية العملية كلها التى سيطرت فى هذه القرون الاخيرة . من المحتمل ان اللعنة محققة فعلا .

سأل يفغينى بافلوفتش :

— هل اللعنة محققة من كل بد ام هى محتملة فحسب ؟ هذا مهم جدا .

قال ليبيديف مؤكدا باندفاع وحماسة :

— بل اللعنة محققة ! محققة من كل بد !

قال بتيتسين مبتسما :

— لا تستعجل يا ليبيديف ! انك تكون فى الصباح أطيب قلبا .

قال ليبيديف يجيبه بحرارة وهو يلتفت اليه :

— ولكننى فى المساء ، أصرح مقالا ! أنا فى المساء أصدق وأصرح ! أنا فى المساء أبسط وأوضح وأشرف وأرصن . ولعلنى بهذا أتيح لكم أن تمطرونى بانتقاداتكم . ولكننى لا اعبأ بهذه الانتقادات . وانى لأتحداكم الآن جميعا ، أتحدى جميع الملاحدة : بأى شئ ستنقذون العالم ؟ ما هى الطريق السوية التى وجدتموها له انتم ، رجال العلم والصناعة والجمعيات ونظام الأجور وما الى ذلك ؟ بأى شئ ستنقذون العالم ؟ بالتسليف ؟ ما التسليف ؟ الى أين سيؤدى بكم الاقتراض ؟

قال يفغينى بافلوفتش :

— ما أشد فضولك !

— ورأيى أن من لا يهتم بهذه المسائل ليس الا وغدا من المجتمع الراقى !

قال بتيتسين :

— التسليف يؤدى على الأقل الى التضامن العام ، والى توازن المصالح .

— ولكن لا أكثر من هذا ! ان الأساس الاخلاقى الوحيد الذى تقيم عليه رأيك هو ارضاء الأنانية الفردية واشباع الحاجات المادية ، أليس كذلك ؟ السلام الشامل ، والسعادة الجماعية الناشئة عن الحاجة ! اسمح لى أن أسألك :

أليس هذا هو ما يجب أن أفهمه من كلامك أيها السيد الفاضل ؟

قال جانيا فى جدية وقد بدأ يتحمس فعلا :

— ولكن الحاجة المشتركة بين جميع البشر الى أن يعيشوا ويشربوا ويأكلوا ، وكذلك الاقتناع المطلق العلمى بأن هذه الحاجات لا يمكن ارضاؤها الا بالتكافل العام والتضامن فى المصالح ، ذلك فيما يبدو لى رأى قادر على أن يكون دعامة «وينبوع الحياة» للانسانية فى العصور المقبلة .

— ضرورة الشراب والطعام ، أى غريزة البقاء وحدها . . .

— ولكن أليست هذه الغريزة وحدها كافية ؟ انها قانون الانسانية الطبيعى . . .

صاح يفغينى بافلوفتش فجأة :

— من قال لك هذا ؟ هى قانون ، صحيح ، ولكن هذا القانون ليس طبيعيا أكثر من قانون التدمير ، وربما تدمير الذات . هل البقاء هو القانون الطبيعى الوحيد الذى يحكم الانسانية ؟

هتف ايبوليت قائلا وهو يلتفت بقوة الى جهة يفغينى بافلوفتش :

— هيه !

وتفرس فيه باستطلاع شديد ، ولكنه حين لاحظ أنه يضحك ، أخذ يضحك هو أيضا ، ثم لكز كوليا الذى كان واقفا الى جانبه وعاد يسأله كم الساعة الآن ، حتى لقد شدَّ اليه ساعة الفتى الفضية ونظر فى عقربها بشراهة . وبعد ذلك تمدَّد على الديوان كأنما ليغيب فى غياهب النسيان ، جاعلا يديه وراء رأسه ، وأخذ يحدِّق الى السقف . ولكن ما ان

انقضى نصف دقيقة حتى عاد يجلس الى المائدة ، منهضا صدره مصغيا الى هذر ليبيديف الذى بلغ ذروة الحماسة والاهتياج .

قال ليبيديف وهو يؤيد بحرارة الرأى المفارق الذى عبَّر عنه يفغينى بافلوفتش :

— هذه فكرة خبيثة ساخرة ، هذه فكرة مثيرة ! ولكنها فكرة صحيحة صادقة ، رغم أنك لم تقلها الا فى سبيل أن تضرم المناقشة مزيدا من الاضرام . لأنك وأنت رجل ساخر من أبناء المجتمع الراقى ، وخيّال (موهوب على كل حال !) لا تستطيع أن تدرك أنت نفسك كل ما تشتمل عليه فكرتك من عمق وصواب ! نعم ! ان قانون تدمير الذات وقانون المحافظة على الذات لهما قوة واحدة تسيطر على الانسانية ! وسيظل يستعملهما الشيطان كليهما للسيطرة على الانسانية خلال زمن لا نعرف له حداء . أتضحكون ؟ الا تؤمنون بوجود الشيطان ؟ ان انكار وجود الشيطان فكرة فرنسية ، فكرة تافهة . هل تعرفون من هو الشيطان ؟ هل تعرفون اسمه ؟ انكم وأنتم تجهلون حتى اسمه ، تسخرون من صورته ، على غرار فولتيره . تضحكون من حوافره ومن ذنبه ومن قرنيه ، وذلك كله من اختراع خيالكم أنتم ، ذلك أن الروح الشريرة روح ضخمة هائلة لا شأن لها لا بالحوافر ولا بالقرون التى تنسبونها اليها . ولكن ليس هذا هو الأمر الآن !

صاح ايبوليت فجأة يسأله وهو ينفجر فى ضحك كأنما أصابته نوبة عصبية :

— ومن أين عرفت أن الأمر ليس هو هذا الآن ؟

قال ليبيديف يمدحه :

— هذه ملاحظة بارعة موحية ! لكننى أكرر أن الأمر ليس هو هذا الآن . وانما المسألة هى أن نعلم ألم تضعف «ينابيع الحياة» مع تطوير . . .

هتف كوليا قائلا :

— المواصلات بالسكك الحديدية ؟

— لا المواصلات بالسكك الحديدية ، ايها الفتى المتحمس ، بل الاتجاه الذى يمكن أن نعد السكك الحديدية صورة له ، أو تجسيدا فنيا ان صح التعبير . ان الناس الآن فى عجلة من أمرها ، تضج وتصرخ وتستعجل بدعوى العمل لسعادة الانسانية ! ان مفكرا راحلا» يتذمر قائلا : «أصبحت الانسانية مسرفة فى الجلبة ومفرطة فى الصناعة ، شحيحة الهدوء النفسى» . فأجابه مفكر آخر يطوف هنا وهناك ويشيح بوجهه عن الأول منتصرا متعاليا : «ليكن . ولكن ضجة العربات التى تحمل الخبز للبشر الجياع قد تكون أفضل من الهدوء النفسى» . أما أنا ، أنا ليبيديف الحقير ، فاننى لا أؤمن بالعربات التى تحمل الخبز للبشرية ! لأن هذه العربات ، ان لم تقدها فكرة أخلاقية روحية ، يمكنها ببرود وهدوء أن تحرم من حق الخبز الذى تنقله جزءا كبيرا من النوع الانسانى . وقد رأينا هذا فعلا . . .

قال أحدهم يسأل :

— هل العربات هى التى تستطيع بهدوء وبرود أن تحرم ؟

أكد ليبيديف قائلا دون أن يتنازل فيولى السؤال أى انتباه :

— لقد رأينا هذا فعلا . لقد كان مالتوس» رجلا من

محبى البشر . لكن محب البشر هو من أكلة لحوم البشر اذا كان الأساس الأخلاقى الذى يقف عليه مهتزا مترنحا . ناهيك عن غروره . . . انه ليكفى أن تجرح كبرياء أى واحد من محبى البشر هؤلاء الذين لا يحصى عددهم حتى يكون مستعدا لأن يحرق على الفور أركان الأرض الأربعة ارضاء لحقده الصغير . . . وبالمناسبة أقول حتى أكون منصفا أن كل واحد منا ، وأنا أيضا بوصفى أكثر الجميع حقارة ووقاحة مستعد أن يفعل مثل هذا ، فلعلنى أكون أول من يحمل حزم الحطب لاضرام النار ، ثم يولى هاربا . ولكننى أعود فأقول ان المسألة ليست هذه !

— فما هى المسألة اذن ؟

— مللنا منه !

— المسألة هى مسألة حكاية ترجع الى القرون الماضية ، ذلك أننى مضطر أن أحدثكم حكاية عن عهد بعيد . ففى عصرنا هذا ، وفى وطننا الذى تحبونه ، فيما أرجو ، كما أحبه أنا أيها السادة لأننى من جهتى مستعد لأن أبذل فى سبيله آخر قطرة من دمى . . .

— طيب طيب ، وبعد ؟

— فى وطننا ، كما فى أوروبا ، تنتاب الانسانية مجاعات عامة شديدة مرةً كل ربع قرن فى أكثر تقدير ، اذا صحت الحسابات وصدقت ذاكرتى ، أى كلَّ خمس وعشرين سنة . لست أناقش صحة الرقم ، ولكن هذه المجاعات نادرة نسبيا .

— نسبيا ؟ تعنى بالنسبة الى ماذا ؟

— بالنسبة الى القرن الثانى عشر ، والى القرون التى

سبقته وأعقبته . ذلك أن المجاعات العامة ، فى ذلك العهد ، كانت تجتاح الانسانية كلَّ سنتين أو كل ثلاث سنين ، على الأقل — هذا ما يشهد به ويكتب عنه المؤرخون — حتى ان الانسان فى مثل تلك الظروف كان يعمد الى أكل لحم البشر ، ولكن خفيةً . وقد روى طفيلى من ذلك الزمان ، حين دلف الى الشيخوخة ، روى من تلقاء نفسه ، دون أى ضغط أو اكراه ، أنه فى أثناء حياته الطويلة التعيسة قد قتل وأكل فى السر ستين راهبا وعدة أطفال دنيويين ، ستةً فى أكثر تقدير ، وهو عدد ضئيل بالقياس الى عدد رجال الدين الذين أكلهم . أما الكبار من غير رجال الدين فيظهر أنه لم يمسس أحدا منهم فى يوم من الأيام .

هتف الرئيس نفسه وهو الجنرال يقول بلهجة فيها ما يشبه الاستياء :

— هذا غير ممكن ! اننى كثيرا ما أناقشه وأجادله أيها السادة فى موضوعات من هذا النوع دائما . فاذا هو يطالعنى فى أكثر الأحيان بمثل هذه الأضاليل التى تُصمّ منها الآذان . . . أشياء لا يمكن أن يسلم بها العقل !

— يا جنرال ، تذكر حصار كارس* ! وأنتم أيها السادة ، اعلموا أن حكايتى هى الحقيقة صافية . وأضيف من جهتى أن الواقع ، رغم خضوعه لقوانين ثابتة لا تتغير ، يكاد يكون دائما صعب التصديق بعيدا عن المعقول . وفى بعض الأحيان نرى الحادث أبعد عن المعقول كلما كان ألصق بالواقع .

سأله السامعون ضاحكين :

— ولكن هل يستطيع امرؤ أن يأكل هكذا ستين راهبا ؟

— انه لم يأكلهم دفعةً واحدة بطبيعة الحال . لعله أكلهم خلال خمس عشرة سنة أو عشرين . ففى هذه الحالة يكون الأمر مفهوما وطبيعيا الى أبعد الحدود . . .

— وطبيعيا أيضا ؟

— نعم ، طبيعيا !

كذلك أجاب ليبيديف غاضبا بعناد المتحذلق . وتابع يقول :

— ثم ان الراهب الكاثوليكى هو بطبيعته انسان سهل الانقياد كثير الاستطلاع ، فلا أسهل من استدراجه الى غابة أو الى مكان ناءٍ ، ليلقى هنالك المصير الذى وصفته آنفا . ولست أجحد مع ذلك أن عدد الأشخاص المأكولين فيه اسراف ، وأنه يدل على الشراهة .

قال الأمير فجأة :

— ربما كان هذا صحيحا أيها السادة .

كان قد لزم الصمت حتى ذلك الحين ، وتابع المناقشة دون أن يتدخل فيها . وقد ضحك من كل قلبه مرارا حين أخذ الجميع يضحكون . كان واضحا أنه سعيد بهذا المرح ، وبكل هذه الضوضاء ، بل وبأن ضيوفه يشربون كثيرا بهذا الاندفاع كله . كان يمكن أن لا يفتح فمه طوال السهرة ، ولكن خطر بباله فجأة أن يقول كلمة ، ففعل ذلك بجد ورصانة يبلغان من الشدة أن جميع الضيوف التفتوا فجأة بشعور الاستطلاع .

— أريد أن أوضّح نقطة واحدة أيها السادة ، هى كثرة تكرر المجاعات فى الماضى . لقد سمعت عن هذا الأمر أنا أيضا ، وان كنت لا أعرف التاريخ معرفة جيدة .

يبدو لى أن الأمر كان على هذا النحو حقا . اننى أثناء اقامتى فى جبال سويسرا قد أعجبت كثيرا بأطلال القصور الاقطاعية القديمة ، القائمة فى جنبات الجبال ، فوق صخور وعرة ، على ارتفاع عمودى لا يقل عن نصف فرسخ (أى عدة فراسخ سيرا فى الطرقات المؤدية اليها) . تعرفون ما القصر : انه جبل من حجارة حقا . ان بناءه يتطلب عملا رهيبا ، عملا لا يتصوره الخيال ! ولا شك فى أنه قد قام به جميع أولئك الفقراء الذين كانوا أقنانا . وكان على هؤلاء ، بالاضافة الى ذلك ، أن يدفعوا أنواعا من الاتاوات وأن يعيلوا رجال الكهنوت . كيف كانوا يستطيعون أن يقيموا أود أنفسهم وأن يزرعوا الأرض ؟ لقد كان عددهم فى ذلك الزمان قليلا ، وكان أكثرهم يموتون جوعا فى أغلب الظن ، لأنهم لا يجدون ما يأكلونه فعلا . حتى اتفق لى أن تساءلت أحيانا : كيف لم يندثر أولئك السكان كافة ، وكيف تحاشوا المصيبة ، وكيف قاوموا واستطاعوا أن يتحملوا تلك الحياة ؟ فاذا قال ليبيديف أنه حدث فى ذلك الزمان أن أكل بعض الناس لحوم بشر وربما كثيرا جدا ، فانه على حق حتما . ولكنى لا أدرى لماذا أقحم الرهبان فى هذه القضية ، ولا أعلم ما الذى أراد أن يقول ؟

قال جافريلا آرداليونوفتش :

— لعله أراد أن يقول أن المرء فى القرن الثانى عشر كان لا يستطيع أن يأكل من البشر الا الرهبان ، لأن الرهبان وحدهم كانت بهم سمنة .

فصاح ليبيديف يقول :

— انها لفكرة رائعة كل الروعة وصحيحة كل الصحة ،

ذلك أن صاحبنا حتى لم يمسس أحدا من غير رجال الدين . لم يأكل رجلا واحدا من غير رجال الدين وأكل ستين عينةً من هؤلاء : هذه واقعة فظيعة ، لها دلالة تاريخية وقيمة احصائية فى نهاية الأمر . هى واقعة من الوقائع التى يكتب بواسطتها رجل مقتدر التاريخ ، اذ يبرهن بدقة حسابية على أن رجال الكهنوت كانوا فى ذلك الزمان أكثر رخاء وسعادة من سائر البشر ستين مرةً على الأقل ، وربما كانوا أسمن من سائر البشر ستين مرة أيضا .

صاح بعض الحاضرين يقول وسط انفجارات الضحك :

— ما أشد مبالغتك يا ليبيديف ، ما أشد مبالغتك !

عاد الأمير يقول سائلا :

— أنا أسلم بأن لهذه الفكرة دلالة تاريخية ، ولكن ما الذى تريد أن تخلص اليه ؟ (كان الأمير يتكلم بجد يبلغ من الشدة ، ولهجة تبلغ من خلوها من السخرية والتهكم على ليبيديف الذى كان يتندر به الحضور كافة ، أن التناقض بين لهجته وبين لهجة الحفل كله كان يخرج منه تأثير هزلى مضحك بدون قصد ، حتى لقد أوشك أن يصبح الأمير نفسه محل ضحك وتهكم ، ولكن الأمير لم ينتبه الى هذا) .

مال يفغينى بافلوفتش الى الأمير قائلا له :

— ألا ترى يا أمير أنه مجنون ؟ لقد قيل لى هنا منذ قليل أن الميل الى المحاماة ومرافعات المحامين قد ذهب بصوابه وأنه يريد أن يتقدم الى امتحان . اننى أتوقع محاكاة مضحكة لمرافعة محام .

تابع ليبيديف كلامه قائلا بصوت مدو :

— اننى أخلص الى نتيجة ضخمة . ولكن يجب أن نحلل قبل كل شئ الوضع السيكولوجى والقضائى لهذا المجرم . اننا نرى أن هذا المجرم أو موكّلى ان جاز التعبير ، رغم استحالة عثوره على غذاء آخر ، قد أبدى مرارا ، طوال مدة حياته الغريبة ، رغبةً فى التوبة وفى العدول عن لحم رجال الدين . وهذا يتجلى واضحا فى وقائع ثابتة : لقد أكل خمسة أطفال أو ستة فيما قيل لنا . صحيح أن هذا الرقم الأخير ضئيل نسبيا . ولكنه من وجهة نظر أخرى يحمل دلالة بليغة . واضح أن موكّلى قد حاصرته نوبات رهيبة من عذاب الضمير (ذلك أنه كان رجلا متدينا ، رجلا ذا وجدان ، أستطيع أن أبرهن على ذلك) : وقد أراد أن يخفف ذنبه ، فى حدود الامكان ، فأحلّ محل النظام الغذائى القائم على أكل لحوم رجال الدين نظاما غذائيا قائما على أكل لحوم غير رجال الدين : فعل ذلك ست مرات على سبيل التجربة . فأما أن ما فعله عندئذ كان تجارب ، فذلك أيضا أمر لا سبيل الى جحوده . ذلك أنه لو كان لا يريد الا أن يبدل قائمة طعامه من باب التنويع ، لما كان لعدد الستة أية قيمة . لماذا كان العدد ستة ولم يكن ثلاثين ؟ (اننى هنا أقسم البشر الذين أكلهم نصفين : نصفا من رجال الدين ونصفا من غير رجال الدين) . أما اذا كان الأمر أمر تجربة لم يدفعه اليها الا اليأس والجزع من الاعتداء على الدين والاساءة الى الكنيسة ، فان عدد الستة يكون عندئذ معقولا بل أكثر من معقول . ان ست تجارب يقوم بها لتهدئة ما يعانيه من عذاب الضمير لهى أكثر من كافية ، اذ لا يمكن أن تؤدى الى نتيجة

مرضية . أولاً فى رأيى لأن الطفل صغير جدا ، أو قولوا هزيل جدا : فلو أكل موكّلى أطفالا دنيويين بدلا من أن يأكل رهبانا خلال مدة معينة لكان عليه أن يبتلع من الأطفال ثلاثة أضعاف بل خمسة أضعاف ما يبتلع من رهبان . وبذلك تكون جريمته قد خفّت من جهة الكيف ، ولكن ثقلت فى نهاية الأمر من جهة الكم . اننى اذ أفكر فى الأمر على هذا النحو أيها السادة ، انما أضع ذاتى فى الحالة النفسية التى كان عليها مجرم القرن الثانى عشر . أما أنا ، رجل القرن التاسع عشر ، فمن الممكن أن أفكّر فى الأمر تفكيرا آخر غير هذا التفكير . اننى ألفت نظركم الى هذا ، فلا داع اذن أيها السادة لأن تسخروا منى . أما أنت يا جنرال ، فمن غير اللائق اطلاقا أن تفعل ذلك . أما ثانيا فان لحم الطفل — وهذا رأى شخصى لى — لا يشتمل على غذاء كثير ، وربما كان مذاقه مسرف الحلاوة ، فلا يترك فيمن يأكله الا عذاب الضمير دون أن يشبعه . اليكم الآن ، أيها السادة ، النتيجة التى أخلص اليها ، اليكم الخاتمة التى تحل لكم مشكلة من أكبر المشكلات فى ذلك الزمان وفى هذا الزمان على السواء ! ان المجرم قد انتهى به الأمر الى الوشاية بنفسه للكهنوت ، والمثول بين أيدى السلطة . فلنتساءل أية أنواع من التعذيب كانت تنتظره فى ذلك الزمان ، أية عجلات كان سيربط بها وأية نيران كان سيلقى فيها ؟ فما الذى دفعه الى الوشاية بنفسه والاعتراف بجريمته ؟ لماذا ، بعد أن وقف عند العدد ستين ، لم يحتفظ بسره الى آخر رمق من حياته ؟ لماذا لم يقتصر على الاستغناء عن أكل لحم الرهبان ، والتفكير عن

نفسه بأن يعيش ناسكا ؟ لماذا لم يصبح راهبا هو نفسه ؟ هاكم حل اللغز ! كان هنالك اذن قوة فوق قوة نيران التعذيب ، وفوق قوة العادة التى ترسخت طوال عشرين عاما ! كان هنالك فكرة أقوى من جميع الكوارث والمجاعات والتعذيب والطاعون والجذام وكل ذلك الجحيم الذى ما كان للانسانية أن تحتمله لو لا تلك الفكرة نفسها التى كانت تربط بين القلوب وتوجهها ، وتُخصب ينابيع الحياة ! هيَّا أروني شيئا يشبه تلك القوة ، فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، عصر الرذائل والسكك الحديدية . . . كان ينبغى أن أقول : عصر السفن البخارية والسكك الحديدية . . . ولكننى أقول : عصر الرذائل والسكك الحديدية ، لأننى سكران ، ولكنى منصف ! أروني فى زماننا هذا فكرة تربط بين البشر ولو بنصف القوة التى كانت تربط بها بينهم فى تلك القرون فتجرءوا وحاولوا ان تقولوا بعد هذا أن ينابيع الحياة لم تضعف ، ولم يتعكر صفوها ، تحت ذلك «الكوكب» ، تحت هذه الشبكة التى التفَّ بها البشر . فلا ترهبونى برخائكم وثرواتكم وندرة المجاعات وسرعة وسائل المواصلات ! ان الثروات أوفر ، ولكن القوى أقل . لم يبق ثمة فكر يخلق رابطة بين البشر . ان كل شئ قد تراخى ، كل شئ قد تعفن ، والجميع قد تعفنوا ! اننا جميعا ، جميعا ، جميعا قد تعفنا ! . . ولكن كفى ! ليس هذا هو المهم الآن . وانما المهم أن علينا أيها الأمير المبجل أن نأمر بجلب الطعام المعد للضيوف ، أليس كذلك ؟

أوشك ليبيديف أن يحدث فى نفوس بعض سامعيه استياء حقيقيا (يجب أن نذكر أن الزجاجات كانت تفتح

على الدوام أثناء ذلك الوقت كله) . لكنه أصلح بينه وبين جميع خصومه فورا بهذه الخاتمة غير المنتظرة ، التى تزف بشرى وجبة الطعام ، وهى خاتمة وصفها هو نفسه بأنها «حيلة بارعة يقوم بها محام حاذق لتغيير مجرى قضية» . وتعالت ضحكات فرحات من جديد ، وعاد الحفل الى نشاطه وحميَّاه . ونهض الجميع عن المائدة ، ليتمشوا على الشرفة وليحركوا أعضاءهم ويُذهبوا عنها التخدر . وظل كيللر وحده مستاءً من خطاب ليبيديف ، وانفعل انفعالا شديدا ، وأخذ يستوقف جميع الضيوف واحدا بعد واحد ، فيقول لهم بصوت عال :

— انه يهاجم الحضارة ، ويمجد وحشية القرن الثانى عشر ؛ ويتلوى ويتمثل وهو خال من كل طهارة القلب . قولوا لى : بأى مال أصبح هو نفسه مالكا لهذا المنزل ؟

وقال الجنرال فى الركن الآخر لأشخاص آخرين من الحفل موجها الكلام الى بتيتسين خاصةً وهو يقبض على زر سترته :

— لقد عرفت شارحا حقيقيا لرؤيا القديس يوحنا ، هو المرحوم غريغورى سيميونوفتش بورمستروف . كان هذا يحرق القلوب اذا صح التعبير . كان يبدأ أولا بوضع نظاراته ، ثم يفتح كتابا كبيرا قديما مجلدا بجلد أسود . كانت له لحية شائبة ، وكان يزين صدره بوسامين فاز بهما لقيامه بأعمال بر كثيرة . كان يأخذ يقرأ بلهجة شديدة قاسية . وكان الجنرالات ينحنون أمامه وكانت السيدات تقع مغشيا عليها . أما هذا فانه يختم كلامه بالتبشير بالطعام للضيوف ! شئ عجيب !

كان بتيتسين أثناء اصغائه الى كلام الجنرال يبتسم محافظا على هيئة من يريد أن يتناول قبعته وينصرف ولكن كأنه كان لا يعزم أمره عليه او كان ينسى دائما اعتزامه . وقبل النهوض عن المائدة كان جانيا قد انقطع عن الشراب فجأة ، وأبعد الكأس عنه ، وطافت بوجهه سحابة فأظلم . حتى اذا نهضوا عن المائدة اقترب من روغوجين وجلس الى جانبه . فلو رآهما راءٍ لاعتقد انهما على خير وفاق ، وأن العلاقات بينهما أحسن ما تكون العلاقات . ان روغوجين الذى أوشك فى البداية أن ينصرف متسللا خفية ، عدة مرات ، يجلس الآن ساكنا خافض الرأس . كأنه هو أيضا قد نسى اعتزامه الانصراف . وخلال السهرة كلها لم يشرب قطرة من الخمرة وكان غارقا فى أفكاره . وهو يرفع عينيه فى بعض اللحظات فيتفرس فى جميع الحاضرين واحدا بعد واحد . ان وضعه الآن يحمل على الاعتقاد بأنه قد أرجأ انصرافه بانتظار شئ له عنده شأن خطير .

لم يكن الأمير قد شرب الا كأسين أو ثلاثا . فكان فرحا لا أكثر . فلما نهض عن المائدة رأى أن يفغينى بافلوفتش كان ينظر اليه ، فتذكر أن هناك حديثا يجب أن يجرى بينهما فابتسم هاشا . فأومأ له يفغينى بافلوفتش بحركة من رأسه ، مشيرا فجأة الى ايبوليت الذى كان نائما متمددا على الديوان والذى كان يفغينى بافلوفتش يحدّق اليه فى تلك اللحظة بنظرة فاحصة .

قال يفغينى بافلوفتش فجأة ، ودلت لهجته على انزعاج بيّن وحتى على الكراهية مما أثار دهشة الأمير :

— لماذا اندس هذا الصبى فى بيتك يا أمير ؟

أراهن أن فى رأسه غرضا سيئا !

فقال له الأمير :

— لقد لاحظت يا يفغينى بافلوفتش ، أو خيّل الىّ على الأقل ، أنك اهتممت به اليوم كثيرا ، أهذا صحيح ؟

— أضف الى ذلك أن عندى أنا من الظروف الخاصة التى تحيط بى ما يجب أن أفكّر فيه ، لذلك فأنا أول المدهوشين من أننى لم أستطع طوال مدة السهرة أن أحوّل بصرى عن هذا الوجه المنفّر الكريه !

— ان وجهه جميل . . .

صاح يفغينى بافلوفتش يقول للأمير وهو يجره من ذراعه :

— انظر ، انظر ، انظر ! . .

فألقى الأمير على محدّثه نظرة مشدوهة من جديد .

الفصل الخامس

ان ايبوليت الذى كان قد نام على الديوان فجأة فى ختام خطاب ليبيديف استيقظ الآن فجأة ، كأن أحدا لكزه فى جنبه ؛ وارتعش ، وجلس متكئا على أحد كوعيه ، ونظر فيما حوله وشحب لونه . كان يتلفت فيما حوله فى شئ من الجزع . لكنه حين ثابت اليه ذاكرته واسترد وعيه ، استحال ذلك الجزع فى وجهه الى ما يشبه الذعر . فقال مغموما وهو يمسك يد الأمير :

— ماذا ؟ أينصرفون ؟ انتهى ؟ انقضى كل شىء ؟ هل طلعت الشمس ؟ كم الساعة الآن ؟ قل لى كم الساعة الآن ، ناشدتك الله ! لقد استيقظت متأخرا . هل نمت مدةً طويلة ؟

أضاف هذه الجملة الأخيرة بلهجة تعبِّر عما يكاد يكون يأسا شديدا فكأنه قد فاته أثناء النوم أمر يتوقف عليه مصيره كله على أقل تقدير .

أجابه يفغينى بافلوفتش :

— نمت سبع دقائق أو ثمانى .

فنظر اليه ايبوليت بشراهة ، وفكَّر بضع لحظات ، ثم قال :

— آ . . . فقط ! . . . اذن أنا . . .

وتنفس الهواء بقوة ونهم كأنه تخلص من عبء هائل . لقد فهم أخيرا أنه «لم ينته كل شىء» ، وأن الفجر لم يسطع بعد ، وأن الحصور لم يقوموا عن المائدة الا ليمضوا الى تناول وجبة خفيفة ، وأن الشئ الوحيد الذى انتهى انما هو

ثرثرة ليبيديف . فابتسم وتخضبت وجنتاه ببقعتين حمراوين تكشفان عما به من مرض السل . ثم لم يلبث أن قال بلهجة ساخرة :

— وأنت يا يفغينى بافلوفتش ، لقد عددتَ حتى الدقائق التى قضيتها أنا نائما . انك لم تحول بصرك عنى طوال السهرة . . . لقد لاحظتُ ذلك . . .

وأردف يهمس للأمير ، مقطبا حاجبيه ، مشيرا بحركة من رأسه الى روغوجين الجالس الى المائدة :

— آ . . . روغوجين ! لقد رأيته الآن فى الحلم . . .

وغيَّر موضوع كلامه فجأة من جديد :

— آ . . . على فكرة . . . أين الخطيب ؟ أين ليبيديف ؟ هل انتهى من القاء خطابه اذن ؟ عمَّ تحدث ؟ هل صحيح يا أمير أنك قلت فى ذات يوم ان «الجمال» سوف ينقذ العالم ؟

ثم صاح موجِّها كلامه الى جميع الحضور :

— أيها السادة ، يقول الأمير أن الجمال سوف ينقذ العالم ! أما أنا فأقول أن سبب آرائه الطائشة المرحة هذه هو أنه عاشق الآن . أيها السادة ، ان الأمير عاشق . لقد أيقنت بهذا منذ دخل علينا قبل مدة قصيرة . لا تحمرَّ خجلا يا أمير ، والا أخذتنى بك شفقة . أى جمال سوف ينقذ العالم ؟ ان كوليا هو الذى نقل الىَّ حديثك هذا . . . هل أنت مسيحى قوى الايمان ؟ يقول كوليا انك أنت الذى تنعت نفسك بأنك مسيحى .

تأمله الأمير مليا ولم يجبه .

فأضاف ايبوليت يقول فجأة كأنه لم يتمالك نفسه :

— ألا تجيب ؟ أتراك تظن أننى أحبك كثيرا ؟

— لا ، لا أظن ذلك . أنا أعلم أنك لا تحبنى .

— كيف ؟ حتى بعد الذى حدث أمس ؟ لقد كنت صادقا معك أمس .

— أمس أيضا كنت أعلم أنك لا تحبنى .

— هل تعنى أن سبب ذلك هو أننى أحسدك ؟ انك قد ظننت هذا دائما ، وما زلت تظنه ، ولكن . . . لماذا أكلمك فى هذا ؟ أريد أن أشرب مزيدا من الشمبانيا . يا كيللر ، صبَّ لى شمبانيا .

— ما ينبغى أن تشرب أكثر مما شربت يا ايبوليت . لن أدع لك أن تشرب . . .

قال له الأمير ذلك ، وأبعد عنه الكأس .

فلم يلبث ايبوليت أن قال موافقا كأنه يستغرق فى التفكير :

— صحيح . . . قد يقولون أننى . . . ولكن ما شأنى بما قد يقولونه ! . . أليس كذلك ؟ ليقولوا فيما بعد ما شاء لهم هواهم أن يقولوا ، أليس هذا صحيحا يا أمير ؟ وما شأننا نحن جميعنا بما سيكون **فيما بعد** ! . . على كل حال ، أنا الآن بين النوم واليقظة . رأيت حلما فظيعا وأى فظاعة ! فى هذه اللحظة انما أتذكره . . . لا أتمنى لك أحلاما كهذا الحلم يا أمير ، رغم أننى ربما كنت لا أحبك فعلا . على كل حال ، اذا كان امرؤ لا يحب شخصا من الأشخاص فليس حتما عليه أن يريد له الشر ، أليس هذا صحيحا ؟ ولكن ما بالى ألقى هذه الأسئلة كلها ؟ فيم هذه الأسئلة جميعها ؟ ناولنى يدك

فاشد عليها شدا قويا . هكذا . . . هل مددت الىَّ يدك رغم كل شئ ؟ هل تشعر اذن أننى أشد عليها صادقا مخلصا ؟ . . لعلنى لن أشرب أكثر مما شربت . كم الساعة الآن ؟ ولكن لا داعى أن تقولوا لى كم الساعة الآن . . . أنا أعرف . لقد دقت الساعة ! آن الأوان . ماذا ؟ هل يقدمون وجبة الطعام فى ذلك الركن ؟ هل هذه المائدة خالية اذن ؟ عظيم . . . أيها السادة ، اننى . . . جميع هؤلاء السادة لا يريدون حتى أن يصغوا . . . اننى أريد أن أقرأ مقالة يا أمير . صحيح أن وجبة الطعام أهم شأنا ، ولكن . . .

واستل ايبوليت من جيبه الجانبى العلوى ، بطريقة مفاجئة غير متوقعة ، حزمة عريضة من قياس رسمى ، مختومةً بخاتم كبير أحمر ، ووضعها على المائدة أمامه .

أحدثت هذه المفاجأة أثرها فى الحفل ، الذى كان غير متهيئ لذلك أو على الأصح الذى كان **متهيئا** ولكن لا لذلك . نهض يفغينى بافلوفتش عن كرسيه منتفضا . واقترب جانيا من المائدة بحركة سريعة . وتبعه روغوجين ، لكنه تبعه متذمرا منزعجا كمن يعرف حقيقة الأمر . وكان ليبيديف قريبا فتقدم والفضول يشع من عينيه وأخذ يتفحص الحزمة محاولا أن يحزر ما تحتويه .

سأله الأمير بلهجة قلقة :

— ما هذا الذى معك ؟

صاح ايبوليت يقول :

— سأرقد متى طلعت أولى أشعة الشمس يا أمير . لقد قلت ذلك . يمينا . سوف ترى !

ثم أضاف وهو يلقى حوله نظرة تحدٍ كأنه يواجه بها جميع الحضور بغير استثناء :

— ولكن . . . ولكن . . . هل تظنون أننى لا أقدر أن أفض هذه الحزمة ؟

لاحظ الأمير أن ايبوليت كان يرتجف بكل جسمه . فتكلم باسم الجميع قائلا :

— لم يدر هذا الخاطر فى ذهن أحد منا ، فلماذا تظن أن هذه الفكرة قد راودت أحدا ما و . . . ما أغرب هذه الرغبة وهى أن تقرأ لنا مقالة ؟ ما هذا الذى معك يا ايبوليت ؟

وتساءل بعضهم من حوله :

— ما هذا ؟ ماذا دهاه أيضا ؟

واقترب الجميع ، وكان بعضهم ما يزال يأكل . كانت الحزمة وخاتمها الأحمر يجذبان الجميع كالمغناطيس .

قال ايبوليت يخاطب الأمير :

— هذا ما كتبته بنفسى أمس ، بعد أن قطعت لك عهدا بأن أجئ اليك لأقيم عندك يا أمير . قضيت فى كتابته طول النهار والليل ، وأنهيته فى هذا الصباح . لقد رأيت حلما قبل مطلع الصبح . . .

قاطعه الأمير يقول فى وجل :

— أليس الأفضل أن ترجئ القراءة الى غد ؟

فردَّ عليه ايبوليت قائلا وهو يبتسم ابتسامة عصبية :

— غدا «لا يكون قد بقى وقت» ! ولا تخف على كل حال ، فان القراءة ستستغرق أربعين دقيقة ، أو ساعة فى أكثر تقدير . . . انظر الى اهتمام الجميع بالأمر : ان

كل واحد يقترب ، وان كل واحد ينظر الى حزمتى المختومة . لولا أننى وضعت المقالة فى حزمة مختومة لما أثارت أى اهتمام ! هأ هأ ! هذه جاذبية السر ! . . .

ثم هتف يقول ضاحكا ضحكته الغريبة ، طائفا على الحضور بنظرات عينيه المتقدتين :

— أأفض أم لا أفض أيها السادة ؟ سر ! هل تتذكر يا أمير من ذا الذى أعلن أنه «لا يكونُ زمانٌ بعدُ» ؟ انه الملاك الكبير القوى الذى تحدثنا عنه رؤيا يوحنا .

هتف يفغينى بافلوفتش فجأة يقول وقد ظهر عليه قلق غير متوقع الى درجة أن هذا بدا غريبا للكثير من الحضور :

— الأفضل أن لا تقرأ !

وصاح الأمير يقول أيضا وهو يضع يده على الحزمة :

— لا تقرأ !

وقال أحدهم :

— ما القراءة الآن ! الآن الطعام !

وسأل آخر :

— مقالة ؟ مقالة لمجلة ، هه ؟

وأضاف ثالث :

— ربما سيكون هذا مملا ؟

وسأل الآخرون :

— ولكن ما الأمر ، ما المسألة ؟

ولكن حركة التخوف التى بدرت من الأمير كما لو أرهبت ايبوليت نفسه . فهمس للأمير ، بلهجة خائفة ، بينما كانت تلُم بشفتيه المزرَّقتين ابتسامة متصعِّرة :

— ألا أقرأ اذن ؟

ثم دمدم سائلا وهو يدور بنظرته على جميع الحضور ، على جميع الأعين وجميع الوجوه ، كأنه يتشبث من جديد بالناس بنفس الشعور العاصف كما لو كان ينقضّ عليهم :

— ألا أقرأ اذن ؟

وعاد يلتفت نحو الأمير مرة أخرى ويسأله :

— أأنت . . . خائف ؟

فسأل الأمير وكانت سحنته تنقلب وتتغير من دقيقة الى أخرى :

— ممَّ أخاف ؟

فما كان من ايبوليت الا أن وثب عن مكانه على حين فجأة ، كأنه انتُزع من كرسيه انتزاعا ، وصاح يسأل :

— هل مع أحد منكم قطعة نقدٍ بعشرين كوبيكا ؟

فأسرع ليبيديف يناوله قطعة النقد قائلا :

— خذ !

وبرقت فى خاطر ليبيديف فكرة أن ايبوليت المريض فقد عقله وأصابه جنون .

ودعا ايبوليت مناديا فى عجلة :

— فيرا لوكيانوفنا ! أمسكى هذا القرش وارميه على المائدة ، ثم انظرى : هل سقط على وجهه أم على قفاه . فان سقط على قفاه قرأت !

نظرت فيرا ، مذعورةً ، الى القرش فالى ايبوليت فالى أبيها ، ثم رفعت رأسها كما لو اعتقدت بأن عليها أن لا ترى القرش ، ورمته على المائدة بحركة خرقاء . لقد سقط القرش على قفاه .

فهمس ايبوليت يقول وكأن قرار الحظ هذا قد سحقه سحقا :

— يجب أن أقرأ !

ما كان لايبوليت أن يصطبغ وجهه بهذا الشحوب الرهيب ولو سمع قرار الحكم عليه بالاعدام .

قال مرتعشا على حين فجأة بعد نصف دقيقة من الصمت :

— ما معنى هذا على كل حال ؟ أمعقول أجريت القرعة منذ حين ؟

وألقى على الحضور نظرة دائرة تفصح عن نفس الرغبة فى المصارحة الملحة ، ثم التفت نحو الأمير وهتف يقول فجأة بلهجة فيها دهشة صادقة :

— هذه سمة عجيبة من سمات النفس !

وأكد يقول منتعشا بلهجة انسان ثاب الى نفسه :

— هذه . . . هذه سمة لا يمكن للمرء ان يدركها يا أمير ! سجِّل هذا وتذكَّره ، ما دمتَ تجمع معلومات عن الحكم بالاعدام ، كما يبدو . . . لقد قيل لى هذا . . . هأ هأ ! . . رياه ! يا للسخف الأحمق !

وجلس على الديوان ، وأسند كوعيه الى المائدة ، وأمسك رأسه بين يديه . وتابع يقول :

— بل . . . ويا للخجل ! . .

وسرعان ما رفع رأسه فقال :

— ولكن ما يضيرنى أن يكون فى هذا خجل .

ثم أعلن كمن انصاع لقرار مفاجئ :

— أيها السادة ، أيها السادة . . . انني أفض حزمتي ، و . . و . لا أُجبر أحدا على الاصغاء !

وبيدين مرتعشتين من شدة الانفعال فضّ الحزمة وأخرج منها ورقات من ورق الرسائل ، مطرزةً بكتابة صغيرة دقيقة ، فوضعها أمامه وأخذ يسويها .

دمدم عدد من الحاضرين يقولون عابسين :

— ما هذا ؟ ماذا هنالك ؟ ماذا يُراد أن يُقرأ علينا ؟

ولزم آخرون الصمت ، ولكن الجميع جلسوا وكانوا يرقبون المشهد باهتمام واستطلاع . لعلهم كانوا ينتظرون وقوع حادث خارق فعلا . وقد تشبثت فيرا بكرسي أبيها ، وكانت تشعر بخوف يبلغ من الشدة أنها لا تكاد تستطيع أن تحبس دموعها . ولم يكن كوليا أقل ارتياعا . أما ليبيديف الذى كان قد جلس ، فانه نهض فجأة ، فتناول شموعا وقرّبها من ايبوليت ليستطيع ايبوليت أن يقرأ بوضوح أكبر .

أضاف ايبوليت يقول ، لا يدرى المرء لماذا :

— أيها السادة ، هذا . . . سوف ترون ما هذا فورا . . .

ثم انتقل الى القراءة رأسا ، فقرأ : «شرح لا غنى عنه» ! تصدير : . . [1] "Après moi le déluge!"

— لكنه لم يلبث أن صاح بلهجة من شعر بنار تلسعه : أف . . . اللعنة ! كيف أمكن أن أصدّر مقالتى عن جد بقول يبلغ هذا المبلغ من الغباء والحمق ؟ . . اسمعوا أيها السادة ! . . أؤكد لكم أن هذا كله قد لا يكون فى آخر

[1] «من بعدى الطوفان» . (بالفرنسية فى الأصل) .

حساب الا تفاهات وترهات شنيعة ! . . ما هذه الا خواطر جالت فى رأسى أنا . . . فاذا كنتم تتوقعون . . . شيئا سريا أو . . . محظورا ، أى . . .

فقاطعه جانيا قائلا :

— الأفضل أن تقرأ بغير تمهيد . . .

وأضاف آخر يقول :

— انه يلف ويدور !

وقال روغوجين الذى ظل أخرس حتى ذلك الحين :

— الكلام كثير .

فنظر اليه ايبوليت فجأة . فلما أن التقت نظرتاهما كشر روغوجين تكشيرة مرة لاذعة ، ثم نطق فى بطء بهذه الأقوال الغريبة :

— ما هكذا يجب التصرف ، فى هذه القضية ، أيها الصبى ، لا . . .

ما من أحد فهم ما يعنيه روغوجين طبعا . ولكن جملته أحدثت فى الحضور تأثيرا غريبا : لكأن فكرة واحدة ساورت أذهانهم جميعا . أما فى ايبوليت فقد أحدثت هذه الجملة تأثيرا رهيبا : أخذ يرتجف ارتجافا بلغ من القوة أن الأمير همَّ أن يمد نحوه يده ليسنده ؛ وكان لا بد ان يصرخ حتما لولا أن انقطع صوته فجأة محبوسا فى حلقه . ولبث دقيقة بكاملها لا يستطيع أن ينطق بكلمة . كان يتنفس بمشقة ، ولا يحول عن روغوجين بصره . ونطق أخيرا بجهود كبيرة وهو يختنق :

— اذن أنت . . . الذى . . . أنت الذى جئت ؟

— جئتُ ؟ أنا ؟

كذلك ردَّ عليه روغوجين بهيئة من لم يفهم .

ولكن ايبوليت احمر احمرارا شديدا ، وصرخ يقول بصوت كاسر وحشى ، يدفعه اليه نوع من حنق مسعور مفاجئ :

— **أنت** الذى جئت الىَّ فى الأسبوع الماضى ، ليلا ، بعد الساعة الواحدة ، فى ذلك اليوم الذى زرتك فيه صباحا . كنت **أنت** ! ! اعترف بذلك : أكنت أنت ؟

— الاسبوع الماضى ؟ ليلا ؟ أتراك فقدت عقلك حقا أيها الصبى ؟

سكت «الصبى» لحظة أخرى ، ثم رفع سبابته الى جبينه كمن يستجمع خواطره . ولكن تعبيرا عن المكر وحتى عن الفوز برز فجأة فى ابتسامته الشاحبة التى ظل الخوف يجمِّدها . وكرر يقول أخيرا بصوت يكاد يكون همسا ، ولكن بلهجة فيها اقتناع كامل مطلق :

— أنت ! **أنت** جئت الىَّ ! لبثت جالسا على كرسى قرب النافذة فى صمت ساعة بل أكثر من ساعة : كان ذلك بين منتصف الليل والساعة الثانية . ثم نهضت وانصرفت قبل الساعة الثالثة . . . جئت أنت ، أنت ! لماذا أخفتنى ؟ لماذا جئت تعذبنى ؟ اننى لا أفهم هذا . . . ولكنك أنت الذى جئت الىَّ !

واشتعل فى نظرته وميض بغض مفاجئ لا حدود له رغم أنه ظل يرتعد هلعا . وقال :

— فورا أيها السادة ، ستعلمون كل شئ . . . اننى . . . اننى . . . أصغوا الىَّ . . .

وأسرع يتناول من جديد أوراق مخطوطته التى كانت

قد تحركت من مكانها وتبعثرت ، فأخذ يحاول ترتيبها . وكانت الأوراق ترتعش بين أصابعه المرتجفة ، فقضى فى ترتيبها وقتا .

وبدأت القراءة أخيرا . ففى الدقائق الخمس الأولى لقى كاتب **المقالة** التى لم تكن فى الحسبان ، عناءً كبيرا فى استرداد أنفاسه ، فكان يقرأ قراءة مفككة متفاوتة . لكن صوته ثبت وقوى شيئا بعد شئ ، فاستطاع أن يؤدى معنى ما كان يقرؤه اداء كاملا . كل ما هنالك أن سعالا شديدا كان يقطع القراءة من حين الى حين ؛ ولما وصل من القراءة الى نصفها كان صوته قد أصيب ببحة قوية . وكانت حماسته تشتد مزيدا من الاشتداد لحظة بعد لحظة حتى بلغت الذروة مثلما بلغها الاحساس الأليم الذى يحدثه فى نفوس مستمعيه . واليكم نص «المقالة» كاملا :

«شرح منى لا غنى عنه»

«Après moi le déluge!»

«فى صباح أمس ، جاءنى الأمير . فاستمالنى بالمناسبة الى الاقامة عنده فى المنزل الريفى . كنت أعلم أنه لن يفوته أن يلحَّ على هذه النقطة . كنت على يقين من أنه سيقول لى صراحة «ان الأفضل لى أن أموت فى الريف محاطا بالناس والأشجار» ، على حد تعبيره . لكنه فى هذا اليوم لم يستعمل كلمة **أموت** ، بل قال «ان الاسهل علىَّ أن أعيش هناك» ، والأمران فى حالتى متساويان تقريبا على كل حال . سألته ماذا يعنى بكلمة «الأشجار» التى يكثر من استعمالها هذا الاكثار ، ولماذا يصدِّع رأسى بها

دائما . فما كان أشد دهشتى حين سمعته يجيبنى بأننى أنا على حد قوله الذى صرحت فى تلك السهرة بأننى انما جئت الى بافلوفسك لأرى الاشجار مرة أخيرة فذكرت له أنه يستوى عندى تماما أن أموت تحت الأشجار أو أن أموت وأنا أنظر الى حائط من الآجر أمام نافذتى . فلا حاجة بى الى هذا العناء كله فى سبيل أسبوعين اثنين بقيا لى فى هذه الحياة . فسرعان ما وافقنى على هذا الرأى ، لكنه قدَّر أن الخضرة والهواء الطلق سيؤثران فى حالتى الجسمية ولا ريب ، وسيبدِّلان **أحلامى** وسيغيران اهتياجى حتى لقد يجعلانها محتملة . فقلت له من جديد ضاحكا انه يتكلم كما يتكلم رجل مادى المذهب . فأجابنى وهو يبتسم ابتسامته المألوفة بأنه كان دائما مادى المذهب . واذ أنه رجل لا يكذب أبدا ، فأن قوله هذا ليس كلاما جزافا ألقاه فى الهواء . ان ابتسامته طيبة . وقد أنعمت النظر فيه عندئذ بمزيد من الانتباه . لا أدرى أأنا الآن أحبه أم لا أحبه . ولا يتسع وقتى الآن لأن أصدِّع رأسى بمثل هذا السؤال . يجب أن أذكر ان الكره الذى كنت أحمله له منذ خمسة أشهر قد أخذ يهبط هبوطا تاما أثناء هذا الشهر الأخير . من يدرى ؟ لعلنى لم أذهب الى بافلوفسك الا فى سبيل أن أراه . ولكن . . . لماذا تركت غرفتى اذن ؟ ان المحكوم عليه بالاعدام يجب أن لا يبارح الركن الذى هو فيه . فلو أننى لم أتخذ قرارا نهائيا ، لو أننى — على عكس ذلك — أذعنت لفكرة انتظار ساعتى الأخيرة ، لما تركت طبعا غرفتى على كل حال ولما وافقت على اقتراحه أن أجئ «أموت» عنده فى بافلوفسك .

يجب أن أسارع لأنهى هذا «الشرح» كله حتما قبل الغد . معنى ذلك أننى لن أملك من الوقت ما يتيح لى اعادة قراءته ويسمح لى بتصحيحه وتنقيحه . سوف أعيد قراءته غدا حين أقرؤه على الأمير وعلى شاهدين أو ثلاثة شهود آمل أن أجدهم عنده . واذ أن هذا الكلام لن يشتمل على كلمة واحدة ليست هى الحقيقة الصافية العليا الاخيرة ، فاننى ليهمنى سلفا أن أعرف الاحساس الذى سأشعر به أنا نفسى فى الساعة واللحظة التى سأقرؤه فيها عليهم . على اننى أخطأت اذ كتبت هذه الكلمات : «الحقيقة الصافية العليا الاخيرة» ، فان اسبوعين من الحياة لا يستحقان الكذب أصلا لان حياة لن تدوم الا أسبوعين لا تستحق أن يحياها المرء . وهذا افضل دليل أننى سأكتب الحقيقة وحدها . (NB — [1] هذه فكرة يجب أن لا تغيب عن البال : ألست مجنونا فى هذه اللحظة ، أو قولوا فى بعض اللحظات ؟ لقد أكد لى بعضهم أن المرضى بداء السل ، حين يصلون الى أخر مرحلة من مراحل مرضهم ، تختل عقولهم أحيانا لبعض الوقت . يجب التثبت من هذا غدا بالأثر الذى تخلِّفه فى نفوس السامعين قراءة هذا الكلام . هذه مسألة يجب أن تُحلَّ أدق حل مهما كلف الأمر . وبدون ذلك لا يستطيع المرء أن يشرع فى شئ) .

يخيَّل الىَّ أننى قد كتبت الآن سخافة كبيرة . غير أن وقتى لا يتسع للتصحيح ، كما سبق أن قلت . ثم اننى أتعهد لنفسى عامدا أن أترك هذه المخطوطة خالية

---

[1] لاحظ جيدا (باللاتينية فى الأصل) .

من أية تصحيحات ، حتى ولو لاحظت أننى أناقض نفسى بنفسى كل خمسة أسطر . فانما أريد أن أمتحن منطق تفكيرى ، وأن أتأكد من اننى ألاحظ أخطائى ، غدا عند القراءة . فبذلك أعرف هل الأفكار التى أنضجتها فى هذه الغرفة خلال هذه الأشهر الستة ، حقيقة صادقة أم هذيان باطل .

لو وجب علىَّ ، منذ شهرين ، أن أهجر غرفتى هجرا تاما ، كما سأفعل الآن ، وأن أودِّع حائط ماير ، لكنت شعرت بحزن حتما . أما الآن فقد أصبحت لا أشعر بشئ رغم أن علىَّ أن أترك فى الغد هذه الغرفة وهذا الحائط **الى الأبد** ! . معنى هذا أن كيانى يستحوذ عليه الآن اقتناع بأن حياة أسبوعين لا تستحق أن تمتلئ نفس المرء فيها بمشاعر الأسف والحسرة ، وأن ينقاد المرء أثناءها لأى عاطفة من العواطف وان جميع حواسى أصبحت تخضع لهذا الاقتناع منذ الآن . ولكن هل هذا صحيح حقا ؟ هل صحيح أن طبيعتى قد تم لى قهرها وتحققت لى السيطرة عليها ؟ لو أُنزل بى تعذيب فى هذه اللحظة لأخذت أصرخ حتما ، ولما قلت ان المرء ما ينبغى له أن يصرخ ولا أن يشعر بالألم اذا لم يكن قد بقى له من الحياة الا أسبوعين .

ومع ذلك ، هل صحيح أننى لم يبق لى من الحياة الا أسبوعين لا أكثر ؟ ان ما رويته فى بافلوفسك كان كذبا : ان «ب . . ن» لم يقل لى شيئا البتة ، حتى انه لم يرنى فى يوم من الأيام . غير أننى قد جىء لى منذ اسبوع بالطالب كيسلورودوف . انه شاب مادى المذهب ، ملحد ، عدمى

ومن أجل هذا انما طلبت أن يؤتى به الىَّ . كنت فى حاجة الى انسان يقول لى أخيرا الحقيقة صافية صريحة بلا مداراة ، وبلا تكلف . وذلك ما فعله . ولم يفعله باستعداد وبغير لف ودوران فحسب ، بل فعله وهو يشعر بلذة ظاهرة واضحة أيضا (هذا زائد فى رأيى) . لقد أعلن لى بصراحة اننى قد بقى لى من الحياة نحو شهر ؛ وربما طال عمرى أكثر من ذلك قليلا اذا ساعدت الظروف ، ولكن قد يكون ما بقى لى من عمر أقل كثيرا من شهر . وهو يرى أن من الجائز أن أموت على حين غرة ، فى غدٍ مثلا . فهذا أمر رئى مثله . فأمس الأول كانت سيدة شابة مصابة بداء السل ، وهى تقطن حى كولومنا وتشبه حالتها حالتى ، كانت تتهيأ للذهاب الى السوق من أجل أن تشترى مؤنا لها ، فاذا هى تشعر فجأة باعياء ، فلما اضطجعت على أريكة لترتاح زفرت زفرة وأسلمت روحها . لقد روى لى كيسلورودوف كل هذا وهو يتبجح بشئ من عدم التأثر وقلة الاكتراث ، كأنه يشرِّفنى بأن يعدَّنى ، أنا أيضا ، كائنا أعلى يذهب مذهب الجحود مثله ، ولا يؤلمه البتة أن يبارح هذه الحياة . المهم أن هناك أمرا أصبح ثابتا فى نهاية المطاف هو أن ما بقى لى من حياة لا يزيد عن شهر ! فأنا مقتنع بأنه من هذه الناحية لم يخطئ .

ولقد دُهشت كثيرا حين حزر الأمير أننى أرى «أحلاما ثقيلة» ، فقال ما نصه حرفا حرفا ان «اهتياجى **وأحلامى**» ستتغير فى بافلوفسك . لماذا تكلم عن أحلامى ؟ انه طبيب ، أو انه يملك ذكاء خارقا فعلا قادرا على أن يحزر أمورا كثيرة (وأما أنه رغم كل شئ «أبله» ، فهذا لا مجال

للشك فيه) . وكما لو عمدا قبل وصوله بقليل كنت قد رأيت حلما جميلا جدا (من تلك الأحلام التى أرى فى هذه الآونة مئات منها) . كنت قد نمت قبل زيارته بساعة فيما أظن ، فرأيتنى فى غرفة (ليست غرفتى) . انها أرحب من غرفتى سعةً ، وأعلى سقفا ، وأحسن أثاثا ، ويدخلها النور . الأثاث يتألف من خزانة للملابس ، وكمودينو ، وديوان ، وسريرى . والسرير واسع عريض ، له غطاء أخضر من حرير مضلَّع . وانى لفى هذه الغرفة اذا أنا أرى حيوانا مرعبا ، خرافيا . انه يشبه عقربا ، ولكنه ليس بعقرب . هو شئ أبشع من العقرب وأشنع كثيرا . هو يبدو هكذا بالذات لانه ليست هناك حيوانات من هذا الجنس فى الطبيعة ، ولأنه قد ظهر عندى **خصيصا** ولأن سرا يكمن فى هذا الظهور بالذات كما يبدو . تفحصت الحيوان مليا : هو نوع من الزواحف ، تكسوه قشرة داكنة ، يبلغ طوله نحو عشرين سنتيمترا ، ويبلغ سمكه عند الرأس أصبعين ، ولكن جسمه يستدق تدريجيا حتى الذنب فلا يكاد يبلغ سمك ذيله نصف سنتيمتر . وعلى بعد خمسة سنتيمترات من الرأس تخرج من جسمه قدمان يبلغ طول كل منهما عشرة سنتيمترات ، وتنفرجان بزاوية قدرها خمس وأربعون درجة . فاذا نظرتَ من فوق ، ظهر لك الحيوان كله فى صورة من ذات ثلاثة أفرع . لم أر رأسه رؤية واضحة جدا ، ولكننى لاحظت فى الرأس مجسَّين قصيرين جدا ، دكناوين هما أيضا ، يشبهان ابرتين صلبتين . وفى آخر الذيل يُرى مجسَّان مماثلان ، وكذلك فى نهاية كل قدم . فيكون مجموع المجسَّات ثمانى . وكان الحيوان يجرى جريا سريعا

جدا فى أرجاء الغرفة كلها ، مستعينا بقدميه وذنبه ؛ وفيما هو يجرى ، يتلوى جسمه وتتلوى أعضاؤه كحية من الحيات بسرعة خارقة ، رغم الدرع الذى يكسو ظهره . منظر مروِّع رهيب . خفت خوفا فظيعا من أن يلسعنى هذا الحيوان ، فقد قيل لى انه سام . غير أن ما كان يعذبنى أكثر من أى شئ آخر هو أن أعرف من الذى أرسله الى غرفتى ، وما هى المكيدة التى تُدبَّر لى ، وماذا وراء هذا السر . وكان الحيوان يختبئ تحت الكمودينو ، وتحت خزانة الملابس ، ويعتصم بأركان الغرفة . جلست على كرسى وثنيت ساقىَّ تحتى . وأسرع الحيوان يقطع الغرفة على مسار مائل ، ويختفى فى مكان ما قرب الكرسى الذى أجلس عليه . بحثت عنه بعينىَّ مرتاعا ، لكننى وقد جعلت ساقىَّ تحت جسمى ، كنت آمل أن لا يتسلق الكرسى . فاذا أنا أسمع ورائى خشخشة صاخبة قرب رأسى تقريبا . فالتفت فاذا أنا أرى الحيوان الزاحف يتسلق الجدار . وكان قد وصل من تسلقه الجدار الى مستوى رأسى ، حتى لقد لامس شعرى بذنبه الذى كان يتموج ويتلوى بسرعة قصوى . فما كان منى الا أن وثبت ، فاختفى الحيوان الغريب . لم أجرؤ أن اضطجع على السرير ، خشية أن يتسلل فيندس تحت المخدة . وعندئذ دخلت الغرفةَ أمى ورجل من معارفها . وأخذا يطاردان الحيوان الزاحف . كانا أهدأ منى ، بل كان لا يظهر عليهما أى رعب ، ولكنهما لم يفهما من الأمر شيئا . وفجأة ظهر الحيوان من جديد . فكان فى هذه المرة يزحف بحركة بطيئة جدا كأنه يضمر نيةً خاصة . ان تلوياته البطيئة تزيد منظره الآن بشاعة ، وتجعله أبعث على الاشمئزاز .

وقطع الغرفة على مسار مائل ، متجها نحو العتبة . وفى تلك اللحظة فتحت أمى الباب ، ونادت كلبتنا نورما . ان نورما كلبة من نوع تيرنيف[1] ضخمة سوداء جعداء الشعر ، ماتت منذ خمس سنين . هرعت الكلبة الى الغرفة ووقفت أمام الحيوان كالمتجمدة رعبا ، وتوقف الحيوان هو أيضا عن التقدم ، لكنه ظل يتلوى ويضرب أرض الغرفة بقدميه وطرف ذيله . ان الحيوانات لا تستبد بها مخاوف غيبية فيما أظن . ولكن بدا لى فى تلك اللحظة أن فى ارتياع نورما شيئا يكاد يكون غريبا وغيبيا . فكأنها أدركت مثلى أن ظهور هذا الحيوان أمر يشتمل على سر وينذر بشؤم . فتقهقرت ببطء بينما أخذ الحيوان يتقدم محاذرا بخطى محسوبة معدودة . كانت هيئته تدل على أنه يستعد للوثوب على الكلبة من أجل ان يلسعها . ولكن نورما ، رغم ذعرها ورغم أن جميع أعضائها كانت ترتعش ارتعاشا قويا ، حدقت الى الحيوان بعينين تفيضان حنقا . وأخذت تكشف فجأة عن أنيابها الرهيبة شيئا بعد شئ ، ثم فتحت بوزها الضخم الأحمر ، واستعدت واختارت اللحظة المناسبة ، فانقضت على الحيوان بعزم شديد ، وتلقفته بأسنانها . ويبدو ان الحيوان بذل جهدا كبيرا من أجل أن يخلص نفسه ، لأن نورما انقضت عليه ثانيةً وهو طائر وتلقفته بفكيها مرتين كأنها تحاول أن تبلعه . وقرقع الدرع متكسرا تحت أسنانها ، وظل ذيل الحيوان وقدماه فى خارج فمها تتحرك تحركا

---

[1] كتبت فى الأصل كما تلفظ بالفرنسية لكن بالحروف الروسية . كلبة من نوع الكلاب المعروفة باسم جزيرة terre neuve .

مرعبا . وفجأة صرخت نورما صرخة توجع وشكوى . فقد استطاع الحيوان أن يلسع لسانها رغم كل شئ . وانفرجت أنياب الكلبة وهى تئن وتعوى من الألم ، فرأيت الحيوان فى فمها شبهَ مهشم وما يزال يتخبط ؛ ومن جسمه شبه المبتور يسيل على لسان الكلبة سائل أبيض غزير يشبه السائل الذى يخرج من صرصور اسود حين يُسحق . . . وفى تلك اللحظة انما استيقظت من نومى ودخل علىَّ الأمير» .

هنا قطع ايبوليت قراءته فجأة وكأنه يشعر بخجل :

— أيها السادة ، اننى لم أراجع المقالة ، ولكن يبدو لى اننى ضمنتها أشياء كثيرة زائدة فعلا . ان هذا الحلم . . .

فأسرع جانيا يقول :

— يوجد بالفعل .

— اننى أسلِّم بأن ههنا احساسات شخصية كثيرة مسرفة فى الكثرة . أقصد : احساسات لا علاقة لها الا بشخصى . . .

حين قال ايبوليت ذلك كان يبدو عليه الاعياء والتراخى ، وكان يجفف عرق جبينه بمنديله .

قال ليبيديف بصوت صافر :

— صحيح انك مفرط فى الاهتمام بنفسك .

— ولكنى أعود فأكرر أيها السادة أننى لا أجبر أحدا على الاصغاء فالذين لا يريدون أن يسمعوا يستطيعون أن ينسحبوا . . .

جمجم روغوجين يقول بصوت لا يكاد يُدرَك :

— يطرد الناس . . . من بيت غيره .

وانبرى فرديشنكو يقول على حين فجأة بعد أن لم يتجاسر أن يرفع صوته حتى ذلك الحين :

— فما قولك اذا نهضنا جميعا لنتصرف ؟

فخفض ايبوليت فجأة عينيه وأمسك مخطوطته . ولكنه لم يلبث أن رفع رأسه من جديد . كانت حدقتاه تسطعان ، وكانت وجنتاه مصطبغتين ببقعتين حمراوين . حدَّق الى فرديشنكو وقال له :

— أنت لا تحبنى البتة !

فانطلعت ضحكات ، لكن أكثر الحضور لم يستجيبوا لها . واحمر ايبوليت احمرارا رهيبا .

قال الأمير :

— يا ايبوليت ، لمَّ أوراقك واعطنيها . واذهب الى النوم ، هنا فى غرفتى . سنتحدث قبل أن ننام وسنستأنف الحديث غدا ، ولكن على شرط أن لا تعود الى هذه الأوراق أبدا . هل تريد ؟

قال ايبوليت وهو يلقى عليه نظرة تعبر عن الدهشة حقا :

— أهذا ممكن ؟

وقال صائحا وقد استبدت به نوبة جديدة من اهتياج محموم :

— أيها السادة ، ما قرأته عليكم هو جزء تافه لم أستطع أن أسيطر فيه على نفسى . لن أقطع قراءتى بعد الآن . فمن أراد أن يصغى فليصغ . . .

وأسرع يبلع جرعة ماء من الكأس ، ويضع كوعيه على المائدة ليتحاشى النظرات ، واستأنف يقرأ فى عناد على أن خجله لم يلبث أن تبدَّد . . .

«ان الفكرة التى تذهب الى أن الحياة التى لن تدوم الا بضعة أسابيع لا تستحق من المرء أن يحياها ، انما أخذت تحاصرنى بالفعل منذ شهر فيما أظن ، وذلك حين لم يبق لى من الحياة الا أربعة أسابيع . ولكنها لم تستحوذ علىَّ استحواذا كاملا الا منذ ثلاثة أيام ، حين رجعت من تلك السهرة فى بافلوفسك . لقد شعرت بنفاذ هذه الفكرة رأسا الى أعمق أعماق نفسى أولَ مرة ، لحظةَ كنت جالسا على الشرفة فى بيت الأمير فقررت أن أجرِّب الحياة تجربة أخيرة . كنت قد أردت أن أرى الناس والأشجار (لا يهم أننى أنا الذى قلت هذا) . وكنت قد تحمست مدافعا عن حق بوردوفسكى «قريبى» ، متوهما أن جميع الحضور سيفتحون لى أذرعهم على حين فجأة ويعانقوننى ، وأنهم سيسألوننى الصفح والعفو عن شئ ما ، وأننى سأسألهم مثل ذلك أيضا . باختصار : لقد تصرفت تصرف غبى بليد . وعندئذ انما انكشف فى نفسى ذلك «الاقتناع الأخير» . وانى لأتساءل الآن فى دهشة كيف أمكن أعيش ستة أشهر بكاملها دون أن يتحقق لى ذلك «الاقتناع» ! لقد كنت أعلم علم اليقين اننى مصاب بسلٍ لا شفاء منه ؛ لم أكن أخدع نفسى ، بل كنت أرى حالتى رؤية واضحة لكننى كنت ازداد نهما الى الحياة على قدر ازدياد الوضوح فى معرفة واقعى ورؤية حالتى . كنت أتشبث بالحياة ، وكنت أريد أن أطيلها على أى نحو من الأنحاء . اعترف بانني لعلنى سخطت حينذاك على القدر الغاشم المظلم ، الذى كان أعمى عن رؤية وضعى وكان أصمَّ عن سماع صوتى ، والذى قرر — لا أدرى لماذا بالطبع — أن يسحقنى سحق ذبابة .

ولكن لماذا لم أكتف بالسخط وحده ؟ لماذا **بدأت** أعيش فعلا ، مع أننى كنت أعلم أن ذلك غير مباح لى ؟ لماذا انقدت لتلك التجربة وأنا أعرف أنها لن تثمر ؟ ومع ذلك أصبحت لا أستطيع أن أقرأ كتبا ، وعدلت عن القراءة . علام أقرأ ؟ علام أعرف ولم يبق لى من الحياة الا ستة أشهر ؟ ان هذه الفكرة قد جعلتنى أرمى عدة مرات الكتاب الذى بدأت قراءته .

نعم ، ان حائط منزل مايرذاك يستطيع أن يروى أمورا كثيرة ! لقد طبعت عليه أشياء كثيرة . ليس على هذا الحائط القذر بقعة واحدة الا صرت أعرفها بالذاكرة . يا للحائط النحس ! ومع ذلك فهو أغلى فى نفسى وأحب الى قلبى من جميع أشجار بافلوفسك ، أو قل لا بد أن يكون كذلك لولا أن جميع الأمور أصبحت الآن فى نظرى سواء .

اننى أتذكر الآن شدة اهتمامى الشره النهم بمتابعة حياتهم هم . لم أشعر قبل ذلك بمثل ذلك الفضول فى يوم من الأيام . حتى لقد كنت أنتظر عودة كوليا بنفاد صبر وفى شدة الغضب فى بعض الأحيان ، أيام بلغ بى المرض حدا أقعدنى عن الخروج فلا أستطيع أن أغادر غرفتى . وأخذت أتسقط التفاصيل الصغيرة تسقطا يبلغ من الشراهة ، وأهتم بالأقاويل التافهة اهتماما يبلغ من القوة ، اننى أصبحت فيما أعتقد كواحد من أولئك الذين يروّجون الشائعات . كنت لا أفهم مثلا كيف لا يظفر الناس الذين يملكون كل ما يملكون من حياة ، كيف لا يظفرون بالغنى والثراء (والحق اننى الى الآن لا أفهم هذا) . لقد عرفت رجلا فقيرا

قبل لى ، فيما بعد ، انه مات من الجوع . انى لأتذكر كيف أن هذا النبأ أثار غضبى وأخرجنى عن طورى ، فلو بُعث ذلك الشقى حيا لأعدمته اعداما فى أغلب ظنى . كان يتفق لى فى بعض الأحيان أن أشعر بتحسن فى صحتى خلال أسابيع طويلة ، فأستطيع أن أنزل الى الشارع . غير أن الشارع أصبح يثير حنقى حتى صرت أقبع فى بيتى بارادتى أياما كاملة ، رغم أننى كان فى وسعى أن أخرج كما يخرج سائر الناس . أصبحت لا أطيق أن أرى أولئك الخلق الذين يسعون ويضطربون من حولى على الأرصفة ، ويفورون ويغلون ، مهمومين مغمومين دائما ، متجهمين قلقين بغير انقطاع . علام يحزنون هذا الحزن المستمر ، ويضطربون هذا الاضطراب الباطل المتصل ، ويعبسون ذلك العبوس الحانق الذى لا يهدأ ولا يسكن (ذلك أنهم أشرار ، أشرار ، أشرار) ؟ من المذنب اذا هم كانوا أشقياء تعساء ، واذا هم كانوا لا يعرفون كيف يحيون ، مع أن أمامهم ستين عاما من الحياة ؟ لماذا رضى زارنتسين أن يموت جوعا ، مع أن أمامه ستين سنة يمكن أن يعيشها ؟ وهذا كل واحد بيدى أسماله الرثة ويُظهر يديه الكنباوين فيغضب ويصيح متشكيا : «ها نحن أولاء نعمل كالبغال ، ونكدح ، ونجوع كالكلاب ، ونجر معنا البؤس جرا ، بينما يوجد أناس آخرون لا يعملون ، ولا يكدحون ثم هم أغنياء !» (الأغنية الأبدية !) . والى جانب هؤلاء ، يهرول ويتحرك ، من الصباح الى المساء ، انسان بائس ، حقير المنظر ، «نبيل المحتد» هو ايفان فومتش سوريكوف القاطن فى الطابق الذى يقع فوق طابقنا من المنزل . ان كوعى كمّيه مثقّبان دائما ، وان أزرار

ملابسه مخلّعة . وهو يقوم بأعمال يكلفه بها مختلف الناس ، وينفق فى ذلك يومه كله من الصباح الى المساء . تحدثوا معه : سوف يقول لكم انه «فقير ، بائس تافه ؛ وان زوجته ماتت لأنه لم يجد ما يشترى لها به دواء ، وان ابنه الصغير مات فى الشتاء متجمدا من البرد ؛ وان ابنته الكبرى تلتمس رزقها عند الرجال . . .» انه يشكو ويتذمر بغير انقطاع ! آه . . . اننى لم أشعر بأية شفقة ، لا فى ذلك الحين ، ولا فى هذا الوقت ، نحو هؤلاء الأغبياء الحمقى . . . وأقول هذا فخورا معتزا ! لماذا لا يصبح هذا الفرد رجلا مثل روتشيلد ؟ من المذنب اذا كان لا يملك ملايين مثل روتشيلد ، اذا كان لا يملك جبلا من الدنانير الامبراطورية ، والليرات الذهبية النابوليونية ، جبلا عاليا مثل الجبل الذى يُصنع للهو فى عيد توديع الشتاء ؟ ما دام قادرا على أن يحيا ، فان كل شئ فى طاقته ! من المذنب اذا كان لا يفهم ذلك ؟

آه . . . لقد تساوت فى نظرى جميع الأمور الآن ، ولم يبق فى وقتى متسع لأن أغضب . أما فى ذلك الحين ، فقد كنت ، كما سبق أن قلت ذلك ، أعض على وسادتى حنقا ، وأمزق غطائى سخطا وغيظا . آه . . . يا للحلم الذى كنت أحلمه حينذاك ، ويا للأمنية التى كنت أتمناها ! لقد كنت أتمنى عن قصد أن أُرمى الى الشارع فجأة ، وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى ، أن أُرمى شبه عار لا يكاد يسترنى شئ ، وأن أُترك وحيدا وحدة مطلقة ، بلا مسكن ولا عمل ولا لقمة عيش ، ولا أهل ، ولا أى انسان أعرفه ، فى المدينة الكبيرة ، جائعا مضروبا (هكذا

أفضل !) ، ولكن غيرَ مريض . ففى هذه الحالة كنت سأريهم . . .

كنت سأريهم ماذا ؟

آه . . . هل تتصورون أننى لا أعى مدى الاذلال الذى بلغته قبل أن أقول هذا الكلام فى «الشرح» الذى أقدمه ؟ فمن ذا الذى لا يعدُّنى والحالة هذه فتى ساذجا غرا ، غريبا عن الحياة ، ناسيا أن عمرى ليس ثمانى عشرة سنة فحسب ، لأن الذى يحيا كما حييت خلال هذه الأشهر الستة انما يكون قد عاش الى السن التى يشيب فيها الشعر ؟ ولكن اسخروا اذا شاء لكم هواكم أن تسخروا ، وانظروا الى هذه الأشياء كلها نظرتكم الى حكايات . والحق اننى حكيت لنفسى حكايات ، فملأت بها ليالى بكاملها ، وانى لأتذكرها الآن جميعها .

ولكن هل يجب علىَّ أن أكررها الآن بعد أن انقضى عهد الحكايات حتى بالنسبة الىَّ ؟ ولمن أكررها ؟ لقد تلذذت بها حين رأيت بوضوح اننى ممنوع حتى عن دراسة قواعد النحو اليونانى . وخطر ببالى حينئذ «اننى سوف أموت قبل أن أصل الى تعلم الاعراب» ، وتوقفت عن القراءة منذ الصفحة الأولى ورميت الكتاب تحت المائدة . وبقى الكتاب راقدا هنالك . وحظرت على ماتريونا أن تشيله .

ان من ستقع مقالتى هذه بين يديه ، فيصبر على قراءتها حتى النهاية ، قد يعدنى مجنونا ، أو قد يظننى تلميذا فى المدرسة الثانوية ، أو يتصور وهذا فى الاغلب اننى رجل محكوم عليه بالاعدام يتراءى له بحق أنه ما من انسان غيره يقدر الحياة حق قدرها ، وأن البشر تعودوا ان

يبددوا الحياة بكثير من الطيش ، وأنهم يستمتعون بها غير واعين ، وغير مبالين أو مكترثين ، وأن الملأ جميعا ، من أولهم الى آخرهم ، ليسوا اذن جديرين بها ، وليسوا يستحقونها ! فماذا أقول ؟ اننى أعلن أن هذا القارئ سيخطئ اذا هو انقاد لهذا الظن ، وأن آرائى ليست متأثرة أى تأثر بكونى محكوما علىَّ بالموت . اسألوهم ، اسألوهم فقط ، كيف هم جميعا بغير استثناء يفهمون السعادة ؟ آه . . . ثقوا أن كولومبس لم يكن سعيدا حين اكتشف أمريكا ، بل حين كان على وشك أن يكتشفها . كونوا على يقين من أن لحظة سعادته القصوى ربما كانت قبل اكتشافه العالم الجديد بثلاثة أيام ، أى حين استبد اليأس بصحبه فتمردوا وأوشكوا أن يرجعوا أدراجهم الى أوروبا ! لم يكن المقصود هو العالم الجديد عليه اللعنة . لقد مات كولومبس وهو لمَّا يكد يراه ؛ وهو لم يعرف فى حقيقة الأمر ماذا اكتشف . فانما الأمر المهم هو الحياة ، الحياة وحدها . . . هو البحث المتصل عن الحياة ، هو السعى الأبدى الى الحياة ، وليس هو اكتشاف الحياة ! ولكن علام هذا الهذر ؟ أغلب ظنى أن هذا الكلام له من مظهر الأمور المعروفة الشائعة المبذولة ما لعله يجعلهم يعتقدون أن مثلى كمثل تلميذ فى الصفوف الدنيا من مدرسة ثانوية مكلف بكتابة موضوع انشاء عنوانه «طلوع الشمس» او سوف يقولون اننى ربما أردت أن أعبر عن شئ ما ، لكننى رغم كل رغبتى لم أظفر بأن . . . «أشرح» ما بنفسى . ومع ذلك فاننى أضيف أن كل فكرة عبقرية ، وأن كل رأى جديد بل وكل رأى جاد ينشأ فى دماغ انسان ، أقول ان كل شئ من هذا القبيل انما يشتمل على بقية

لا يمكن نقلها الى الآخرين ولو وقف المرء على محاولة الافصاح عنها كتبا بكاملها ، وظل يشرحها خمسة وثلاثين عاما . ان تلك البقية لن تخرج من رأسك بأى حال من الأحوال ، بل ستظل باقية فيه أبد الآبدين . ستموت أنت قبل أن تستطيع نقلها الى أحد ، وربما كانت هى التى تشتمل على الشئ الجوهرى من فكرتك . فاذا لم أستطع أنا أيضا أن أجعلكم تشعرون الآن بكل ما قاسيته خلال تلك الأشهر الستة ، فلسوف تفهمون على الأقل اننى لعلنى دفعت غاليا ثمن ذلك «الاقتناع الأخير» الذى وصلت اليه الآن . ذلكم ما اعتقدت أن من الضرورى أن أبرزه فى «شرحى» لغاية أعرفها .

ولكن هأناذا أعود الى مجرى قصتى» .

الفصل السادس

«لا أريد أن أكذب . ان الواقع قد أمسكنى عدة مرات فى أثناء هذه الأشهر الستة ، فجرفنى أحيانا جرفا يبلغ من القوة أنه أنسانى موتى المحتم ، أو قل جعلنى لا أريد أن أفكر فيه وحتى جعلنى أشرع فى العمل . وسأصف الآن ، فى هذه المناسبة ، ظروف حياتى حينذاك . منذ قرابة ثمانية أشهر ، عندما تفاقم مرضى قطعت جميع علاقاتى وكففت عن رؤية رفاقى القدامى . واذ كان مزاجى مظلما جدا على الدوام ، فان رفاقى أولئك لم يصعب عليهم أن ينسونى . وعلى كل حال ، كان يمكن أن ينسونى ولو لم أتصف بتلك السمة . أما حياتى فى البيت ، أى «مع الأسرة» فقد كانت أيضا حياة اعتزال وانزواء . لقد أغلقت على نفسى الباب منذ نحو خمسة أشهر ، وعزلت غرفتى عن غرف الاسرة عزلا كاملا . وكانوا يرضخون لارادتى دائما ، فكان لا يأذن أحد لنفسه بأن يدخل الى غرفتى ، الا فى ساعات محدَّدة معينة لتنظيفها وترتيبها ، ولأتيانى بطعامى . كانت أمى ترتعش أمام أوامرى ، ولا تجرؤ حتى أن تبكى وتدمع بحضورى اذا اتفق لى فى بعض الأحيان أن قررت السماح لها بالدخول علىَّ . وكانت تضرب الأولاد دائما حتى لا يحدثوا ضجة فيزعجونى . كثيرا ما كنت أشتكى من صراخهم ، اننى أتخيل مدى الحب الذى لا بد أنهم يضمرونه لى الآن ! وأعتقد كذلك اننى عذَّبت كثيرا صاحبى «كوليا الأمين» ، هذا هو اللقب الذى خلعته عليه . ولقد ثأر منى فى الآونة الأخيرة فعذبنى هو أيضا : ان ذلك فى

طبيعة الأمور ، فالناس انما خُلقوا ليعذّب بعضهم بعضا . ومع ذلك لاحظت أنه كان يتحمل مزاجى السىئ ، كمن آلى على نفسه أن يدارى مريضا . وقد أحنقنى ذلك بطبيعة الحال . ظننت أنه قد قرر أن يقلد الأمير فى «المذلة المسيحية» الأمر الذى بدا مضحكا بعض الشئ . ان هذا الفتى تزخر نفسه بحماسة الشباب ؛ فبالطبع يقلِّد كل ما يقع عليه بصره . ولكن بدا لى أحيانا أنه قد آن الأوان لأن يجعل من نفسه شخصية لها استقلالها . اننى أحبه كثيرا . وقد عذَّبت أيضا سوريكوف ، الذى يقطن فوق طابقنا ، والذى يقضى يومه كله ، من الصباح الى المساء ، فى القيام بمهام يكلفه بها الناس . لقد كنت أفهمه دائما أن شقاءه لا يرجع سببه الا اليه وحده ، فخاف فى النهاية حتى أصبح لا يضع قدميه فى غرفتى أبدا . انه انسان خانع كل الخنوع ، كائن فى منتهى الخضوع . (NB : يزعم بعضهم أن الخنوع قوة هائلة . يجب أن أسأل الأمير توضيحا لهذا الكلام ، لأنه هو صاحب هذا التعبير) . ولكن حين صعدت اليهم فى شهر آذار لأرى كيف تركوا ابنهم الصغير يموت «متجمدا» من البرد كما قال ، ابتسمت أمام جثة الطفل بغير ارادة ، وعدت أشرح لسوريكوف «أنه هو المذنب» . عندئذ أخذت شفتا الرجل الهزيل ترتعشان فجأة ، ثم أمسك بيده كتفى وأشار بيده الأخرى الى الباب قائلا لى «أخرج !» . قالها بهدوء ، بصوت يشبه أن يكون همسا . فخرجت . وأعجبتنى فعلته كثيرا ، أعجبتنى حتى فى تلك اللحظة التى طردنى فيها . ومع ذلك ظلت كلماته خلال مدة طويلة ، تحدث فى نفسى كلما تذكرتها أثرا أليما ،

يشبه أن يكون شعورا بشفقة غريبة مزدرية نحوه ، وهو شعور كنت اتمنى أن لا أحسه . ان هذا الرجل كان عاجزا عن الغضب حتى حين أُهين تلك الاهانة ! (أنا أشعر فعلا بأننى أهنته ، دون أن أقصد ذلك) . واذا كانت شفتاه قد اخذتا تختلجان فان ذلك لم يحدث له بتأثير الغضب ، أحلف لكم . لقد أمسك ذراعى ونطق بكلمته الرائعة «اخرج» دون أى غضب . كان فى تلك اللحظة زاخرا بالكرامة ، حتى ان تلك الكرامة كانت تتعارض مع جملة هيئته (وكان فى هذا ما يبعث على الضحك فى الواقع) لكن نفسه لم تنطو عندئذ على أى غضب أو حنق . لعله شعر نحوى باحتقار مفاجئ . ولقد لقيته بعد ذلك مرتين أو ثلاث مرات على سلّم المنزل . فكان يحيينى فجأة برفع قبعته ، وذلك ما لم يكن يفعله من قبل قط ؛ ولكنه أصبح لا يقف لى كما كان يقف فى الماضى ، وانما هو يمر بجانبى مسرعا خجلا . فهو اذا كان يحتقرنى انما يحتقرنى على طريقته ، أى «يحتقرنى فى خنوع» . ولعله كان لا يرفع لى قبعته محييا الا من قبيل الخوف والخشية ، لأننى ابن دائنته : فهو مدين لأمى دائما بمبلغ من المال ، وهو عاجز عجزا مطلقا عن سداد دينه . ربما كان هذا الافتراض أقرب الى الصحة . وقد خطر ببالى أن أناقشه فى الأمر . انى لعلى يقين من أنه كان سيسألنى العفو بعد عشر دقائق لو فعلت . لكننى فكّرت فرأيت أن من الأفضل أن أدعه وشأنه .

فى تلك الفترة ، أى فى نحو منتصف شهر آذار ، حين ترك سوريكوف ابنه «يتجمد» من البرد ، شعرت أنا

بتحسن كبير مفاجئ فى صحتى لسبب ما ، ودام هذا التحسن قرابة أسبوعين . فأخذت أخرج ، عند هبوط الليل فى أكثر الأحيان . اننى أحب ساعات الغسق فى شهر آذار ، حين يبدأ التجلد ويُشعَل الغاز . وكنت أوغل فى نزهاتى مسافات بعيدة أحيانا . ففى ذات مرة ، سبقنى فى الظلام ، بشارع «الدكاكين الستة» ، شخص يبدو من هيئته أنه «من النبلاء» ، لكننى لم اتبين ملامحه تبينا واضحا . كان يحمل صرّة ملفوفة بورق ، وكان يرتدى معطفا عتيقا قصيرا ، خفيفا فى مثل ذلك البرد الذى كان يسود الجو . فلما وصل الى قرب أحد مصابيح الشارع على بعد حوالى عشر خطوات منى ، رأيت شيئا يسقط من جيبه . فأسرعت أتناول الشئ الذى سقط ، فعلت ذلك فى الوقت المناسب ، ذلك أن شخصا يرتدى قفطانا طويلا كان قد هرع يريد تناوله ، فلما رأى أنه صار فى حوزتى ، لم يحاول أن ينافسنى واكتفى بأن ألقى نظرة على يدىّ ثم مضى فى سبيله بسرعة . كان ذلك الشئ محفظة أوراق من جلد ، كبيرة الحجم قديمة الطراز ، محشوة حشوا بأوراق ؛ لكننى حزرت من النظرة الاولى لسبب ما ان المحفظة قد تحتوى كل شئ الا المال . كان الرجل الذى سقطت منه المحفظة قد أصبح على مسافة أربعين خطوة أمامى ، فلن يلبث أن يغيب عنى فى زحمة الجمهور . فركضت وراءه أناديه . ولكن لما كنت لا أستطيع أن أناديه الا بصرخة «هيه !» ، فانه لم يلتفت . وغار فجأة على اليسار فى بوابة عمارة من العمارات . فلما وصلت راكضا الى تلك البوابة التى كان يخيم فيها ظلام حالك ، لم أجد هنالك أحدا . ان

العمارة واحدة من تلك المبانى الضخمة التى يبنيها المحتالون جاعلين منها عددا كبيرا من الشقق الصغيرة . حتى ان بعض المبانى يضم احيانا مائة شقة . حين اجتزت بوابة العمارة خيل الىّ أننى ألمح فى الزاوية اليمنى من قرارة فناء واسع رجلا كان يبتعد ، لكن الظلمات جعلتنى لا أرى أكثر من ذلك . فركضت حتى بلغت تلك الزاوية ، فاكتشفت وجود مدخل لسلم ضيق قذر جدا ، بغير اضاءة . واذ سمعت أصوات وقع أقدام فى أعلى ، فأدركت أن شخصا يرقى السلّم اندفعت أصعد آملا أن أدرك أثره حين يُفتح له الباب . وذلك ما حدث . ان فسحات السلّم متقاربة جدا ، ولكن عددها بدا لى بغير نهاية ، حتى لقد تقطعت أنفاسى من شدة التعب بالركض . وسمعت صوت باب يُفتح ويغلق فى الطابق الخامس . سمعت هذا حين كنت ما أزال تحت الطابق الخامس بثلاث فسحات . فقضيت بضع دقائق حتى بلغت الخامس واستردت أنفاسى فى الفسحة وبحثت عن جرس الباب . فجاءت تفتح لى أخيرا امرأة كانت بسبيل اضرام النار فى السماور بمطبخ صغير مفرط فى الصغر . فاستمعت الى أسئلتى صامتة ، ولا شك أنها لم تفهم منها شيئا ، لكنها فتحت لى باب غرفة مجاورة دون أن تنبس بكلمة واحدة . هى غرفة صغيرة أيضا ، منخفض سقفها انخفاضا شديدا ، ولا يشتمل أثاثها الفقير الا على الضرورى الذى لا بد منه ولا غنى عنه . كان يرقد على سرير كبير عريض ذى أسجاف رجل نادته المرأة باسم «تيرنتش» ، وبدا لى ثملا . وكان ثمة بقية من شمعة تشتعل على منضدة فى شمعدان من حديد ، الى جانب قنينة من الفودكا توشك

أن تكون فارغة . نطق تيرنتش ببضعة أصوات غير جلية يخاطبنى بها ، ويومئ لى بيده الى باب غرفة مجاورة ، دون أن ينهض . كانت المرأة قد غابت ، فلم يبق لى الا أن أدفع ذلك الباب . وذلك ما فعلته ودخلت الى الغرفة التالية .

كانت هذه الغرفة الأخرى أقل سعة وأكثر ازدحاما من الغرفة الأولى ، حتى اننى لم أعرف كيف أستطيع التحرك فيها . كان فى الزاوية سرير ضيق يشغل جزءا كبيرا جدا من الغرفة . أما باقى الأثاث فلا يعدو ثلاثة كراسى عادية تكدست عليها أنواع شتى من الأسمال البالية ومائدة خشبية غليظة من موائد المطابخ وُضعت أمام ديوان عتيق منجّد بقماش مشمّع ، فلا يدرى المرء كيف يتسلل بين المائدة والسرير . وعلى المائدة كانت تشتعل شمعة فى شمعدان من حديد يشبه شمعدان الغرفة الأخرى ؛ وثمة طفل وليد كان يصرخ راقدا على السرير ويبدو واضحا من صراخه أنه لا يكاد يتجاوز من عمره ثلاثة أسابيع ، وبقربه امرأة مريضة شاحبة كانت «تغير» له أو قل تعيد تقميطه . بدا لى انها امرأة شابة . كانت مرتدية ثياب البيت فى اهمال شديد لعلها نهضت منذ حين بعد فترة النفاس . أما الطفل فهو لا ينقطع عن الصراخ ، بانتظار ثدى أمه الهزيل . وعلى الديوان كان ينام طفل آخر ، هو بنت فى السنة الثالثة من عمرها قد أُلقى عليها رداء يوحى منظره بأنه «فراك» . وقرب المائدة كان يقف رجل يرتدى بدلة مهترئة جدا (كان الرجل قد خلع معطفه ووضعه على السرير) ، وهو بسبيل فضّ صرّة ملفوفة بورق أزرق فيها رطلان من خبز أبيض وقطعتان صغيرتان

من مقانق . وكان على المائدة أيضا ابريق شاى ملآن ، وبقايا خبز أسود . ومن تحت السرير كانت تُرى حقيبة مفتوحة ورزمتان محشوتان أسمالا .

الخلاصة : فوضى رهيبة . وقد أوحى الىَّ السيد والسيدة منذ النظرة الأولى أنهما شخصان محترمان ، ولكن الفقر المدقع هو الذى هوى بهما الى هذه الحالة من التردى التى تصبح الفوضى فيها أخيرا أمرا مفروضا يكف المرء عن مقاومته ، وينتهى به الأمر الى الحاجة المريرة ، الى أن يجد فى تزايده يوما بعد يوم لذة مريرة تشبه ان تكون لذة الانتقام .

كان السيد حين دخلت بعيد دخوله يفض حزمة طعامه ويتحدث الى امرأته بلهجة فيها كثير من اهتياج الأعصاب . ولم تكن السيدة قد فرغت من تقميط الوليد ، وكانت قد أخذت عيناها تدمعان بكاءً . أغلب الظن أن الأنباء التى حملها اليها كانت سيئة كالعادة . كان السيد فى نحو الثامنة والعشرين من عمره ، وظهر لى وجهه اسمر اللون ، جاف البشرة ، محلوق شعر الذقن لدرجة اللمعان ، وله سالفان أسودان ، ظهر لى محترما جدا بل ووسيما . كان مكفهر الوجه عابس النظرة ، ولكن على شئ من كبرياء مَرَضية يسهل أن تثور . ولقد أحدث وصولى مشهدا غريبا .

ان من الناس من يجدون فى اهتياجهم لذة عظمى ولاسيما حين يبلغ هذا الاهتياج أعلى ذروة له (وهذا ما يحدث لهم بسرعة) ؛ حتى ليمكن أن يُقال ان ايذاءهم واهانتهم فى مثل تلك اللحظة أحب اليهم من أن لا يُلحق بهم أذى ولا تُنزل فيهم اهانة . لكن هؤلاء الأشخاص الغضوبين يشعرون بعد ذلك بآلام الندامة ، هذا اذا كانوا

أذكياء طبعا وكانوا قادرين على أن يدركوا أنهم اندفعوا اندفاعا أقوى عشر مرات من الاندفاع الذى يقبله العقل . نظر الىَّ الرجل خلال لحظة مذهولا ، بينما كان وجه امرأته يعبر عن الفزع ، كأن ظهور كائن انسانى فى غرفتهم حادث غريب رهيب . ولكنه لم يلبث فجأة أن هجم علىّ بنوع من الحنق المسعور . لم يتسع وقتى أن أقول كلمتين أما هو فأغلب الظن أنه جرح شعورَه كثيرا أن يرى رجلا لائق الهندام يسمح لنفسه بأن يدخل الى مسكنه بغير كلفة ، فيأخذ يتأمل بنظراته هذا البيت الحقير الذى يشعر هو نفسه منه بخجل وعار . ولا شك أن هذه الفرصة التى أتيحت له ، وهى أن يصب على شخص من الأشخاص ما كان يعتمل فى نفسه من غضب سببه ضروب الاخفاق التى يمنى بها ، أقول لا شك أن هذه الفرصة قد أحدثت له لذة ؛ حتى لقد اعتقدت فى لحظة من اللحظات أنه سوف يضربنى . وقد شحب وجهه كشحوب وجه امرأة أصابتها نوبة هستريا ، فارتاعت زوجته من ذلك ارتياعا شديدا .

صرخ يقول مرتعشا حتى ليكاد يعجز عن النطق بكلماته :

— كيف تجاسرت أن تدخل هكذا ! اخرج !

ولكنه فجأة رأى محفظته فى يدىَّ .

قلت بلهجة فيها أكثر ما يمكن من هدوء وجفاف (وتلك هى اللهجة المناسبة فى هذا المقام على كل حال) :

— أحسب أن هذه المحفظة قد سقطت منك .

ظل الرجل واقفا أمامى بعض الوقت مروَّعا كأنه لا يفهم شيئا . ثم تلمَّس جيبه الجانبى بحركة سريعة ، وفتح فمه مذعورا ، ولطم جبينه ، وقال :

— رباه ! أين عثرت عليها ؟ كيف عثرت عليها ؟

فشرحت له بكلمات قليلة وبلهجة أكثر جفافا كيف التقطت المحفظة بعد سقوطها منه ، وكيف ركضت وراءه مناديا اياه بغير طائل ، وكيف تعقبته فى آخر الأمر صاعدا درجات السلم متلمسا طريقى تقريبا بنوع من التخمين .

صاح يقول متجها الى امرأته :

— رباه ! فيها أوراقنا ! فيها آخر ما أملك من وسائل ! فيها كل شئ . . .

وأضاف يقول لى :

— آه يا سيدى المحترم ! . . هل تعلم ما أسديت الى من جميل ؟ لولا أنت لضعت وهلكت ! . .

فى أثناء ذلك كنت قد أمسكت قبضة الباب لأخرج دون أن أجيب ، لكننى شعرت باختناق وسبّب انفعالى فجأة نوبة سعال بلغت من القوة والشدة أننى أصبحت لا أكاد أستطيع الوقوف على قدمى . ورأيت السيد يسعى الى كل جهة ليجد لى كرسيا خاليا . ثم يعمد أخيرا الى أحد المقاعد فينزع كل ما كان ملقى عليه من أطمار ويرميها الى الأرض ويقدم لى الكرسى بسرعة ويجلسنى عليه بحذر . وطال سعالى ثلاث دقائق أخرى على الأقل . فلما ثبت الى نفسى كان جالسا بجانبى على كرسى آخر لا شك أنه أخلاه هو أيضا مما كان عليه من أسمال ، وكان ينظر الىّ محدقا .

قال لى باللهجة التى يتكلم بها الأطباء عادة حين يواجهون مرضاهم :

— ظاهر عليك أنك . . . مريض ، أليس كذلك ؟ اننى . . . طبيب . (لم يستعمل كلمة «دكتور») .

قال ذلك وأشار لى لسبب ما الى الغرفة كانما ليحتج على ما هو فيه من ظرف الآن . وأضاف :

— أرى أنك . . .

فقلت موجزا وأنا أنهض :

— أنا مريض بالسل . . .

فنهض هو أيضا بوثبة . وقال :

— لعلك تبالغ . . . انك اذا عالجت مرضك . . .

لقد كان ذاهلا أشد الذهول فلا يستطيع كما يبدو أن يثوب الى نفسه . وكان يحمل المحفظة بيده اليسرى . قاطعته من جديد ، وأنا أمسك قبضة الباب :

— آه ، لا تقلق . . . لقد فحصنى «ب . . . ين» فى الأسبوع الماضى ، (هنا أيضا ذكرت اسم «ب . . . ين») ومسألتى واضحة . معذرة . . .

وأردت أن افتح الباب فأخرج تاركا الطبيب متحيرا ممتنا يسحقه الشعور بالخجل ، لكن سعالى اللعين رجع من جديد يمسك بخناقى فى تلك اللحظة نفسها . فعاد الدكتور يلحّ علىّ أن أجلس مرة أخرى وأرتاح . والتفت نحو امرأته فوجّهت الىّ امرأته بضع كلمات لطيفة عبرّت بها عن الشكر والامتنان ، دون أن تتحرك من مكانها . وقد بلغت من الارتباك والخجل أثناء ذلك أن خديها الجافين الشاحبين الضارب لونهما الى الصفرة تخضبا بحمرة شديدة . وبقيت . لكن هيئتى كانت هيئة من يريد أن يظهر فى كل لحظة بمظهر من يخاف أن يكون وجوده مزعجا (تلك هى الهيئة المناسبة اللائقة) . ولاحظت أن الندم قد أخذ يعذب صاحبى الدكتور آخر الأمر .

بدأ يتكلم فقال وهو يقاطع نفسه فى كل لحظة قافزا من جملة الى جملة قفزا :

— لو أننى . . . أنا شاكر لك اجزل الشكر . . . أنا أشعر بذنبى الهائل ازاءك . . . اننى . . . أنت ترى . . .

— أشار الى الغرفة من جديد — اننى الآن فى وضع . . .

قلت :

— آه ! كل شئ واضح . لا جديد فى الأمر . لعلك فقدت وظيفتك فجئت الى العاصمة تشرح أمرك وتلتمس وظيفة أخرى ، أليس كذلك ؟

سألنى مدهوشا :

— من أين . . . عرفت هذا ؟

قلت بلهجة ساخرة غير مقصودة :

— هذا يُرى من أول نظرة . كثير من الناس يصلون الى هنا من الأقاليم بآمال كهذه الآمال . يهرولون ويركضون ، ويعيشون حياتهم هكذا .

فأخذ يتكلم بحرارة مفاجئة . وكانت شفتاه تختلجان . يجب أن أقول ان شكاواه وقصته قد أثرت فى نفسى . مكثت عنده قرابة ساعة . قصَّ علىَّ حكايته ، وهى لا تحوى شيئا خارقا على كل حال . انه طبيب بالأقاليم فى خدمة الدولة ، وقع ضحية دسائس ومكائد أُقحم فيها حتى اسم زوجته . ثارت كبرياؤه وتمردت أنفته . وحدثت عندئذ تنقلات فى أعضاء رئاسة الاقليم تناسب خصومه ، فأخذ خصومه يدسون الدسائس ويدبرون المكائد . وقُدِّمت فى حقه شكوى . واضطر أن يترك وظيفته وأن يمضى بآخر ما يملك من مال الى بُطرسبرج ليشرح أمره ، ويبرهن على براءته .

وطال مكوثه ببطرسبرج طبعا قبل أن يظفر بمقابلة المسئول . ثم أُصغى اليه ، ثم صُرف ، ثم بُذلت له وعود ، ثم عومل بقسوة ، ثم أُمر بان يعرض قضيته كتابةً ، ثم رُفض استلام عريضته المكتوبة ، ثم طُلب منه أن يقدم التماسا ، الخ الخ . الخلاصة أنه ظل يركض خمسة أشهر أكل خلالها كل ما كان يملك من مال ، حتى انه رهن أثواب زوجته الى آخر واحد منها . وفى تلك الآونة انما وُلد لهما ولد . و . . . و . . . «اليوم أُبلغت رفض التماسى رفضا حاسما . لم يبق لى خبز ان صح التعبير ، لم يبق لى شئ البتة ، وامرأتى ناهضة من نفاسها . اننى . . . اننى . . .» .

وانتصب واقفا ، وأشاح وجهه . كانت امرأته تبكى فى أحد الأركان . وعاد الولد يصرخ . فأخرجت دفترى الصغير وأخذت أدوِّن فيه بضع كلمات . فلما فرغت من ذلك ونهضت ، رأيته مغروسا أمامى ينظر الىَّ باستطلاع خائف . قلت له :

— لقد دونت اسمك وسائر الأمور : المكان الذى كنت تعمل فيه ، واسم حاكم الاقليم ، والتواريخ والأشهر . ان بين رفاقى فى المدرسة شابا اسمه باخموتوف ، وعمه بيوتر ماتفيئفتش باخموتوف هو مستشار دولة ومدير قسم . . .

هتف صاحبى الطبيب يقول بنوع من الارتجاف :

— بيوتر ماتفيئفتش باخموتوف ! . . ان القضية كلها تقريبا متوقفة عليه هو !

الحق أن كل شئ فى قصة صاحبى الطبيب وفى النهاية التى اختُتمت بها ، وهى نهاية شاركت أنا فيها بالمصادفة ، ان كل شئ قد سُوِّىَ كأنه كان معد لهذا

عمدا وكما تسوى الأمور فى رواية من الروايات تماما . قلت لهذين المسكينين أن لا يبنيا أى أمل على كلامى ، لاننى أنا نفسى تلميذ فقير فى المدرسة الثانوية (تعمدت أن أضخم وضاعة شأنى ، والحق أننى كنت قد أنهيت دراستى فى المدرسة الثانوية منذ مدة طويلة) وأنهما ليسا فى حاجة الى أن يعرفا اسمى ، ولكننى ذاهب فورا الى حى فاسيلفسكى أوستروف لأرى رفيقى باخموتوف ؛ قلت لهما اننى متأكد كل التأكيد أن عمه ، مستشار الدولة ، وهو رجل لم يتزوج وليس له أولاد ، يعبد ابن أخيه ويحبه حبا عظيما يبلغ درجة الوله ، لأنه يعده آخر نسل الأسرة «فلعل رفيقى سوف يستطيع أن يصنع لكما شيئا بالتأثير فى عمه طبعا ، ارضاء لى . . .»

هتف الطبيب يقول مرتجفا كأن به حمى ، بينما كانت عيناه تلتمعان :

— لا أريد الا أن يُسمح لى بشرح أمرى أمام صاحب السعادة ! ليتنى أظفر بأن أستطيع الحصول على شرف التحدث معه لتوضيح القضية !

ليتنى أظفر بأن أستطيع . . . هذا هو التعبير الذى استعمله . وبعد أن كررت مرة أخرى أن المسعى قد يخفق فى الغالب ، وأن جميع جهودنا قد تظل عقيمة ، أضفت أعلن أن عليهما ، اذا لم اجئ اليهم فى صباح غد ، أن يفهما أن المسعى لم يثمر ، فلا يتوقعا شيئا . وودّعانى بانحناءات وبدا عليهما أنهما فقدا عقلهما او يكاد . لن أنسى ، ما حييت ، تعبير وجهيهما حينذاك . وركبت عربة ومضيت الى فاسيلفسكى أوستروف رأسا .

كنا قد عشنا فى عداوة متصلة ، انا وباخموتوف هذا ، خلال عدة سنين بالمدرسة . كان يُعدّ عندنا ارستقراطيا ؛ أو هذا على الأقل ما وصفته أنا به . كان دائما حسن الهندام أنيق الملبس ، يصل الى المدرسة بمركبته الخاصة . لم يكن متكبرا أو متعجرفا . كان رفيقا ممتازا ، مشرق المزاج دائما ، فكه الحديث أحيانا ، دون أن يكون ذا ذكاء عظيم . ومع ذلك كان هو الأول ترتيبا فى الصف على الدوام ؛ أما أنا فلم أكن الأول فى أى شئ يوما . وكان جميع زملائه يحبونه ، الأ أنا . وقد حاول التودد الىّ مرارا خلال السنين التى قضيناها معا ، لكننى كنت فى كل مرة أشيح وجهى عنه متجهما حانقا . اننى لم أره منذ نحو سنة . هو الآن فى الجامعة . فلما دخلت عليه بعد الساعة الثامنة من المساء (وكان دخولى حافلا برسميات كبيرة ، فان الخدم قد هبوا اليه يبلغونه حضورى) ، استقبلنى فى البداية مدهوشا ، بغير بشاشة اطلاقا لكنه لم يلبث أن استرد مرحه ، وانطلق يضحك فجأة وهو ينظر الىّ .

— ماذا أصابك حتى خطر ببالك أن تزورنى ؟

هكذا هتف يسألنى بطريقته المألوفة اللطيفة وقلة التحرج التى تقارب الجسارة فى بعض الأحيان لكنها لا تكون مهينة أو مؤذية فى وقت من الأوقات . تلك سمة من سماته كنت أحبها فيه ، وكانت مع ذلك سبب كرهى له . وصاح يسألنى مذعورا :

— ولكن ماذا بك ؟ أنت مريض الى هذه الدرجة ! كان السعال قد استبد بى من جديد ، فتهالكت على

كرسى ، ولم أستطع أن استرد تنفسى الا بكثير من العناء .

قلت له :

— لا تقلق ! اننى مريض بالسل . لى عندك رجاء .

جلس مدهوشا ، وأخذت أقص عليه حكاية الطبيب كاملة ، وقلت له انه قد يستطيع أن يصنع شيئا ، وذلك لما له على عمه من نفوذ كبير . قال :

— سأفعل ، سأفعل حتما ! سأهجم على عمى منذ الغد . بل اننى لمغتبط جدا ؛ ما كان أحلى أسلوبك فى سرد القصة كلها . . . ولكن كيف راودتك فكرة الاعتماد علىّ رغم كل شئ يا تيرنتيف ؟

— ان الشئ الكثير فى هذه القضية متوقف على ارادة عمك . اننا يا باخموتوف قد كنا عدوين دائما ، لكننى لما أعرفه من نبل قلبك قدّرت أنك لن ترفض رجاء لعدو .

كذلك أضفت أقول بلهجة ساخرة . فهتف يقول وهو ينفجر ضاحكا :

— مثل نابوليون الذى اعتمد على كرم انجلترا ! . .

واذ رآنى أنهض جادّ الهيئة قاسى الوجه ، أسرع يضيف قوله :

— سأفعل اللازم ، سأفعل اللازم ! بل سأذهب الآن فورا اذا أمكن !

وبالفعل ، سُوِّيت القضية على نحو لم يكن فى الحسبان قط ، وعلى أفضل وجه . فبعد شهر ونصف شهر حصل صاحبنا الطبيب على وظيفة جديدة فى اقليم آخر ، مع دفع نفقات الانتقال ، بل وتقديم مساعدة مالية . وأظن أن

باخموتوف قد حمل الطبيب على أن يقبل منه سلفةً على سبيل الاقتراض . وأخذ يزوره كثيرا (بينما قطعت أنا زياراتى عامدا بهذا السبب . وكنت استقبل الطبيب الذى كان يزورنى من حين الى حين استقبالا يكاد يكون جافا) . وقد لقيت باخموتوف أثناء تلك الأسابيع الستة مرةً أو مرتين ، ثم التقينا مرة ثالثة حين احتفلنا بسفر الدكتور . لقد أقام باخموتوف فى بيته غداء وداع مع شمبانيا . وحضرت زوجة الطبيب الغداء ، لكنها تركتنا بعد مدة قصيرة لتمضى الى العناية بالطفل . كان ذلك فى بداية شهر أيار . المساء جميل . قرص الشمس الضخم يغيب فى الخليج . أوصلنى باخموتوف الى بيتى عائدا . مررنا بجسر نيقولايفسكى ، وكنا ثملين بعض الثمل كلانا . حدثنى عن ابتهاجه العظيم بالنهاية الناجحة التى انتهت اليها قضية الطبيب . شكر لى لا أدرى ماذا . وصف لى الارتياح الذى يحسه بعد أن صنع خيرا ، وأكد ان الفضل كله يرجع الىّ وان أولئك الكثيرين الذين يذهبون فى هذه الأيام الى أن صنع الخير الفردى لا قيمة له هم مخطئون . فاستولت علىّ أنا أيضا رغبة فى الكلام لا سبيل الى مقاومتها . فبدأت أتكلم فقلت :

— ان من يعتدى على «احسان» فردى ، انما يعتدى على طبيعة الانسان ويهين كرامته الشخصية . على أن تنظيم «الاحسان الاجتماعى» ومسألة الحرية الفردية أمران مستقلان ، لا ينفى أحدهما الآخر . ان أعمال البر الفردية تظل باقية دائما لأنها تقابل حاجة لدى الانسان هى حاجة حية الى أن يكون لفرد تأثير مباشر فى فرد آخر . كان يعيش بموسكو

«جنرال» عجوز ، أقصد «مستشار دولة» اسمه اسم ألماني . لقد قضى حياته يزور السجون والمجرمين . حتى صارت كل مجموعة من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة الذين يستعدون للترحيل الى سيبيريا ، تعرف مقدما أن هذا «العجوز الجنرال» سيزورها فى جبل العصافير . وكان الرجل يقوم بمهمته تلك فى كثير من الجد والتقوى . يصل الى المكان فيستعرض جميع المنفيين المصطفين حوله ، يقف أمام كل واحد منهم ، ويسألهم عن حاجاتهم ، ولا يلقى عليهم النصائح أبدا ، ويناديهم جميعا بقوله «يا أصدقائى» ، ويوزع عليهم مالا ، ويرسل اليهم أمتعة مما لا غنى عنه : لفائف الاقدام وشيئا من قماش ، ويأتيهم فى بعض الأحيان بكتب وعظ يسلمها للذين يعرفون القراءة ، مقتنعا اقتناعا عميقا بأنهم سيقرأونها أثناء الطريق هم أنفسهم وسيقرأونها أيضا للذين لا يعرفون القراءة . وكان يندر أن يسألهم عن الجرائم التى ارتكبوها . وانما هو يصغى ، فى أكثر تقدير ، لكلام أولئك الذين كانوا يحبون من تلقاء أنفسهم أن يسروا اليه بأمرهم . وكان لا يفرق بين المجرمين أى تفريق ، بل يساوى بينهم مساواة تامة . وكان يكلمهم كما يكلم اخوة ، وكانوا ينتهون هم أنفسهم الى أن يعدوه أبا . فاذا لاحظ فى جماعة امرأة تحمل على ذراعيها طفلا اقترب منها فلاعب الطفل وصفق له بأصابعه كى يضحكه . هكذا قضى حياته الطويلة الى أن مات . وصل الأمر الى أنه أصبح معروفا فى روسيا وفى سيبيريا كلها ، لدى المجرمين جميعهم . وقد حدثنى رجل كان فى سيبيريا أنه شاهد بنفسه كيف كان أعتى المجرمين يتذكرون هذا الجنرال ، مع أن

هذا الجنرال كان حين يزور فرق المرحّلين يندر أن يستطيع اعطاء كل واحد منهم أكثر من عشرين كوبيكا . صحيح أن هؤلاء الأفراد كانوا لا يتحدثون عن الجنرال بألفاظ فيها كثير من الحماسة والحرارة ، حتى ولا بلهجة فيها كثير من الجد . كان واحد من هؤلاء «الأشقياء» ، وهو مجرم قتل دستة رجال أو ذبح ستة أطفال لا لسبب غير حب التلذذ بالقتل (يقال ان هناك أفرادا من هذا النوع) كان يتنهد فجأة ويهتف متسائلا : «ترى ما الذى صار اليه ذلك الجنرال العجوز ؟ أما يزال حيا ؟» . كان ينطق بهذا الكلام دون أى سبب ظاهر ، ربما مرةً واحدة خلال عشرين سنة ، وربما مع ابتسامة تطوف بشفتيه أيضا ، ثم لا شئ غير ذلك . ولكن من يستطيع أن يعرف أية بذرة زرعها فى هذه النفس الى الأبد «الجنرال العجوز» الذى لا يزال الرجل يحتفظ بذكراه عشرين عاما ؟ هل تستطيع أن تعرف يا باخموتوف ما يحدثه هذا التواصل بين انسان وانسان من تأثير فى مصير الآخر ؟ ان ههنا حياة بكاملها ، وعددا لا نهاية له من التفرعات تغيب عنا ولا تبدو لأبصارنا . ان أمهر لاعب من لاعبى الشطرنج وأبعد واحد منهم نظرا لا يستطيع أن يحسب الا عددا محدودا من النقلات التالية . لقد كتبوا عن لاعب فرنسى كان يستطيع ان يحسب عشر نقلات سلفا ، أنه معجزة خارقة . فكم عدد النقلات والتركيبات التى تغيب عنا فلا تظهر لأبصارنا فى الحالة التى نحن بصدد الكلام عليها الآن ؟ انك حين تزرع البذرة ، حين تقوم بأعمال «الاحسان» والبر فى أية صورة من الصور ، انما تهب جزءا من شخصيتك وتأخذ جزءا من

شخصية الآخر . فيكون بين وجوديكما تواصل . ويكفى أن تنتبه قليلا حتى تكافأ عن ذلك بالمعرفة ، تكافأ باكتشافات لم تدر فى خلدك قط . ولا بد أن تنتهى فى الختام حتما الى أن تعد عملك الطيب علما ، فهو يسيطر على كل حياتك وربما ملأها ملئا تاما . ثم ان جميع أفكارك وجميع البذور التى زرعتها ولعلك نسيتها سوف تمتد لها فى الأرض جذور ، وسوف تنمو وتكبر . ان من أخذها عنك سينقلها الى غيره . من ذا الذى يعرف أىَّ دور ستلعبه فى حل مصير الانسانية مستقبلا ؟ واذا استطاعت معرفتك وحياة كاملة موقوفة على هذا النوع من العمل أن ترفعك أخيرا الى ذرى تستطيع وأنت فيها أن تبذر بذرة ضخمة وأن تورث الكون فكرة كبيرة ، فلسوف . . . الخ الخ ، تكلمت كثيرا فى ذلك اليوم .

هتف باخموتوف يقول كمن يوجه لوما عارما الى شخص ثالث :

— ثم تظن بعد ذلك أن الحياة محظورة عليك !

كنا فى تلك اللحظة متكئين بكوعينا على افريز الجسر ، وكنا ننظر الى نهر نيفا . فقلت وأنا أميل مزيدا من الميل فوق الدربزين :

— أتعرف ماذا خطر ببالى ؟

فصاح باخموتوف يقول شبه مذعور :

— أن تلقى بنفسك فى الماء ؟

لعله كان قد قرأ هذا الخاطر فى وجهى .

قلت :

— لا . اننى الآن اكتفى بالتفكير على النحو التالى :

لقد بقى لى من الحياة شهران أو ثلاثة أشهر ، وربما أربعة . ولكن فلننظر ، مثلا ، الى اللحظة التى لا يكون قد بقى لى فيها الا شهران ، ولنفرض اننى فى تلك اللحظة أردت بقوة أن أقوم بفعل خير يتطلب منى جهدا ، ويقتضينى أن أذهب وأجئ مرات ومرات ، ويسبب لى متاعب من نوع المتاعب التى سببتها لى قضية صاحبنا الدكتور . سوف يكون علىَّ فى هذه الحالة أن أعدل عن القيام بذلك العمل الطيب لضيق الوقت ، وأن أسعى الى «عمل طيب» آخر يكون أقل شأنا ويكون فى **طاقتى** أن أعمله (هذا اذا كان هوى القيام بأعمال الخير قد استبد بى الى هذا الحد) . فكرة مسلية ، أليس كذلك ؟

كان باخموتوف المسكين شديد القلق علىَّ . فأوصلنى الى مسكنى ، وكان لبقا فلم يحاول ولو مرة أن يعزينى ويواسينى ، بل لزم الصمت طول الوقت تقريبا . وحين ودَّعنى شدَّ على يدى بحرارة واستأذننى فى أن يزورنى . فأجبته بأن مجيئه الىَّ ، اذا كان يريد أن يجئ الىَّ «مواسيا ومعزيا» (ذلك أن زيارته ، وان كانت صامتة ، سيكون هدفها المواساة والعزاء ، وقد شرحت له هذا) سيذكرنى أكثر ما يمكن فى كل مرة بالموت الوشيك . فهزَّ كتفيه ، ولكنه وافقنى على صواب رأيى . وافترقنا على بشاشة ومجاملة ، وذلك ما لم أكن أتوقعه .

فى أثناء ذلك المساء ، وفى خلال الليلة التى أعقبته ، انما نبتت فى نفسى أولى نبتات «اقتناعى الأخير» . تشبثت تشبثا نهما بتلك الفكرة **الجديدة** ، وأخذت أقلبها بحرارة على جميع وجوهها ، وأتعقبها فى جميع انعطافاتها (لم

أنم فى تلك الليلة) . فكلما تعمقتها مزيدا من التعمق ، وكلما نفذت الىَّ مزيدا من النفاذ ، امتلأت من ذلك بمزيد من الجزع . ثم استولى علىَّ فى آخر الأمر ذعر فظيع لزمنى ولم يبارحنى طوال الأيام التالية . اننى فى بعض الأحيان ، حين كنت أفكر فى ذلك الذعر كان ينتابنى هلع جديد يجمدنى تجميدا . وخلصت من ذلك الى أن «اقتناعى الاخير» قد ترسخ فى نفسى ترسخا يبلغ من القوة أنه يستحيل أن لا يجد منفذا له . ولكننى لم أملك من الجرأة ما يكفينى لأعزم أمرى . وبعد ذلك بثلاثة أسابيع كان ذلك الأمر قد انتهى ، وشعرت بجرأة ، ولكن ذلك انما حدث فى أعقاب ظرف غريب كل الغرابة .

اننى أذكر هنا ، فى هذا الشرح ، جميع هذه الأرقام وجميع هذه التواريخ . ولا شك أن ذلك لن يعنينى فيما بعد ، أما **الآن** (وربما فى هذه اللحظة وحدها) ، فاننى أريد من أولئك الذين سيحكمون على عملى أن يتصوروا تصورا واضحا تسلسل الاستنتاجات المنطقية التى وصلت بها الى «اقتناعى الأخير» . كتبت أعلاه أننى اكتسبت الجرأة الحاسمة التى كانت تعوزنى لأضع ذلك «الاقتناع الأخير» موضع التنفيذ ، اكتسبتها لا بطريق الاستنتاج المنطقى فيما أعتقد بل فى أعقاب حافز غريب ، على أثر حادث غير عادى كان يمكن أن لا يكون له أى صلة بمجرى القضية . فمنذ نحو عشرة أيام زارنى روغوجين بمناسبة مسألة تتعلق به ولا حاجة الى الحديث عنها هنا . لم أكن قد رأيته قبل ذلك فى يوم من الأيام ، ولكننى كنت قد سمعت عنه كلاما كثيرا . أعطيته جميع المعلومات التى كان فى حاجة اليها ،

فلم يلبث أن انصرف . واذ أن ذلك كان هو الهدف الوحيد من مسعاه ، فقد كان يمكن أن تقف الأمور بيننا عند هذا الحد . لكن الرجل أثار اهتمامى اثارة قوية ، فظللت طوال النهار فريسة خواطر وأفكار بلغت من الغرابة اننى قررت أن أزوره فى الغد . أغلب الظن أن زيارتى لم تسرّه ، وأفهمنى «بكياسة ولباقة» أن علاقاتنا يجب أن لا تطول . ومع ذلك قضيت عنده ساعة كانت شائقة لى وله على السواء فيما أظن . ان التعارض بيننا يبلغ من القوة أننا لم نستطع لا أنا ولا هو الا أن نلاحظ ذلك ، وقد لاحظته أنا خاصة . أنا انسان أيامه معدودة ، وهو رجل زاخر بحياة مندفعة ، مستسلم استسلاما تاما لهوى اللحظة الحاضرة ، لا تهمه الاستنتاجات «الأخيرة» أو الأرقام أو أى شئ ، ولا يعنيه أمر مما . . . مما . . . مما لا شأن له بموضوع هواه وجنونه . فليغفر لى السيد روغوجين هذا التعبير وليرجعه الى الخراقة لدى كاتب ضعيف فى الافصاح عما يجول بفكره . لقد أحسست أثناء لقائى معه ، رغم قلة بشاشته وتودده ، أنه رجل ذكى ، قادر على أن يفهم أمورا كثيرة ، وان كان لا يعنيه شئ مما لا يتصل به مباشرة . لم أشر أمامه أية اشارة الى «اقتناعى الأخير» ، لكننى أدركت لسبب ما أنه قد كفاه أن يسمع كلامى حتى يحزره . لقد كان ساكتا لا يتكلم . ان هذا الرجل صموت صمتا هائلا . قد لمّحت له عند انصرافى الى انه رغم الفروق التى بيننا ورغم التعارض الذى يفصلنا — [1] les extrémités se touchent

---

[1] الاطراف القصوى تلتقى (بالفرنسية فى الأصل) .

— (ترجمت له هذا التعبير الى الـــــروسيـــة) ، ولذلك لعله هو نفسه قد لا يكون بعيدا عن هذا «الاقتناع الأخير» الى الحد الذى يُظن ، فلم يجبنى الا بتصعيرة فى وجهه زاخرة بالمرارة والعبوس ، ثم نهض ومضى يأتينى بقبعتى متظاهرا بالاعتقاد أننى أتهيأ للانصراف . وبحجة أنه يوصلنى الى الباب أدبا ولباقة ، لم يزد فى الواقع على أن طردنى من بيته المتجهم طردا . ولقد عجبت لبيته هذا فعلا : لكأنه مقبرة . ولكن يبدو أنه يعجبه ويرضيه . وهذا شئ مفهوم . فان الرجل يعيش حياة مندفعة زاخرة بحد ذاتها الى درجة انه ليس بحاجة الى جو فى البيت أبهج وألطف .

أرهقتنى زيارتى تلك لروغوجين . ثم اننى كنت أشعر بتعب منذ الصباح . حتى اذا كان المساء أحسست باعياء شديد وضعف كبير فتمددت على سريرى . كانت حمى عنيفة تنتابنى فى بعض اللحظات حتى لتجعلنى أهذى . ولبث كوليا بقربى حتى الساعة الحادية عشرة . وأنا أتذكر مع ذلك كل ما قاله لى وكل الأمور التى تكلمنا عنها . ولكن حين كانت تطبق أجفانى من حين الى حين فأغفو قليلا ، فان صورة ايفان فومتش كانت تعود الىَّ دائما ، فأراه فى الحلم وقد أصبح مليونيرا ، وأراه لا يدرى ماذا يصنع بملايينه ، فهو لا يبرح يحفر فى رأسه باحثا لها عن مكان ، ثم يخطر بباله أن من الممكن أن تُسرق فيرتجف خوفا وينتهى به الأمر الى أن يقرر دفنها . فأنصحه بأن يصهر هذه الثروة بدلا من أن يدفنها فى غير طائل ، ثم يصنع منها تابوتا ذهبيا صغيرا للطفل الذى تركه يموت

«متجمدا» من البرد ، وذلك بعد أن يخرج رفاته من القبر ؛ فيستقبل سوريكوف هذه النصيحة الساخرة بدموع شكر وعرفان ، ويسرع يضعها موضع التنفيذ . فأبصق تعبيرا عن الشعور بأنه امرؤ لا سبيل الى اصلاحه ، وأدعه حيث هو وأمضى . وقد أكد لى كوليا ، حين استرددت وعيى استردادا كاملا ، أننى لم أنم البتة ، وأننى ما انفككت أكلمه عن سوريكوف طوال الوقت . ومرَّت لحظات اجتاحتنى فيها نوبات غم رهيب واضطراب فظيع لذلك تركنى كوليا وهو يشعر بقلق . ونهضت اغلق الباب وراءه بالمفتاح ، فتذكرت فى تلك اللحظة ، على حين فجأة ، لوحةً كنت رأيتها فى ذلك الصباح عند روغوجين» ، فى احدى الصالات الاكثر ظلمة من منزله فوق باب من الأبواب . لقد أرانيها هو نفسه حين مررنا بها ، فلبثت واقفا قرابة خمس دقائق — فيما أذكر — أمام تلك اللوحة التى ألقتنى الى حالات اضطراب غريب رغم خلوها من أية قيمه فنية .

كانت اللوحة تمثل المسيح فور انزاله عن الصليب . ان الرسّامين ، فيما أظن ، انما اعتادوا أن يصوروا المسيح اما على الصليب واما بعد نزوله عنه ، مع وميض جمال فى وجهه يفوق الطبيعة . انهم يحرصون على أن يحتفظوا له بذلك الجمال حتى فى وسط أشد أنواع العذاب قسوة . أما اللوحة التى رأيتها عند روغوجين فلم يكن فيها شئ من هذا . انها تصوير كامل لجثمان انسانى يعبر عن جميع العذابات التى لا حدود لها مما احتمله حتى قبل صلبه . فقيها آثار الجروح وآثار اللطمات والضربات التى أمطره بها حراسه والناس حين كان يحمل صليبه ويسقط على الأرض

تحت وطأة ثقله ؛ وفيها أخيرا آثار الصلب خلال ست ساعات (اذا صدق حسابى أنا على الأقل) . صحيح أن هذا وجه انسان أُنزل عن الصليب **منذ برهة** . انه ما يزال يحتفظ بكثير من الحياة والحرارة . ولم يكن التجمد قد فعل فعله بعد ، فكان وجه الميت ما يزال يصوِّر الألم كأنه ما انفك يعانيه (لقد عبر الفنان عن هذا تعبيرا جيدا) . ولكن الوجه يُصوَّر بكل القسوة والصرامة بدون أى تلطيف : فكل شئ فيه طبيعى . انها حقا جثة أى انسان عانى تعذيبا كذلك التعذيب . أنا أعرف أن الكنيسة المسيحية قد ذهبت ، منذ القرون الأولى ، الى أن آلام المسيح لم تكن رمزية بل واقعية ، وان جسمه كان يخضع وهو على الصليب لجميع قوانين الطبيعة بدون أى تحديد أو تضييق . فكانت اللوحة اذن تمثل وجها شوهته الضربات تشويها فظيعا ، فتورم ، وامتلأ كدمات منتفخة دامية رهيبة ، وحملقت عيناه ، وانقلبت حدقتاهما ، واتسع بياضهما الذى يلتمع التماعا زجاجيا لا حياة فيه .غير أن أغرب ما فى الأمر هو هذا السؤال الخاص المثير الذى يوحيه منظر جثمان ذلك الانسان الذى عذِّب هذا التعذيب : اذا كان جميع مريديه ، اذا كان جميع الذين سيصبحون حواريه ، اذا كانت النساء التى تبعته وتعلقت بأسفل الصليب ، اذا كان الذين آمنوا به وعبدوه ، اذا كان جميع هؤلاء قد رأوا أمام أبصارهم جثةً كتلك الجثة (ولا بد أن الجثة كانت على الصورة التى وصفناها) فكيف أمكنهم أن يصدقوا وهم يرون هذه الرؤية أن الشهيد سيبعث حيا ويقوم ؟ ان المرء ليقول لنفسه على غير ارادة منه : اذا كان الموت أمرا

فظيعا الى هذا الحد ، اذا كانت قوانين الطبيعة قوية هذه القوة ، فكيف يمكن الانتصار عليها ؟ كيف يمكن تذليلها فى حين أنها لم تَلِن حتى أمام ذلك الذى أخضع الطبيعة أثناء حياته ، وجعلها تنصاع له ، وقال : «قومى طليثا» فاذا الصبية تقوم ، وقال «اخرج لعازر» فاذا الميت يخرج من القبر ؟ حين يتأمل المرء هذه اللوحة فانه يتخيل الطبيعة فى صورة وحش ضخم حاقد أخرس . أو من الأصح كثيرا ، مهما يكن التشبيه غريبا ، أن تشبه الطبيعة هنا بآلة حديثة ضخمة ، صماء لا تحس ، بلهاء لا تفهم ، تلقفت ثم طحنت ثم ابتلعت كائنا لا يعادله كائن ، يساوى وحده كل الطبيعة وكل القوانين التى تحكم الطبيعة ، وكل الأرض التى لعلها لم تُخلق الا ليظهر ذلك الكائن ! ان ما بدا لى أن تلك اللوحة تعبر عنه انما هو فكرة وجود قوة غامضة غاشمة بلهاء أبدية يخضع لها كل شئ ، وتنقل لكم هذه الفكرة على غير ارادة منكم . ان الناس الذين كانوا يحيطون بالميت ، رغم أن اللوحة لم تصور أى واحد منهم ، لا بد أنهم شعروا بغم فظيع وانصعاق رهيب فى ذلك المساء الذى حطَّم ، دفعةً واحدة ، جميع آمالهم وما يشبه ايمانهم . لا بد أنهم افترقوا على هلع هائل ملأ جوانب أنفسهم ، رغم أن كل واحد منهم حمل فى قرارة نفسه فكرة كبيرة ترسخت فى أعماقه فلا سبيل الى انتزاعها منها بعد ذلك قط . سؤال آخر : تُرى لو استطاع المعلم أن يرى صورة نفسه عشية تعذيبه ، أفكان يمشى الى الصلب والى الموت كما مشى اليهما ؟ ذلكم سؤال آخر يخطر ببالكم على غير ارادة منكم حين تنظرون الى تلك الصورة .

حاصرت هذه الخواطر فكرى بعد انصراف كوليا خلال ساعة ونصف ساعة . وكانت مفككة ، وأغلب الظن أنها كانت تشتمل على هذيان ، لكنها كانت كذلك تكتسى فى بعض الأحيان مظهرا محسوسا . هل يستطيع الخيال أن يضفى شكلا معينا على ما ليس له فى الواقع شكل ؟ كان يخيَّل الىَّ فى بعض اللحظات أننى أرى تلك القوة التى لا نهاية لها ، أرى ذلك الكائن الأصم المظلم الأخرس يتخذ شكلا غريبا لا سبيل الى وصفه . أذكر كأن أحدا حاملا شمعة قد أمسك يدى وقادنى فأرانى عنكبوتة ضخمة كريهة ، مؤكدا لى أن هذه العنكبوتة هى بعينها ذلك الكائن المظلم الأصم القادر على كل شىء ، ضاحكا من الاستياء الذى أظهرته . يضئ غرفتى فى الليل دائما مصباح صغير أمام الأيقونة . ورغم أن ضوء هذا المصباح كامد مهتز فانه يتيح تمييز الأشياء ، حتى ليستطيع المرء أن يقرأ اذا هو دنا من الضياء . أظن أن الوقت كان بعد منتصف الليل بقليل . لم أكن نائما البتة ، وكنت مضطجعا مفتَّح العينين . اذا بباب غرفتى يُشق فجأة فيدخل روغوجين .

دخل وأغلق الباب ، ونظر الىَّ دون أن يقول كلمة ، واتجه متئدا نحو الكرسى الذى يوجد فى زاوية الغرفة تحت المصباح تقريبا . دُهشت أشد الدهشة ، وأخذت أرقبه منتظرا ما سوف يفعله . وضع كوعه على منضدة صغيرة ، وحدَّق الىَّ بنظرة ثابتة صامتا . انقضت دقيقتان أو ثلاث دقائق على هذه الحال . وأذكر أن صمته قد أهاننى كثيرا وأثار حنقى . لماذا لا يحزم أمره فيتكلم ؟ وقد استغربت طبعا أن يجئ فى ساعة متأخرة هذا التأخر ، ولكننى أذكر

أن الذى شدهنى وأذهلنى كثيرا فى حد ذاته ليس هذا . بالعكس : صحيح أننى لم أعرب له فى الصباح عن فكرتى اعرابا واضحا ، لكننى كنت أعلم أنه حزرها وأدركها . ولقد كانت تلك الفكرة تستحق فعلا أن يجئ لمعاودة الكلام فيها ، ولو فى ساعة متأخرة جدا . لذلك قرَّرت أنه انما جاء لهذا الغرض . كنا قد افترقنا فى الصباح على غير وفاق ووئام ، حتى اننى أذكر أنه رشقنى مرة أو مرتين بنظرة فيها كثير من السخرية والاستهزاء . وهذا التعبير نفسه عن السخرية والاستهزاء هو ما أقرؤه الآن فى نظرته ، وهو ما أشعر أنه يجرح شعورى ويهين كرامتى . أما أننى كنت أرى أمامى روغوجين نفسه فعلا ، وأننى لا أرى حلم نوم أو أشباح هذيان فذلك ما لم يراودنى فيه أيسر شك فى أول الأمر ، حتى ان هذه الفكرة لم تخطر ببالى أصلا .

ويظل روغوجين جالسا ، ويظل ينظر الىَّ بنفس التعبير الساخر . انقلبت على سريرى غاضبا ، ووضعت كوعى على وسادتى وقررت قصدا أن أقلِّد صمته ، ولو طال هذا الصمت الى غير نهاية . لا أدرى لماذا أردت من كل بد أن يكون هو البادئ بالكلام . أظن أن نحو عشرين دقيقة انقضت على هذه الحال . وفجأة ومضت فى ذهنى فكرة : ماذا لو ان هذا ليس روغوجين ، بل شبحا لا أكثر ؟

لم يكن قد تراءى لى أى شبح لا أثناء مرضى ولا قبل مرضى . وأنا منذ طفولتى حتى هذه اللحظة ، أى حتى الآونة الأخيرة ، رغم اننى لم أومن قط بأشباح تظهر ، كان يبدو لى دائما اننى سأموت فورا اذا اتفق أن ظهر لى شبح مرة . ومع ذلك أذكر اننى حين خطر ببالى أن

هذا ليس روغوجين بل هو شبح ، لم أشعر من ذلك بأى رعب . وأكثر من هذا اننى شعرت بغضب . أمر غريب : ان التساؤل عما أراه أمامى أهو شبح أم هو روغوجين بشخصه لم يشغلنى ولا أقلقنى ، كما كان طبيعيا أن يحدث ذلك . ويبدو لى أن فكرى كان منصرفا الى غير هذا . من ذلك مثلا ان أكثر ما شغلنى هو أن أعرف لماذا كان روغوجين يرتدى الآن رداء «فراك» ، وصديرة بيضاء ، وربطة عنق بيضاء بينما كان فى الصباح يلبس ثوبا للمنزل وينتعل خفين ؟ ووميضت فكرة أخرى : اذا كان ما أراه شبحا واننى غير خائف منه فلماذا لا أنهض فأقترب منه لأتحقق بنفسى ما هو ؟ لعلنى كنت مع ذلك خائفا لا أجسر أن أفعل . ولكن ما ان خطر ببالى اننى خائف حتى شعرت كأن صقيعا مس جسمى كله ، وسرت فى ظهرى رعدة ، وارتجفت ركبتاى . وكأن روغوجين أدرك رعبى ، فاذا هو ، فى تلك اللحظة نفسها ، يسحب ذراعه التى كان متكئا على كوعها ، ويستقيم ، ويفتح فمه وهو يهم أن يضحك . وكان يحدق الىَّ تحديقا ثابتا . فاجتاحنى حنق بلغ من قوة الاستعار أننى أردت أن أهجم عليه . لكننى وقد آليت على نفسى أن لا أكون البادئ بقطع الصمت ، لم أتحرك عن سريرى . ثم اننى لم أكن واثقا من أن ما أراه أهو روغوجين بشخصه ؟

لا أذكر كم طال هذا المشهد . لا ولا أستطيع أن أقول هل كنت أغفو أثناء ذلك من حين الى حين أم لا ؟ ونهض روغوجين أخيرا ، فتأملنى ببطء وانتباه ، كما فعل حين دخل ، ولكن دون ابتسامة ساخرة فى هذه المرة ،

ثم اتجه بهدوء على رؤوس الأصابع تقريبا ، نحو الباب ففتحه وخرج وأغلقه وراءه . لم أنهض من مكانى . ولا أذكر كم من الوقت ظللت على هذه الحال مضطجعا ، مفتّح العينين ، غارقا فى أفكارى ، مستسلما لخواطرى . ماذا كانت تلك الأفكار والخواطر ؟ الله أعلم ! ولست أذكر أيضا كيف غفوت . واستيقظت فى صباح الغد بعد الساعة التاسعة ، حين سمعت قرعا على بابى . ان من المتفق عليه فى بيتنا أن تقرع ماتريونا بابى اذا لم أفتحه من تلقاء نفسى حتى الساعة العاشرة ولم أطلب الشاى . فلما فتحت الباب لماتريونا أسرعت أتساءل : كيف أمكنه أن يدخل اذا كان هذا الباب مغلقا ؟ واستطلعت الأمر فأيقنت أنه ما كان لروغوجين الحقيقى أن يستطيع دخول بيتنا لأن جميع أبوابنا تكون فى الليل مقفلة بالمفتاح .

ان هذا الحادث غير العادى الذى وصفته لكم بجميع هذه التفاصيل الكثيرة هو الذى حضنى على أن أتخذ «قرارى» نهائيا . ان هذا القرار لا يصدر اذن عن منطق الاستدلال العقلى بل عن شعور الاشمئزاز العاطفى . اننى لا أستطيع أن أبقى فى حياة تكتسى أشكالا غريبة وجارحة الى هذا الحد . ان ذلك الشبح قد تركنى تحت وطأة احساس بالذل . اننى غير قادر على الخضوع لقوة غامضة تستعير مظاهر عنكبوت ضخم . أنا لم أحس بشئ من التخفف الا حين رأيتنى أخيرا ، عند الغسق ، أمام قرار كامل نهائى . ومع ذلك لم يكن هذا الا مرحلة أولى ؛ أما المرحلة الثانية فسعيت وراءها وذهبت من أجلها الى بافلوفسك ، ولكن هذا قد سبق أن شرحته شرحا كافيا» .

الفصل السابع

«كان عندى مسدس صغير للجيب ، حصلت عليه حين كنت طفلا ، فى تلك السن المضحكة التى بدأت فيها فجأة بالتحمس لقصص المبارزات وهجمات قطاع الطرق ودعوتى أنا الى مبارزة ، فأقف أمام مسدس خصمى رابط الجأش ثابت الجنان . ففى العلبة التى كانت تضمه وجدت رصاصتين ووعاء صغيرا يحتوى على بارود يكفى لثلاث طلقات تقريبا . ان المسدس ردىء ، فهو ينحرف ولا يتجاوز مداه خمس عشرة خطوة ، لكنه اذا وُضع على الصدغ رأسا فلا شك أنه يكفى لتحطيم الجمجمة .

قررت أن أموت فى بافلوفسك ، عند طلوع الشمس ، بعد أن أنزل الى الحديقة حتى لا أحدث اضطرابا فى نفس أحد ما فى المنزل . ان «الشرح» الذى كتبته سيكون كافيا لتوضيح الأمر للشرطة . وسوف يستطيع عشاق علم النفس والمهتمون بالأمر أن يستخلصوا من ذلك كل ما يحلو لهم أن يستخلصوه . ومع ذلك لا أحب أن تُنشر هذه المخطوطة . اننى أرجو الأمير أن يحتفظ بنسخة عنده وأن يوصل النسخة الأخرى الى آجلايا ايفانوفنا ايبانتشينا . هذه ارادتى . وأنا أوصى بهيكلى العظمى لأكاديمية الطب خدمةً للعلم .

لا أعترف لأحد بحق الحكم علىَّ ، وأعلم أننى الآن فى منجى من كل قضاء . منذ مدة قصيرة راودتنى فكرة مضحكة . تساءلت : لو خطر ببالى فجأة أن أقتل الآن أيا كان ، أو عشرة أشخاص مرة واحدة ، أو أن أرتكب أفظع جريمة يمكن أن يتصورها المرء فى هذه الدنيا ، فما

أشد الارتباك الذى سأضع فيه المحكمة وأنا لم يبق لى من الحياة الا أسبوعان أو ثلاثة ، وقد أُلغى الاستجواب والتعذيب ؟ لو فعلت هذا لأتيح لى أن أموت مرفَّها فى الدفء فى المستشفى ، محاطا بعناية الأطباء ، وقد يتوفر لى من الراحة والدفء هناك أكثر كثيرا مما يتوفر لى فى بيتى . لا أفهم كيف لا تخطر هذه الفكرة ببال الناس الذين يكونون فى مثل حالتى ، ولو من قبيل المزاح ؟ لعل الفكرة خطرت ببالهم فعلا ، فليس الفكهون هم الذين ينقصوننا نحن أيضا .

ولكن اذا كنت لا أعترف بقضاة يحكمون علىَّ ، فأننى أعرف مع ذلك أن الناس سيحكمون علىَّ ، حتى حين أكون قد أصبحت متهما أصمَّ أبكم . لذلك لا أريد أن أمضى قبل أن أترك ردا حرا بغير اكراه ، لا لأبرر نفسى ، آه ، لا ! فما أنا فى حاجة الى أن أطلب غفرانا من أحد عن أى شئ ، بل لمجرد أننى أحب أن أفعل هذا بنفسى .

اليكم أولا هذه الفكرة الغريبة : من ذا الذى يستطيع — وبأى حق ولأى سبب — أن ينكر الآن علىَّ حرية التصرف فى حياتى خلال هذين الأسبوعين أو هذه الأسابيع الثلاثة ؟ أية محكمة يمكن أن تكون جهة الاختصاص فى هذا ؟ من ذا الذى يحتاج لا الى أن أكون مقضيا علىَّ بالموت ، بل كذلك الى أن أحتمل المدة الباقية لتنفيذ الحكم بالموت مذعنا ؟ هل يمكن أن ينتفع أحد بهذا حقا ؟ هل تستفيد قضية الأخلاق من هذا فعلا ؟ كان يمكن أن أقبل هذا الكلام لو كنت أحاول ، وأنا فى تمام العافية وفى كمال

القوة أن أعتدى على حياتى ، التى «قد تكون نافعة لأخى الانسان» الخ الخ . . . ان الأخلاق تستطيع عندئذ أن تتهمنى ، منقادة لروتين عتيق بالٍ ، بأننى تصرفت فى حياتى دون استئذان ، أو أن تتهمنى باقتراف ذنب آخر تعرفه هى . أما الآن وقد أُبلغت موعد موتى ، فبماذا يمكن أن أُتهم ؟ ما هى تلك الأخلاق التى تطلب منك بالاضافة الى حياتك ، تلك الحشرجة الأخيرة التى تلفظ أثناءها آخر ذرة من روحك ، سامعا تلك الكلمات المواسية التى سيقولها لك الأمير الذى سيتوصل حتما من براهين مسيحية الى الفكرة السعيدة القائلة بأن من الأفضل لك حقا أن تموت ؟ (ان أمثاله من المسيحيين يصلون دائما الى تلك الفكرة ، فهى موضوعهم المفضّل) . ما الذى يريدونه من حديثهم المضحك عن «أشجار بافلوفسك» ؟ أيريدون أن يجعلوا ساعاتى الأخيرة أرفق وألطف ؟ أهم لا يدركون اذن أننى على قدر ما أنسى الواقع فأنقاد لغواية هذا الشبح الأخير من الحياة والمحبة الذى يريدون أن يخفوا به عن بصرى حائط منزل ماير وكلّ ما هو مسجَّل عليه بصراحة كبيرة وسذاجة تامة ، أننى على قدر ذلك يزداد شقائى وتتفاقم تعاستى ؟ فيم تهمنى الطبيعة الجميلة وحديقة بافلوفسك ، وفيم يهمنى شروق الشمس وغروبها ، وسماؤكم الزرقاء ووجوهكم الرضية ، اذا كانت هذه الوليمة التى لا نهاية لها قد بدأت بأن اعتبرتنى أنا الوحيد الزائد عنها ؟ ما حاجتى الى كل تلك الروعة اذا كان يجب علىَّ فى كل دقيقة ، وفى كل ثانية ، أن أعلم مجبرا أنه حتى تلك الذبابة الصغيرة التى تدندن الآن حولى فى شعاع شمس ، حتى هى تشارك فى تلك الوليمة وفى

جوقة الطبيعة هذه . انها تعرف مكانها ، وهى تحبه وهى سعيدة به . أما أنا فاننى وحدى المنبوذ ؛ ولم يمنعنى عن فهم ذلك حتى الآن الا الجبن ! آه ! اننى أعلم أن الأمير وسائر الآخرين يودون أن يحملونى على أن أنشد بدلا من هذه التعابير «الحاقدة الكارهة» ، بدافع جمال السلوك وباسم انتصار الأخلاق ، تلك الأبيات الشعرية الكلاسيكية الشهيرة التى أنشدها ميلفوى اذ قال :

O, puissent voir votre beauté sacrée
Tant d'amis sourds à mes adieux!
Qu'ils meurent pleins de jours, que leur mort soit pleurée,
Qu'un ami leur ferme les yeux![1]

ولكن صدِّقوا أيها السذج ، صدِّقوا كل التصديق ، أن فى هذه الأبيات اللطيفة وفى هذه المباركة الأكاديمية للعالم بشعر فرنسى ، كثيرا من السخرية الخبيثة ، وكثيرا من البغضاء التى لا يشفى لها غليل ، البغضاء التى تتلذذ بنفسها ؛ وأن تلك السخرية وهذه البغضاء بلغتا من القوة والشدة أن الشاعر نفسه يمكن أن يكون قد انطلى عليه الأمر فحسب الكره والحقد دموعَ حنان وعبرات عاطفة ، ومات وهو على ذلك الوهم . رحمه اللّه ! اعلموا أن هناك حدا للعار الذى يحدثه فى نفس الانسان شعوره بأنه لا شئ ،

[1] ألا فليرَ جمالك المقدس
أصدقاء كثيرون ، صُمَّت آذانهم عن سماع وداعى !
ولتطلْ أعمارهم ، ولتُذرف لموتهم الدموع
ولتطبق أجفانَهم يدا صديق .
(بالفرنسية فى الأصل) .

وبأنه عاجز ، وليس فى وسعه ان يتجاوز هذا الحد الذى يبدأ عنده فى الاحساس بلذة خارقة فى العار نفسه . . . صحيح أن المذلة هى بهذا المعنى قوة ضخمة . اننى اسلم بهذا . ولكن ليس بمعنى القوة التى يراها فيها الدين .

الدين ! اننى أسلِّم بالحياة الأبدية . ولعلنى كنت أسلِّم بها دائما . أسلم بان الادراك شعلة أوقدتها ارادة قوة عليا ، وبأنه نظر الى العالم وقال : «أنا موجود !» . وأسلم أيضا بأن هذه القوة العليا نفسها تأمره على حين فجأة بأن ينطفئ ، لحكمة بعيدة غامضة ، وبدون أى تفسير . ليكن . اننى اسلِّم بهذا كله . ولكن يبقى السؤال الأبدى : ما الحاجة فى هذا الى اذعانى وذلى ؟ ألا يكفى أن ألتهم فحسب ، دون أن أتغنى بمدح ذلك الذى يلتهمنى ؟ هل يمكن أن يوجد هناك أحد يسيئ اليه حقا ويؤذيه فعلا أن لا أريد انتظار ساعتى أسبوعين ؟ لا أصدق هذا . بل افترض — وذلك أقرب كثيرا الى الصحة — أن تكون حياتى المسكينة التى هى حياة ذرة ، قد وُجدت حاجة الى زوالها لاكمال انسجام كلى شامل ، لتحقيق زيادة معينة أو نقص معين ، لايجاد نوع من تضاد الخ والخ ، كما توجد حاجة الى التضحية كل يوم بكثرة من الكائنات التى لا يمكن أن يبقى العالم ما لم تمت (رغم انه تجب الاشارة الى ان هذه الفكرة ليست سمحة فى ذاتها) . فليكن ! لأسلِّم بأنه اذا لم تأكل المخلوقات بعضها بعضا على الدوام ، يستحيل بناء العالم ؛ بل ولأرتض أن لا أفهم من هذا البناء شيئا . ولكن اليكم ما أعلمه حتما : اذا كنت قد أوتيت أن أدرك أننى «أوجد» ، فما شأنى وكون هذا العالم قد بُنى

بأخطاء وأنه لا يمكن أن يبقى الا بهذه الطريقة ؟ من ذا سيحكم علىَّ بعد هذا ، والى أى شئ سيستند ليحكم علىَّ ؟ فكروا فى الأمر ما شئتم أن تفكروا ، فان هذا كله مستحيل وظلم لا عدل .

على أننى لم أستطع فى يوم من الأيام ، رغم كل رغبتى فى ذلك ، أن أتصور أن الحياة الآخرة والعناية الالهية لا وجود لهما . فأغلب الظن أن ذلك كله موجود ، ولكننا لا نفهم شيئا لا عن الحياة الآخرة ولا عن القوانين التى تحكمها . ولكن اذا كان هذا يصعب بل يستحيل فهمه ، فهل أُحاسَب أنا على عجزى عن ادراك ما يستحيل فهمه ؟ صحيح أنهم يدعون — والأمير بينهم قطعا — أن من الواجب علىَّ هنا أن أخضع وأطيع دون تفكير ، بداعى جمال السلوك وحده ؛ وأن طواعيتى ستجد حتما فى الحياة الآخرة مكافأتها . ألا أننا نخفض قيمة العناية الالهية كثيرا حين ننسب اليها أفكارنا غضبا من العجز عن فهمها . ولكننى أعود فأكرر قولى بأن الانسان اذا عجز عن فهم العناية الالهية فمن الصعب أن يتحمل تبعة ما كُتب عليه الاّ يفهمه . واذ كان الأمر كذلك فكيف يحكم علىَّ لأننى لم أستطع أن أفهم ارادة العناية الالهية وأن أدرك قوانينها ؟ لا ! الأَوْلى أن ندع الدين جانبا .

وكفى هذا ، على كل حال . حين سأصل الى هذه الأسطر ستكون الشمس قد طلعت ، وستأخذ «تصدح فى السموات» مغدقةً على الكون كله قوى واسعة لا تعد ولا تحصى . ليكن ! سوف أموت متأملا وجه ينبوع القوة والحياة هذا ، ينبوع هذه الحياة التى لن أريدها بعد اليوم ! لو

كانت ولادتى مرهونة بارادتى ، لرفضت حتما الوجود فى ظل ظروف ساخرة الى هذا الحد . ولكننى ما أزال أقدر أن أموت ، وان كنت لا أملك الا بقية حياة أصبحت أيامها منذ الآن معدودة . قدرة ضئيلة وتمرد ضئيل .

شرح أخير : اذا مت فان ذلك لا يرجع البتة الى اننى لا أملك القوى اللازمة لاحتمال هذه الأسابيع الثلاثة . آه ! كانت القوى ستكفينى ؛ ولو شئت لكان فى امكانى أن أستمد عزاء كافيا من مجرد الشعور بالاهانة التى أُلحقت بى . لكننى لست شاعرا فرنسيا ، ولا أحرص على هذا النوع من العزاء . ثم ان هناك اغراء : ان الطبيعة حين قضت بأن لا أعيش الا ثلاثة أسابيع قد بلغت من تضييق ساحة عملى أن الانتحار ربما كان الآن هو الفعل الوحيد الذى أستطيع أن أبدأ به وأن أنهى به بارادتى الحرة . فلعلنى اذن أريد أن أستغل هذه الامكانية الأخيرة التى تتاح لى من أجل أن **أعمل** ؟ رب احتجاج له قيمته فى بعض الأحيان . . .»

وانتهى «الشرح» ، فتوقف ايبوليت أخيرا . . .

ان الانسان العصبى ، اذا غضب غضبا شديدا وخرج عن طوره ، يمكن فى حالات قصوى أن يمضى فى الصراحة الى آخر درجات الاستهتار . فلا يخشى بعدئذ شيئا ، ويكون مستعدا لاثارة أية فضيحة ، حتى لقد يفتنه هذا ويخلب لبه . انه يهجم على الناس وقد عقد النية بصورة غامضة لكنها حاسمة على أن يلقى بنفسه بعد دقيقة واحدة من أعلى برج ناقوس ، فيصفّى بذلك ، دفعةً واحدة ، جميع الارباكات التى قد تنشأ عند ذلك . وهذه الحالة يسبقها

فى العادة وينذر بها انهاك يعترى القوى الجسمية شيئا بعد شئ . ان التوتر الخارق ، غير الطبيعى تقريبا ، الذى سند ايبوليت حتى ذلك الحين ، كان قد بلغ تلك الدرجة الأخيرة . فهذا المراهق الذى يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، والذى هدَّه المرض ، كان يبدو ضعيفا ضعف ورقة مرتجفة انتُزعت من الشجرة . لكنه ما ان نظر الى سامعيه — لأول مرة خلال الساعة الأخيرة — حتى عبَّرت نظرته وابتسامته فورا ، عن أكبر اشمئزاز متعال ، وعن أشد احتقار جارح . لقد كان يتعجل أن يتحداهم ، لكن هؤلاء قد امتلأوا استياء وانزعاجا . فنهضوا عن المائدة يضجون غضبا . ان التعب والخمرة وتوتر الأعصاب ، ان ذلك كله قد فاقم الفوضى وكأنما زاد عكر الانطباع اذا جاز التعبير .

نهض ايبوليت عن كرسيه بوثبة مفاجئة كأنما هو انتزع انتزاعا . فلما رأى ذرى الأشجار تسطع بالنور هتف يقول للأمير وهو يشير له اليها ، كما لو كان ذلك معجزة من المعجزات :

— طلعت الشمس !

قال فرديشنكو :

— أتراك كنت تظن أنها لن تطلع ؟

ودمدم جانيا يقول معبرا عن الضجر وقلة الاكتراث ، حاملا قبعته بين يديه ، متمطيا ومتثائبا :

— الجو يؤذن بنهار آخر محرق . هل أمامنا شهر من جفاف ؟ . . أننصرف أم نبقى يا بتيتسين ؟

أصغى ايبوليت الى هذه الكلمات بدهش يشبه أن يكون انشداها . وشحب لونه على حين فجأة شحوبا فظيعا ، وأخذت أعضاؤه كلها ترتعش .

قال لجانيا وهو يثبت نظرته فى وجهه :

— تتصنع قلة الاكتراث فى خشونة لتهيننى ! أنت وغد !

صرخ فرديشنكو :

— اللعنة ! ما هذا الانطلاق فى الكلام بغير تحرج ؟ العجز الخارق !

قال جانيا :

— مجرد غبى .

استرد ايبوليت شيئا من سيطرته على نفسه ، وبدأ يتكلم فقال وهو ما يزال يرتعش ويقاطع نفسه فى كل لحظة :

— اننى أفهم أيها السادة أن أكون جديرا بحقدكم الشخصى ، و . . يؤسفنى أننى أزعجتكم بقراءة هذا الهذيان لكم (قال ذلك وهو يشير الى مخطوطته) . ولكن يؤسفنى من جهة أخرى أننى لم أضايقكم مزيدا من المضايقة . . . (قال هذا وابتسم ابتسامة بلهاء) . أليس صحيحا يا يفغينى بافلوفتش أننى كنت مزعجا ؟ أكنت مضجرا أم لا ؟ تكلم !

— سأل يفغينى بافلوفتش على حين فجأة .

أجاب يفغينى بافلوفتش :

— كانت المقالة طويلة بعض الطول ، ولكن . . . على كل حال . . .

فقال ايبوليت بلهجة آمرة وهو ما يزال يرتجف :

— قل فكرتك كلها ، لا تكذب ! مرة واحدة فى حياتك على الأقل . . .

قال يفغينى بافلوفتش وهو يشيح وجهه مشمئزا :

— أوه ! يستوى عندى تماما . . . اعمل معروفا ، دعنى وشأنى ، أرجوك .

قال بتيتسين وهو يقترب من المضيف :

— طابت ليلتك يا أمير .

وهتفت فيرا تقول مسرعة نحو ايبوليت :

— لكنه سيطلق النار على نفسه فورا ، ما بالكم ! انظروا اليه ! قال انه سينتحر عند طلوع الشمس ، ما بالكم !

كانت فيرا فى ذروة الذعر حتى لقد أمسكت يديه . فدمدمت عدة أصوات ، منها صوت جانيا ، تقول بشماتة :

— لن ينتحر !

صاح كوليا وقد أمسك يد ايبوليت هو أيضا :

— حذار أيها السادة ! انظروا اليه ! أمير ، أمير ، ما لك واقف !

تجمع حول ايبوليت كل من فيرا وكوليا وكيللر وبوردوفسكى ، وتشبث الأربعة به .

تمتم بوردوفسكى كمن فقد عقله تماما :

— هذا من حقه ، هذا من حقه ! . .

وقال ليبيديف للأمير يسأله وهو يقترب منه :

— اسمح لى يا أمير ؛ ما هى الاجراءات التى تنوى اتخاذها ؟

كان ليبيديف مخمورا ، وكان اندفاعه الحانق يستحيل الى وقاحة .

سأله الأمير :

— أية اجراءات تعنى ؟

— لا ، اسمح لى ! أنا هنا سيد الدار ، وان كنت لا أريد أن أقلل ما احمله لك من اعتبار ! . . اننى أسلّم بأنك سيد الدار أيضا . . . ولكننى لا أريد ان يحدث شئ تحت سقفى . . . لا أريد . . .

وصاح الجنرال ايفولجين يقول فجأة بلهجة فيها تعال وامتعاض على قدر سواء :

— لن ينتحر . هذا الصبى يعبث !

فصاح فرديشنكو يقول مؤيدا :

— مرحى يا جنرال !

قال ليبيديف :

— أنا أعرف أنه لن ينتحر يا جنرال . . . أيها الجنرال المحترم جدا . . . ولكننى مع ذلك . . . لأننى هنا سيد الدار .

ودَّع بتيتسين الأمير ، ومدَّ يده الى ايبوليت . وقال له بغتةً :

— اسمع يا سيد تيرنتيف : ورد فى كتابك ذكر لهيكلك العظمى فيما أظن ، وورد أنك تورثه أكاديمية الطب ، أليس كذلك ؟ فهل تقصد هيكلك العظمى أنت ؟ أعظامك انت تورث ؟

— نعم ، عظامى . . .

— طيب . ذلك أن من الممكن أن يحدث سوء فهم . يظهر أن شيئا من هذا سبق أن وقع .

صاح الأمير فجأة يسأل بتيتسين :

— لماذا تغيظه ؟

وأضاف فرديشنكو قائلا :

— لقد أبكيته .

لكن ايبوليت لم يكن يبكى البتة . وقد همَّ أن يتحرك ، لكن الأشخاص الأربعة الذين كانوا يحيطون به ، لم يلبثوا أن أمسكوا يديه دفعةً واحدة . وانطلقت ضحكات .

قال روغوجين :

— كان يقصد أن نوثق يديه لنصده عن الانتحار ، لذلك قرأ لنا دفتره . استودعك اللّه يا أمير . لقد طال جلوسنا حتى أصبحنا نحس بألم فى عظامنا .

وقال يفغينى بافلوفتش ضاحكا :

— لو كنت فى مكانك يا تيرنتيف ، وكان فى نيتى أن أنتحر فعلا ، لعدلت عن الانتحار قصدا بعد هذه الأماديح التى كالوها جزافا ، ولو لأغاظتهم على الأقل !

فقذفه ايبوليت بقوله وكأنه يريد أن ينقض عليه :

— انهم يتمنون كثيرا أن يرونى أنتحر !

قال يفغينى بافلوفتش :

— وهم يأسفون لأنهم لن يروا هذا المنظر .

— أأنت أيضا تظن اذن أنهم لن يروه ؟

فأجاب يفغينى بافلوفتش ماطا كلماته بلهجة الحامى :

— لا أريد أن أحضك عليه . بالعكس : أنا أعتقد بأنه من المحتمل جدا ان تنتحر ، لكننى أرجوك خاصة أن لا تغضب .

قال ايبوليت وهو ينظر الى يفغينى بافلوفتش بمظهر

يبلغ من الثقة المفاجئة أنه كان كمن يطلب نصيحة من صديق :

— لم أدرك الا الآن الخطأ الضخم الذى ارتكبته اذ قرأت عليهم دفترى !

فأجابه يفغينى بافلوفتش قائلا وهو يبتسم :

— وضعك مضحك . . . بصراحة : لا أدرى ما هى النصيحة التى يمكن أن أسديها اليك .

فحدّق اليه ايبوليت صامتا ، بنظرة صارمة عنيدة . كان يبدو كمن يفقد ادراك ما يجرى حوله من حين الى حين .

قال ليبيديف :

— لا . . . اسمحوا لى ! ما هذه طريقة فى التصرف . هو يقول «سيطلق النار على نفسه بالحديقة حتى لا يزعج أحدا» ! يعتقد اذن بأنه لن يزعج أحدا اذا هو نزل من السلّم وخطا ثلاث خطوات الى الحديقة .

وأراد الأمير أن يتكلم فقال :

— أيها السادة . . .

ولكن ليبيديف قاطعه غاضبا يقول :

— لا ، اسمح لى ، أيها الأمير الجليل ! انك لترى بنفسك أن هذا ليس مزاحا . ان نصف ضيوفك على الأقل يشتركون فى الاقتناع بأن الشرف يوجب عليه حتما ، بعد الذى سمعناه من كلام ، أن يبادر الى الانتحار . ولما كنت أنا رب المنزل ، فاننى أطلب معونتك أمام شهود !

— ما الذى يجب أن نعمله يا ليبيديف ؟ أنا مستعد لمساعدتك .

— اليك ما يجب أن نفعله : يجب أولا أن يسلمنا فورا المسدس الذى افتخر به وأن يسلمنا ذخيرته . فاذا فعل ، وافقت أنا على أن يقضى الليلة هنا ، مراعاةً لمرضه ، ولكن على شرط أن أراقبه ؛ ثم يكون عليه أن يمضى فى الغد الى حيث يشاء أن يمضى . معذرةً يا أمير ! اذا لم يسلم سلاحه ، فسأقبض أنا على احدى ذراعيه ، ويقبض الجنرال على ذراعه الأخرى ، وارسل فى طلب الشرطة حالا ، فتتولى هى الأمر وتمسك بزمام القضية . وسيتولى السيد فرديشنكو ابلاغ الشرطة بصفته صديقا .

وقامت جلبة : ليبيديف يتحمس ويتعدى حدود القصد والاعتدال ؛ وفرديشنكو يتهيأ للذهاب الى الشرطة ؛ وجانيا يكرر مصرا ملحا أن ايبوليت لن يحاول الانتحار . أما يفغينى بافلوفتش فقد لزم الصمت .

قال ايبوليت يسأل الأمير على حين فجأة بصوت خافت :

— هل اتفق لك يا أمير أن سقطت يوما من أعلى برج ناقوس ؟

فأجابه الأمير بسذاجة :

— لـ . . . لا !

وعاد ايبوليت الذى كانت عيناه تلتمعان ، عاد يهمس من جديد وهو ينظر الى الأمير كأنه انتظر منه جوابا فعلا :

— أتظن أننى لم أتنبأ بهذه الكراهية كلها ؟

ثم صاح يقول على حين فجأة ، مخاطبا الجمع كافة :

— كفى ! لقد أخطأت . . . أكثر من أى شخص

آخر ! يا ليبيديف ، اليك المفتاح (قال ذلك وأخرج محفظته واستل منها حلقة من الفولاذ تتدلى منها ثلاثة مفاتيح صغيرة أو أربعة) ، أقصد هذا المفتاح . . . الذى هو قبل الأخير . . . سيريك كوليا . . . يا كوليا ! أين كوليا ؟ — كذلك صاح ينادى وهو ينظر الى كوليا دون أن يراه — طيب . . . هو الذى سيريك . . . لقد ساعدنى منذ قليل فى ترتيب حقيبتى . اذهب معه يا كوليا . فى مكتب الأمير ، تحت المنضدة . . . ستجد حقيبتى . . . وبواسطة هذا المفتاح ستجد فى الصندوق الصغير الموجود فى قاع الحقيبة . . . مسدسى ووعاء البارود . ان كوليا نفسه هو الذى رتب لى الحقيبة منذ قليل يا سيد ليبيديف . سيريك كل شئ . ولكننى اشترط أن تردَّ الىَّ المسدس فى صباح الغد ، حين أسافر الى بطرسبرج . هل تسمع ؟ اننى لا أفعل هذا ارضاء لك أنت ، بل ارضاءً للأمير .

قال ليبيديف وهو يمسك المفتاح :

— هكذا أفضل !

قال ليبيديف ذلك وركض الى الغرفة المجاورة وهو يبتسم ابتسامة مسمومة .

ووقف كوليا وهمَّ أن يقول شيئا ، لكن ليبيديف جرّه معه .

رأى ايبوليت الضيوف يضحكون . ولاحظ الأمير أن أسنانه كانت تصطك كأنما هو يعانى حمى شديدة .

وهمس ايبوليت يقول فى اذن الأمير من جديد بلهجة مسعورة :

— ما أحقر هؤلاء الناس جميعا !

كان من أجل أن يكلم الأمير ، يميل عليه دائما ، ويخاطبه بصوت خافت ، همسا .

قال له الأمير :

— دعهم وشأنهم ! انك ضعيف جدا . . .

— فورا ، فورا ، سأمضى فورا . . .

قال ايبوليت ذلك وعانق الأمير فجأة . وأضاف وهو ينظر اليه ضاحكا ضحكة خاصة :

— لعلك تظن اننى مجنون ، اليس كذلك ؟

— لا ، ولكنك . . .

— فورا ، فورا ، اسكت . لا تقل شيئا . . . انتظر . . . أريد أن أنظر الى عينيك . . . ابق كما أنت ، حتى أستطيع أن أنظر اليك . اننى أودِّع انسانا .

ووقف وتأمل الأمير ساكتا صامتا نحو عشر ثوان . كان شديد الشحوب ، وكان العرق يتقاطر من صدغيه ، وكانت يده متشبثة بالأمير تشبثا عجيبا كأنه يخاف أن يفلت الأمير منه .

صاح الأمير يسأله :

— ايبوليت ! ايبوليت ! ماذا بك ؟

— فورا . . . كفى . . . سوف أنام . . . سأشرب جرعة واحدة ، نخبَ الشمس . . أريد هذا . . أريد هذا . . . دعنى أفعل !

أمسك الكأس من المنضدة بسرعة ، ثم اندفع ووصل فى لمح البصر الى مهبط الشرفة . وهمَّ الأمير أن يركض وراءه . ولكن شاءت المصادفة ، بما يشبه العمد ، أن مدَّ اليه يفغينى بافلوفتش يده فى تلك اللحظة نفسها مودِّعا .

فما انقضت ثانية واحدة ، حتى كان يدوّى فى الشرفة صراخ عام على حين فجأة ، أعقبه اضطراب شديد .

اليكم ما حدث :

حين وصل ايبوليت الى مهبط الشرفة ، توقف عن السير ممسكا الكأس بيده اليسرى ، وأدخل يده الأخرى فى الجيب الأيمن من معطفه . وقد أكدّ كيللر فيما بعد أن يده كانت فى تلك الجيب منذ أن كان يتحدث مع الأمير ممسكا كتفه وتلابيبه باليد اليسرى . حتى ان هذه اليد اليمنى فى الجيب هى التى أثارت فيه ، هو كيللر ، أول اشتباه . ومهما يكن من أمر فان كيللر قد اندفع يلاحق ايبوليت ، يحضه على ذلك نوع من التخوف . لكنه هو أيضا لم يدركه فى الوقت المناسب . كل ما هنالك أنه أبصر شيئا يلتمع فجأة فى يد ايبوليت اليمنى ؛ ثم رأى حالا مسدسا صغيرا للجيب يطبق على صدغه . وقد هرع اليه ليمسك ذراعه ، لكن ايبوليت كان قد ضغط على الزناد فى تلك اللحظة نفسها ؛ فسُمعت قرقعة حادة جافة ، لكن الطلقة لم تخرج . وامسك كيللر ايبوليت . واستسلم ايبوليت للامساك كمن أُغمى عليه ، ولعله كان يظن أنه مات فعلا . وأصبح المسدس فى يدى كيللر ، واسند الآخرون ايبوليت وقربوا اليه كرسيا أجلسوه عليه ، وتحلقوا جميعا حوله يصرخون ويسألون . انهم بعد أن سمعوا قرقعة الزناد ، رأوا الرجل حيا سليما حتى من أى خدش . وكان ايبوليت جالسا لا يفهم ماذا يجرى ، ويجيل على ما حوله نظرة مشدوهة . وفى تلك اللحظة دخل ليبيديف وكوليا راكضين .

كان الحضور يسألون من هنا ومن هناك :

— ألم تنطلق الرصاصة ؟

وافترض بعضهم :

— لعل المسدس لم يكن محشوا ؟

فأعلن كيللر يقول وهو يفتش السلاح :

— بل المسدس محشو . لكن . . .

— ألم تنطلق الرصاصة حقا ؟

قال كيللر :

— لم يكن ثمة كبسولة .

يصعب على المرء أن يصف المشهد البائس الذى أعقب ذلك . ان الذعر العام الذى سيطر فى اللحظة الأولى لم يلبث أن حل محله ضحك . حتى ان بعض الأشخاص ضجوا بالضحك صاخبين ، معربين بذلك على لذة وشماتة . كان ايبوليت يبكى ناشجا كأنما اعترته نوبة عصبية ويعقف ذراعيه متألما ، ويرتمى على جميع الناس حتى على فرديشنكو معانقا اياه بكلتا يديه حالفا بأغلظ الأيمان أنه نسى وضع الكبسولة «نسيانا عرضيا طارئا بغير ارادة» ، مضيفا أن «جميع الكبسولات ، وعددها عشرة ، موضوعة هنا فى جيب صديرته ، فهذه هى» (وأشار اليها للجميع) لكنه تركها فى مكانها مخافة أن تنطلق الطلقة من المسدس مصادفة فى الجيب ، على أساس أن فى وسعه أن يضع الكبسولة فى الوقت الذى يشاء ، غير أنه نسى فجأة أن يفعل . كان ايبوليت يتجه بكلامه الى الأمير والى يفغينى بافلوفتش واحدا بعد واحد ؛ ويضرع الى كيللر أن يردّ اليه المسدس ليستطيع أن يبرهن فورا للجميع على أن «شرفه . . شرفه . . » . . . وان شرفه «قد تلطخ الآن الى الأبد ! » . . .

ثم تهاوى مغشيا عليه بالفعل . فنُقل الى حجرة الأمير. وكان ليبيديف قد زايله سكره تماما فأرسل فى طلب طبيب على الفور ، وبقى هو وابنته وابنه وبوردوفسكى والجنرال حول سرير المريض . بعد ان نُقل ايبوليت مغشيا عليه ، وقف كيللر فى وسط الغرفة واعلن فى حماسة على رؤوس الأشهاد ، بلهجة جازمة قاطعة ، مفصلا كل كلمة من كلماته :

— أيها السادة ، اذا افترض أحد منكم مرةً أخرى ، بحضورى ، وبصوت مسموع بأن الكبسولة نُسيت عن عمد واذا أخذ يؤكد أن الشاب الشقى المسكين كان يمثل تمثيلا ، فليكونن له معى شأن .

لم يجبه أحد . وكان الضيوف قد تفرقوا أخيرا جماعات ، وانصرفوا مسرعين . ومضى بتيتسين وجانيا وروغوجين معا .

أدهش الأميرَ أن يرى يفغينى بافلوفتش يغير رأيه ويمضى قبل أن يتحدث اليه كما طلب . فسأله :

— ألم تكن تريد أن تتحدث معى بعد انفضاض الحفل ؟

فأجابه يفغينى بافلوفتش وهو يجلس فجأة ويُجلس الأمير الى جانبه :

— صحيح . لكننى غيَّرت رأيى الآن الى حين . اعترف لك باننى منفعل ، وانت منفعل أيضا . أفكارى مشتتة مضطربة . ثم ان المسألة التى كنت أريد أن أكاشفك فيها تهمنى الى أبعد الحدود ، وتهمك الى أبعد الحدود أيضا . اود يا أمير أن أقوم ، ولو مرة واحدة فى حياتى ، بعمل شريف كل الشرف ، أعنى بعمل خال من كل غرض خبيث ، مبرأ من أية فكرة مبيتة . واذ أننى لا أملك الآن ،

فى هذا الدقيقة ، أن أكون قادرا على ذلك كل القدرة ؛ واذ أنك قد تكون أنت أيضا فى مثل حالتى . . . ف. . . ف. . . فلنرجئ تلك المكاشفة الى وقت آخر . من الجائز أن تتضح الأمور لى ولك على السواء ، اذا تركنا الأمر يومين أو ثلاثة ، وهذه هى المدة التى أنوى أن أقضيها فى بطرسبرج .

قال يفغينى بافلوفتش ذلك ونهض عن كرسيه من جديد ، فلا يفهم المرء لماذا جلس قبل ذلك . بدا للأمير أنه كان مستاء غاضبا ، ولاحت له فى نظرته عداوة لم تعبر عنها من قبل . وسأل الأمير :

— بالمناسبة ، أأنت ذاهب الى المريض الآن ؟

فقال الأمير :

— نعم . . . أنا خائف عليه !

— لا تخف ! سيعيش ربما ستة أسابيع أخرى ، حتى لقد يشفى هنا . ولكن الأفضل أن تطرده منذ الغد .

— لعلنى قد حرَّضته أنا أيضا فعلا . . . بصمتى . لعله ظن أننى كنت أنا أيضا أشك فى صدق عزمه على الانتحار . ما رأيك يا يفغينى بافلوفتش ؟

— لا ، بتاتا ! انك تسرف فى طيبة القلب اذا ظللت تكترث بهذا الأمر ! لقد سمعت من يقول ، دون أن تتاح لى فرصة التحقق من هذا الرأى فى يوم من الأيام ، أن الانسان قد ينتحر خصيصا ليجتذب اليه مدح الآخرين له ، أو لأنه غاضب من أن أحدا لم يمدحه . وما كان لى أن أصدق خاصةً أن المرء يمكن أن يبدى ضعفه ابداء يبلغ هذا المبلغ من الصراحة . ولكن مهما يكن

من أمر ، يجب عليك أن تطرده منذ الغد !

— هل تعتقد أنه سيكرر محاولة الانتحار ؟

— لا ، لن يكررها منذ الآن . ولكن يجب عليك أن تحذر أصحابنا الروس من أمثال لاسنيره . أعود فأقول لك : ان الجريمة هى الملاذ المألوف الذى يلجأ اليه أمثال هؤلاء التافهين العاجزين يحرقهم نفاد الصبر ويأكلهم الجشع أكلا !

— أهو اذن من أمثال لاسنير ؟

— الجوهر واحد ، ولكن ربما كان الظرف مختلفا . لسوف ترى ان هذا السيد لا يتورع عن ذبح عشرة أشخاص ، ولو لمجرد «المزاح» ، على حد التعبير الذى استعمله هو نفسه حين قرأ شرحه . ان أقواله ستحرمنى الآن من النوم .

— لعلك تغالى فى مخاوفك .

— ان أمرك لعجيب يا أمير . ألا تصدّق أنه لا يتورع عن أن يقتل **الآن** عشرة أشخاص ؟

— أخشى أن أجيبك . هذا كله عجيب . ولكن . . .

ختم يفغينى بافلوفتش الكلام قائلا بلهجة ساخطة :

— لك ما تشاء ! ثم انك رجل شجاع ! ولكن حاول أن لا تكون أنت نفسك أحد هؤلاء العشرة !

قال الأمير وهو ينظر الى يفغينى بافلوفتش شارد الذهن :

— الأرجح أنه لن يقتل أحدا .

فضحك يفغينى بافلوفتش ضحكة ساخرة حاقدة . وقال :

— الى اللقاء . آن الأوان . هل لاحظت أنه يورث آجلايا ايفانوفنا نسخة من «اعترافه» ؟

— نعم ، لاحظت ذلك . . . و . . . ودعانى هذا الى التفكير .

قال يفغينى بافلوفتش وهو يضحك ساخرا من جديد :

— ذلك ما يؤدى به الى قتل عشرة أشخاص .

ثم خرج .

بعد ساعة ، بين الثالثة والرابعة من الصباح ، نزل الأمير الى الحديقة . كان قد حاول أن ينام فى بيته ، ولكنه لم يستطع الى ذلك سبيلا ، بسبب دقات قلبه الشديدة العنيفة . رغم ان كل شئ فى بيته قد عاد الى النظام والهدوء بقدر الامكان . نام المريض ، وأعلن الطبيب الذى جاء يعوده أنه غير معرّض لأى خطر مباشر . وقد نام ليبيديف وكوليا وبوردوفسكى فى غرفته ليتناوبوا السهر عليه . فلا خوف اذن على شئ .

ومع ذلك كان قلق الأمير يزداد دقيقة بعد دقيقة . ضرب فى الحديقة على غير هدى ، ملقيا حواليه نظرات ذاهلة ، ثم توقف مدهوشا حين وصل الى البقعة الجرداء التى تقع أمام المحطة ، فرأى صفوف المقاعد الخالية ومساند دفاتر الأوركسترا . أدهشه منظر هذا المكان ووجده قبيحا قبحا رهيبا ، لا يدرى لماذا . وعاد أدراجه ، وسار فى الطريق الذى كان قد اتبعه أمس مع أسرة ايبانتشين للذهاب الى المحطة . فلما وصل الى الدكة الخضراء ، مكان الموعد المضروب ، جلس وانفجر يضحك ضحكة مفاجئة صاخبة سرعان ما لام نفسه عليها مستاء أشد الاستياء . لم يبارحه غمه وقلقه . ودّ لو يذهب الى أى مكان . . . لكنه لم يعرف الى أين . وغرّد على الشجرة فوقه عصفور صغير .

فأخذ يبحث عنه بعينيه بين أوراق الأغصان . وطار العصفور على حين فجأة . فذكّره لسبب ما رأسا بتلك «الذبابة الصغيرة المدندنة فى شعاع من الشمس محرق» ، التى كتب ايبوليت بصددها «انها تعرف مكانها وتشارك فى جوقة الطبيعة هذه ، أما هو فانه وحده المنبوذ» . ان تلك الجملة التى سبق أن خطفت انتباهه حينذاك ، تعود الآن الى فكره . واستيقظت فى نفسه ذكرى نائمة منذ زمن بعيد ، فاذا هى تشرق فى هذه اللحظة بضياء مفاجئ .

كان ذلك بسويسرا ، أثناء السنة الأولى بل أثناء الأشهر الأولى من معالجة مرضه . كان يُعدُّ فى ذلك الحين أبله تماما . كان لا يستطيع حتى أن يعبر عما يريد التعبير عنه ، بلغة سليمة ، وكان فى بعض الأحيان لا يفهم ما يُطلب منه . ومضى ذات يوم الى الجبل ، وكان النهار واضحا وكانت الشمس متلألئة . ظل مدة طويلة يطوف على غير هدى ، تعذّبه فكرة أليمة كاوية لكنه لا يتوصل الى صياغتها بكلام . كان يرى أمامه سماء ساطعة ، ويرى تحت قدميه بحيرة رائعة ، ويرى من حوله أفقا نيرا مضيئا يبلغ من السعة أنه يبدو بغير حدود . تأمل هذا المنظر مدة طويلة مهصورَ القلب غما وهما . انه يتذكر الآن أنه مدَّ يديه الى ذلك الأقيانوس من الضياء واللازورد ، وانه ذرف دموعا غزيرة . كان يعذبه أنه غريب عن هذا كله . ما هذه الوليمة ، ما هذه الحفلة الكبيرة الدائمة التى لا نهاية لها ، والتى كان يحس أنه منجذب اليها منذ الأزل ، منذ طفولته ، دون أن يستطيع المشاركة فيها قط ؟ الشمس تطلع مشرقة فى كل صباح . وفى كل صباح يرتسم قوس قزح فوق

الشلال . وتلتهب بنار كالأرجوان ، فى كل مساء ، عند الأفق ، الذروةُ المغطاة بالثلج من أعلى جبل . ان كل «ذبابة صغيرة تدندن حوله فى شعاع محرق من شمس ، فتشارك فى جوقة الطبيعة هذه : انها تعرف مكانها ، وتحبه ، وهى سعيدة به» . كل عشبة تنمو وتسمد ! لكل كائن طريقه الذى يعرفه . يصل ويرحل مغنيا ! أما هو ، فهو الوحيد الذى لا يعرف شيئا ، ولا يفهم شيئا ، لا البشر ، ولا أصوات الطبيعة ، لأنه غريب فى كل مكان ، ولأنه فى كل مكان منبوذ . آه ! صحيح أنه كان فى ذلك الحين لا يستطيع أن يعبر عن شعوره بهذه الألفاظ ، ولا أن يصوغ سؤاله بهذه العبارات . كان ألمه أصمَّ أبكم . ولكنه يتخيل الآن أنه فى ذلك الحين كان يقول هذا كله بهذه العبارات نفسها . وخُيِّل اليه أن كلام ايبوليت عن «الذبابة الصغيرة» ، انما هو مأخوذ عنه ، مستعار من كلامه ومستمد من الدموع التى كان يذرفها فى تلك الأيام . انه مقتنع بهذا ، وكانت هذه الفكرة لسبب ما تجعل قلبه يخفق . . .

وغفا على الدكة ، لكن اضطرابه لاحقه حتى فى النوم . تذكر ، قبل ان ينام أن ايبوليت يمكن أن يقتل عشرة أشخاص ، فابتسم لهذه الفكرة المستحيلة السخيفة . وكان يرين حوله صمت مضئ جليل لا يعكره الا حفيف أوراق الشجر الذى كان يبدو أنه يقوى الهدوء والعزلة . ورأى الأمير أحلاما كثيرة كانت كلها مقلقة تبعث على الغم ، وتجرى فى الجسم رعدات لا تنقطع . وأخيرا اقتربت منه امرأة . انه يعرفها ، يعرفها الى حد الألم . انه ما يزال

يستطيع أن يسميها ، أن يعيِّنها ، ولكن الشئ الغريب هو أن لها الآن وجها آخر مختلفا كل الاختلاف عن الوجه الذى رآه فيها دائما . كان لا يريد ان يرى فيها تلك المرأة حتى الألم . أن الوجه يعبر عن الندم والذعر تعبيرا يبلغ من القوة أن المرء يمكن أن يتخيل أن هذه المرأة مجرمة رهيبة ، وأنها آتية الآن من اقتراف جرم فظيع . كانت ترتجف على وجهها الشاحب عبرة . نادته بحركة من يدها ووضعت اصبعا على شفتيها ، كأنما هى تدعوه أن يتبعها بغير ضجة . انهار قلبه . كان لا يريد أن يرى فيها مجرمة ، بحال من الاحوال ، ولكنه أحس أن حادثا فظيعا يوشك أن يقع ، وأن هذا الحادث سيؤثر فى مجرى حياته كلها . كان يبدو أنها تريد أن تريه شيئا ما ، فى مكان غير بعيد ، بالحديقة . نهض ليتبعها ، ولكن ضحكة رائقة نضيرة رنَّت فجأة قربه ؛ واذا يد تصير فى يده على حين بغتة . أمسك اليد بقوة ، واستيقظ من نومه . كانت آجلايا أمامه تضحك مقهقهة .

كانت تضحك ، ولكنها كانت مستاءة فى الوقت نفسه . صاحت تقول بلهجة الدهشة والازدراء :

— انه نائم ! أنت كنت نائما !

فتمتم الأمير يقول قبل أن يسترد وعيه ، وقد تعرفها مدهوشا :

— هذا أنت ؟ ها . . . نعم . . . بيننا موعد مضروب . . . لقد نمت هنا !

— لاحظتُ ذلك !

— ألم يوقظنى أحد غيرك ؟ ألم يجئ الى هنا أحد سواك ؟ ظننت أن قد كانت هنا . . . امرأة أخرى .

— امرأة أخرى كانت هنا . . .

واسترد الأمير وعيه كاملا آخر الأمر . فقال شارد الذهن :

— لم يكن ذلك الا حلما . غريب أن يراودنى حلم من هذا النوع ، فى هذه اللحظة . . . اجلسى .

وشدها من يدها وأجلسها على الدكة ، وجلس هو الى جانبها ، وغرق فى أفكاره وخواطره . لم تقطع آجلايا الصمت واكتفت بأن تحدق اليه . وكان ينظر اليها هو أيضا ، ولكنه ينظر اليها فى بعض الأحيان وكأنه لا يراها البتة أمامه . أخذ وجهها يحمر .

قال الأمير مرتعشا :

— آ . . . نعم . . . انتحر ايبوليت رميا بالرصاص !

فسألته دون أن تظهر عليها دهشة شديدة :

— متى ؟ عندك ؟ أمس مساءً ، كان ما يزال حيا فيما أظن . أليس كذلك ؟

ثم هتفت تقول بانتعاش مفاجئ :

— كيف أمكنك أن تجئ لتنام هنا بعد حادث كهذا ؟

قال الأمير :

— لكنه لم يمت . لم تنطلق الطلقة .

واضطر الأمير ، تلبية لرجاء آجلايا ، ان يقص عليها فورا ، بتفاصيل كثيرة ، كل ما جرى فى الليلة الماضية . فكانت تستعجله سرد التتمة بغير انقطاع ، ولكنها تقاطعه هى نفسها بالقاء أسئلة كثيرة متصلة لا تكاد تتعلق بالموضوع . وقد اهتمت اهتماما خاصا بما قاله يفغينى بافلوفتش ، حتى لقد ساءلت الأمير مرارا حول هذا . فلما انتهى من سرد القصة قالت :

— كفى هذا ! يجب أن نستعجل ! ليس أمامنا الا ساعة واحدة نقضيها هنا ، ويجب أن أكون بالمنزل فى الساعة الثامنة قطعا ، حتى لا يعلموا أننى جئت الى هذا المكان . وأنا انما جئت هنا لأمر . ثمة أشياء كثيرة يجب أن أنقلها اليك . لكنك قطعت علىَّ تسلسل فكرى . ففيما يتعلق بايبوليت أعتقد أن مسدسه ما كان يمكن الا أن يخيب . فهذا يتفق وطبيعة الشخص . ولكن أأنت موقن أنه أراد أن ينتحر حقا ، وأن ذلك لم يكن تمثيلا ؟

— لا ، لم يكن ذلك تمثيلا !

— هذا هو الأرجح فعلا . وقد أوصى ، كتابةً ، بأن عليك أن تحمل الىَّ «اعترافه» ؟ فلماذا لم تجئنى به ؟

— لانه لم يمت . سأطلبه منه .

— جئنى به حتما ، ولا داعى للطلب . يقينا أن ذلك لا يمكن الا أن يسرَّه ، ولعله لم يشأ أن ينتحر الا لأقرأ أنا بعد ذلك اعترافه . أرجوك يا ليف نيقولايفتش ، لا تضحك مما قلت لك لأن هذا قد يكون جائزا جدا .

— لا أضحك . فأنا نفسى متأكد ان هذا جائز جدا الى حد ما .

— أنت متأكد ؟ أيمكن أن تكون قد ساورتك أيضا هذه الفكرة نفسها ؟

كذلك سألته آجلايا بدهشة شديدة .

كانت تسائله متعجلة ، وتتكلم بسرعة ، ويظهر عليها كأنها تفقد تسلسل كلامها فى بعض الأحيان ، وكثيرا ما تسكت قبل أن تتم جملتها . وهى فى كل لحظة تبادر الى تحذيره من شئ من الاشياء . فكان قلقها شديدا جدا على وجه العموم ، رغم أن نظرتها واثقة بل ومتحدية ، ولعلها كانت فى قرارة نفسها وجلة . كانت جالسة فى أقصى الدكة ، تكسوها ثياب بسيطة ، فهى ترتدى ثوبا مما يُلبس كلَّ يوم ، لكنه يناسبها كثيرا . وقد ارتعشت واحمرت مرارا . وقد أدهشها أعمق الدهشة أن تسمع الأمير يؤكد أن ايبوليت انما أطلق النار على نفسه من أجل أن تقرأ هى «اعترافه» .

قال الأمير شارحا :

— ولا شك أنه كان يريد ، بغض النظر عنك أنت ، أن نغدق نحن جميعنا عليه المديح . . .

— المديح ؟ كيف ؟

— أقصد . . . كيف أشرح لك هذا ؟ ان التعبير عن هذا الأمر صعب جدا . أغلب الظن أنه كان يرغب فى أن يرى جميع الناس يسرعون اليه فيحتشدون حوله ويعربون له عن عواطف المحبة والتقدير ، ويضرعون اليه أن لا يقتل نفسه . جائز جدا أنه فكَّر فيك أكثر مما فكَّر فى الآخرين ، فانه فى لحظة كتلك اللحظة قد سمَّاك أنت . . . وان يكن من المحتمل أنه لم يدرك هو نفسه أنه كان يفكر فيك .

— أصبحت لا أفهم شيئا : يفكر فىَّ دون أن يدرك أنه يفكِّر فىَّ ! ولكن أظن اننى فهمت . هل تعلم أننى أنا نفسى ، حين كنت بنية فى الثالثة عشرة من العمر ، قد خطر ببالى ثلاثين مرة أن أتجرع سما ، وأن أشرح كل شئ فى رسالة أتركها لأبوى ؟ كنت أتصور نفسى مسجاة فى التابوت ، وأتصور جميع أهلى يبكون من حولى ، ويلومون أنفسهم على أنهم كانوا قساة تلك القسوة كلها معى . . .

ثم أضافت تقول مسرعة وهى تقطب حاجبيها :

— لماذا تبتسم أيضا ؟ فى أى شئ تفكر أنت اذن حين تخلو الى نفسك وتخلد الى العزلة فى أحلامك ؟ أتراك تتصور نفسك مارشالا يهزم نابوليون ؟

فأجاب الأمير ضاحكا :

— يمينا ان هذا بعينه هو ما أفكر فيه ، ولاسيما حين أنام . ولكننى لا أهزم نابوليون بل أهزم النمسويين .

— اننى لا أمازحك البتة يا ليف نيقولايتش . سوف أرى ايبوليت بنفسى ، فأرجوك أن تبلغه رغبتى هذه . أما أنت فاننى أرى أن نظرتك الى نفس انسان مثل ايبوليت وحكمك عليها يشتملان على شر قبيح ، لأن فيهما فظاظة

وغلظة . انك امرؤ خال من عاطفة الحنان . انك لا ترى الا الحقيقة وحدها ، فأنت لهذا ظالم .

أخذ الأمير يفكر . ثم قال :

— أظن انك ظالمة فى حكمك علىَّ ، فأنا لا أرى أى بأس فى أن تكون تلك الفكرة قد خطرت بباله . ان جميع الناس يجنحون الى أن تراودهم هذه الفكرة . ثم ان من الجائز أن لا تكون تلك الفكرة قد ملكت عليه نفسه ، وانما هى رغبة استولت عليه لا أكثر . . . لقد أراد أن يوجد فى المجتمع مرة أخيرة ، وأن يستحق اعتبار الناس ، وأن يكون جديرا بمحبتهم . وتلك عواطف عظيمة رائعة . لكن ذلك كله لم يتهيأ له . ومرد هذا الى المرض ، والى ما لا أدرى أيضا ! . . ان هناك أناسا يظفرون دائما بما يريدون ، وأناسا يخفقون فى كل ما يحاولون . . .

قالت آجلايا :

— تقصد نفسك وأنت تقول هذا الكلام ، أليس كذلك ؟

فأجابها الأمير دون أن ينتبه الى ما اشتملت عليه ملاحظة آجلايا من شماتة :

— نعم ، أقصد نفسى .

— على كل حال ، لو كنت أنا فى مكانك لما نمت . أما أنت فتستسلم للنوم حيثما توجد . وليس بالمستحسن أن يصدر هذا عنك .

— ولكننى ظللت سهران طول الليل ، ثم مضيت أطوِّف هنا وهناك ، وذهبت الى مكان الموسيقى . . .

— أية موسيقى ؟

— المكان الذى كانت تعزف فيه الموسيقى أمس ، ثم جئت الى هنا ، وجلست ، وفكرت طويلا ، ثم غفوت .

— ها . . . حقا ؟ هذا يغيِّر الأمر لصالحك . . . ولكن لماذا ذهبت الى مكان الموسيقى ؟

— لا أدرى . . . هكذا . . .

— طيب ، طيب ، ستتحدث عن هذا فيما بعد . انك تقاطعنى دائما . فيم يهمنى أن تكون قد ذهبت الى مكان الموسيقى ؟ قل لى : من هى المرأة التى رأيتها فى الحلم ؟

— انها . . . انها . . . لقد رأيتها أنت . . .

— فهمت . . . فهمت . انك تحمل لها كثيرا من . . . على أية حال رأيتها ؟ فى أية صورة ظهرت لك ؟

ثم قالت فجأة بلهجة قاسية بشئ من الغضب :

— على كل حال ، لا أريد أن أعرف عن هذا شيئا . لا تقاطعنى . . .

وتوقفت عن الكلام لحظة كأنما تحاول ان تتغلب على وجلها أو كظم غضب شبَّ فى نفسها . ثم أضافت تقول شبهَ حانقة :

— اليك الأمر الذى من أجله طلبت منك أن تجئ : أريد أن أعرض عليك أن تكون صديقى . ما بالك تنظر الىَّ هكذا ؟

كان الأمير ، فى تلك اللحظة ، ينظر اليها فعلا بكثير من الانتباه ، لأنه لاحظ أنها عادت تحمر احمرارا شديدا . وهى فى مثل هذه الحالة يزداد غضبها من نفسها على قدر ازدياد احمرارها ، فذلك يُقرأ فى التماعات عينيها ؛

حتى اذا انقضت دقيقة صبت غضبها على محدّثها فى العادة ، سواء أكان مذنبا أم كان غير مذنب ، فهى تأخذ تناكده باحثةً عن أى وسيلة لمشاجرته . انها لمعرفتها بطبعها المتوحش وبحيائها قلما تتدخل فى الحديث عادة ، فهى صموت أكثر من أختيها ، حتى انها مفرطة فى الصمت أحيانا . حتى اذا كانت فى ظرف حرج دقيق ، كالظرف الذى توجد فيه الآن ولا تستطيع أن تستغنى فيه عن الكلام ، فانها تتكلم بتعال كبير وهيئة فيها شئ من التحدى . وهى تتنبأ دائما باللحظة التى ستحمر فيها أو ستأخذ فيها بالاحمرار.

قالت للأمير وهى ترشقه بنظرة متغطرسة :

— أتراك لا تريد قبول ما أعرضه عليك ؟

فقال الأمير خجلان مضطربا :

— آه بلى ، أريد جدا . ولكن . . . ولكن هذا لم يكن ضروريا البتة . . . أقصد أننى لم أكن أتصور أن من الضرورى أن يُصاغ هذا العرض بالكلام .

— فماذا كنت تظن اذن ؟ ما عسى يكون السبب الذى دعانى أن أطلب منك المجئ الى هنا ؟ وماذا يدور فى خلدك ؟ ألعلك تنظر الىَّ نظرتك الى صغيرة حمقاء ، كما يفعل الجميع فى بيتنا ؟

— لم أكن أعلم أنهم ينظرون اليك نظرتهم الى حمقاء . أنا . . . أنا لا أنظر اليك هذه النظرة .

— أنت لا تنظر الىَّ هذه النظرة ؟ هذا يدل على ذكاء كبير من جانبك . وقد قلت كلامك بكثير من الذكاء على كل حال !

تابع الأمير كلامه فقال :

— بل قد تكونين على قدر كبير من عمق الذكاء أحيانا . من ذلك أنك قلت على حين فجأة كلمة ملأى بالحكمة منذ قليل بصدد حكمى على ايبوليت : «أنتِ لا ترى الا الحقيقة وحدها ، فانت اذن ظالم» . سأظل أذكر هذه الملاحظة وأتأمل فيها .

احمرت آجلايا لذة ونشوة على حين فجأة . كانت هذه التغيرات كلها تحدث فى نفسها بسرعة خارقة وصراحة كاملة . وسرَّ الأمير هو أيضا ، وأخذ يضحك فرحا وهو ينظر اليها .

وعادت تتكلم فقالت :

— اسمع . لقد انتظرتك طويلا لأروى لك هذا كله . انتظرتك منذ اللحظة التى كتبتَ الىَّ فيها رسالتك من هناك ، بل وقبل ذلك . . . ولقد سمعتَ أمس نصف ما كان علىَّ أن أقوله لك : اننى أعدك أشرف انسان وأصدق انسان . واذا قيل عنك ان فى عقلك . . . ان عقلك مريض فى بعض الأحيان ، فهذا ظلم . اننى مقتنعة بما أقول ، وقد دافعت عن اقتناعى هذا . ورغم ان عقلك مريض حقا (ولن تغضب بالطبع على ما قلته ، فأنا اتكلم من وجهة نظر سامية) ، فان ذكاءك الأساسى افضل من ذكاء أى واحد منهم ، بل انك تملك من هذا الذكاء قدرا يعجزون حتى عن تصوره . ذلك أن الذكاء ذكاءان : فذكاء أساسى وذكاء ثانوى . أليس كذلك ؟ أليس هذا حقا ؟

تمتم الأمير يقول بصوت خافت لا يكاد يُسمع :

— قد يكون الأمر كما تقولين .

وكان قلبه يدق دقا قويا ، ويخفق خفقانا عنيفا .

وتابعت هى كلامها فقالت بلهجة جليلة :

— كنت على يقين من أنك ستفهمنى . ان الأمير «ش. . .» ويفغينى بافلتش لا يفهمان شيئا من هذا التمييز بين الذكاءين . وكذلك ألكسندرا . ولكن هل تتصور ؟ ان maman قد فهمته .

— انك تشبهين اليزافيتا بروكوفيفنا كثيرا .

فسألته آجلايا مدهوشة :

— كيف ؟ حقا ؟

— يمينا ان هذا حق .

قالت بعد لحظة من تفكير :

— أشكرك . يسعدنى كثيرا أن أشبه maman .

ثم أضافت تسأله دون أن تدرك سذاجة سؤالها :

— فأنت تقدرها اذن كثيرا ؟

— كثيرا . وانى لسعيد أن أرى أنك قد فهمت ذلك حالا .

— أنا أيضا سعيدة ؛ ذلك أننى لاحظت أنهم فى بعض الأحيان . . . يسخرون منها ، ولكن اسمع ، الأمر الجوهرى وهو أننى فكَّرت طويلا ووقع اختيارى عليك فى آخر الأمر . لا أريد أن يسخروا منى فى البيت ، ولا أن ينظروا الىَّ نظرتهم الى بنت صغيرة حمقاء . لا أريد أن يناكدونى . . . لقد فهمتُ هذا كله دفعةً واحدة ؛ ورفضتُ يفغينى بافلوفتش رفضا قاطعا لأننى لا أريد أن يكون همهم الدائم أن يزوجونى ! أريد . . . أريد . . . أريد أن أهرب من البيت ! وقد اخترتك أنت لتساعدنى فى الهروب .

هتف الأمير يقول :

— تهربين من البيت !

فصاحت فجأة وهى تستشاط غضبا شديدا :

— نعم ، نعم ، ثم نعم . . . أهرب من البيت ! لا أريد بعد الآن ، لا أريد بعد الآن أن يجعلونى أحمر خجلا بغير انقطاع . لا أريد أن أحمر لا أمامهم ، ولا أمام الأمير «شـ . .» ولا أمام يفغينى بافلتش ، ولا أمام أى انسان ؛ ولذلك وقع اختيارى عليك . معك أستطيع أن أتكلم فى كل شئ . فى كل شئ ، حتى فى أخطر الأمور شأنا اذا حلا لى ذلك . وعليك أنت ، من جهتك ، أن لا تخفى عنى شيئا فى يوم من الأيام . أريد أن يكون هناك انسان واحد ، على الأقل ، أستطيع أن أكلمه فى كل شئ كأننى أكلم نفسى . لقد أخذوا يقولون فجأة أننى انتظرك واننى أحبك . بدأ هذا قبل وصولك ، ولم أكن قد أريتهم رسالتك . وهم الآن يرددون جميعا هذه النغمة . أريد أن أكون جسورة فلا أخشى شيئا . لا أريد أن أذهب الى حفلات الرقص التى يقودوننى اليها . أريد أن أكون نافعة . منذ مدة طويلة أريد أن أرحل . ها قد حبسونى عشرين عاما كاملة ، ثم أصبحوا لا يفكرون الا فى تزويجى ، لم يكن عمرى الا أربعة عشر عاما حين أخذت أحلم بالهروب . كنت ما أزال صبية حمقاء . والآن رتبت كل شئ ، وانتظرتك لأحصل منك على جميع المعلومات عن الحياة فى الخارج . لم أر فى حياتى كاتدرائية قوطية . أريد أن أذهب الى روما ، أن أزور مراكز علمية . أريد أن أدرس بباريس . لقد أعددت نفسى لهذا فعملت طوال السنة الماضية . قرأت عددا كبيرا من الكتب ، بينها جميع

الكتب المحظورة . ان ألكسندرا وآديلائيدا تستطيعان أن تقرآ كل شىء . ذلك مسموح لهما به ؛ أما أنا فهذا محظور علىّ ؛ وهم يراقبوننى . لا أريد أن اختصم مع أختىّ ، ولكننى أعلنت لأمى وأبى منذ مدة طويلة أننى أنوى تغيير حالتى الاجتماعية تغييرا جذريا . لقد قررت أن أعنى بالتربية ، وانى لأعتمد عليك ، فقد قلت لى انك تحب الأطفال . هل فى وسعنا أن نُعنى معا بالتربية ، ان لم يكن الآن ففى المستقبل على الأقل ؟ سنقوم معا بجهد مفيد وعمل نافع . لا أريد أن أكون بنت جنرال . . . قل لى : أأنت رجل غزير العلم واسع الثقافة ؟

— آه ، لا ، بتاتا . . .

— خسارة . كنت أظن . . . كيف تخيلت هذا ؟ لا ضير ، ستوجهنى وسترشدنى ، على كل حال ، ما دام اختيارى قد وقع عليك .

— هذه سخافة يا آجلايا ايفانوفنا .

صاحت آجلايا تقول وقد أخذت عيناها تتقدان من جديد :

— أريد ، أريد أن أهرب من البيت ! فاذا لم توافق أنت ، فسأتزوج جافريلا آردالیونوفتش . لا أريد أن تنظر الىّ أسرتى نظرتها الى امرأة شريرة ، وأن تتهمنى بما لا أدرى من تهم .

هتف الأمير وهو يكاد يثب من مكانه :

— أأنت تملكين عقلك أم لا ؟ بماذا يتهمونك ، ومن ذا يتهمك ؟

— جميع من بالبيت : أمى ، أختاى ، أبى ،

الأمير «ش. . .» ، وحتى صاحبك السيئ كوليا ! واذا كانوا لا يقولون لى شيئا أمام وجهى ، فأنهم فى دخائل أنفسهم يفكرون فى ذلك . لقد صارحتهم جميعا بهذا . وصارحت به أمى وأبى . فمرضت maman من ذلك طوال النهار ، وفى الغداة قالت لى الكسندرا ، هى وأبى ، اننى لا أدرك حتى معنى هذا الهذر السخيف وهذه الكلمات التى استعملها . فرددت عليهما قائلة بلهجة القطع والجزم اننى الآن أدرك كل شئ ، وأدرك معنى جميع الكلمات ، واننى لست الآن بنية صغيرة ، واننى قرأت منذ سنتين روايتين من تأليف بول دى كوك ، قرأتهما خصيصا لأطلع على كل شئ ، وأعرف كل شئ . فحين سمعت maman هذا الكلام أوشكت أن يُغمى عليها .

ومضت فى ذهن الأمير فجأة فكرة غريبة . حدّق الى آجلايا وابتسم .

كان يصعب عليه أن يصدّق أن أمامه تلك الفتاة المتعالية نفسها التى قرأت له فى الماضى ، بكثير من الكبرياء والغطرسة ، رسالة جافريلا آرداليونوفتش . لم يستطع أن يفهم كيف يمكن أن تنكشف فى فتاة جميلة لها ذلك الطبع المتغطرس المتوحش ، كيف يمكن أن تنكشف فيها طفلة لعلها لا تدرك **الآن** أيضا معنى **جميع الكلمات** .

سألها :

— هل قضيت حياتك كلها فى البيت يا آجلايا ايفانوفنا ؟ . . أقصد . . . ألم تذهبى الى المدرسة ، ألم تلتحقى بمدرسة داخلية ؟

— لا ، لم أذهب فى حياتى الى أى مكان .

حُبست دائما فى البيت حتى لكأننى حُبست فى زجاجة ، ولن أخرج من الزجاجة الا لأتزوج . لماذا تظل تبتسم هذه الابتسامة الساخرة ؟ ألاحظ أنك أنت أيضا ربما تسخر منى وتتحيز لهم . . .

أضافت آجلايا هذه الجملة الأخيرة وقد قطبت حاجبيها تقطيبا عابسا . وتابعت كلامها فقالت :

— لا تحنقنى . أنا اصلا لا أعلم ماذا يحدث فى نفسى . . . انى لواثقة بأنك جئت الى هنا مقتنعا كل الاقتناع بأننى أهواك واننى ضربت لك موعدا . . .

أضافت هذه العبارة بلهجة غضب .

فقال الأمير بصراحة ساذجة (وكان يشعر بحيرة شديدة) :

— حقا لقد كنت بالأمس خائفا من هذا . أما اليوم فأنا مقتنع بأنك . . .

صاحت آجلايا تقول وقد أخذت شفتها السفلى تختلج على حين فجأة :

— ماذا ؟ كنت خائفا من أننى . . . هل تجرأت أن تظن أننى . . . رباه ! لعلك كنت تفترض اننى دعوتك الى هنا لأغريك وليفاجئونا فتكون مضطرا أن تتزوجنى . . .

— آجلايا ايفانوفنا ! كيف لا تخجلين من قول هذا الكلام ؟ كيف يمكن أن تنبت فى قلبك الطاهر البرئ فكرة تبلغ هذا المبلغ من الحطة ؟ أراهن أنك أنت نفسك لا تصدقين كلمة واحدة مما قلته . . . بل وأنك لا تعرفين معنى هذه الأقوال التى تخرج من فمك ! . .

ظلت آجلايا خافضة رأسها ، كأنها مروَّعة مما قالته . ثم تمتمت تقول :

— لا أخجل البتة ! ثم من أين عرفت أن لى قلبا بريئا ؟ وكيف ، والحالة هذه ، تجرأت أن تبعث الىَّ رسالة حب ؟

— رسالة حب ؟ رسالتى رسالة حب ؟ لقد كانت تلك الرسالة تعبيرا عن أعمق الاحترام . وقد خرجت من قرارة قلبى فى لحظة من آلم لحظات حياتى ! فكرت فيك حينذاك كما يفكر المرء فى ضياء . . . اننى . . .

قاطعته آجلايا فجأة ، ولكن بلهجة أخرى تختلف عن لهجتها الأولى كل الاختلاف ، لهجة تكشف عن ندم عميق يشبه أن يكون روعا :

— طيب . . . طيب . . .

حتى لقد مالت عليه ، وأجرت بيدها حركة كأنها تريد أن تلمس كتفه لتدعوه بأحسن طريقة مقنعة أن لا يزعل ، مع استمرارها على غض بصرها حتى لا تنظر اليه . وأضافت قائلة بخجل شديد :

— طيب . . . أحس بانني استعملت تعبيرا فيه غباء كبير . وانما قصدت من ذلك أن . . . أن أمتحنك . اعتبر اننى لم أقل شيئا . اذا كنتُ قد آذيت شعورك فاغفر لى . أرجوك : لا تنظر الىَّ محدقا فى عينى . أشح وجهك عنى . لقد صرَّحت منذ لحظة بأنها فكرة منحطة . وانا انما عبَّرت عنها عامدة لأسعك . يتفق لى أحيانا أن أخاف مما أحب أن أقوله ، ثم اذا هو يفلت من لسانى فجأة . وقد قلتَ أنك كتبت الىَّ تلك الرسالة فى لحظة حياتك . . .

ثم قالت وهى تخفض صوتها وتعود تطرق الى الأرض :

— اننى أعرف ما هى تلك اللحظة التى عنيت .

— لو كنت تعرفين كل شئ !

— أعرف كل شئ !

كذلك صاحت تقول فى نوبة انفعال جديدة . وتابعت كلامها فقالت :

— فى ذلك العهد كانت تشاركك بيتك شهرا كاملا تلك المرأة السيئة التى هربتَ معها . . .

حين نطقت بهذه الكلمات زايلت وجهها حمرته ، وشحب لونها شحوبا شديدا . ونهضت فجأة كأنما حركتها اندفاعة قوية ، ولكنها سرعان ما ثابت الى وعيها فعادت تجلس . ظلت شفتها تختلج مدة طويلة . وساد الصمت دقيقة . وشُده الأمير كثيرا من هذه الاندفاعة التى لم يكن يتوقعها ، ولا عرف الى ماذا يعزوها .

قالت فجأة بلهجة قاطعة :

— أنا لا أحبك البتة !

فلم يجب الأمير . وساد الصمت دقيقة من جديد .

قالت بصوت متعجل لا يكاد يُسمع وهى تخفض رأسها مزيدا من الخفض :

— أنا أحب جافريلا آردالیونوفتش . . .

قال الأمير يرد عليها بما يشبه الهمس :

— هذا غير صحيح .

— أأنا أكذب اذن ؟ تلك هى الحقيقة بعينها . وقد قطعت له عهدا ، على هذه الدكة نفسها ، أمس الأول .

ذُعر الأمير وبقى مفكّرا لحظة ، ثم قال بلهجة قاطعة :

— هذا غير صحيح . لقد لفقت هذه القصة تلفيقا .

— انك لعلى أدب جم وتهذيب عظيم . أريد أن تعلم أنه قد تغير وتحسن . انه يحبنى أكثر من حياته . وقد حرق يده أمامى لا لشئ الا أن يبرهن لى على ذلك .

— حرق يده ؟

— نعم ، يده ! ويستوى عندى أن تصدق وأن لا تصدق !

صمت الأمير من جديد . لم تكن آجلايا مازحة . انها الآن غاضبة .

— أيكون قد أتى الى هنا بشمعة اذا كانت الاحداث جرت فى هذا المكان ؟ لست أرى وسيلة أخرى . . .

— نعم . . . أتى بشمعة . أهذا غير معقول ؟

— أشمعة كاملة أم عقب شمعة فى شمعدان ؟

— نعم . . . لا . . . نصف شمعة . . عقب شمعة . . شمعة كاملة . لا فرق . لا تلح ! حتى لقد أتى بعيدان كبريت ، أشعل الشمعة وأبقى أصبعه فوق اللهب نصف ساعة . أيبدو لك هذا مستحيلا ؟

— لقد رأيته أمس ، فكانت أصابعه سليمة .

انطلقت آجلايا تضحك ضحك طفلة على حين فجأة . ثم التفتت نحو الأمير بخفة ، وفى وجهها ثقة كثقة الأطفال ، بينما ما يزال الضحك يختلج على شفتيها . وقالت :

— هل تعلم لماذا قصصت عليك هذه الكذبة ؟ لأننى لاحظت أن أحسن طريقة يعمد اليها المرء من أجل أن يجعل كذبه معقولا بعد أن يكون قد أخذ يكذب ، هى أن يدخل فى كذبته ، على نحو بارع ، عنصرا يخرج

عن المألوف ، عنصرا شاذا ، عنصرا نادرا ، بل عنصرا لم يسمع أحد بمثله . ولكننى لم أنجح ، لأننى لم أعرف كيف . . .

واكفهر وجهها فجأة من جديد كأنها ثابت الى وعيها فقالت له وهى تلقى عليه نظرة رصينة بل وحزينة :

— لقد أنشدتك حينذاك قصيدة «الفارس الفقير» ، وكنت أهدف من ذلك الى . . . الى مدحك ، ولكننى كنت أهدف فى الوقت نفسه الى أن أفضح سلوكك وأن أبيّن لك أننى على علم بكل شئ . . .

— انك يا آجلايا تظلمينى كثيرا . . . وتظلمين تلك الانسانة الشقية التى وصفتها منذ لحظة بكلمات قاسية شديدة القسوة .

— أنا انما عبّرت عن رأيى بتلك الألفاظ ، لأننى أعرف كل شئ ، كل شئ ! أعرف أنك عرضت عليها الزواج على رؤوس الأشهاد ، منذ ستة أشهر . لا تقاطعنى : أنت ترى أننى أروى وقائع ولكننى لا أعلق عليها . وبعد ذلك انما هربتْ مع روغوجين . ثم عشت معها فى قرية من القرى أو بلدة من البلدات . ثم هجرتك والتحقت برجل آخر . (هنا احمرت آجلايا احمرارا رهيبا) . وبعد ذلك عادت الى روغوجين الذى يحبها . . . يحبها حب جنون ! ثم ها أنت ذا تصل الى هنا وراءها ، مسرعا ، منذ علمت أنها عادت الى بطرسبرج ، وانت رجل بارع الذكاء ايضا ! وفى مساء أمس ، انبريت تدافع عنها وتحميها ؛ ومنذ لحظة كنت تراها فى الحلم . . . ترى أننى أعرف كل شئ . من أجلها ، من أجلها انما رجعتَ الى هنا ، أليس كذلك ؟

بها نفسها ظلما ! رباه ! ما ذنبها ؟ آه ! هى تصيح دائما فى عصبية انها لا تعرف لنفسها أية خطيئة أو ذنب ، وانها ضحية الرجال ، ضحية رجل داعر وغد حقير ! ولكن عليك أن تعلمى ، مهما تعلن لك من رأى ، أنها أول من لا يصدق ما تقول . بالعكس : انها . . . تتهم نفسها وحدها ، واعية كل الوعى . وحين كنت أحاول أن أبدد من نفسها هذه الظلمات كانت تشعر بآلام وتباريح تبلغ من القوة والشدة أن قلبى لن يشفى يوما ، ما ظل محتفظا بذكرى تلك اللحظات الأليمة . اننى أحس كأن قلبى قد طُعن الى الأبد . لقد هربت منى ، فهل تعلمين لماذا هربت ؟ انها لم تهرب منى الا لتبرهن لى على خستها ودناءتها . على أن أفظع ما فى الأمر أنها هى نفسها ربما كانت تجهل أن الدافع الذى كان يحركها انما هو تقديم هذا البرهان لى وحدى . لقد كانت تظن أنها تهرب خضوعا لرغبة عارمة لا تقاوَم فى أن تقارف عملا مشينا يتيح لها أن تقول لنفسها بعد ذلك : «وهذه خسة جديدة تدينك . ألا انك لمخلوقة دنيئة منحطة !» . آه ! لعلك لا تفهمين هذا يا آجلايا ! هل تعلمين أن شعورها الدائم ذاك بخستها ربما كان يخفى وراءه لذة فظيعة مخالفة للطبيعة هى لذة اشباع نوع من الانتقام من أحد الناس ؟ كنت أنجح أحيانا فى أن أردّها الى رؤية الضياء من حولها ، لكنها سرعان ما كانت تتمرد من جديد ، وتمضى فى ذلك الى حد اتهامى فى مرارة بأننى أريد الارتفاع فوقها والعلو عليها (وكان هذا فى الواقع بعيدا عن ذهنى كل البعد) ؛ ثم تعلن لى أخيرا بغير لف أو دوران ، حين أعرض عليها الزواج ، أنها لا

حنى الأمير رأسه حزينا مفكرا ، دون أن يدور بخلده أن آجلايا كانت ترشقه بنظرة ملتهبة . وقال بصوت خافت :

— نعم من أجلها ، لمجرد ان أعلم أن . . أنا لا أعتقد بأنها يمكن أن تسعد مع روغوجين ، رغم أن . . . الخلاصة : اننى لا أرى ماذا أستطيع أن أفعل فى سبيلها وأية مساعدة أستطيع ان أقدمها لها ، ولكننى جئت .

ارتعش الأمير ونظر الى آجلايا التى كانت تستمع اليه بحقد .

قالت آجلايا أخيرا :

— اذا كنت قد جئت دون أن تعرف لماذا جئت ، فهذا دليل على أنك تحبها كثيرا .

فردَّ عليها الأمير قائلا :

— لا ، لا ، أنا لا أحبها ! آه ! ليتك تعرفين مدى الهول الذى أعانيه حين أتذكر الزمن الذى قضيته معها !

وحين قال هذه الكلمات سرت فى جسمه رعدة .

أجابته آجلايا :

— قل لى كل شئ .

— ليس فى القصة كلها ما لا يمكنك أن تسمعيه . لا أدرى لماذا كنت أنت ، أنت بعينك ، الشخص الوحيد الذى أردت أن أقص عليه الحكاية كاملة . ربما كان مرد ذلك الى اننى أحببتك فى الواقع حبا كبيرا . ان تلك المرأة الشقية مقتنعة اقتناعا عميقا بأنها أسقط انسانة وأفسد مخلوقة على وجه الأرض . آه ! لا تنعتيها بالعار ، لا ترميها بحجر . حسبها ما تلقى هى نفسها من عذاب الشعور بحطة تصف

تطلب من أحد لا شفقة متعالية عليها ولا معونة ، وانها ترفض أن يحاول أحد «رفعها اليه» . لقد رأيتها أنت بالأمس . هل تظنين أنها سعيدة بصحبة أمثال هؤلاء الناس ، وأن تلك البيئة هى البيئة التى تناسبها ؟ انك لا تعرفين مدى سعة ثقافتها ، ورحابة فكرها ! حتى أدهشنى هذا فيها أحيانا !

— هل كنت تلقى عليها هناك . . . مثل هذه المواعظ ؟

تابع الأمير كلامه مفكرا دون أن ينتبه الى لهجة السؤال :

— لا . كنت أصمت طول الوقت تقريبا . كنت أريد فى كثير من الأحيان أن أتكلم ، ولكننى لا أجد فى الواقع شيئا أقوله . برأيى أن خير ما يفعله المرء أحيانا هو أن يصمت . آه . . . كنت أحبها . . آه ! كنت أحبها كثيرا . . . ولكن بعد ذلك . . . بعد ذلك حزرت هى كل شئ .

— حزرت ماذا ؟

— أننى لا أضمر لها الا الشفقة . . . أننى أصبحت لا أحبها .

— ما يدريك ؟ لعلها أحبت فعلا ذلك . . . ذلك المالك الذى هربت معه ؟

— لا ، أنا أعرف كل شئ . انها لم تزد على أن ضحكت عليه .

— وعليك أنت ، ألم تضحك قط ؟

— لـ . . . لا . كانت تسخر منى تخابثا . آه ! كانت فى تلك اللحظات ترهقنى بملامات حانقة ، وكانت هى نفسها تتألم ! ولكنها ، بعد ذلك . . . آه . . . لا توقظى

هذه الذكريات فى نفسى ، لا تذكرينى بهذه الأشياء !

قال الأمير ذلك وأخفى وجهه بيديه .

سألته آجلايا :

— وهل تعلم أنها تكتب الىَّ كل يوم تقريبا ؟

فهتف الأمير يقول مضطربا أشد الاضطراب :

— هذا صحيح اذن ! لقد ذُكر لى أنها تكتب اليك ، ولكننى أبيت أن أصدِّق .

فارتجفت آجلايا خائفة :

— من ذكر لك ذلك ؟

— ان روغوجين هو الذى حدثنى فى هذا أمس ، ولكن بكلمات غامضة .

— أمس ؟ أمس صباحا ؟ فى أى وقت من النهار؟ أقبل الموسيقى أم بعدها ؟

— بعد الموسيقى . فى السهرة ، بين الحادية عشرة ومنتصف الليل .

— آ . . . طيب . . . ما دام هو روغوجين . . . ولكن هل تعرف عمَّ تكلمنى فى تلك الرسائل ؟

— لا استغرب شيئا . انها مجنونة .

— اليك الرسائل (استلت آجلايا من جيبها ثلاث رسائل مغلفة وألقتها أمام الأمير) . انها ، منذ أسبوع كامل ، تتوسل الىَّ ، تضرع الىَّ ، تبتهل الىَّ أن أتزوجك . انها . . . نعم . . . ذكية ، وان تكن مجنونة . أنت على صواب حين تقول انها أذكى كثيرا منى . . . تقول لى فى رسائلها انها تهوانى ، وانها تبحث كل يوم عن فرصة ترانى فيها ولو من بعيد ، وهى تؤكد لى أنك تحبنى ، وأنها تعلم ذلك

علم اليقين ، وأنها لاحظته منذ زمن طويل ، وأنك حدثتها عنى حين كنتما هناك . انها تريد أن تراك سعيدا ، وتوقن أننى أستطيع وحدى أن أسعدك . . . وهى تكتب بطريقة غريبة . . . غريبة جدا . لم أظهر على رسائلها أحدا . كنت أنتظرك . هل تدرى ماذا يعنى كلامها ؟ ألا تحزر شيئا ؟

— هو جنون . كلامها يدل على أنها فقدت عقلها .

كذلك قال الأمير وقد أخذت شفتاه تختلجان . سألته :

— ألست تبكى ؟

فأجاب وهو يلقى نظرة اليها :

— لا آجلايا . لا . لست أبكى .

— ما الذى يجب علىَّ أن أفعله ؟ بماذا تنصحنى ؟ اننى لا أستطيع أن أستمرَّ فى تلقى هذه الرسائل !

هتف الأمير يقول :

— آه ! دعيها ، أرجوك ! ليس هنا ما تستطيعين أن تفعليه فى هذه الظلمات . سأعمل كل ما فى وسعى لكى أجعلها لا تكتب اليك بعد الآن .

صاحت آجلايا قائلة :

— اذا كنت تقول هذا الكلام ، فمعنى ذلك أنك رجل لا قلب له ! ألست ترى ان أنها لا تهوانى أنا ، وانما هى تهواك أنت . انك أنت وحدك الذى تحبه ! كيف يمكن أن تكون قد لاحظتَ فيها كل شئ الا هذا ؟ هل تعلم ماذا وراء كلامها ؟ هل تدرك عمَّ تكشف رسائلها ؟ انها تكشف عن الغيرة ، بل تكشف عمّا هو شر من الغيرة ! انها . . . أتظن أنها ستتزوج روغوجين فعلا كما تزعم ذلك فى رسائلها ؟ لسوف تنتحر غداة زواجنا اذا نحن تزوجنا !

ارتعش الأمير وانهدَّ قلبه . ونظر الى آجلايا مدهوشا : لقد شعر باحساس غريب حين لاحظ أن هذه الطفلة قد غدت امرأة منذ مدة طويلة .

— شهد الله يا آجلايا أننى مستعد لأن أضحى بحياتى فى سبيل أن أدخل الى نفسها الراحة والطمأنينة والسعادة . ولكننى . . . لا أستطيع بعد اليوم أن أحبها ، وهى تعرف ذلك !

— ضحِّ بحياتك ما دام هذا يناسبك كثيرا ! انك محسن عظيم . ولا تنادنى باسم «آجلايا» . . . أنت منذ لحظة قلت «آجلايا» فحسب . . . يجب عليك أن تبعثها بعثا جديدا . انك ملزم بان تفعل هذا . الواجب يملى عليك أن تسافر معها ثانية ، لكى تدخل الهدوء والسكينة الى قلبها . ثم انك تحبها هى !

— لم أستطع أن أضحى بنفسى ، رغم أن هذه النية قد قامت فى فكرى ذات مرة . . . ولعلها ما تزال قائمة فى فكرى . ولكننى أعلم علما **لا سبيل الى الشك فيه** أنها ان بقيت معى ضاعت وهلكت . وذلك هو السبب الذى يحدونى الى الابتعاد عنها . ينبغى أن أراها اليوم فى الساعة السابعة . ولكن قد لا أذهب اليها . ان كبرياءها لن تغفر لى حبى فى يوم من الأيام ، وسيكون فى هذا ضياعها وضياعى اذا نحن بقينا معا ! ليس هذا طبيعيا ، غير أن كل شئ هنا مخالف للطبيعة . تقولين انها تحبنى . ولكن هل هذا حب ؟ هل يمكن أن يكون ثمة عاطفة كهذه العاطفة بعد كل الذى عانيت وقاسيت ؟ لا ، ليس هذا حبا . هو شئ آخر غير الحب !

قالت آجلايا بارتياع مفاجئ :

— ما أشد هذا الشحوب الذى اعتراك !

— ما ذلك بشئ . اننى لم أنم كثيرا . أشعر بأننى ضعيف . اننى . . . فعلا ، لقد تحدثنا عنك حينذاك يا آجلايا . . .

— ذلك حق اذن ؟ هل استطعت ان تتحدث عنى معها فعلا ؟ و . . . كيف أمكنك أن تحبنى بعد أن لم ترنى الا مرة واحدة ؟

— لا أدرى كيف حدث هذا . فى الظلمات التى كانت تحف بى حينذاك ، كنت أتخيل . . . لعل فجرا جديدا كان موضع أحلامى . لا أدرى لماذا انصرف فكرى اليك أنت أول ما انصرف . لم أكذب عليك حين كتبت اليك قائلا اننى أجهل كيف حدث الأمر . لم يكن ذلك الا حلما هربت اليه من ذعرى حينذاك . . . وبعدئذ ، أخذت أدرس . . . وكان فى نيتى أن لا أعود قبل ثلاث سنين . . .

— أمن أجلها اذن عدت ؟

وارتعش شئ ما فى صوت آجلايا :

— نعم ، من اجلها .

انقضت دقيقتان فى صمت مكفهر . ثم نهضت آجلايا . وقالت بصوت متردد :

— اذا كنت تقول ، اذا كنت موقنا أنت نفسك أن هذه . . . أن صاحبتك هذه . . . مجنونة ، فان ما تأتيه من نزوات جنونية لا يعنينى ولا يهمنى فى شئ . . . أرجوك يا ليف نيقولايفتش أن تأخذ هذه الرسائل الثلاث فترميها لها نيابة عنى !

ثم صاحت آجلايا تقول على حين فجأة :

— وقل لها اننى ، اذا سمحت لنفسها بأن تكتب لى مرة أخرى سطرا واحدا ، سأشكوها الى أبى وسيودعونها فى مأوى للمجانين . . .

انتفض الأمير ، ونظر مرتاعا الى هذا الغضب الشديد الذى اجتاح آجلايا على غير توقع . ثم سقط أمام عينيه نوع من ضباب على حين فجأة . . .

تمتم يقول لها :

— لا يمكن أن تحملى عواطف كهذه العواطف . . . ليس حقا ما تقولين !

— بل هو حق ، هو الحقيقة بعينها ! . .

كذلك صرخت آجلايا كالخارجة عن طورها .

فاذا بصوت مذعور يدوى على مقربة منهما :

— أى شئ هو حق ؟ عن أية حقيقة تتكلمين ؟

كانت اليزافيتا بروكوفيفنا أمامهما .

فاندفعت آجلايا تجيب أمها قائلة :

— عن حقيقة أننى سأتزوج جافريلا آردالیونوفتش ، وأنى أحبه ، وأننى سأهرب معه غدا من البيت ! هل سمعت ؟ هل ارتوى فضولك الآن ؟ هل يرضيك هذا ؟

وركضت عائدة الى البيت .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا وهى توقف الأمير :

— لا يا صديقى الطيب ، لن تنصرف الآن . هلاَّ تفضلت فصحبتنى حتى تشرح لى تصرفك . . . ما هذا العذاب ، وكل ذلك بعد ليلة لم يغمض لى فيها جفن . . .

تبعها الأمير .

الفصل التاسع

حين دلفت اليزافيتا بروكوفيفنا الى الدار توقفت فى الحجرة الاولى . واذ لم تقوَ على المضى الى أبعد من ذلك ، تهافتت على ديوان منهكةً منهدَّة ، حتى لقد نسيت أن تدعو الأمير الى الجلوس . هى قاعة كبيرة ذات مدفأة فى الحائط ، وفى وسطها مائدة مستديرة . ان أزهارا كثيرة تتكدس على رفوف فيها تحت النوافذ . وفى آخر القاعة باب ذو زجاج ، يفضى الى الحديقة . وسرعان ما ظهرت آديلائيدا وألكسندرا تنظران الى الأمير والى أمهما نظرات فيها حيرة وتساؤل .

لقد اعتادت الآنسات أن يستيقظن فى المصيف فى نحو الساعة التاسعة ؛ لكن آجلايا أصبحت منذ يومين أو ثلاثة أيام تستيقظ قبل التاسعة بقليل ، وتمضى تتنزه فى الحديقة ، لا فى الساعة السابعة على كل حال ، بل فى الثامنة وحتى بعد الثامنة . حقا لم تعرف اليزافيتا بروكوفيفنا سبيلا الى النوم طوال الليل من كثرة الهموم التى كانت تملأ رأسها . وقد نهضت قبل الساعة الثامنة بقليل متعمدة لتذهب الى الحديقة وتلحق بآجلايا التى كانت اليزافيتا بروكوفيفنا تعتقد أنها صحت من نومها وقامت من فراشها . لكنها لم تجدها لا فى الحديقة ولا فى غرفة نومها . فشعرت بروع شديد وأيقظت ابنتيها الأخريين . وعرفن من الخادم ان آجلايا ايفانوفنا قد ذهبت الى الحديقة العامة بعد الساعة السادسة . فابتسمت الاختان ابتسامة ساخرة حين علمتا بأمر هذه النزوة الجديدة التى بدت لأختهما ذات الخيال الجامح ، ولفتتا نظر أمهما الى أن آجلايا يمكن أن تغضب اذا مضت

الأم تبحث عنها فى الحديقة العامة ؛ وقالتا أنها لا بد أن تكون الآن جالسةً الى كتاب بيدها على الدكة الخضراء التى تكلمت عنها منذ ثلاثة أيام وأوشكت أن تشتجر فى شأنها مع الأمير «ش. . .» ، الذى زعم أنه لا يجد فى المكان الذى تقع فيه تلك الدكة أى جمال خاص . فلما وقعت أليزافيتا بروكوفيفنا على ابنتها متواعدة مع الأمير ، وفاجأتها تنطق بتلك الأقوال الغريبة ، شعرت برعب شديد له فى الواقع أسباب كثيرة تبرره وتسوغه . ولكنها بعد أن جرَّت الأمير معها ، خشيت نتائج مبادرتها ، اذ تساءلت : «لماذا لا يجوز أن تلتقى آجلايا بالأمير فى الحديقة وان يجرى بينهما حديث ، ولو على سابق موعد ؟»

قالت وهى تسيطر على نفسها أخيرا :

— لا يذهبنْ بك الظن ، يا عزيزى الأمير ، أننى جئت بك الى هنا لكى استجوبك . . . ولعلنى ، يا صديقى الطيب ، كنت أوثر ، بعد الذى جرى فى مساء أمس ، أن لا أراك مرة أخرى ، خلال مدة طويلة . . .

وتعثرت فى كلامها لحظة . فختم الأمير فكرتها بهدوء كبير :

— لكنك تحبين أن تعرفى كيف التقينا اليوم أنا وآجلايا ايفانوفنا . أليس كذلك ؟

فلم تلبث اليزافيتا بروكوفيفنا أن تجيب باندفاع :

— طبعا أحب أن أعرف ذلك ! أنا لا أخشى الصراحة . لأننى لا أسئ الى أحد ، ولم أشأ أن اسئ الى أحد . . .

— طبعا . . ان الرغبة فى معرفة ذلك طبيعية ولا

تسىء الى أحد . فانت أم . لقد التقينا اليوم ، أنـا وآجلايا ايفانوفنا ، قرب الدكة الخضراء ، فى الساعة السابعة تماما ، على موعد ضربته لى أمس . لقد أعطتنى فى مساء أمس رسالة تقول فيها أنها تريد أن ترانى وأن تكلمنى فى أمر هام . فالتقينا وتكلمنا خلال ساعة فى شئون لا تتعلق الا بها وحدها . ذلك كل شئ .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا بلهجة رصينة :

— طبعا هذا كل شئ يا صديقى . لا يساورنى أى شك فى أن هذا كل شئ .

قالت آجلايا وهى تدخل الغرفة فجأة :

احسنت جدا يا امير ! اشكر لك من اعماق قلبى أنك اعتبرت أننى أيضا لا يمكن أن انحدر الى تلفيق كذبة . أأنت راضية الآن يا maman ام تراك تريدين أن تمضى فى الاستجواب الى أبعد من ذلك ؟

ردّت عليها اليزافيتا بروكوفيفنا بلهجة من يلقى درسا :

— تعلمين حق العلم أننى لم يتفق لى فى يوم من الأيام أن أقوم بشئ يجعل وجهى يحمر أمامك . . . رغم أن ذلك كان يمكن أن يحدث لك لذة .

ثم قالت للأمير :

— استودعك الله يا أمير ! اغفر لى ازعاجى اياك . آمل أن تظل مقتنعا بأن تقديرى لك ثابت لا يتغير .

فسرعان ما أدى الأمير تحية الوداع للجانبين ثم خرج صامتا لا ينبس بكلمة . وارتسمت ابتسامة على شفتى كل من آديلائيدا وألكسندرا ، وأخذتا تتهامسان . فألقت عليهما اليزافيتا بروكوفيفنا نظرة قاسية .

قالت آديلائيدا ضاحكة :

— ان ما يحملنا على الابتسام يا maman هو أن نرى الأمير يلقى تحيته بهذه البراعة . انه فى بعض الأحيان ، من فرط خراقته ، أشبه بكيس ، أما هذه المرة فهو يشبه . . . يشبه يفغينى بافلوفتش على غير توقع .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا بلهجة من يلقى الحِكَم :

— الرقة والشعور بالكرامة أمور تنبع من القلب ولا يعلّمها أساتذة الرقص .

وصعدت الى غرفتها حتى دون أن تلقى نظرة على آجلايا .

وحين عاد الأمير الى بيته فى نحو الساعة التاسعة وجد على الشرفة فيرا لوكيانوفنا وخادمة . كانتا قد رتبتا المكان وكنستا الأرض بعد سهرة البارحة الصاخبة .

قالت فيرا مرحةً :

— الحمد لله ! انتهينا من العمل قبل عودتك !

— صباح الخير . ان بـى بعض دوار . لم أنم نوما مريحا . أودّ لو أرقد قليلا .

— هل تحب أن ترتاح هنا ، على الشرفة ، كأمس ؟ هذا حسن . سأقول للجميع أن لا يوقظوك . بابا خرج الى مكان ما .

انصرفت الخادم . وهمت فيرا بأن تتبعها ، لكنها رجعت ، واقتربت من الأمير مهمومة وقالت له :

— أمير ، اشفق على هذا . . . البائس . لا تطرده اليوم .

— لن أطرده بحال من الأحوال ، سيفعل ما يحلو له أن يفعله .

— الآن لن يفعل شيئا . لا تكن قاسيا معه

— آه ! طبعا لن أكون هكذا . علام أكون قاسيا ؟ ثم . . لا تضحك عليه . ذلك هو الأمر الاساسى .

— آه ! حتما لن افعل !

قالت فيرا وقد احمر وجهها :

— سخف منى أن أقول هذا الكلام لرجل مثلك .

ثم أضافت تقول ضاحكة وقد استدارت نصف استدارة متهيأة للخروج :

— رغم أنك متعب مكدود ، فان عينيك فى هذه اللحظة تعبران عن أبلغ الطيبة . . . وأعظم السعادة .

سألها الأمير بحرارة :

— أهما تعبران عن سعادة عظيمة حقا ؟

وانطلق يضحك ضحكة مرحة

ولكن فيرا التى تتصف بالبساطة ، وتتصف برفع الكلفة وعدم التحرج كأنها صبى ، فجأة خجلت خجلا كبيرا لسبب ما وازداد احمرار وجهها كثيرا ، ثم اذا هى تخرج متعجلة دون أن تنقطع عن الضحك .

قال الأمير يحدث نفسه : « يا لها . . . من فتاة طيبة . . . » ، ثم سرعان ما نسيها . وانسحب الى ركن من الشرفة فيه ديوان أمامه مائدة صغيرة ، وجلس وغطى وجهه بيديه ، ولبث على هذا الوضع زهاء عشر دقائق . وفجأة دس يده فى جيبه الجانبى قلقا ومتعجلا ، فأخرج منه ثلاث رسائل .

لكن الباب فُتح من جديد ، ودخل كوليا ، فشعر

الأمير بما يشبه الفرح لهذه الفرصة التى تتيح له أن يعيد الرسائل الى جيبه ، وأن يرجئ قراءتها .

قال كوليا وهو يجلس على الديوان ويدخل فى الموضوع رأسا ، بما هو معهود فى أمثاله من انطلاق :

— يا له من حادث ! ما رأيك الآن فى ايبوليت ؟ هل فقد اعتبارك ؟

— علام يفقد اعتبارى ؟ . . ولكننى متعب يا كوليا . ثم ان العودة الى هذا الموضوع أليمة . كيف حاله الآن مع ذلك ؟

— انه نائم . لن يستيقظ قبل ساعتين . أنا فاهم . انت لم تبت ليلتك بالدار ، بل كنت تطوف فى الحديقة العامة . . . لأنك كنت متأثرا بالطبع . . . كيف لا !

— كيف عرفت أننى طفت فى الحديقة العامة ، وأننى لم أبت ليلتى بالدار ؟

— قالت لى فيرا هذا منذ لحظة ، وقد أوصتنى بأن لا أدخل . لكننى لم أطق صبرا . أردت أن أراك ، ولو دقيقة . لقد قضيت هاتين الساعتين مناوبا فى رعاية المريض . والآن جلس كوستيا ليبيديف ليناوب . أما بوردوفسكى فقد مضى . ارقد يا أمير ، أتمنى لك ليلة . . . بل يوما سعيدا ! ولكن هل تعلم ؟ أنا مشدوه مذهول !

— طبعا ، بعد كل الذى . . .

— لا يا أمير ، لا ، ان ما يشدهنى ويذهلنى هو الاعتراف ، ولا سيما الجزء الذى يتحدث فيه عن العناية الالهية والحياة الآخرة . ههنا فكرة ضخمة . . !

نظر الأمير الى كوليا بعاطفة وحنان . لا شك فى أن

كوليا انما جاء ليتحدث فى تلك الفكرة الضخمة بأسرع وقت ممكن .

قال كوليا :

— لكن الشئ الأساسى ، الشئ الأساسى ، ليس الفكرة ذاتها بل الظروف التى نبتت هذه الفكرة فى ظلها ! فلو أن الذى عبَّر عن هذه الفكرة فولتير أو روسو أو برودون ، لقرأتها ولاحظتها دون أن تدهشنى الى ذلك الحد من الادهاش . أما أن يقول هذا الكلام انسان موقن من أنه لم يبق له أن يحيا على وجه هذه الأرض الا عشر دقائق ، فذلك مثال رهيب على الكبرياء ! ان هذا أسمى مظهر من مظاهر الاستقلال والكرامة الشخصية ! ان هذا اقتحام جسور . . . بل هو قوة نفسية ضخمة ! فاذا قيل بعد هذا أنه تعمد أن ينسى الكبسولة تعمدا ، كان ذلك حطة ، بل سخفا ! ولكن هل تعلم ؟ لقد خدعنا ايبوليت أمس . انه ماكر . أنا لم أشاركه فى ترتيب حقيبته ، ولا رأيت مسدسه فى يوم من الأيام ، انه هو الذى حزم كل شئ . لذلك دُهشت وتحيَّرت على حين فجأة حين سمعته يزعم ذلك الزعم . تقول فيرا انك ستبقيه هنا . أؤكد لك أن لا خطر البتة ، لا سيما وأننا نراقبه مراقبة دقيقة فى كل لحظة .

— من الذى سهر عليه هذه الليلة ؟

— أنا وكوستيا ليبيديف وبوردوفسكى . وقد جاء كيللر برهةً ، لكنه لم يلبث أن ذهب ينام عند ليبيديف ، اذ لم يكن فى غرفتنا شئ يرقد عليه . وهناك انما بات فرديشنكو كذلك ، ثم خرج فى الساعة السابعة . وما يزال الجنرال فى بيت ليبيديف . والآن خرج هو أيضا . . . قد يجئ

ليبيديف بعد هنيهة . لقد بحث عنك — لا أدرى لماذا — وسأل مرتين أين أنت . أيجب أن نسمح له بالدخول أم لا ، اذا كنت تريد أن ترتاح ؟ أنا نفسى سوف أمضى أنام . ها . . . نعم . . . أود أن أذكر لك ما يلى : لقد أدهشنى ، منذ قليل ، الجنرال . أيقظنى بوردوفسكى بعد الساعة السادسة ، بل فى الساعة السادسة تماما ، لأباشر نوبتى فى القيام على المريض . فخرجت دقيقة ، فاذا بى التقى بالجنرال وقد بلغ من السكر أنه لم يعرفنى ، ولبث جامدا أمامى كأنه وتد مغروس فى الأرض ، ثم ثاب الى رشده ، فانبرى يسألنى : كيف حال المريض ؟ لقد جئت أسأل عن صحته . . . فذكرت له كيت وكيت . فأضاف يقول : «هذا كله حسن . ولكننى انما نهضت من فراشى وجئت خاصة لأنبهَّك . هناك أسباب تدعونى الى الاعتقاد بأن من غير الممكن أن يقال كل شئ بحضور السيد فرديشنكو . . . وان من الواجب أن يكون المرء على حذر منه» . أتفهم يا أمير ؟

— هل هذا ممكن ؟ على كل حال . . . نحن لا يهمنا ذلك ولا يعنينا .

— طبعا لا يهمنا ولا يعنينا ، فنحن لسنا من الماسونيين» ! حتى لقد أدهشنى أن يكون الجنرال قد تعمد أن يوقظنى هذه الليلة ليقول لى هذا الكلام .

— تقول أن فرديشنكو خرج ؟

— فى الساعة السابعة . مرّ علىَّ وأنا أناوب عند المريض ، فذكر لى أنه سينهى ليلته عند فلكين — هناك ثمة سكير يدعى فلكين . طيب ! أنا منصرف ! ولكن

هذا هو لوكيان تيموفيتش . ان الأمير يريد أن ينام يا لوكيان تيموفيتش ، فارجع من حيث أتيت !

فقال ليبيديف بعد أن دخل :

— لا أكثر من دقيقة واحدة أيها الأمير المبجل ان الأمر أمر قضية لها عندى شأن هام .

وأدى ليبيديف تحيته بكثير من الاحتفال وكان يتكلم بصوت خافت ولهجة رصينة ، ولكن صوته مبتلّ بخطورة القضية التى جاء يتحدث فيها . لقد رجع للتو حتى أنه لم يتسن له أن يذهب الى غرفته ، فما يزال ممسكا قبعته بيديه . كان وجهه مهموما ، وكان يعبر عن الشعور بالكرامة الشخصية بشكل خاص غير عادى . رجاه الأمير أن يجلس .

— هل سألت عنى مرتين ؟ لعلك ما تزال قلقا بسبب حوادث البارحة .

— أأنت تعنى موضوع فتى الليلة الماضية يا أمير ؟ آه ، لا : لقد كانت أفكارى مضطربة أمس . . . أما اليوم فلست أريد أن اعاكس[1] افتراضاتك فى أى شئ .

— أعاكـ . ماذا قلت ؟

— قلت : أعاكس . هذه كلمة فرنسية كغيرها من الكلمات الفرنسية الكثيرة التى دخلت على لغتنا الروسية ، ولكننى لا أحرص عليها حرصا كبيرا

قال الأمير وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :

— ماذا أصابك اليوم يا ليبيديف حتى صرت شديد

[1] كتب فى الأصل كلمة فرنسية contrecarrer بحروف روسية .

الرصانة كثير الاحتفال الى هذه الدرجة ؟ أراك تتمهل فى الكلام مقطعا كلماتك وازنا ألفاظك .

فاتجه ليبيديف الى كوليا وقال له بلهجة يكاد يكون فيه حنان :

— نيقولاى آرداليونفتش ! علىّ أن أبلغ الأمير قضية تتعلق خاصة به .

— طبعا ! . . قضية لا تتعلق بى ! الى اللقاء يا أمير !

كذلك قال كوليا وانصرف فورا .

قال ليبيديف وهو يتابعه بنظره :

— أحب هذا الصبى لأنه سريع الفهم ، وهو يقظ نشيط ، وان يكن مزعجا بكثرة الحاحه . لقد حلّت بى مصيبة كبرى أيها الأمير المبجل ، حلّت بى مساء أمس أو مطلع هذا الصباح . . . لا أستطيع أن أحدّد الوقت تحديدا دقيقا بعد .

ماذا حدث ؟

— أربعمائة روبل اختفت من الجيب الجانبى أيها الأمير المبجل .

ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة مرة :

— عمّدونى !

— فقدت أربعمائة روبل ؟ خسارة لا سيما بالنسبة الى رجل فقير يعيش من عمله بشرف ونبل .

— طبعا طبعا . كيف وقع الأمر ؟

— الذنب ذنب الخمرة . انى اتجه اليك اتجاهى

الى العناية الالهية أيها الأمير المبجل . ان مبلغ الأربعمائة روبل فضى قد ردَّه الىَّ مدين فى الساعة الخامسة من مساء أمس . وعدت الى هنا بالقطار . وكانت محفظة أوراقى فى جيبى . فلما خلعت بزتى الرسمية لأرتدى بدلتى وضعت المال فى جيب البدلة حرصا منى على الاحتفاظ بالمال معى . كنت أنوى أن أسلم المال فى السهرة لرجل كان قد طلبه منى . وكنت انتظر الوكيل . . .

— بالمناسبة يا لوكيان تيموفيتش : هل صحيح أنك نشرت فى الجرائد اعلانا أنك تقرض مالا برهن أشياء ذهبية أو فضية ؟

— هذا الاعلان قد تم ارساله بواسطة الوكيل . فهو لا يحمل اسمى ولا عنوانى . وانا امرؤ لا أملك الا رأس مال صغير ، وقد ازداد عدد أفراد أسرتى ، فأظن أنك توافق على أن فائدة شريفة . . .

— طبعا ، طبعا ! انا لم ألق عليك هذا السؤال الا من باب العلم بالشئ ! . . اغفر لى اننى قاطعتك .

— لم يأت الوكيل . ثم جئ الى هنا بذلك البائس الشقى . وبعد الغداء كنت قد انتعشت . ثم جاء زوارنا . فشربنا . . . شايا . . . و . . . من سوء حظى أننى أفرطت فى المرح . فلما وصل كيللر فى ساعة متأخرة من السهرة فأعلن لنا أن اليوم عيد ميلادك وأن علينا أن نقدم شمبانيا ، قررت يا عزيزى الأمير المبجل ، قررت أنا الذى أملك قلبا لا أقول أنه عاطفى ولكننى أقول معتزا أنه قلب يعترف بالجميل (وأغلب ظنى أنك لاحظت ذلك ، لاننى استحق أن تلاحظه) ، قررت أن أخلع ثيابى القديمة البالية وأن أعود

أرتدى بزتى الرسمية التى خلعتها بعد عودتى ، لأجل اضفاء مزيد من المهابة والفخامة على العيد وانتظارا للحظة التى أعبر لك فيها عن تهنئتى . ذلك ما فعلته ولا بد يا أمير أنك لاحظت أننى لبثت مرتديا بزتى الرسمية طوال السهرة . ولكننى حين بدلت ثيابى نسيت المحفظة فى جيب بدلتى . . . صدق من قال : اذا أراد الله أن يعاقب أحدا جرَّده من عقله أولا . وفى هذا الصباح ، فى الساعة السابعة والنصف ، حين استيقظت من نومى ، وثبت نحو بدلتى كالمجنون . فاذا بى أجد الجيب خاليا ! فلا أثر للمحفظة .

— آه . . . هذا مزعج !

— حقا مزعج .

كذلك قال ليبيديف ثم أضاف بشئ من المكر :

— انك بما تملك من كياسة حقيقية قد وجدت التعبير المناسب فورا .

قال الأمير قلقا وهو يستغرق فى التفكير :

— ولكن . . . مع ذلك . . . كيف . . . هذا خطير .

— حقا خطير . لقد جئتَ يا أمير ، مرةً اخرى ، بالتعبير الموفق الذى يحدِّد الـ . . .

— أوه ، كفى . . . لوكيان تيموفيتش ! ما لنا وللكلمات الآن ! ليست الكلمات هى الأمر المهم . . . هل تعتقد أن من الجائز أن تكون المحفظة قد سقطت من جيبك دون أن تنتبه أنت الى ذلك بسبب سكرك ؟

— جائز . كل شئ فى السكر جائز ، على حد التعبير الذى استعملته بكثير من الصراحة أيها الأمير المبجل ! ولكن احكم فى الأمر بنفسك : لو أننى أسقطت محفظتى من

جيبى حين خلعت بدلتى لكان يجب أن تبقى المحفظة على أرض الغرفة . فأين هى المحفظة ؟

— ألا يجوز أن تكون قد دسستها فى درج منضدة ؟

— نبشت كل شئ . بحثت فى كل موضع . ثم اننى لم أضعها فى أى مكان ، ولم أفتح أى درج . أتذكر هذا تذكرا تاما .

— هل بحثت فى الخزانة الصغيرة ؟

— ذلك أول شئ فعلته ، حتى لقد بحثت فيها عدة مرات هذا الصباح . ثم ما الذى كان يمكن أن يدفعنى الى دس المحفظة فى الخزانة الصغيرة أيها الأمير المبجل ؟

— اعترف لك يا ليبيديف أن الأمر يقلقنى كثيرا . أيكون أحد قد عثر بها اذن على الأرض ؟

— أو استلها من جيبى ! هما تفسيران . . .

— هذا يقلقنى قلقا شديدا . من ذا الذى يمكنه أن . . ذلك هو السؤال . !

— لا شك أن ذلك هو السؤال الأساسى . انك أيها الأمير المعظَّم توفَّق توفيقا مدهشا محكما الى الكلمات والأفكار والتعاريف التى تصور الوضع . . .

— آه . . . لوكيان تيموفيتش . . كفى سخرية ! هنا . . .

صاح ليبيديف وهو يرفع ذراعيه قائلا :

— سخرية ؟!

— هيا . . هيا . . . طيب . . لست أزعل . . . ما شأن الزعل هنا . . اننى خائف على الناس . فيمن تشتبه ؟

— السؤال مخرج جدا . . . و . . . معقد جدا ! لا

أستطيع أن أتهم الخادمة ، فلقد لبثت فى مطبخها طول الوقت . ولا يمكن الشك فى أولادى أيضا . . .

— طبعا .

— ينتج عن ذلك أن الفاعل لا يمكن أن يكون الا أحد الزوار .

— ولكن هل هذا ممكن ؟

— هذا مستحيل استحالة مطلقة كاملة ، ولكن لا يمكن أن يكون قد حدث غير هذا . واننى لأسلِّم مع ذلك ، بل اننى المقتنع أيضا بان السرقة — اذا كان ثمة سرقة — انما حدثت لا فى السهرة ، حين كان الزوار مجتمعين ، بل فى ساعة متأخرة من الليل ، أو حتى عند مطلع الصبح ، وان الشخص الذى ارتكبها هو أحد الذين باتوا ليلتهم هنا .

— آه . . . رباه ! . . .

— أنا لا أشك طبعا فى بوردوفسكى ولا فى نيقولاى آرداليونوفتش ، وهما لم يدخلا علىَّ ، فى كل حال .

— هذا بديهى ، حتى ولو دخلا عليك ! من بات ليلته عندك ؟

— نحن أربعة ، وأنا بينهم ، بتنا فى غرفتين متلاصقتين : أنا ، الجنرال ، كيللر ، السيد فرديشنكو . فالفاعل لا بد اذن أن يكون أحد الأربعة !

— تقصد أنه لا بد أن يكون أحد الثلاثة . ولكن من هو ؟

— لقد عددت نفسى بين المعدودين ، لأكون عادلا ، ولأضع الأمور فى نصابها . ولكنك توافقنى يا أمير على أننى لا يمكن أن أسرق نفسى بنفسى ، وان تكن هذه الحالة قد سبق أن شوهد مثلها فى هذا العالم . . .

صاح الأمير يقول وقد نفد صبره :

— آه . . ليبيديف . . . ما أضجر هذا ! انتقل الى الوقائع . لا داعى للمواربات ! . .

— بقى اذن ثلاثة أشخاص . فلنبدأ أولا بالسيد كيللر ، وهو رجل متقلب لا يعرف الاستقرار ، وهو رجل سكير مدمن على الشراب ، وهو فى بعض الأحوال لبرالى ، أقصد ما يتعلق بمسألة الجيوب هذه . أما بقية ميوله فيمكن القول أنها ميول فارس من العصر القديم أكثر من ميوله اللبرالية . لقد قضى النصف الأول من الليل فى غرفة المريض ثم لم ينتقل الينا الا فى ساعة متأخرة بحجة أن النوم على الأرض الخشنة غير مريح .

— هل تشتبه فيه ؟

— اشتبهت فيه ، وحين وثبت عن فراشى كالمجنون بعد الساعة السابعة ولطمت جبينى ، مضيت على الفور أوقظ الجنرال الذى كان ينام نوما هادئا بريئا . فلما تأملنا أنا والجنرال فى أمر اختفاء فرديشنكو ذلك الاختفاء الغريب ، وهذا أمر خليق وحده بأن يثير فينا الشبهات والشكوك ، قررنا كلانا أن نفتش فورا كيللر الذى كان راقدا مثل . . . مثل . . . مثل مسمار تقريبا . نبشنا جيوبه نبشا دقيقا فلم نجد قرشا واحدا ، حتى ان جميع جيوبه كانت مثقوبة لا يُستثنى منها جيب واحد . وعثرنا فى أحد الجيوب على منديل من قطن أزرق ذى مربعات ومظهره غير لائق . ووجدنا رسالة غرام من خادمة ما ، فيها مطالبة بمال وفيها تهديد . ووجدنا قصاصات من المقالة الهجائية التى تعلم من أمرها ما تعلم . فقرر الجنرال ان كيللر برىء . ومن أجل أن نزيد الأمر

وضوحا ، أيقظنا الرجل من نومه ، ولقينا فى ايقاظه بعض العناء ، فلما بسطنا له القضية لم يكد يفهم عمَّ نتكلم : كان أمامنا فاغر الفم ، ثمل الهيئة ، برىء الوجه أغربه ، وحتى أغباه . ليس هو الفاعل اذن !

قال الأمير وهو يتنفس الصعداء فرحا :

— آه . . . ما أعظم سرورى ! كنت خائفا عليه !

قال ليبيديف وهو يضيق عينيه :

— كنت خائفا عليه ؟ أكان هناك اذن أسباب تدعوك الى الخوف عليه ؟

فتعثر الأمير :

— آه ، لا . . . فانما أنا قلت هذا بغير أسباب . لقد عبَّرت عن تفكيرى تعبيرا أحمق حين قلت أننى كنت خائفا عليه . أرجوك يا ليبيديف أن لا تنقل كلامى هذا الى أحد . . .

— أمير ! أمير ! سوف يبقى كلامك مدفونا فى قلبى ، فى القاع من قلبى ! هو من قلبى فى قبر .

كذلك قال ليبيديف بحرارة ، ضاغطا بقبعته على صدره .

— طيب . . . طيب ! . . هل الفاعل اذن هو فرديشنكو؟ أقصد هل تشتبه فى فرديشنكو ؟

فقال ليبيديف خافضا صوته محدقا الى الأمير :

— هل هناك من يمكن أشتبه فيه غيره ؟

— نعم . . . طبعا . . . من يمكن الاشتباه فيه غيره ؟ ولكن ، أين الأدلة ؟

— الأدلة موجودة . أولا : اختفاؤه فى الساعة السابعة أو حتى بعد الساعة السادسة من الصباح .

— أعلم : لقد حكى لى كوليا أن فرديشنكو قد دخل عليه ليبلغه أنه سوف ينهى ليلته عنـد . . . نسيت الاسم . . . عند أحد أصدقائه .

— فلكين . اذن سبق أن حدثك نيقولاى آرداليونوفتش عن هذا الأمر ؟

— لم يقل لى عن السرقة شيئا .

— هو لا يعلم بها ، لأننى أكتم الأمر الآن . اذن ذهب فرديشنكو الى عند فلكين : لا غرابة فى أن يذهب سكير الى سكير ، حتى فى مطلع الصبح ، بدون أى داع ، أليس كذلك ؟ ولكن هنا يرتسم مسار يمكن اقتفاؤه . ان فرديشنكو ، حين انصرف ، قد ذكر المكان الذى كان ذاهبا اليه . . . اصغ الىّ يا أمير ، وتابع سير تفكيرى . أسأل : لماذا فعل فرديشنكو ذلك ؟ لماذا تعمد أن يدخل على نيقولاى آرداليونوفتش ، رغم أن الطريق اليه فيه دورة طويلة ، ليبلغه أنه «سيختم ليلته عند فلكين» ؟ من ذا الذى يهمه أن يعرف أنه خارج ، وأنه ذاهب خاصة الى فلكين ؟ لماذا الابلاغ عن هذا ؟ لا ، ان ذلك شطارة ، شطارة لص ! ذلك معناه : «انظروا : اننى لم أحاول اخفاء أثرى ، فكيف يمكن بعد ذلك أن تنصب علىّ شبهة سرقة ؟ هل يدل سارق على المكان الذى يذهب اليه ؟» . هذه زيادة فى الاحتياط والحذر لتحويل الأنظار وصرف الشبهات ، ومحو آثار الخطوات على الرمل ان صح التعبير . . . هل فهمت عنى يا أميرى المبجل ؟

— فهمت ، فهمت جيدا ، ولكن هذا دليل واهن كل الوهن . اليس كذلك ؟

— اليك دليلا آخر : لقد ظهر أن المسار كاذب ، وأن العنوان الذى تركه فرديشنكو غير صحيح . فلقد ذهبت أقرع باب فلكين بعد ساعة ، أى فى الساعة الثامنة . انه يسكن هنا ، فى «الشارع الخامس» وأنا أعرفه على كل حال . لم أجد عنده فرديشنكو . صحيح أننى استطعت أن أعلم من خادمة صماء ، أن أحدا قد جاء منذ ساعة فعلا ، وأنه قرع الباب قرعا شديدا حتى لقد خلع الجرس ، ولكن الخادمة لم تفتح الباب لأنها لم تشأ ان توقظ السيد فلكين ، أو لأنها لعلها لم تستطب أن تنهض عن سريرها . هذا ممكن .

— أهذه براهينك كلها ؟ انها قليلة .

— حول من يمكن أن تحوم شبهاتى اذن يا أمير ؟ احكم بنفسك .

هكذا ختم ليبيديف كلامه بلهجة فيها تأثر ، كما امتلأت ابتسامته بشئ من المكر .

قال الأمير مهموم الهيئة بعد لحظة من تفكير :

— يجب عليك ان تفتش الغرف والأدراج تفتيشا جديدا !

فقال ليبيديف متنهدا ، معبرا عن مزيد من التأثر :

— فعلت !

فهتف الأمير يقول وهو يضرب المائدة غضبا :

— همْ . . . ولكن لماذا ، لماذا خلعت بدلتك ؟

قال ليبيديف :

— هذا سؤال مستمد من مسرحية هزلية قديمة . ولكننى أرى أيها الأمير الطيب أنك تسرف فى التألم لمصيبتى !

أنا لا أستحق كل هذا . أقصد : أنا لا أستحق هذا ، وحدى ! على أننى أرى أنك تتألم للجانى أيضا . . . لذلك الرجل التافه السيد فرديشنكو . أليس كذلك ؟

فقاطعه الأمير يقول ذاهلا مستاءً :

— نعم . . . فعلا . . . لقد ملأت نفسى هما .

الخلاصة : ماذا تنوى أن تفعل . . اذا كنت مقتنعا هذا الاقتناع كله بأن فرديشنكو هو الجانى ؟

قال ليبيديف وهو يتولى ويتعقف بلهجة ما تنفك تزداد امتلاء بالتأثر والعاطفة :

— يا أمير ، أيها الأمير المبجل ، من ذا الذى يمكن أن يكون سواه ؟ لا يوجد شخص آخر ينصرف التفكير اليه ، وان استحالة الاشتباه فى أى انسان استحالة مطلقة ان صح التعبير عدا السيد فرديشنكو هى فى ذاتها دليل آخر ضد السيد فرديشنكو . ذلك دليل ثالث ! ذلك اننى أكرر هذا السؤال : من ذا الذى يمكن أن يكون عداه ؟ أمعقول أننى أشتبه فى السيد بوردوفسكى ، هئ هئ هئ ؟

— دعك من هذا السخف !

— ولا فى الجنرال ، أخيرا ، هئ هئ هئ !

— هذه أيضا حماقة !

قال الأمير هذه الجملة الأخيرة بلهجة تكاد تشتمل على غضب ، وتململ على مقعده نافد الصبر .

— هى حماقة طبعا ! هئ هئ هئ ! لشد ما أضحكنى هذا الانسان أقصد الجنرال ! لقد ذهبنا منذ قليل مقتفين أثر فرديشنكو عند فلكين . . يجب أن أقول لك أنه كان أشد دهشةً منى حين مضيت أوقظه قبل الآخرين

بعد أن تبين لى ضياع المال ؛ فسرعان ما انقلبت سحنته ، وتبدل وجهه ، فاحمر ثم شحب ، واستبدت به آخر الأمر نوبة نبيلة من الاستياء والغضب بلغت من الشدة والعنف حدا لم أكن أتوقع مثله البتة . انه أنبل انسان ! صحيح أنه لا ينفك يكذب ، ضعفا ، ولكنه انسان رفيع العواطف سامى المشاعر ؛ وهو الى ذلك قليل العقل ويبلغ من البراءة ما يجعل المرء يمحضه ثقة كاملة لا تشوبها شائبة من شك . سبق أن قلت لك ، أيها الأمير المبجل ، أننى لا أميل اليه فحسب ، بل أحمل له محبة كثيرة . لقد وقف فى وسط الشارع على حين فجأة ، وفتح رداءه ، وكشف لى عن صدره قائلا : «فتشنى ! لقد فتشت كيللر ، فلماذا لا تفتشنى ؟ ان العدل يوجب ذلك !» . وكانت ذراعاه وساقاه ترتجف ، وكان وجهه شديد الشحوب وكانت هيئته رهيبة . أخذت أضحك وقلت له : «اسمع يا جنرال ، لو قال هذا الكلام أحد عنك ، لبادرت أقطع رأسى بيدىَّ ، ثم أضعه على طبق كبير وأمضى أعرضه بنفسى على جميع أولئك الذين يمكن أن يشتبهوا فيك ، قائلا لهم : «هل ترون هذا الرأس ؟ اننى مستعد لأن أقدِّمه رهنا على أنه برىء ، بل اننى مستعد لأن ألقى بنفسى الى النار فى سبيله !» ثم قلت له : انظر الى أى حد أثق فيك ! فما كان من الجنرال الا أن ارتمى بين ذراعى ، ونحن ما نزال فى وسط الشارع ، يذرف بضع عبرات ويرتجف ، وبلغ من قوة شدِّى الى صدره معانقا أننى كدت أختنق من نوبة سعال . قال لى : «أنت الصديق الوحيد الذى بقى لى فيما أنا فيه من شقاء» . انه انسان حساس جدا ! وقد

انتهز الفرصة طبعا ليقص علىَّ أثناء الطريق حكاية تتفق وهذه المناسبة ، فقال أنه قد اشتبه ذات يوم أثناء شبابه فى أنه سرق خمسمائة ألف روبل . لكنه فى غداة ذلك اليوم نفسه رمى نفسه فى لهب منزل يحترق ، فأنقذ الكونت الذى كان قد اشتبه فيه ، وأنقذ فى الوقت نفسه نينا الكسندروفنا التى كانت فى ذلك الأوان فتاة لم تتزوج . وقد عانقه الكونت ؛ وفى أعقاب هذا الحادث انما تزوج نينا الكسندروفنا . أما المال المفتقد فقد اكتُشف فى اليوم التالى بين أنقاض المنزل المحترق ، داخلَ علبة حديدية كان مودعا فيها . ان تلك العلبة الحديدية ، وهى صناعة انجليزية ذات قفل خفى ، كانت قد اندست تحت أرض الغرفة — لا يدرى أحد كيف — فلم يمكن العثور عليها الا بعد الحريق . القصة ملفقة كليا ، ولكن عينيه قد دمعتا حين جاء على ذكر نينا الكسندروفنا . انها لامرأة محترمة جدا ، نينا ألكسندروفنا هذه ، رغم أنها غاضبة منى .

— ألا تعرفها ؟

— لا ، على وجه التقريب . ولكننى أتمنى من كل قلبى أن أتعرف عليها ، ولو لأبرئ نفسى فى نظرها . ان نينا ألكسندروفنا حانقة علىَّ لأنها تظن أننى أفسد زوجها الآن بدفعه الى الادمان على السكر . والحق أننى لا أحضه على الفساد بل أصده عنه ، ولعلنى أجنّبه مزالق بيئة خطرة . هذا واننى أعده صديقا ، وأعترف لك بأننى لن أهجره بعد اليوم أبدا ؛ بل أقول اننى سأذهب الى حيث يذهب ، لأنه لا سبيل الى التأثير فيه الا بالعاطفة . لقد انقطع الآن عن التردد الى صاحبته أرملة الكابتن انقطاعا تاما ، وان

يكن فى سرّه يحترق شوقا الى الذهاب اليها ، حتى أنه فى بعض الأحيان يئن أنينا حين يفكر فيها ، ولا سيما فى الصباح ، حين يقوم من فراشه ويضع قدميه فى حذائه . لا أدرى لماذا يستبد به هذا الأمر فى تلك اللحظة بعينها . والبلية أنه لا يملك قرشا واحدا ، وهو لا يستطيع أن يذهب اليها بغير مال . ألم يسألك أن تنفحه بعض المال ، أيها الأمير المبجل ؟

— لا ، لم يسألنى شيئا .

— انه يستحى . كان يريد أن يطلب منك مالا . حتى لقد اعترف لى بأنه ينوى مضايقتك بهذا الأمر ولكنه يستحى ، لأنك أقرضته منذ مدة قصيرة ، فقدّر أنك ربما رفضت اقراضه ثانيةً . لقد أفضى الىَّ بهذا افضاء صديق يبوح لصديقه بما فى نفسه .

— وأنت ، ألا تعطيه مالا ؟

— يا أمير ، أيها الأمير المبجل ، أنا مستعد لأن اعطى هذا الرجل لا مالا فحسب ، بل حياتى أيضا ان صح التعبير . . . بل حين أقول حياتى فاننى أبالغ . ولكننى ، بينا ، مستعد فى سبيله لأن أتحمل الحمى ، أو أن أتحمل دملا أو حتى سعالا ، هذا طبعا اذا كان ثمة حاجة مطلقة الى ذلك . اننى أعده رجلا عظيما لكنه ضائع ! هذا رأيى ؛ فليست المسألة مسألة المال فحسب !

— اذن فأنت تعطيه مالا ؟

— لا ، لم أعطه مالا ، وهو يعرف أننى لن أعطيه . ولكننى لا أمنع عنه المال الا لهدف واحد هو أن أحمله

على الاعتدال ، وأن أصلح ما فسد من شأنه . يريد الآن أن يصحبنى الى بطرسبرج فى رحلتى التى أقتفى فيها أثر السيد فرديشنكو ، لأننى على يقين ثابت بأنه هناك . فصاحبى الجنرال يغلى ويفور الآن ، لكننى اتنبأ بأنه متى وصل الى بطرسبرج سيتركنى ليمضى الى صاحبته أرملة الكابتن . أعترف لك بأننى سأدع له عامدا أن ينصرف ، وبأننا متفقان على أن نفترق متى وصلنا بطرسبرج ليكون حظنا من النجاح فى التقاط السيد فرديشنكو أكبر . سأدع له اذن أن ينصرف ، ثم أسقط عليه عند أرملة الكابتن على حين فجأة ، ودون توقع منه لأننى أنتوى خاصةً أن أُخجله كربَ أسرة ، وكانسان عامةً .

قال الأمير بصوت خافت وقد استولى عليه قلق شديد :

— ولكن لا تحدث ضجة يا ليبيديف ، لا تحدث ضجةً ، ناشدتك اللّه ! . .

— آه ، لا ، اننى لا أقصد الا أن أُخجله ، وأن أرى كيف يكون وجهه حينذاك ، لأن الوجه يمكن أن يكشف عن أشياء كثيرة ، أيها الأمير المبجل ، ولا سيما فى رجل مثله ! آه يا أمير ! مهما تكن مصيبتى الآن كبيرة ، فاننى لا أستطيع ، حتى فى هذه اللحظة ، أن أمتنع عن التفكير فيه وفى اصلاح أخلاقه . لى رجاء كبير أريد ان أتقدم به اليك أيها الأمير المبجل ؛ حتى اننى أعترف لك بأن هذا هو السبب الذى حضنى على المجئ اليك . انك تعرف أسرة الجنرال ، حتى لقد اقمت عندهم ، فليتك تقبل ، أيها الأمير الطيب ، أن تسهّل علىَّ مهمتى فى سبيل مصلحة الجنرال وسعادته لا أكثر . . .

قال ليبيديف ذلك وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى على وضع الضراعة والابتهال .

قال الأمير :

— ما هو الأمر ؟ فى أى شئ أستطيع أن أساعدك ؟ ثق أننى أتمنى جدا أن أدرك ما يدور فى ذهنك يا ليبيديف ادراكا كاملا .

— ان ثقتى هذه وحدها هى التى قادتنى اليك ! ان فى امكاننا أن نعمل بواسطة نينا الكسندروفنا لنحيط صاحب السعادة الجنرال برقابة متصلة فى أسرته نفسها . يؤسفنى أننى لست متعرفا عليها . . . ثم ان نيقولاى آرداليونفتش ، الذى يحبك حبا يبلغ العبادة ان صح التعبير ، بما فى روحه الشابة من حرارة وحميًا ، قد يستطيع أن يساعدنا . . .

— لا ! . . أتقحم نينا الكسندروفنا فى هذا الأمر ؟ وقانا اللّه شرَّ ذلك ! . . لا ولا نقحم فيه كوليا . . ولكن . . . لعلنى لمَّا أنفذ الى فكرتك بعد يا ليبيديف .

صاح ليبيديف قائلا وهو يثب على كرسيه :

— لا شئ يحتاج الى نفاذ ! . . ما نحن فى حاجة الى اكثر من العطف عليه والرقة فى معاملته ! ذلك هو كل الدواء اللازم لمريضنا . هل تسمح لى ، يا أمير ، أن أعده مريضا ؟

— هذا يدل على طيب قلبك وسداد رأيك .

— سأستعين على شرح رأيى بمثال مستمد من المشاهدة ، التماسا لمزيد من الوضوح . انك ترى اى انسان هو هذا الرجل : ان ضعفه الوحيد الآن هو ذلك التعلق الشديد بأرملة الكابتن التى لا يمكنه أن يذهب اليها

بغير مال ، والتى آمل أن أفاجئه عندها هذا اليوم نفسه فى سبيل خيره . بل فلنفرض أنه لا يوصم بهذا الضعف وحده ، وانما هو متهم بارتكاب جريمة أو بمقارفة فعل مناف للشرف (مع أنه لا يمكن أن يفعل شيئا من ذلك البتة) : أنا أقول ، حتى فى هذه الحالة ، ان فى امكاننا أن نصل به الى كل ما نبغيه بواسطة الحنان النبيل ان صح التعبير ، فهو انسان حسّاس الى أبعد الحدود ! صدقنى أنه لن يصمد خمسة أيام ، ثم اذا هو يأخذ يتكلم ويعترف بكل شئ ذارفا أحرَّ الدموع ؛ ولا سيما اذا عملنا بمهارة ونبل فى آن واحد ، واذا استطعتم ، أنت وأفراد أسرته ، أن تراقبوا خطاه ان صحَّ التعبير ، وأن ترصدوا جميع حركاته وسكناته . . .

ثم قال ليبيديف منتفضا عن كرسيه كأنما هبط عليه وحى مفاجئ :

— أيها الأمير الطيب ! أنا لا أجزم طبعا أنه هو بغير شك . . . وما أزال مستعدا لأن أسفح فى سبيله كل دمى على الفور . . . ولكن لا شك فى أنك توافقنى على أن الفجور والسكر وأرملة الكابتن ، أن ذلك كله مجتمعا يمكن أن يمضى به الى بعيد جدا .

قال الأمير وهو ينهض :

— أنا مستعد دائما لأن أساعدك فى هذه القضية بطبيعة الحال . لكننى أعترف لك يا ليبيديف أن فى نفسى اضطرابا رهيبا . قل لى : انك لا تزال تقدِّر أن . . . الخلاصة . . . انك تقول أنت نفسك أن اشتباهك ينصرف الى السيد فرديشنكو .

— ففيمن أشتبه اذا لم أشتبه فيه ، أيها الأمير

المخلص الصادق ؟ فيمن أشتبه اذن ؟

كذلك عاد يقول ليبيديف مبتسما ابتسامة عذبة ضاما يديه احداهما الى الاخرى برقة وملاطفة .

فاكفهر وجه الأمير ونهض . ثم قال :

— انك لتعرف يا لوكيان تموفيتش أن الظن الخطأ فى مثل هذه الأحوال شئ فظيع . ان فرديشنكو هذا . . . أنا لا أريد أن أقول فيه سوءا . . . ولكن . . . ولكن فرديشنكو هذا . . . من يدرى ؟ ربما كان هو الفاعل ! . . أقصد . . ربما كان أقدر من . . . غيره على فعل هذا الأمر .

ثبت ليبيديف عينيه فيه وأرهف السمع بأذنيه . وكان الأمير يزداد وجهه اربدادا ، وكان يذرع الغرفة ذهابا وأيابا ، محاولا أن لا ينظر الى محدِّثه . ثم قال وقد تفاقم ارتباكه :

— اسمع . . . لقد احاطونى علما . . . لقد قيل لى عن السيد فرديشنكو إنه ، عدا ذلك ، قد يكون رجلا ينبغى للمرء أن يحذره فلا يقول بحضوره شيئا . . . أكثر مما يجب أن يقال . هل فهمت ؟ أنا أنقل اليك هذا الكلام لأنه قد يكون ، بالفعل ، أقدر من غيره على ان . . . فأنا أنقل اليك هذا الكلام اتقاء لارتكاب خطأ . . . ذلك أن هذا هو الشئ الأساسى ، فهمت ؟

أسرع ليبيديف يسأل :

— ولكن من ذا الذى ذكر لك هذه الملاحظة عن السيد فرديشنكو ؟

— همس لى أحدهم بها عرضا . وأنا على كل حال لا أصدق من ذلك شيئا . . . وانه ليسوءنى أنى وجدت نفسى مضطرا الى أن أنقل اليك ذلك الحديث .

أؤكد لك أننى لا أولى هذا الكلام أى ثقة . . . فهو لا يعدو أن يكون من باب الأقاويل السخيفة . . . آه . . . ما كان أغبانى حين نقلته !

قال ليبيديف وهو يرتجف من شدة الانفعال :

— اسمع يا أمير ، هذا هام ، هام جدا الآن ، لا فيما يخص السيد فرديشنكو ، بل من جهة المصدر الذى وصل منه هذا الأمر الى علمك . . (كان ليبيديف ، وهو يقول هذا الكلام ، يركض اثر الأمير ذهابا وايابا ، جاهدا أن يوفق بين خطوه وخطو الأمير) . اسمع يا أمير ما سأخبرك به الآن : فى هذا الصباح ، بينما كنا ذاهبين معا ، أنا والجنرال ، الى ذلك الرجل الذى يسمى فلكين أخذ الجنرال ، بعد أن حكى لى قصة الحريق تلك ، أخذ يطلق ، على حين فجأة ، الغمزات نفسها فى حق السيد فرديشنكو ، وكان ما يزال يغلى غيظا بطبيعة الحال . لكن الكلام الذى قاله فى حق فرديشنكو قد بلغ من التفكك والاضطراب أننى لم استطع أن أمنع نفسى من القاء بعض الاسئلة عليه . فأقنعتنى أجوبته بأن جميع تلك المعلومات قد لفّقها واخترعها صاحب السعادة نفسه . . . تلك ثمرة من ثمرات طيبته لا أكثر ان صح التعبير . فهو اذا كذب ، لا يكذب الا لأنه لا يستطيع ان يكظم تأثره . وانى لألقى عليك الآن هذا السؤال طالبا منك أن تقضى فى الأمر بنفسك : اذا كان الجنرال قد كذب ، وهذا ما أنا مقتنع به ، فكيف أمكن أن تصل كذبته الى مسمعك ؟ لاحظ ، يا أمير ، أن ذلك الحديث انما كان ابن لحظته ، انما كان من وحى تلك اللحظة ، فمن

ذا الذى أمكنه أن يطلعك عليه ؟ هذه نقطة هامة . . . انها ، ان صح التعبير . . .

— كوليا هو الذى نقل الىَّ ذلك الكلام منذ هنيهة ؛ والملاحظة ذكرها له أبوه الذى صادفه فى حجرة المدخل فى الساعة السادسة أو بعد الساعة السادسة بينما كان خارجا لسبب ما .

وقصَّ الأمير على ليبيديف كل شئ تفصيلا .

قال ليبيديف وهو يفرك يديه سرورا ويضحك ضحكا صامتا :

— آ . . . هذا ما يصح أن يسمى أثرا يجب اقتفاؤه . . . ذلك ما كنت أقدِّره ! معنى ذلك أن صاحب السعادة الجنرال ، فى الساعة السادسة من الصباح ، قد قطع نومه البرئ ، خصيصا ، ليمضى يوقظ ابنه الحبيب ويبلغه أن صحبة السيد فرديشنكو تعرِّض المرء لخطر خارق ! فما أكبر خطر السيد فرديشنكو بعد ذلك ، وما أعظم العناية الأبوية التى ظهرها صاحب السعادة ! هئ هئ هئ !

قال الأمير فى تحير شديد :

— اسمع يا ليبيديف ، اسمع : إعمل برفق وهدوء ! لا تحدث ضجة ! أرجوك يا ليبيديف ، أضرع اليك . . . فاذا تقيدت بهذا الشرط ، فيمينا لأساعدنَّك . ولكن يجب أن لا يعرف شيئا أى انسان ، أى انسان !

هتف ليبيديف يقول بالهام حاسم :

— ثق أيها الأمير الطيب المخلص الكريم أن هذا كله سيُدفن فى قلبى النبيل دفنا ! سنسير متكاتفين بخطى لا يُسمع لها صوت ! نعم ، متكاتفين بخطى لا يُسمع

لها صوت ! انني مستعد لأن أهب دمي كله . . أيها الأمير المعظم . ان لي نفسا خسيسة وفكرا منحطا . ولكن اسأل أي انسان منحط ، بل اسأل أي وغد حقير أهو يفضّل أن يتعامل مع وغد من نوعه أم هو يؤثر أن يتعامل مع أنبل انسان مثلك ، أيها الأمير المخلص ؟ لسوف يجيبك بأنه يفضل الثانية . هنا انما تنتصر الفضيلة ! أستودعك الله أيها الأمير المبجل ! بخطى ليس لها صوت . . . بخطى ليس لها صوت . . . متكاتفين !

أدرك الأمير أخيرا لماذا كان يتجمد كلما مدَّ يده الى تلك الرسائل الثلاث ، ولماذا كان يرجئ قراءتها الى المساء . في الصباح ، حين نام نوما ثقيلا على ديوانه دون أن يستطيع أن يعزم أمره على فض أي ظرف من ظروف الرسائل الثلاثة ، كان قد وافاه حلم آخر مزعج أليم رأى فيه من جديد تلك «المجرمة» نفسها مقبلة عليه . كانت تنظر اليه والدموع تلتمع على أهدابها الطويلة ، وكانت تدعوه من جديد أن يتبعها ، وكما حدث له في الليلة الماضية ، استيقظ على ذكرى ذلك الوجه الأليمة ، فأراد أن يذهب اليها فورا ، ولكنه لم يقوَ على ذلك ؛ وانتهى به الأمر ، بعد أن استولى عليه ما يشبه أن يكون يأسا ، الى أن يفض الرسائل ويأخذ في قراءتها .

ان تلك الرسائل تشبه ، هي أيضا ، أن تكون حلما . ان المرء يرى في بعض الأحيان أحلاما غريبة ، لا يتصورها الخيال ، أحلاما تخالف الطبيعة ؛ فاذا استيقظ تذكرها واضحةً جليةً ، فاستغرب أمرها كل الاستغراب . انك تتذكر خاصة أن عقلك لم يبارحك في أية لحظة من لحظات الحلم ، بل انك لتتذكر انك تصرَّفت بكثير من براعة المكر وسلامة المنطق ، خلال مدة طويلة ، بينما كان القتلة يحيطون بك ، ويدبرون المكائد ، ويخفون أهدافهم ؛ حتى لقد يتوددون اليك ، على حين أن أسلحتهم مؤهَّبة ، وأنهم لا ينتظرون الا اشارة لينقضوا عليك . وانك لتتذكر ما عمدت اليه من براعة المكر ، لتخدعهم عن أنفسهم ،

وتتوارى عن أبصارهم ؛ ولكنك تحزر بعد ذلك أنهم يعرفون حيلتك ، فهم يتظاهرون بجهل مخبئك تظاهرا ؛ فتلجأ عندئذ الى مخادعة أخرى ، وتظفر بتضليلهم مرة ثانية . ذلك كله تتذكره تذكرا واضحا . ولكن كيف أمكن لعقلك ، فى نفس الوقت ، أن يسلِّم بسخافات واستحالات واضحة جلية يزخر بها حلمك ضمن ما يزخر به ؟ ان واحدا من قتلتك قد تحول الى امرأة على مرأى منك ، ثم تحوَّلت هذه المرأة الى قزم ماكر كريه أمام عينيك ، فسرعان ما سلَّمت أنت بهذا كله تسليمك بواقع ، دون أى اندهاش تقريبا ، بينما كان عقلك فى الوقت نفسه يبذل جهدا قويا وطاقة عظيمة فيحسن المكر ، ويجيد الفهم ، ويدرك تسلسل الأحداث ومنطق الأمور ؟ ولماذا أيضا ، حين تستيقظ من النوم وتعود الى الاندماج فى الحياة الواقعية ، لماذا تشعر ، فى جميع الأحوال تقريبا ، وبقوة خارقة أحيانا ، أنك بخروجك من ميدان الحلم قد خلَّفت وراءك لغزا لم يُحل ؟ انك تبتسم استهزاءً بسخافة حلمك واستحالته ، ولكنك تحس فى الوقت نفسه بأن ذلك الركام من الأباطيل المتداخلة المتشابكة ينطوى على نوع من فكرة . . . فكرة واقعية ، ينطوى على شئ ينتمى الى حياتك الراهنة ويوجد فى قلبك وقد وُجد دائما فى قلبك ؛ فكأن كشفا جديدا من كشوف النبوة قد تنزَّل عليك فى حلمك وكنت تنتظره . انك تحتفظ منه بانفعال قوى ، انفعال فرح أو انفعال ألم ، ولكن مضمونه ومغزاه هو ما لا تستطيع أن تفهمه ، ولا أن تتذكره .

ذلك هو على وجه التقريب ما جرى فى فكر الأمير

بعد قراءة تلك الرسائل . ولكنه ، حتى قبل أن يفضَّها ، كان قد شعر بان وجودها وحده ، بأن امكان وجودها وحده ، هو فى ذاته أشبه بأن يكون كابوسا أليما . قال يسأل نفسه وهو يتجول فى المساء وحيدا (دون أن يتذكر أين ، فى بعض الأحيان) : كيف قررت **هى** أن تكتب **اليها** ؟ كيف أمكنها أن تكتب **فى هذا الموضوع** ، كيف أمكن أن ينبت فى رأسها حلم يبلغ هذا المبلغ من الجنون ؟ ولكن هذا الحلم كان قد صار الى حقيقة واقعة ؛ والأمر الذى أدهش الأمير أكثر من ذلك أيضا ، أثناء قراءة الرسائل ، أنه هو نفسه لم يكن بعيدا عن الاعتقاد بأن هذا الحلم ممكن وبأنه مشروع . نعم ، لا شك فى أن هذا حلم ، فى أنه كابوس ، فى أنه جنون . غير أن ثمة كذلك شيئا مؤلم الواقعية ، قاسىَ الصحة والصدق ، يسوِّغ الحلم والكابوس والجنون ، ويجعلها كلها مشروعة . ولبث الأمير عدة ساعات فى حالة قريبة من الهذيان ، وهو يتذكر ما قرأ . انه يتذكر بعض العبارات بغير انقطاع ، فيقف عليها فكره ويمضى يتأملها مليا . حتى لقد كان يهم أن يقول لنفسه فى بعض الأحيان أنه أوجس هذا كله من قبل وأنه تنبأ به . كان يخيَّل اليه أنه سبق له أن قرأ هذه الرسائل فى ماض بعيد ، وأن هذه الرسائل هى بذور كل ما عانى منذ ذلك الحين من أنواع القلق وفنون العذاب وألوان المخاوف .

«حين ستفضين هذه الرسالة (كانت الرسالة الاولى تبدأ هكذا) ابحثى أولا عن التوقيع الذى يذيِّلها . ان هذا التوقيع سيقول لك كل شئ ، وسيُفهمك كل شئ ، فلا أكون فى حاجة الى أن أبرر نفسى ، ولا أن أقدم شرحا .

فلو كنت أساويك أقلَّ مساواة لكان فى وسعك أن تستائى من جرأتى ، ولكن من أنا ومن أنتِ ؟ اننا لنبلغ من شدة التعارض ، وأننى لأبلغ من فرط الصغر بالنسبة اليك ، أننى لا أستطيع أن أوذى كرامتك حتى ولو نويت أن أفعل» .

وهى تكتب فى مقطع آخر :

«لا تَرىْ فى أقوالى حماسة مرضيةً تصدر عن فكر مختل اذا أنا قلت لك أننى أرى فيك الكمال كله مجسدا ! لقد رأيتك ، وانى لأراك فى كل يوم . لاحظى أننى لا أقضى فيك برأى . فليس التفكير هو الذى يقودنى الى اعتبارك كاملة ، وانما يقودنى الى ذلك ايمان بسيط . ولكننى مخطئة فى حقك : اننى أحبك . وما ينبغى للمرء أن يحب الكمال ؛ وانما حسبه من الكمال أن يعرف أنه كمال وكفى ، أليس هذا صحيحا ؟ ومع ذلك أشعر نحوك بحب . صحيح أن الحب ينشئ مساواة بين الناس . ولكن لا تقلقى : فاننى حتى فى أخفى خفايا تفكيرى لم أنزلك الى مستواى ولم أعدنى ندا لك . قلت الآن : «لا تقلقى» ، ولكن هل يمكن أن تشعرى أنت بقلق ؟ . . لو أمكن ذلك لقبّلت الأرض التى تدوسها قدماك . آه . . . اننى لا أعدُّ نفسى ندا لك بحال من الأحوال . . . انظرى الى التوقيع الذى أذيِّل به هذه الرسالة ، اسرعى فانظرى اليه !»

«ألاحظ مع ذلك (تكتب فى رسالة أخرى) اننى أجمع بينكما دون أن أكون قد ألقيت على نفسى فى يوم من الأيام هذا السؤال : هل تحبينه ؟ لقد أحبك هو ، يومَ لم يكن قد رآك الا مرةً واحدة . فكانت صورتك فى خياله صورة «الضياء» . ذلك هو التعبير الذى استعمله .

سمعت هذا التعبير من فمه . على أننى لم أكن فى حاجة الى هذا لأدرك أنك الضياء فى نظره . لقد عشت بقربه شهرا كاملا ؛ وفى تلك الأثناء انما فهمت أنك تحبينه أيضا . فانتما فى نظرى واحد لا اثنان» .

«ما معنى هذا ؟ (تكتب كذلك) مررت أمس بقربك ، فتراءى لى أنك تحمرين ؟ مستحيل . لا يمكن أن يكون هذا الا احساسا خطأ . أنت لو أخذوك الى أحط المواخير ، وأروك الرذيلة عارية كل العرى ، لما أمكن أن تحمرى : أنت لا يمكن أن تغضى من اساءة أو اهانة . قد تبغضين جميع السافلين المنحطين ، ولكنك لا تبغضينهم من حقد شخصى عليهم ، بل من رأفة بالآخرين ومن عطف على الآخرين الذين ينالهم أولئك باساءة أو اهانة . لأنك أنت لا يستطيع أحد أن يجرح كرامتك أو أن يؤذى شعورك . حتى أننى أحس — هل تعلمين ؟ — أنك لا بد أن تحبينى . أنت فى نظرى ما أنت فى نظره : روح من ضياء . والملاك لا يمكن أن يبغض ، بل ولا يملك الا أن يحب . هل يستطيع المرء أن يحب جميع الناس ، جميع أقرانه البشر بغير استثناء ؟ ذلك سؤال طرحته كثيرا على نفسى . فكان جوابى : لا ، حتما ! حتى أن ذلك ينافى الطبيعة . وما حب الانسانية الا معنى مجرد ، من خلاله لا يحب المرء الا نفسه دائما تقريبا . ولكن اذا كان هذا الحب يستحيل علينا نحن ، فليس يستحيل عليك أنت . اذ كيف يمكن أن لا تحبى أيا كان ما دمت فوق جميع البشر ، فما من أحد يرقى الى مستواك ، وما من اهانة يمكن أن تنالك ، وما من استياء يمكن أن يساور

نفسك ؟ انت وحدك تستطيعين أن تحيى بغير أنانية . أنت وحدك تستطيعين أن تحيى لا من أجل نفسك بل من أجل من تحبينه . آه . . . لسوف يؤلمنى أقسى الألم أن أعلم أنك بسببى تشعرين بخجل أو غضب ! فلو حدث هذا لكان فيه ضياعك ، لأنك تهبطين عندئذ فورا الى مستواى . . .

أمس ، بعد أن لقيتك ، عدت الى منزلى وتخيلت لوحة . ان الفنانين يرسمون المسيح دائما على أساس المعلومات الواردة فى الانجيل . أما أنا فلو كان علىَّ أن أرسم المسيح لصوَّرته غير هذا التصوير . لصوَّرته وحيدا — لقد كان مريدوه يتركونه وحيدا فى بعض الأحيان على كل حال ، — ولما وضعت بقربه الا طفلا صغيرا . والطفل يلعب من حوله . ولعل الطفل قد قصَّ عليه بلغته الساذجة شيئا من الاشياء ، فأصغى اليه المسيح فى أول الأمر ، لكنه الآن يتأمل ، وما تزال يده مستريحة على الشعر الوضئ من رأس الصبى بحركة نسيان لم يقصدها . وهو ينظر الى بعيد ، الى الأفق . وفى عينيه تنعكس فكرة رحيبة رحابة الكون . ووجهه حزين . لقد صمت الطفل . انه واضع كوعيه على ركبتى المسيح ، مسند خده الى يده الصغيرة ، رافع رأسه يحدق الى المسيح بنظرة ثابتة ، وقد لاح على وجهه ذلك التفكير الذى يلاحَظ أحيانا فى وجوه الصغار . والشمس تغرب . . . تلك هى لوحتى ! انك نقية ، وكمالك كله فى نقائك . آه . . . تذكرى هذا وحده ! ما شأنك وهيامى بك ؟ أنت بعد اليوم لى ، وسأبقى قريبة منك طول حياتى . . . سوف أموت وشيكا» .

وكتبت فى الرسالة الأخيرة تقول :

«لا تسيئى الظن فىَّ ، ناشدتك الله ! لا ولا تحسى

أننى أذل نفسى بالكتابة اليك على هذا النحو أو أننى من أولئك البشر الذين يجدون فى اذلال أنفسهم لذةً ولو بدافع الزهو . لا . ان لى ما يعزينى . ولكن يصعب علىَّ أن أشرحه لك ؛ بل لقد يصعب علىَّ أن أدركه أنا نفسى ادراكا واضحا ، رغم أن هذا يعذبنى . لكننى أعلم أننى لا يمكن أن أذلَّ نفسى حتى بدافع فرط الزهو . أما المذلة التى تنشأ عن نقاء القلب فأنا عاجزة عنها . معنى ذلك أننى لا أذل نفسى لا بهذه الصورة ولا بتلك .

لماذا أريد أن أجمع بينكما ؟ أمن اجلكما أم من أجلى ؟ من أجلى طبعا . كل شئ يرتد الى هذا فيما يتعلق بى ؛ قلت ذلك لنفسى منذ مدة طويلة . . . لقد علمت أن أختك آديلائيدا قالت فى ذات يوم ، وهى تنظر الى صورتى ، ان المرء يستطيع بجمال كهذا الجمال أن يحدث فى العالم ثورة . ولكننى عدلت عن العالم . لا بد أن يبدو لك مضحكا أن أكتب هذا الكلام بينما أنت تصادفيننى مكسوة بالملابس المخرَّمة ، مزدانة بالماس ، فى صحبة سكِّيرين وأوغاد ، أليس كذلك ؟ لا تلقى بالا الى هذا . أنا منذ الآن لا وجود لى تقريبا ، وانى لأعرف ذلك ولا أجهله . الله يعلم من ذا الذى احتلَّ فى ذاتى مكانَ شخصى . اننى أقرأ ذلك كل يوم فى العينين الرهيبتين المحدقتين الىَّ دائما ، حتى حين لا تكونان أمامى . ان هاتين العينين **تصمتان** الآن (تصمتان دائما) ، لكننى أعرف سرهما . ان منزله قاتم كالح من الضجر . ان هذا المنزل يخفى سرا . أنا مقتنعة أن عنده ، فى درج من الأدراج ، موسى ملفوف بالحرير كموسى ذلك القاتل من موسكو ، الذى

كان يعيش هو أيضا مع أمه فى بيت واحد ولفّ الموسى بالحرير لذبح عنق من الأعناق . لقد ظللت أحس ، طوال الوقت الذى قضيته فى منزلهم ، أنه لا بد أن تكون مخبأةً ، فى مكان ما ، تحت الأرض ، جثةٌ لعل أباه خبأها هناك ملفوفة بقماش مشمَّع ، كتلك الجثة التى اكتشفت بموسكو ، وأحيطت كذلك بقوارير من اكسير جدانوف ؛ بل اننى لأستطيع أن أدلك على ذلك الركن . انه يصمت دائما ، ولكننى أعلم حق العلم أن تولهه بى يبلغ من القوة أنه لا يمكن الا أن يستحيل الى كره . سيتم زواجكما وزواجنا فى يوم واحد . هذا ما تمَّ عليه الاتفاق بيننا . وليس لدىَّ سر بالنسبة اليه . اننى قد أقتله من شدة الخوف . . . لكنه سيقتلنى قبل أن أعزم أمرى على ذلك . . . لقد ضحك الآن حين رآنى أكتب هذا الكلام ؛ وهو يزعم أننى أهذر . وهو يعلم أننى اليك اكتب» .

لقد ضمت الرسائل أفكارا أخرى هاذية كثيرة . وكانت احدى هذه الرسائل الثلاث — وهى الثانية — تملأ بكتابة دقيقة جدا ورقتين بريديتين كبيرتى الحجم .

خرج الأمير أخيرا من ظلمة الحديقة التى طوَّف فيها مدة طويلة كما فعل البارحة . بدا له الليل الشاحب الشفاف أوضح مما يكون فى العادة . قال يسأل نفسه : «أمعقول أن الوقت ما يزال باكرا ؟» (كان الأمير قد نسى أن يحمل ساعته) . وخُيِّل اليه أنه يسمع موسيقى بعيدة . فقال يحدث نفسه مرة أخرى : «لعلها فى المحطة . لا شك أنهم لم يذهبوا اليوم الى هناك» . وانه ليقول لنفسه هذا الكلام ، اذا هو يلاحظ أنه أمام منزلهم . لقد كان يقدِّر حقا أن

الطواف كان سينتهى به أخيرا الى هناك من كل بد . ودخل الشرفة منهارَ القلب . الشرفة خالية . لم يأت للقائه أحد . انتظر لحظة ، ثم فتح الباب الذى يفضى الى الصالة . ومض فى ذهنه : «هذا الباب لا يُغلق هنا أبدا» . الصالة خالية أيضا . يكاد يكون الظلام فيها كاملا . وقف الأمير فى وسط الغرفة ذاهلا . وفيما هو كذلك ، اذا بباب يُفتح فتدخل ألكسندرا ايفانوفنا حاملة بيدها شمعة . فلما رأت الأمير اندهشت وتوقفت توقف من يسأل ويستفهم . طبعا ، لم تكن تريد ألكسندرا الا أن تجتاز الصالة من باب الى باب ، ولم تكن تتوقع أن تجد أحدا .

قالت أخيرا :

— ما جاء بك الى هنا ؟

— دخلت . . . عابرا .

— maman متعبة ، وكذلك آجلايا . وآديلائيدا توشك أن ترقد على سريرها ، وذلك ما سأفعله أنا أيضا . لقد بقينا بالمنزل وحدنا طول السهرة . بابا والأمير فى بطرسبرج .

— أتيت اليكن . . . أتيت اليكن . . الآن . . .

— هل تعلم كم الساعة الآن ؟

— لا . . . لا . . .

— هى الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل . ونحن ننام دائما فى الساعة الواحدة .

— ها . . . وأنا الذى كنت أظن أن الساعة هى . . . التاسعة والنصف .

قالت ضاحكة :

— لا ضير ! ولكن لماذا لم تجئ قبل هذا الوقت ؟

أظن أنك كنت تُنتظر .

تمتم يقول وهو ينصرف :

— كنت . . . أقدّر . . .

— الى اللقاء ! سأضحك الجميع فى الغد .

رجع الأمير الى بيته سالكا الطريق الذى يدور حول الحديقة . كان قلبه يخفق ، وكانت أفكاره مضطربة مشوشة ، وكان كل شئ يكتسى فى نظره مظهر الحلم . وفجأةً ، ظهرت لعينيه تلك الرؤيا نفسها التى سبق أن ظهرت له مرتين حين كان يستيقظ من النوم . تلك المرأة نفسها خرجت من الحديقة ، ووقفت جامدةً أمامه ، كأنما كانت تنتظره فى ذلك المكان . ارتعش ووقف . تناولت يده ، وشدت عليها شدا قويا . «لا ، ليست هذه رؤيا !»

ها هى قد وقفت معه أخيرا ، وجها لوجه ، لأول مرة بعد افتراقهما . انها تكلمه ، ولكنه ينظر اليها صامتا . انه يشعر بألم فى قلبه الطافح . آه ! لم يستطع أبدا فيما بعد أن ينسى هذا اللقاء وكان يشعر بذلك الألم نفسه كلما تذكر هذا اللقاء . ركعت على ركبتيها أمامه فى وسط الطريق كمجنونة . تراجع مذعورا الى وراء ، بينما هى تحاول أن تمسك يده لتقبّلها . وكما سبق أن رأى ذلك صباحا فى الحلم ، ها هى ذى دموع تتلألأ على أهدابها الطويلة .

همس يقول لها خائفا وهو يحاول انهاضها :

— قومى ، قومى ، قومى بسرعة !

فقالت تسأله :

— هل أنت سعيد ؟ هل أنت سعيد ؟ قل لى كلمة واحدة : هل أنت سعيد الآن ؟ اليوم ؟ فى هذه اللحظة ؟

هل كنت عندها ؟ ماذا قالت لك ؟

لم تنهض ، ولم تصغ اليه . كانت تسأله متعجلة ، وكانت تتكلم بلهجة سريعة ، كأن أحدا يلاحقها ويطاردها . تابعت تقول :

— سأسافر غدا ، كما أمرت . ولن أظهر . . . أراك الآن آخر مرة ، اخر مرة ! هى الآن آخر مرة فعلا !

قال الأمير فى يأس :

— هدئى نفسك ! قومى !

وكانت تتأمله بشراهة وتعانق يديه . وقالت أخيرا :

— وداعا !

ونهضت ، وابتعدت مسرعة تكاد تركض ركضا .

ورأى الأميرُ روغوجين ينبجس الى جانبها فجأة ، فيتأبط ذراعها ويقتادها .

وصاح روغوجين يقول للأمير :

— انتظرنى يا أمير ، سأرجع بعد خمس دقائق لهنيهة .

وعاد بعد خمس دقائق فعلا ، وكان الأمير ينتظره فى ذلك المكان نفسه .

قال روغوجين :

— أركبتها العربة . العربة تنتظرها هناك ، فى ناصية الطريق ، منذ الساعة العاشرة . كانت تقدر أنك لا بد أن تقضى السهرة كلها عند الأخرى . لقد أبلغتها ما كتبتَه الىَّ منذ قليل ، بدقة . فلن تبعث اليها بعد اليوم رسائل . هذا وعد . وستنفذ رغبتك فتسافر من هنا غدا . أرادت أن تراك مرةً أخيرة ، رغم رفضك ، فانتظرناك هنا ، على هذه الدكة التى كان عليك أن تمر بها فى طريق عودتك الى بيتك .

سأله الأمير :

— أهى التى جاءت بك ؟

فأجاب روغوجين وهو يبتسم مكشرا عن أنيابه :

— لم لا ؟ ان ما رأيته هنا لم يطلعنى على جديد . ألم أقرأ اذن رسائلها ؟

فسأله الأمير وقد بغتته هذه الفكرة :

— هل قرأتها حقا ؟

— طبعا . هى نفسها أطلعتنى عليها كلها . هل تتذكر الاشارة الى الموسى ؟ هىْ هىْ ! . .

صاح الأمير يقول وهو يعقف يديه :

— انها مجنونة !

فقال روغوجين بصوت خافت ، كأنه يخاطب نفسه على حدة :

— من يدرى ؟ قد لا تكون مجنونة .

فلم يجب الأمير .

قال روغوجين :

— هيًّا ! وداعا ! أنا أيضا مسافر فى الغد . لا تذكرنى بسوء !

ثم أضاف قائلا وهو يستدير بسرعة :

— ولكن قل لى يا أخى : لماذا لم تجب عن سؤالها ؟ «أأنت سعيد أم لا ؟»

فصاح الأمير يقول معبرًا عن لوعة كبيرة :

— كلا ، ثم كلا ، ثم كلا !

فقال روغوجين وهو يضحك بحقد :

— لا ينقص الا أن تقول «نعم» !

وانصرف دون أن يلتفت الى وراء .

الجزء الرابع

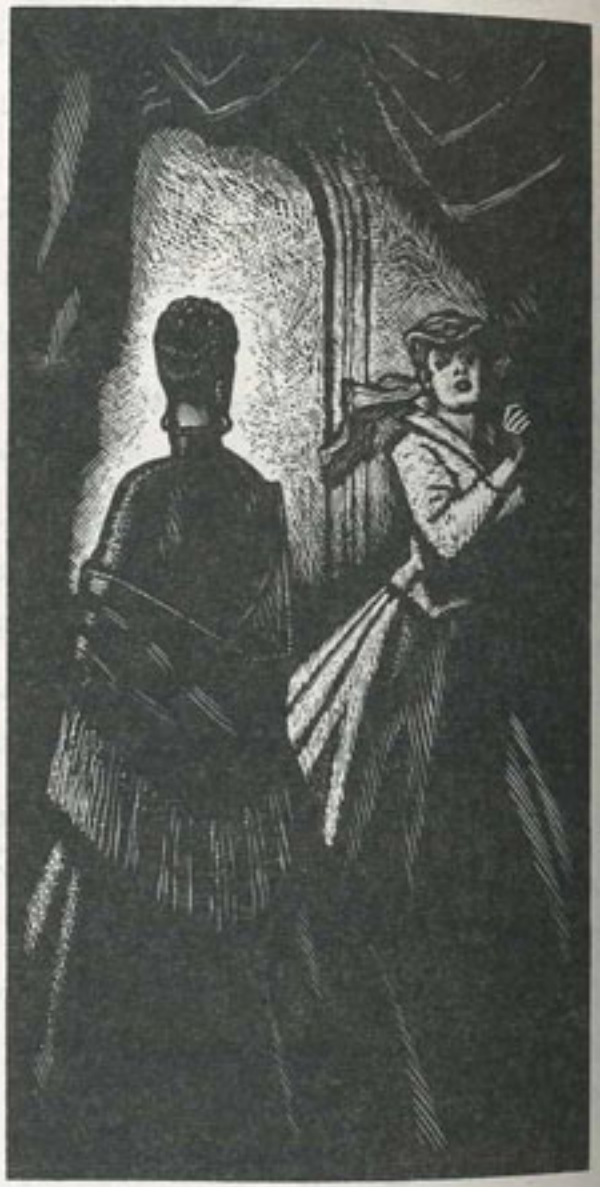

الفصل الاول

انقضى زهاء اسبوع على اللقاء الذى تم بين بطلى قصتنا عند الدكة الخضراء . وفى ذات صباح مشرق ، خرجت باربارا آرداليونوفنا بتيتسينا تقوم بزيارة بعض صاحباتها ، ثم رجعت الى منزلها حزينة النفس مهمومة الفكر فى نحو الساعة العاشرة والنصف من النهار .

هناك أناس يصعب على المرء أن يقول فيهم شيئا يصفهم ويصورهم دفعةً واحدة وبصورة كاملة فى أبرز ما يخصهم وأوضح ما يميزهم . أولئك هم الذين اصطُلح عادةً على تسميتهم باسم «العاديين» و«الاغلبية» وهم فعلا الاغلبية الساحقة فى كل مجتمع . ان الادباء يجهدون فى أغلب الأحوال ، فى رواياتهم وأقاصيصهم ، أن يختاروا نماذج اجتماعية وأن يرسموا هذه النماذج الاجتماعية فى أقوى صورة جذابة وأجمل اداء فنى . وهذه النماذج لا توجد فى الحياة كاملةً ذلك الكمال الا نادرا جدا ، غير أن هذا لا ينفى أن الأفراد الذين يصوِّرون هذا التصوير هم أقرب الى الواقع من الواقع نفسه . ان شخصية بودكوليوسين قد تشتمل على مبالغة من حيث هى نموذج ، ولكنها ليست وهما صنعه الخيال . ما أكثر الأذكياء الذين ما ان عرفوا شخصية بودكوليوسين التى صوَّرها جوجول فى مسرحيته حتى وجدوا بين أصدقائهم ومعارفهم الحميمين عشرات بل مئات من الأفراد يشبهون هذه الشخصية كل الشبه بل ان هؤلاء الأذكياء كانوا ، حتى قبل قراءة جوجول ، يعرفون أن أصدقاء هم يشبهون بودكوليوسين . وانما كان الشئ الذى

يجهلونه هو الاسم الذى يُسمّى به هذا النموذج . فى الواقع ، يندر أن يهرب خطيب من النافذة لحظةَ الزواج ، ذلك أن هذه الحركة لا يستطيعها كل فرد من الناس ، بصرف النظر عن أى اعتبار آخر . ومع ذلك ما أكثر العرسان من أناس يستحقون التقدير ولا يعوزهم الذكاء ، الذين أحسوا لحظةَ زواجهم فى قرارة أنفسهم بأنهم من أمثال بودكوليوسين . كذلك لا يصرخ جميع الأزواج فى كل مناسبة قائلين : "Tu l'as voulu, George Dandin!"[1] ولكن يا الهى ، ما أكثر ملايين وملايين المرات التى كرر فيها أزواج الكون بأسره تلك الصيحة الصادرة عن القلب ، بعد انقضاء شهر العسل أو — من يدرى — ربما حتى غداةَ يوم الزفاف .

لا حاجة بنا الى الافاضة فى الكلام على هذه المسألة ، وحسبنا أن نقرر أن الخصائص البارزة المميزة التى تتصف بها هذه الشخصيات تكون فى الحياة الواقعية كما لو مخففة بالماء ، ولكن جميع أمثال جورج داندان وجميع أشباه بودكوليوسين موجودون فى الواقع : يهرولون من حولنا ويسعون أمام أعيننا يوميا ، ولكن فى حالة تشبه بعض الشئ حالة الميوعة . ويجب أن نضيف الى ذلك فى نهاية الأمر واستكمالا للحقيقة أن النموذج الكامل لجورج داندان ، على نحو ما خلقه موليير ، يمكن أن يصادف فى الحياة فعلا ، ولكن نادرا . ولنختم هنا هذا الكلام الذى يوشك أن يصير الى مقال فى النقد الأدبى . غير أن هناك سؤالا

[1] «لقد أردتها يا جورج داندان !» (بالفرنسية فى الأصل) .

يطرح نفسه علينا : ما الذى يجب أن يفعله كاتب الرواية بالأشخاص العاميين أو «العاديين» تماما وكيف يجب أن يصوّرهم للقارئ فى سبيل أن يثيروا اهتمامه ولو قليلا ؟ انه ليستحيل على كاتب الرواية أن يحذفهم من قصته ، لأن هؤلاء الناس العاديين هم فى كل لحظة وفى أكثر الأحوال النسيج الذى لا غنى عنه ، والذى عليه تتسلسل وقائع الحياة وأحداث الأيام ؛ فاذا حذفناهم كنا نجرد الرواية من صفة الصدق ومحاكاة الواقع . ان ملء الروايات بالنماذج وحدها أو — حتى لمجرد لفت الانتباه — بشخصيات غريبة خارقة انما يبعدها عن الواقع فلا تحظى بتصديق القارئ وقد لا تثير شوقه . وفى رأينا أن الكاتب يجب عليه أن يحاول اكتشاف ألوان طفيفة فيها اثارة للاهتمام وفيها عبرة ، حتى لدى الأشخاص العاديين . ولكن حين يحدث مثلا أن تكون الصفة الأساسية لبعض الأشخاص العاديين هى أنهم عاديون على نحو ثابت دائم مستمر ، أو أنهم رغم جميع جهودهم الخارقة التى يبذلونها للخروج من العادية والعامية مهما كلف الأمر ما ينفكون يرجعون الى العادية والعامية رجوعا لا برء منه ، فان هؤلاء الأشخاص العاديين يكتسبون بذلك صفة النموذج ، ويصبح لهم ما للنموذج من قيمة ، فهم عندئذ يمثلون العادية التى لا تريد اطلاقا أن تبقى ما هى ، وانما تهدف الى بلوغ الأصالة بأى ثمن ، وتسعى الى تحصيل الاستقلال مهما كلف الأمر ، دون أن تملك للوصول الى ذلك أية وسيلة من الوسائل .

فالى هذه الفئة من الناس «العاميين» أو «العاديين» ينتمى بعض أشخاص قصتنا هذه ، الذين قلّما وضّحتهم

للقارئ حتى الآن (أعترف بذلك) . أولئك هم على وجه الخصوص باربارا آردالیونوفنا بتیتسینا ، وزوجها السید بتیتسین ، وأخوها جافریلا آردالیونوفتش .

لا شئ أدعى الى انزعاج المرء من أن يكون ، مثلا ، غنيا ، وابن أسرة كريمة ، وحسن الهيئة ، وعلى جانب من ثقافة ، وغيرَ غبى ، بل وطيبا ، ولكنه لا يملك أية موهبة ، ولا ينفرد بأية سمة شخصية ، حتى ولا بأية صفة مميزة غريبة ، وأن لا يكون له أى تفكير خاص ، أى يكون شخصا «كسائر الأشخاص» تماما : فهو غنى ولكنه ليس مثل روتشيلد ، وهو ذو اسم محترم لكنه لم يتميز فى يوم من الأيام بشئ يجعله مرموقا ؛ وهو حسن الهيئة لكنه لا يحدث فيمن يراه أثرا كبيرا ؛ وهو قد نال حظا مناسبا من التعليم لكن هذا التعليم لا يجديه نفعا فى شئ ؛ وهو لا يخلو من ذكاء لكنه لا يملك **أفكارا شخصية** ؛ وهو صاحب قلب طيب لكنه خال من السماحة ، وهكذا دواليك من جميع النواحى . وبين الناس عدد كبير جدا من هذا النوع من الأفراد ، أكبر كثيرا مما يمكن أن نتصور . وهم ينقسمون كسائر البشر الى فئتين أساسيتين : فأما الأولى فهى فئة الأفراد المحدودين وأما الفئة الثانية فأفرادها «أكثر ذكاء» . ان أفراد الفئة الأولى أسعد من أفراد الفئة الثانية . ان الانسان «العادى» المحدود الذكاء يستطيع بسهولة تامة مثلا أن يظن أنه فذ وأنه اصيل ، ويمكن أن يطمئن الى هذا الظن ويسعد به دون أن تنتابه أية شكوك . لقد كفى بعضَ آنساتنا أن يقصصن شعرهن ، وأن يضعن على أعينهن نظارات زرقاء ، وأن يعلنَّ أنهن من أنصار المذهب

العدمى ، حتى يقتنعن فورا بأن هذه النظارات الزرقاء تهب لهن فى الحال «اعتقادات» خاصة . وكفى فلانا من الناس أن يكتشف فى قلبه ذرة عاطفة انسانية عامة وطيبة حتى يتأكد فورا من أنه لا أحد يشعر بمثل هذه العاطفة وأنه رائد من رواد التقـــدم العام . وكفى فلانـــا الآخر أن يتمثل فكرةً سمعها من أحد الناس أو قرأ ورقة ما دون أن تكون لها بداية أو نهاية ، حتى يرى فى الحال أن «هذه الفكرة خاصة به» ، نابعة منه ، قد نبتت فى فكره وخرجت من رأسه . فى هذه الحالات تبلغ وقاحة السذاجة ، ان صح التعبير ، حدود الدهشة ، ونحن نصادفها دائما ، رغم ما قد يبدو من أنها لا يُصدَّق وجودها فى الواقع . ان هذا النوع من وقاحة السذاجة الذى يلاحَظ لدى رجل أحمق لا يساوره شك فى نفسه ولا فى موهبته ، قد وصفه جوجول وصفا رائعا فى النموذج المدهش ، نموذج الملازم بيروجوف» . ان بيروجوف لا يراوده شك فى أنه عبقرى بل أكثر من عبقرى . وهو يبلغ من انتفاء شكه فى هذا أنه حتى لا يسأل نفسه هذا السؤال أصلا ؛ عدا أنه لا توجد بالنسبة له أية اسئلة . وقد رأى الكاتب الكبير نفسه مضطرا ، آخر الأمر ، الى أن يؤدبه بعقوبة الجلد ، ارضاءً للشعور الأخلاقى المُهان لدى القارئ . ولكنه لاحظ أن هذا الانسان العظيم لم تؤثر فيه العقوبة كبير تأثير ، ولم يزد بعدها على أن نفض جسمه ، وأخذ يأكل فطيرة رقائق استردادا لقواه ، لذلك لم يملك الكاتب الا ان يرفع يديه فى دهشة ويترك قراءه حيث هم . لطالما أسفت على أن جوجول جعل رتبة بيروجوف العظيم رتبة منخفضة ، ذلك أن

هذا الشخص يبلغ من امتلائه بنفسه أنه لا شئ يمنعه من أن يظن نفسه مثلا قائدا عظيما على قدر ما تضخم الشارات على كتفيه بحكم القدم فى الخدمة و«الارتقاء فى الوظيفة» . غير انه لا يظن نفسه هكذا بل هو لا يشك فى هذا : فما الذى ينقصه ، اذا هو سُمِّى جنرالا ، من أن يكون قائدا عظيما ؟ وما أكثر أمثاله الذين يرتكبون بعد ذلك أخطاء رهيبة فى ساحات المعركة ؟ وما أكثر امثال بيروجوف الذين وجُدوا بين الأدباء والعلماء وأصحاب الدعوات منا ! لقد قلتُ «وجُدوا» ولكنهم ما زالوا يوجدون حتما حتى اليوم . . .

ان جافريلا آرداليونوفتش ايفولجين ، وهو أحد أبطال روايتنا هذه ، ينتمى الى الفئة الثانية من العاديين ، فئة العاديين الذين أوتوا «ذكاء أكبر» ، وان يكن قد ظل من أخمص قدميه الى قمة رأسه يحترق رغبةً فى أن يكون رجلا ذا اصالة وتفرد . لقد ذكرنا من قبل أن أفراد هذه الفئة الثانية أشقى كثيرا من أفراد الفئة الأولى . ومردّ ذلك الى أن الانسان «العادى» الذى يملك **ذكاء** ، حتى وان ظن نفسه فى بعض الظروف (بل ربما وطوال حياته) انسانا أوتى عبقرية وأصالة ، يظل محتفظا فى قرارة قلبه بدودة شك تظل تأكله الى أن ترميه أحيانا فى هوة اليأس الكامل . فان أذعن مع ذلك أذعن متسمما بعاطفة الغرور المكبوح المكظوم . على أننا أخذنا هنا حالة قصوى . أما فى أغلب الأوقات فان مصير هذه الفئة **الذكية** من الرجال العاديين لا يكون فاجعا الى هذا الحد . وكل ما يحدث لهم هو أن يصابوا بمرض فى الكبد الى هذا الحد أو ذاك بعد أن يتقدموا فى السن ، لا أكثر . ومع ذلك فانهم قبل أن

يهدأوا وأن يذعنوا يظلون فى بعض الاحيان ، خلال مدة طويلة جدا ، منذ سن الشباب الى سن الاذعان ، يرتكبون حماقات تلو حماقات ، لا يدفعهم الى ذلك شئ غير الرغبة فى التفرد والبحث عن الأصالة . حتى لنرى حالات غريبة . فرب أناس منهم يتصفون بالشهامة ولكنهم يتوقون الى الأصالة ، فاذا هم لا يتورعون أحيانا عن ارتكاب حقارة من الحقارات . هذا واحد من هؤلاء الأشقياء يمكن أن يعد رجلا شريفا بل وطيبا ، وهو عند أسرته أشبه بالعناية الالهية ، يعول بعمله وحده لا ذويه فحسب ، بل أناسا غرباء أيضا . فماذا يحدث له ؟ انه لا يهدأ له بال ولا تطمئن له نفس طوال حياته ! فشعوره بأنه قام بواجباته كانسان على أكمل نحو لا يصل به الى راحة القلب وسكينة الضمير . بالعكس : فهو حين يفكر فى ذلك يغضب ويسخط . انه يقول لنفسه : «ذلك ما ضيعت حياتى فى سبيله ! ذلك ما يجعلنى مقيد اليدين والرجلين ، ذلك ما حال بينى وبين اختراع البارود ! فلولا هذا ، لكان يمكننى أن أخترع البارود أو أن اكتشف أمريكا . لا شك فى ذلك . لا أدرى بالدقة ما الذى كان فى وسعى أن أكتشفه ، ولكننى كنت سأكتشف شيئا من الاشياء قطعا !» . ان أبرز ما يميز هؤلاء السادة هو أنهم يقضون حياتهم فعلا دون أن يتوصلوا الى معرفة ما يجب عليهم ان يكتشفوه معرفة دقيقة ، وما هو الذى يظلون يتهيأون لان يكتشفوه طوال حياتهم : البارود أم أمريكا ؟ غير أن حنينهم المعذّب الى تحقيق الاكتشاف يمكن أن يكون فى الحقيقة كافيا لرجل مثل كولومبس أو مثل جاليليو .

كان جافريلا آرداليونوفتش قد دخل فعلا فى هذا

الطريق ، ولكنه لم يسر فيه الا الخطوات الأولى . كان يمتد أمامه أفق بعيد من العربدة والفضائح . وهو منذ طفولته تقريبا كان قلبه قد قرّحه شعور عميق مستمر بأنه انسان عادى ، مع رغبة قوية عارمة فى أن يقنع نفسه بأن له استقلالا تاما . كان فتى حسودا ، عنيف الرغبات ، وكأنه خُلق عصبيا نزقا . وكان يحسب عرامة اندفاعاته قوة وطاقة . وكان طمعه المسعور فى أن يتميز وأن يكون شخصا مرموقا يدفعه أحيانا الى التفكير فى القيام بأعمال طائشة ، ولكن ما ان يهمّ بطلنا أن يثب حتى ينتصر العقل ويتغلب الذكاء دائما . كان هذا يقتله . ولعله كان يمكن اذا سنحت الفرصة أن يقرر اقتراف أحط الحقارات والدناءات لتحقيق هذا الحلم أو ذاك من أحلامه . ولكن الشعور بالشرف كان يحول دائما بينه وبين القيام بأحط الدناءات متى اقتربت اللحظة الحاسمة بالذات (ومع ذلك كانت الأفعال الدنيئة الصغيرة تلقى منه قبولا دائما فى الواقع) . وكان الفقر والهوان اللذين هوت اليهما أسرته يوقظان فى نفسه الاشمئزاز والكره . فكان يعامل معاملة التعالى والاحتقار حتى أمه ، رغم شعوره الكامل بأن ما تتمتع به أمه من سمعة وما تنعم به من طبع هو الآن سنده الأول ودعامته الأساسية لصنع مستقبله . وما ان دخل فى خدمة أسرة ايبانتشين حتى قال لنفسه : «ما دامت الأعمال الحقيرة لا بد منها ، فلنرتكبها الى آخرها ، شريطة أن أجنى منها نفعا !» . ولكنه كان لا يرتكب تلك الأعمال الدنيئة الى آخرها أبدا . ثم : لماذا رسخ فى رأسه أن عليه أن يقوم بأعمال دنيئة حتما ؟ أما آجلايا فقد شعر فى ذلك الأوان بالخوف منها ، ولكنه

لم يتركها ، وظل يماطل فى أموره معها وينتظر فرصة من الفرص ، دون أن يعتقد جادا مع ذلك بأنها يمكن أن تتنازل فتقبل تقربه منها وتوددة اليها . ثم ارتأى فجأة ، أثناء قصته مع ناستاسيا فيليبوفنا ، أن المال هو الوسيلة الوحيدة للوصول الى **كل شئ** . وفى ذلك الأوان كان لا ينقضى يوم دون أن يردد على نفسه قوله : «اذا كان لا بد من اقتراف دناءة ، فلنقترفها !» . وكان اذ يستعمل هذه اللغة يشعر برضى يداخله شئ من خوف . فكان لا ينفك يكرر فى كل لحظة من أجل أن يتشجع : «اذا لزمت دناءة فلتمض الدناءة الى آخرها . ان الروتين يتردد فى مثل هذه الحالة ، أما نحن فلن نتردد !» . واذ أخفق مع آجلايا وأرهقته الظروف ، فقدَ كلَّ شجاعة ، وحمل فعلا الى الأمير المال الذى رمته اليه امرأة مجنونة بعد أن أخذته من رجل لا يقل عنها جنونا . وقد ندم بعد ذلك ألف مرة على أنه ردَّ المال ، لكنه لم يكفَّ عن الشعور من ذلك بغرور واعتزاز . لقد ظل يبكى فعلا خلال الأيام الثلاثة التى قضاها الأمير ببطرسبرج . ولكنه خلال هذه المدة أيضا انما نضج كرهه للأمير وحقده عليه لأنه نظر اليه مشفقا أكثر من اللازم بينما «قام بعمل لا يجرؤ كل واحد أن يقوم به» ، ألا وهو رد مبلغ ضخم كهذا المبلغ . وكان يعترف لنفسه بصدق ونبل أن السبب الوحيد لكل ما يعانيه من الحزن والكآبة هو هذا السحق المتصل المستمر لغروره ، فكان هذا الشعور يعذبه عذابا أليما . ولم يستطع الا بعد مدة طويلة أن يدرك وأن يقتنع بأن أموره كانت ستجرى مجرى ذا شأن مع انسانة تبلغ ما تبلغه آجلايا من براءة

وطهارة وغرابة ، فأخذ الندم عندئذ يهده هدا ، فترك العمل وسقط فى هوة الكآبة والانهيار . انه يعيش الآن مع أبيه وأمه عند بتيتسين الذى يعوله . وهو يظهر الاحتقار لبتيتسين بصراحة ، ولكنه يتبع نصائحه ، بل ويملك من التعقل والحكمة ما يحضه على التماس هذه النصائح منه بصفة دائمة تقريبا . كان ثمة شئ يغضبه بين الأشياء الأخرى التى تغضبه ، وهو أن يرى أن بتيتسين لا يعنيه أن يصبح رجلا مثلِ روتشيلد ، ولا يضع لطموحه هذا الهدف . «ما دمتَ مرابيا ، فكن مرابيا الى النهاية ؛ اعتصر الناس اعتصارا ، اسلبهم مالهم ، كن قوىَّ الشكيمة ؛ صِرْ ملكا يهوديا !» وكان بتيتسين رجلا متواضعا مسالما موادعا : فكان يكتفى بالتبسم . ومع ذلك رأى فى ذات يوم أن من الضرورى أن يصارح جانيا وأن يناقشه مناقشة جادة ، ففعل ذلك حتى بشئ من الاباء ، مبينا له أنه لا يأتى عملا غير شريف ، فلا داعى الى وصفه بأنه يهودى ؛ وأنه اذا كانت نسبة الفائدة عالية فلا شأن له هو فى ذلك ؛ وأن طريقته فى المعاملة صادقة شريفة ؛ وأنه فى الواقع ليس الا وسيطا فى «هذا النوع» من الأعمال ، وأنه فى نهاية الأمر بفضل دقته فى الأعمال قد أخذ يتمتع بشهرة ممتازة لدى أناس محترمين مرموقين ، وأن ميدان أعماله قد أخذ بسبب ذلك يتسع ويتسع . وأضاف يقول ضاحكا : «لن أصبح مثل روتشيلد ، ولا حاجة بى الى أن أصبح مثل روتشيلد ، ولكننى سأملك منزلا وربما منزلين فى شارع ليتينايا ، وحسى هذا» . وكان يقول بينه وبين نفسه : «ومن يدرى ؟ قد أملك ثلاثة منازل !» ، لكنه كان لا

يفصح عن هذا الحلم ، بل يحتفظ به سرا مكتوما فى قرارة نفسه . ان الطبيعة تحب هذا النوع من الناس وتدلله ، ولسوف تكافئ بتيتسين لا بثلاثة منازل بل بأربعة فى الغالب ولا لشئ الا لأنه منذ طفولته أدرك أنه لن يصبح أبدا مثل روتشيلد . ولكن الطبيعة فى مقابل ذلك لن تمضى أبدا فى الاغداق على بتيتسين الى أبعد من المنازل الأربعة وسيقف الأمر مع بتيتسين عند هذا الحد .

أما أخت جافريلا آرداليونوفتش فقد كان لها طبع يختلف عن هذا الطبع كل الاختلاف . انها هى أيضا ذات رغبات مصطخبة عنيفة ، ولكن رغباتها تتصف بالعناد والثبات أكثر مما تتصف بالجموح والعرامة . كانت باربارا آرداليونوفنا تملك كثيرا من سداد الرأى حين تصل الأمور الى آخر حدودها ولكن ذلك لم يكن يبارحها قبل هذه الحدود أيضا . الحق أنها كانت ، هى أيضا ، من أولئك الناس «العاديين» الذين يحلمون بالتفرد والأصالة . ولكنها ، فى مقابل ذلك ، لم تلبث أن أدركت أنها لا تملك شيئا من أصالة ، ولم يحزنها هذا حزنا بالغا يجاوز الحدود . ومن يدرى ؟ لعل ذلك كان ثمرة شعور خاص بالكبرياء والزهو . لقد خطت خطواتها الأولى فى الحياة العملية بكثير من العزم والحزم فتزوجت السيد بتيتسين . لكنها لم تقل لنفسها فى هذه المناسبة : «ما دامت الأعمال الدنيئة ضرورية ، فلنمض فيها الى النهاية ، شريطة أن أنال بغيتى وأحقق هدفى» ، كما كان لا بد أن يقول مثلَ هذا فى مثل هذه الحالة أخوها جافريلا آرداليونوفتش (بل كاد يقول

هذه الكلمات حتى فى حضور أخته حين وافق ، كأخ أكبر ، على قرارها بالزواج) . بالعكس . فان باربارا آردالیونوفنا انما تزوجت بعد أن تأكدت من أن زوجها المقبل رجل متواضع ، مريح ، مثقف تقريبا ، عاجز عن اقتراف حقارة ضخمة بحال من الأحوال . أما الحقارات الصغيرة فلا تهمها فهى سفاسف وترهات ، ومن المبرأ منها على كل حال ؟ ان المرء لا يستطيع أن يطمع فى المثل الاعلى ! وكانت باربارا آردالیونوفنا تعلم ، عدا ذلك ، أنها بزواجها تضمن مأوى لأمها وأبيها وأخوتها . فهى حين رأت أخاها شقيا أرادت أن تساعده ، رغم كل ما حدث فى الأسرة قبل ذلك من أنواع سوء التفاهم . وكان بتيتسين يحض جانيا ، بمودة وصداقة طبعا ، على أن يلتمس وظيفة فى الحكومة . وكان يقول له فى بعض الأحيان بلهجة المزاح : «أنت تحتقر الجنرالات ورتبة الجنرال . ولكن انعم النظر : «انهم» جميعا ينتهون الى أن يصبحوا هم أيضا جنرالات . لسوف ترى اذا عشت !» . فكان جانيا يسأل نفسه ساخرا : «ولكن من أين جاءهم أننى أحتقر الجنرالات ورتبة الجنرال ؟» . ومن أجل أن تستطيع مساعدة أخيها ، قررت باربارا آردالیونوفنا أن توسع ساحة تأثيرها . فتسللت الى أسرة ايبانتشين ، معتمدةً فى الدرجة الأولى على ذكريات طفولة . لقد لعبا ، هى وأخوها ، مع الآنسات ايبانتشين حين كانا فى سن الطفولة . يجب أن نلاحظ هنا أنها لو كانت تلاحق حلما من الأحلام غير العادية حين سعت الى أن تُستقبل فى منزل آل ايبانتشين ، لكان يمكن أن تخرج فورا من الفئة التى انتسبت هى نفسها اليها والتحقت بها . ولكن الواقع

أن باربارا آردالیونوفنا لم تكن تلاحق حلما . وانما كان يقود خطاها حساب معقول كانت تقيمه على أساس معرفتها بطبيعة هذه الأسرة . لقد ظلت تدرس طبع آجلايا بغير توقف ، ثم أخذت على عاتقها مهمة أن تجمع مرة أخرى بين اثنين ، أخيها وآجلايا . ولعلها حصلت على بعض النتائج . ولعلها أيضا قد ارتكبت خطأ الاسراف فى الاعتماد على جانيا مثلا ، فانتظرت منه ما لم يكن فى وسعه أن يفعله فى أى وقت ولا على أى شكل . ولكنها ، على كل حال ، قد أحسنت الحيلة والتدبير لدى آل ايبانتشين : قضت أسابيع طويلة لا تذكر أمامهم اسم أخيها ولا تشير اليه ؛ أظهرت استقامة تامة وصدقا كاملا فى جميع الأحيان ؛ وكان وضعها يتسم بالبساطة لكنه يتصف كذلك بالرصانة والكرامة . وكانت باربارا آردالیونوفنا لا تخشى ان تنبش قرارة ضميرها ، اذ ليس فيه ما يمكن ان تلوم عليه نفسها ، فكان ذلك يهب لها مزيدا من القوة . كل ما هنالك أنها كانت تكتشف أحيانا أن بها هى أيضا شيئا من الميل الى الغضب ، وأنها هى أيضا تزخر بالكبرياء ، وربما بالغرور المدوس . كانت تلاحظ هذا فى بعض الأحيان خاصة ، ومن تلك الأحيان ، اللحظات التى تخرج فيها من عند آل ايبانتشين .

ها هى ذى ، فى هذه المرة أيضا ، تعود من عندهم متأملة حزينة النفس ، كما قلنا ، غير أن سخرية مُرة تخالط الآن ذلك المزاج الحزين . كان بتيتسين يقيم بيافلوفسك فى منزل خشبى حقير المظهر لكنه رحب السعة ، يطل على شارع كثير التراب . ان هذا المنزل ستئول ملكيته

الى بتيتسين بعد قليل ، حتى أنه قد شرع منذ الآن فى بيعه لشخص ثالث . حين اجتازت باربارا آردالیونوفنا درجات المدخل ، سمعت صخبا شديدا خارقا ، فى الطابق الأعلى . لقد كان أبوها وأخوها يتصايحان . فلما دخلت الصالة رأت جانيا يركض فى الغرفة من طرف الى طرف ، شاحب اللون من شدة الغضب ، يكاد ينزع شعر رأسه شدا . فاكفهر وجهها حين رأت هذا المشهد وتهالكت على ديوان متعبة الهيئة مهدودة القوى ، دون أن تخلع قبعتها . وكانت تعلم جيدا أنها اذا صمتت دقيقة واحدة أخرى ولم تسأل عن سبب هذا الاضطراب ، ستُغضب أخاها حتما ؛ لذلك أسرعت تسأله قائلة :

— أهى الحكاية القديمة ؟

فصاح جانيا يقول :

— أى قديمة ! . . تقول القديمة ! الأمر الآن أمر آخر ! العجوز أصبح مسعورا ، والأم لا تكف عن البكاء . كما تشائين ، يا فاريا ، ولكننى سأرميه وراء الباب . . . أقسم لك .

ولكن لعله لاحظ أن المرء لا يجوز له أن يطرد أحدا من بيت ليس بيته ، فاضاف يقول مستدركا :

— او . . . أترككم أنا . . .

دمدمت فاريا تقول :

— يجب على المرء ان يتصف بالتسامح .

ردَّ جانيا يقول مشتعلا بالغضب :

— التسامح فى ماذا ؟ التسامح مع من ؟ التسامح تجاه نذالاته ؟ لا ، لك ان تقولى ما تشائين . . . هذا

مستحيل ، مستحيل ، مستحيل ! . . ويا لها من أساليب ! . . الذنب كله ذنبه ، لكن عربدته تشتد : «لا أريد الدخول من الباب . . . هدِّم السياج ! . .» ولكن ما بك ؟ ان وجهك منقلب مربد !

أجابت فاريا بعدم رضى :

— ليس فى وجهى شئ خارق .

فتفرس فيها جانيا بمزيد من انعام النظر ثم سألها فجأة :

— هل كنت هناك ؟

— نعم .

— انتظرى لحظة . استؤنف الصراخ ! يا للعار ! وفى مثل هذه اللحظة أيضا !

— فى مثل هذه اللحظة ؟ لا تتميز هذه اللحظة بأى شئ خاص .

حدَّق جانيا الى أخته بنظرة فيها مزيد من النفاذ . وسألها :

— هل علمت شيئا ؟

— لم أعلم شيئا غير منتظر على كل حال . علمت أن كل ما كان يُفترض صحيح . لقد كان زوجى أبصر منا كلينا . ان ما تنبأ به منذ البداية قد تحقق الآن .

أين هو ؟

— خرج . ما الذى تحقق ؟

— أصبح الأمير خطيبا رسميا . انتهى الأمر . الأختان الكبريان قالتا ذلك لى . وافقت آجلايا . حتى أن الأمر لم يبق سرا مكتوما (قبل الآن كان كل شئ يحاط بجو

السر) . وقد أُرجئ زواج آديلائيدا من جديد حتى يتم زفاف العروسين معا فى يوم واحد . يا له من شعر ! هذه قصيدة حقا ! أوثر لك أن تنظم قصيدة تهنئة بالعرس على أن تركض فى الغرفة دون طائل . سيستقبلون فى مساء هذا اليوم بيلوكونسكايا . لقد وصلت فى الوقت المناسب . سيكون هناك مدعوون . وسوف يُقدَّم الأمير الى بيلوكونسكايا ، وان كان يعرفها من قبل . يظهر أنهم سيعلنون نبأ الخطبة فى هذه المناسبة . لكنهم يخشون عليه اذا هو دخل الصالون الذى يحفل بالمدعوين أن يُسقط على الأرض شيئا أو أن يكسر شيئا ، أو أن ينبطح هو نفسه على الأرض . لا يُستغرب ذلك من مثله .

أصغى جانيا باهتمام شديد ، ولكن ما كان أشد دهشة أخته حين لاحظت أن هذا النبأ الذى كان ينبغى أن يصعقه صعقا لم يلق منه كما بدا انشداها خارقا .

قال بعد لحظة تفكير :

— نعم . . . كان ذلك واضحا . . .

ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة غريبة ويرمق أخته بنظرة ماكرة وهو ما يزال يذرع أرض الغرفة ذهابا وايابا ، ولو أبطأ كثيرا :

— اذن انتهى كل شئ !

قالت فاريا :

— يسعدنى أن أراك تستقبل الأمر كما يستقبله فيلسوف . حقا أن هذا ليريحنى كثيرا .

— عبء وانزاح عن الكاهل ؛ عن كاهلك على الأقل

— أظن أننى خدمتك صادقةً مخلصة ، دون أن اناقشك ، ودون أن أزعجك . أنا لم أسألك ما هى السعادة التى كنت تعوِّل على أن تجدها مع آجلايا .

— ولكن هل أنا . . . نشدت السعادة مع آجلايا ؟

— دعك من هذا الكلام ، أرجوك . لا تمثل دور الفيلسوف ! لا شك فى أن الأمر كان كذلك من كل بد . ولكن حسابنا صُفى : خسرنا . أعترف لك بأننى لم أنظر الى هذا الأمر فى يوم من الأيام على أنه جد . ولئن شُغلت به فلقد فعلت ذلك من باب «تجريب الحظ» ، معتمدةً على طبع آجلايا الغريب المضحك . وانما أردت خاصة أن أسرَّك . كان نصيب هذا المشروع من الاخفاق تسعين فى المائة . وما زلت حتى الآن لا أعلم أنا نفسى ما الذى كنت تنتظر منه .

— الآن ستحضانى أنت وزوجك على التماس عمل والسعى الى وظيفة ؛ سأسمع خطبا ومواعظ عن فائدة الدأب وقوة الارادة وضرورة الاكتفاء بالقليل ، وهلمَّ جرا . . . حفظت هذا الكلام على ظهر القلب . .

كذلك قال جانيا وهو ينفجر ضاحكا .

قالت فاريا تخاطب نفسها : «ان فى رأسه فكرة جديدة !» .

وسألها جانيا فجأة يقول :

— والأبوان هناك ، كيف ينظران الى الأمر ؟ أهما مسروران ؟

— لا يبدو عليهما السرور كثيرا . على كل حال ، تستطيع أن تحكم فى ذلك بنفسك . اذا كان ايفان فيدوروفتش

راضيا ، فان الأم تراودها مخاوف . ولقد كانت من قبل تنظر الى الأمير كخطيب لابنتها بشعور الاشمئزاز . ذلك معروف .

— ليس هذا ما يهمنى . ان الأمير خطيب مستحيل ، خطيب لا يتصور الخيال أن يكون خطيبا . هذا واضح . لكننى أتكلم عن الوضع الحالى : الى أين وصلا الآن ؟ هل أبدت موافقتها القطعية ؟

— حتى الآن لم تقل «لا» . ذلك كل شئ . لكن الأمر لا يمكن أن يجرى معها غير هذا المجرى . أنت تعلم أنواع الأعمال العجيبة التى دفعها اليها خجلها وحياؤها حتى الآن . كانت فى طفولتها تحبس نفسها فى الدولاب فتظل لاطيةً فيه ساعتين أو ثلاثا ، لا لشئ الا رغبتها فى تحاشى الظهور للمدعوين . وقد كبر بعد ذلك جسمها ، لكن طبعها لم يتغير . هل تعلم ؟ يخيَّل اليَّ لسبب ما أنه لا بد أن يكون ثمة شئ خطير هناك ، حتى من جهتها هى . يُقال أنها تسخر من الأمير ما استطاعت أن تسخر ، من الصباح الى المساء ، حتى لا تُظهر ما فى داخلها ، الا أنها تجد السبيل حتما الى أن تقول له كل يوم بضع كلمات خفيةً ؛ ذلك أنه يبدو مشرقا وضاء كمن يتنزه فى السماء ! . . يُقال أنه مضحك جدا ! منهن انما سمعت هذا الكلام . ولقد خُيِّل اليَّ أيضا أن الأختين الكبريين تسخران منى صراحة .

أخيرا أخذ وجه جانيا يكفهر . لعل فاريا قد تعمدت الافاضة فى هذا الموضوع لتسبر فكر أخيها ، وتعرف ما يدور فيه من خواطر . ولكن العياط والزياط استؤنفا فى الطابق الأعلى .

زأر جانيا يقول وكأنما سرَّه أن يجد متنفسا لغضبه :

— سأطرده من الدار !

— فيمضى يستأنف الشكوى منا والتشهير بنا فى كل مكان ، كما فعل أمس .

سألها جانيا مرتاعا روعة مفاجئة شديدة :

— كيف أمس ؟ ما معنى : كما فعل أمس ؟ هل . . .

فأجابت فاريا كمن ثاب الى رشده :

— آه ! الهى ! أأنت لا تعلم ؟

فصاح جانيا يقول وقد احمر وجهه احمرارا شديدا من الشعور بالعار والغضب :

— كيف ؟ . . اذن صحيح أنه . . . ذهب الى هناك ؟ رياه ! . . ولكن أنت التى ترجعين الآن من عندهم ، هل علمت شيئا ؟ هل ذهب العجوز اليهم ؟ أذهب أم لا ؟

قال ذلك وأسرع نحو الباب . فاندفعت فاريا اليه ، وأمسكته بكلتا يديها ، وقالت له :

— ماذا بك ؟ الى أين تذهب ؟ اذا طردته فى هذه اللحظة ، فلسوف يفعل أسوأ مما فعل . سيمضى يفضحنا لدى جميع الناس ! . .

— ماذا فعل هناك ؟ ماذا قال ؟

— لم يستطعن أن يكررن لى ما قاله بوضوح ، لأنهن لم يفهمنه . كل ما فعله هو أنه أخافهن جميعا . كان آتيا الى ايفان فيدوروفتش ، ولكن هذا كان غائبا عن البيت . فطلب أن يرى اليزافيتا بروكوفيفنا . فلما لقيها بدأ يرجوها أن تجد له عملا ، أن تبحث له عن وظيفة فى الحكومة ؛ ثم أخذ يشكونا اليها ، يشكونى أنا ، ويشكو زوجى ، ويشكوك أنت خاصة . . . قال كلاما كثيرا .

سألها جانيا وهو ينتفض كمن أصابته نوبة هستيريا :

— ألم تستطيعى أن تعرفى ماذا قال ؟

— لا سبيل الى هذا ! أغلب الظن أنه هو نفسه لم يكن يفهم ماذا يقول . ولعلهن لم يقصصن علىَّ كل شئ .

أمسك جانيا رأسه بيديه ، وركض نحو النافذة . وجلست فاريا قرب النافذة الاخرى .

قالت فاريا فجأة :

— مضحكة آجلايا هذه ! لقد استوقفتنى لتقول لى : «انقلى الى أبويك أصدق مشاعر الاعتبار منى شخصيا . ولن يفوتنى أن أنتهز فرصة لرؤية أبيك فى يوم من الأيام القليلة القادمة» . وقد نطقت ذلك بلهجة فيها كثير من الجد . غريب جدا . . .

— ألم يكن ذلك سخرية ؟ ألم يكن ذلك سخرية ؟

— لا ، لم يكن ذلك سخرية ، وهذا وجه الغرابة .

— أهى على علم بقصة العجوز أم لا ؟ ما رأيك ؟

— القصة مجهولة هناك . ذلك أمر لا أشك فيه . ولكنك تجعلنى أقدِّر الآن أن آجلايا قد تكون على علم بالقضية ، قد تكون وحدها على علم ، لأن أختيها دهشتا هما أيضا حين سمعتاها تحملنى تحيةً الى أبينا ، جادةً ذلك الجد كله ؛ ولولا أنها على علم ، فما الذى يمكن أن يحضها على ارسال تحية اليه هو ؟ واذا كانت على علم بالقضية ، فان الأمير يكون هو الذى رواها لها !

— لا حاجة بالمرء الى كثير من المكر حتى يعرف من الذى رواها لها ! لص ! سارق ! لم يكن ينقصنا الا هذا ! لص فى أسرتنا ، لص هو «رب أسرتنا» !

هتفت فاريا تقول غاضبة :

— دعك من هذه السخافات ! لا يعدو الأمر أن يكون حكاية سكِّير ! ومن الذى اخترعها ؟ ليبيديف ، الأمير . . . يا للشخصيات العظيمة ، يا للاذكياء العباقرة ! . . اننى لا أقيم لهذا الحادث أى وزن !

تابع جانيا كلامه يقول بسخرية لاذعة :

— أبونا لص وسكير ؛ وأنا متسول شحاذ ؛ وزوج أختى مراب . ان لدينا ما نغرى به آجلايا : أسرة عظيمة حقا ! . .

— ان زوج أختك هذا ، ان هذا المرابى يـ . . .

— يطعمنى ، أليس كذلك ؟ لا تتحرجى من قول ما تريدين قوله ، أرجوك !

قالت فاريا وقد ثابت الى صوابها :

— لماذا تزعل ؟ انك لا تفهم شيئا . أنت تلميذ مدرسة حقا ! أتظن أن هذا كله قد أساء اليك فى نظر آجلايا ؟ انك لا تعرف طبعها . انها لا تتورع عن أن تدير ظهرها لأحسن الخاطبين فى سبيل أن تهرب الى طالب من الطلاب مغتبطة ، وأن تموت معه جوعا فى غرفة تحت السطح ! ذلك هو حلمها ! انك لم تستطع أن تفهم فى يوم من الأيام مدى ما كان يمكن أن تثيره فيها من الاهتمام بك والانجذاب اليك لو أنك عرفت كيف تتحمل وضعنا بصلابة وكبرياء . ان الأمير لم يصطدها الا لأنه من جهة أولى لم يحاول قط أن يصطادها ، ولأنه من جهة ثانية يُعدّ أبله فى نظر جميع الناس . يكفيها أن تقلب حال الأسرة عاليها سافلها مبتهجة ! هيه ! انكم معشر الرجال لا تفهمون من هذه الأمور شيئا البتة !

دمدم جانيا يقول بهيئة ملغزة :

— سنرى هل نحن نفهم أم نحن لا نفهم . ولكنني كنت أود مع ذلك أن لا تعرف عن قصة العجوز شيئا . لقد ظننت أن الأمير سيصون لسانه فلا يذيع شيئا . لقد استطاع أن يمنع ليبيديف من التحدث فى الأمر . ولم يرض أن يقول لى ، أنا نفسى ، كلَّ شئ ، رغم الحاحى . .

— هأنت ذا ترى اذن بنفسك أن كل شئ قد عُلم بدون أن يتدخل . ولكن ما بالك تهتم هذا الاهتمام كله الآن ؟ ماذا تأمل ؟ واذا بقى لك أمل ، فلن يهب لك هذا فى نظرها الا هالة شهيد .

— ولكنها ، رغم كل هذه الرومانسية ، كانت ستخاف من الفضيحة . ان لكل شئ حدودا ؛ وان لكل امرئ حدودا لا يتجاوزها . أنتن جميعا كذلك .

— آجلايا كانت ستخاف ؟

كذلك صاحت فاريا غاضبة وهى ترشق أخاها بنظرة احتقار . ثم تابعت كلامها تقول :

— ان نفسك لدنيئة حقا ! أنتم جميعا لا تساوون شيئا . فلتكن آجلايا غريبة الأطوار مُضحكة ، ولكنها فى مقابل ذلك أنبل طبعا منا جميعا ألف مرة .

فدمدم جانيا قائلا بلهجة الغرور مرة أخرى :

— طيب . لا بأس . لا تزعلى .

وتابعت فاريا كلامها فقالت :

— لكننى أرثى لحال أمى . اننى أخشى أن تكون قصة أبى قد بلغت مسمعها . آه ! اننى خائفة حقا !

قال جانيا :

— لا شك فى أنها تعرفها .

كانت فاريا قد نهضت لتصعد الى الطابق الأعلى ، الى عند نينا الكسندروفنا . فلما سمعت ما قاله أخوها توقفت ونظرت اليه بانتباه ، وسألته :

— من ذا يمكن أن يكون قد حكى لها القصة ؟

— لعله ايبوليت . اننى أقدِّر أنه منذ أقام عندنا لم يكن له من مسرة كبيرة الا أن يروى لأمنا الحكاية .

— ولكن قل لى أرجوك ، كيف يمكنه أن يعلم بهذه القضية ؟ ان ليبيديف والأمير قد اتفقا على أن لا يتحدثا عنها الى أحد ؛ كما أن كوليا نفسه يجهلها .

— ايبوليت ؟ لقد عرف هذا كله بنفسه . لا تستطيعين أن تتصورى مدى ما يتصف به هذا المخلوق من مكر وميل الى الوشاية ، ومن قوة حاسة الشم التى تمكنه من أن يكتشف بنفسه جميع الحكايات السيئة ، وجميع ما له طابع الفضيحة . لك أن تصدقى وأن لا تصدقى ، لكننى مقتنع أنه استطاع أن يقبض على ناصية آجلايا بيديه ! واذا لم يكن هذا قد حدث فسوف يحدث . حتى روغوجين أصبح على علاقة به . كيف لا يلاحظ الأمير هذا ؟ وما أشد ما يضطرم فى نفس ايبوليت الآن من رغبة قوية فى أن يدبر لى مكيدة ! انه يعدنى عدوا شخصيا . لقد أدركت ذلك منذ زمن طويل . ولكننى أتساءل ما الفائدة التى يجنيها من هذا انسانٌ أصبح فى مرحلة الاحتضار ؟ ذلك ما لا أفهمه ! ولكنك سترين : سترين أننى سأحتال عليه . والذى يدبر مكيدة سيكون أنا لا هو .

— لماذا أتيت به الى هنا ، اذا كنت تكرهه هذا

الكره كله ؟ وهل يستحق الأمر أن تدبر له مكيدة ؟

— أنتِ نصحتنى أن آتى به الى هنا .

— كنت أقدِّر أن ينفعنا . ولكن هل تعلم أنه هو نفسه مولَّه بحب آجلايا ، وأنه كتب اليها ؟ لقد سُئلت فى هذا الموضوع . . . وكاد يكتب الى اليزافيتا بروكوفيفنا .

قال جانيا وهو يضحك ضحكا حانقا :

— من هذه الناحية ، ليس خطرا ! ثم ان الأمر لا بد أن يكون غير هذا . أن يقع فى غرام آجلايا ، فهذا جائز ، لأنه صبى ! ولكنه . . . لن يبعث رسائل غير موقعة الى العجوز . انه فتى عادى تافه شرير ، ومغرور بنفسه أشد الغرور ! . . انى لعلى ثقة ، انى لعلى يقين من أنه صوَّرنى لها شابا متآمرا . بهذا انما بدأ . اعترف بأننى كنت غبيا أشد الغباء حين أطلقت لسانى حرا معه فى البداية . كنت اظن أنه سيخدم مصالحى ، ولو انتقاما من الأمير على الأقل . انه شخص ماكر ! آه ! كشفت الآن خبيثة نفسه تماما ! أما مسألة السرقة تلك فقد عرفها من أمه ، أرملة الكابتن . من أجل تلك المرأة انما قرر أبونا أن يفعل فعلته . لقد أعلمنى ايبوليت فجأة ، بدون أى سبب ، أن «الجنرال» وعد أمه بأربعمائة روبل . أعلمنى هذا من تلقاء نفسه ، بدون مبالاة ، بدون تحرج . عندئذ فهمت كل شئ . كان يحدِّق الى عينىَّ متلذذا . ولا شك أنه قال هذا الكلام نفسه لأمنا ، لا لشىء الا التلذذ بتمزيق قلبها . ولماذا لا يموت ؟ هلاَّ قلـــت لى هذا ، مـــن فضلك ؟ ألم يتعهد بأن يموت فى غضون ثلاثة أسابيع ؟ لقد سمن منذ أقام عندنا ! وأخذ سعاله يهدأ . حتى لقد

قال فى مساء أمس أنه أصبح منذ يومين لا يبصق دما .

قالت فاريا :

— اطرده .

فأجاب جانيا متعاليا :

— اننى لا أكرهه ، بل أحتقره .

ثم لم يلبث أن صاح يقول فجأة وقد استولى عليه غضب قوى :

— ثم . . . نعم . . . اننى أكرهه . أكرهه ! لأقولنَّ له هذا فى وجهه ، ولو كان يلفظ أنفاسه الاخيرة فى فراشه ! ليتك استطعت ان تقرئى «اعترافه» ! يا الهى ! ما أشد سذاجة وقاحته ! انه الملازم بيروجوف ، انه نوزدريوف على مأساة ! وهو خاصة صبى ! آه ! ما أعظم اللذة التى كان يمكن أن أشعر بها لو جلدته حينذاك ، لا لشئ الا ان أُدهشه ! انه ينتقم الآن من الجميع لاخفاقه فى ذلك اليوم . . . ولكن ماذا يجرى هناك ؟ بدأت الجلبة من جديد ! ما هذا فى آخر الأمر ؟ لن أسمح بهذا ! يا بتيتسين !

صاح بهذه الجملة الأخيرة مخاطبا بتيتسين الذى دخل الغرفة فى تلك اللحظة . وتابع كلامه يقول :

— ما هذا ؟ الى أين يمضى الأمر فى بيتنا فى آخر المطاف ؟ هذا . . . هذا . . .

ولكن الضجة كانت تقترب بسرعة . وفُتح الباب فجأة ، ودخل العجوز ايفولجين طافح الغضب محتقن الوجه مضطرب النفس خارجا عن طوره متهجما ، هو ايضا على بتيتسين . ووراءه دخلت نينا الكسندروفنا ، ودخل كوليا ، ثم دخل أخيرا ايبوليت .

كان ايبوليت قد انتقل الى منزل بتيتسين منذ خمسة أيام . وقد تمّ هذا على نحو طبيعى دون نقاش خاص أو شقاق بينه وبين الأمير ، فلم يقع بينهما خصام فحسب ، بل افترقا صديقين . وقد ذهب جافريلا آردالیونوفیتش الذى عادى ايبوليت كل تلك المعاداة أثناء السهرة ، التى سبق الحديث عنها ، ذهب يزوره في بيته بعد الحادث بيومين ، فأغلب الظن أنه فعل ذلك تنفيذاً لخطة مبيتة مفاجئة . كما أن روغوجين أخذ يتردد الى المريض لسبب ما . وقد قدّر الأمير في البداية أن «الفتى المسكين» قد يكون من الأفضل له نفسه اذا انتقل من بيته . ولكن ايبوليت ذكر للأمير حين غادر المنزل أنه سيقيم عند بتيتسين الذى «تكرّم فعرض عليه أن يؤويه» . وكأنه تعمد أن لا يقول انه سيسكن عند جانيا ، مع أن جانيا هو الذى ألحّ على ايوائه فى المنزل . وقد لاحظ جانيا ذلك ، فبقيت هذه الاهانة تنخر في قلبه .

كان جانيا على حق حين قال لأخته ان المريض قد تحسنت صحته . لقد كانت صحة ايبوليت تتحسن فعلاً ، وكان في وسع المرء أن يلاحظ ذلك من أول نظرة . دخل ايبوليت الى الغرفة غير متعجل ، وراء الآخرين ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة خبيثة ، وكانت هيئة نينا ألكسندروفنا تدل على أنها مذعورة ذعراً قوياً (لقد تغيرت تغيراً كبيراً وهزلت هزالاً شديداً أثناء هذه الأشهر الستة الأخيرة . انها منذ زوّجت ابنتها وجاءت تسكن عندها أصبح يبدو عليها

أنها لا تتدخل فى شئون أولادها) . وكان كوليا مهموم البال كالمرتبك . ان أشياء كثيرة من هذا «الجنون الذى أصاب الجنرال» ، على حد تعبيره ، تفوته فلا يفهمها لأنه كان يجهل ، بطبيعة الحال ، الأسباب الأساسية لهذه البلبلة الجديدة التى اجتاحت المنزل . لكنه وهو يرى أباه ميالاً الى المشاجرة في كل لحظة وكل مناسبة ، قد اتضح له أن أباه اعتراه تغير مفاجئ فكأنه شخص آخر . وكان انقطاع العجوز عن الخمرة منذ ثلاثة أيام انقطاعاً كاملاً يذكى قلقه أيضا . لقد علم أن أباه قطع الصلة بينه وبين ليبيديف ، وقطع الصلة بينه وبين الأمير ، حتى انه تشاجر معهما . وها هو ذا كوليا قد وصل الى المنزل حاملاً زجاجة فودكا صغيرة ، اشتراها بفلوس يملكها ، وقال لنينا ألكساندروفنا حين كان الجميع ما يزالون في الطابق الأعلى :

— أؤكد لك يا أمي أن من الأفضل أن يشرب . انه منذ ثلاثة أيام لم يشرب شيئاً . وذلك هو سبب اسوداد نفسه . حقاً ان من الأفضل أن يشرب . لقد كنت أحمل اليه خمرة حتى حين كان في السجن بسبب الديون . . .

فتح الجنرال الباب واسعاً ووقف على العتبة يبدو كمن يرتعش استياء وغضباً .

صرخ يقول لبتيتسين بصوت مرعد :

— أيها السيد العزيز ، اذا كان حقاً انك قررت أن تضحى فى سبيل هذا الولد الغر وهذا الملحد الزنديق بأبيك الشيخ المحترم ، أو قل بوالد زوجتك الذى خدم امبراطوره مخلصاً ، فاعلم انني منذ هذه اللحظة لن تطأ قدماى أرض مسكنك . فاختر أيها السيد ، اختر في هذه اللحظة

نفسها : فاما انا واما هذا . . . المسمار ! . . نعم . . هذا المسمار ! خطر ببالى هذا الاسم مصادفة ، ولكنه مسمار حقاً ! لأنه يثقب قلبى كمسمار فعلاً ، بدون اى احترام . . . كمسمار تماما !

قال ايبوليت :

— لماذا لا تسمينى فتّاحة قنانى ؟

— لا ، لستَ فتاحة قنانى ، لأننى لست قنينة بل جنرالاً . أنا أملك القاباً ، ألقاب شرف ، أما أنت . . . فليس لك شىء . اما هو ، واما أنا ! قرر أيها السيد ، قرر حالاً !

كذلك صرخ الجنرال من جديد ، مهدداً بتيتسين بلهجة نزقة . فأدنى منه كوليا كرسياً ، فتهالك الجنرال على الكرسى خائر القوى .

جمجم بتيتسين يقول مصعوقاً :

— الحق أن الأفضل أن تنام قليلاً . . .

وهمس جانيا قائلاً لأخته :

— وما يزال يجرؤ أن يهدد !

صاح الجنرال قائلاً :

— أنام قليلاً ؟ أنا لست سكران يا سيدى العزيز ، وأنت تهينني .

ثم تابع صياحه قائلاً وهو ينهض :

— أرى أن كل شىء هنا ضدي ، كل شىء وكل انسان . كفى ! أنا ذاهب . . . ولكن ألا فلتعلم أيها السيد العزيز ، ألا فلتعلم . .

ولكن الجنرال أُجلس قبل أن يكمل جملته ، وضُرع

اليه أن يهدئ نفسه . وانسل جانيا الى ركن من الأركان حانقاً . وكانت نينا ألكسندروفنا ترتجف وتنتحب .

قال ايبوليت كاشفاً عن أسنانه بلهجة ساخرة :

— ولكن ماذا صنعت به ؟ ممَّ يشتكى ؟

فتدخلت نينا ألكسندروفنا فجأة تقول :

— أتدعى أنك لم تفعل به شيئاً ؟ أنت الذى يجب عليك أن تشعر بالخجل والعار . . . انها لقسوة أن يعذب المرء شيخاً . . . ولا سيما حين يكون فى مثل وضعك .

— فما هو وضعى أولاً يا سيدتى ؟ اننى أحمل لك احتراماً عظيما ، لك أنت خاصة ، لك أنت شخصياً ، ولكن . . .

هتف الجنرال يقول :

— انه مسمار ! انه يثقب روحى وقلبى ! انه يريد أن يُلحقنى بمذهب الالحاد ! ألا فلتعلم أيها الولد الغر أننى كنت غارقاً فى الأمجاد حين لم تكن أنت قد وُلدت . ما أنت الا دودة يأكلها الحسد ، دودة مشطورة شطرين ، دودة تسعل . . . وتموت بغضاً وزندقة . . . لماذا أتى بك جافريلا الى هنا ؟ الجميع يعادوننى ، من الغرباء الى ابنى . . .

صرخ جانيا يقول :

— كفى تمثيلاً ! لقد كان الأولى بك أن لا تلطخ شرفنا وأن لا تجللنا بالخزى والعار في المدينة كلها !

— كيف ؟ أنا ألطخ شرفك أيها الغر ؟ ألطخ شرفك أنت ؟ أنا أشرِّفك ، لا ألطخ شرفك !

كان الجنرال قد وثب وهو يقول هذا الكلام . أصبح لا يمكن صدّه . ولكن كان واضحاً أن جافريلا آردالیونوفیتش قد جاوز الحدود هو أيضاً .

صاح يقول بمكر وخبث :

— ولا يستحى أن يتكلم عن الشرف !

فقال الجنرال يسأله بصوت مرعد وقد شحب غضباً وتقدم الى الأمام خطوة :

— ماذا قلت ؟

فأجاب جانيا فجأة صارخاً :

— قلت اننى يكفى أن أفتح فمى حتى . . .

ولكنه لم يكمل جملته . هما الآن يقفان وجهاً لوجه ، وقد استولى على كل منهما أشد الغضب ، ولا سيما جانيا .

صاحت نينا ألكسندروفنا قائلة وهى تندفع لتصد ابنها :

— جانيا ، ماذا تفعل ؟

وهتفت فاريا تقول مستاءةً ممتعضة :

— ما هذه الا سخافات من الطرفين كليهما . هيّا يا أماه ! هدئى روعك !

وتشبثت بأمها .

قال جانيا مخاطباً أباه بلهجة الفاجعة :

— اذا كنت أترفق بك فمن أجل أمي وحدها .

فزأر الجنرال قائلاً وقد بلغ ذروة الغضب :

— تكلم ! تكلم والا حلّت عليك لعنة أبيك . . . تكلم !

— هه ! ألا انى لأخاف لعنتك حقاً ! من المذنب اذا كنتَ قد أصبحتَ منذ ثمانية أيام كالمجنون ؟ أقول : منذ ثمانية أيام . هل سمعت ؟ اننى أعرف اليوم . . . فلا تخرجنى عن طورى ، فتدفعنى دفعاً الى أن أقول كل

شيء . . . لماذا جررت نفسك أمس الى بيت آل ايبانتشين ؟ أفتود بعد ذلك أن يحترم أحد شيخوختك وشعرك الأشيب وكرامتك كربٌ أسرة ؟ ماأجملك !

وصاح كوليا :

— اسكت يا جانكا ! اسكت يا أحمق !

وعاد ايبوليت يسأل ملحاً بلهجة ما تزال تقارب الوقاحة :

— بأى شيء أسأت اليه ؟ لماذا يصفنى باننى مسمار . هل سمعتموه ؟ انه هو الذى يتشبث بى ويصدع رأسى : لقد أتانى منذ قليل يحدثنى عن قصة رجل برتبة كابتن اسمه ياروبياجوف . اننى لا أحرص أى حرص على صحبة مجتمعك يا جنرال . وأنت نفسك تعلم أننى كنت أتحاشاها . فيم يعنينى الكابتن ياروبياجوف ؟ اعترف أنت نفسك ! اننى لم انتقل الى هنا من أجل الكابتن ياروبياجوف . ثم اننى لم أزد على أن أعربت عن رأيي صراحة فى أن هذا الكابتن ياروبياجوف لعله لم يوجد فى يوم من الأيام . عندئذ ثار غضبه .

قال جانيا بلهجة قاطعة :

— لا شك في أنه لم يوجد !

ارتج على الجنرال . وألقى على ما حوله نظرات مبهوتة . ان كلمات ابنه قد جمدته بما تشتمل عليه من صراحة قصوى . في اللحظة الأولى لم يسعفه فكره بكلمة واحدة يرد بها . وأخيراً ، بعد ان جعلت ملاحظة جانيا ايبوليت ينفجر ضاحكاً ويصيح : «هل سمعت ؟ ان ابنك نفسه يقول انه لم يوجد فى يوم من الأيام كابتن اسمه ياروبياجوف» ، دمدم الشيخ فى حيرة تامة :

— أنا تكلمت عن كابيتون ياروبياجوف ، لا عن كابتن . . . انه كابيتون . . . هو مقدم محال على التقاعد . . . ياروبياجوف . . كابيتون .

فعاد جانيا يقول خارجاً عن طوره تماماً :

— لا ، ولا وُجد أحد اسمه كابيتون ايضاً !

فتمتم الجنرال يسأل وقد أخذ وجهه يصطبغ بالحمرة :

— كيف . . . لماذا لم يوجد ؟

فتدخل بتيتسين وفاريا قائلين :

— طيب . . . هدئ نفسك .

وصرخ كوليا يقول من جديد :

— اسكت يا جانيا !

ولكن هذه التدخلات ردّت الى الجنرال ثبات جأشه ، فقذف ابنه بهذا السؤال أطلقه مهدداً :

— كيف لم يوجد ؟ ولماذا يمتنع أن يكون قد وجد ؟

— لأنه لم يوجد . هذا كل شيء ! انه لم يوجد . ذلك مستحيل كل الاستحالة . أقول لك هذا ، فلا تصر ، ولا تلح .

— ثم أعده ابنى . . ابنى الذى أ . . آه . . يا رب ! . . هو ابنى ، ويجرؤ أن يزعم أن ياروبياجوف ، أن ياروشكا ياروبياجوف لم يوجد !

قال ايبوليت :

— طيب طيب . منذ قليل كان اسمه كابيتوشكا . والآن أصبح اسمه ياروشكا !

— أنا أقصد كابيتوشكا ، يا عزيزى السيد ، لا ياروشكا ! أقصد كابيتون ، كابيتان ألكسيفتش ، أعنى

كابيتون . . . المقدم . . . المحال على التقاعد . . الذى تزوج ماريا . . . ماريا بتروفنا سو . . سو . . أقصد صديقى ورفيقى . . . تزوج سوتوجوفا . . . لقد كنا معاً فى المدرسة العسكرية . أهرقت من أجله دماً . . . حميته بجسمي . . . لكنه قُتل . كيف يجرؤ أحد أن يقول ان كابيتوشكا ياروبياجوف لم يوجد ؟

كان الجنرال يطلق هذا الكلام حانقاً أشد الحنق ، ولكن المرء يحس أن انفعاله نابع من غير المسألة المختلف فيها والمتنازع عليها . الحق أنه كان يمكن أن يتحمل افتراضاً أقسى وقعاً فى النفس من افتراض ان كابيتون ياروبياجوف لم يوجد اطلاقاً . كان يمكن أن يصرخ وأن يثير فضيحة وأن يندفع اندفاعاً قوياً ، ثم ما يلبث أن يصعد الى الطابق الأعلى لينام . أما فى هذه المرة فان الكيل قد طفح عنده — ألا ما أغرب قلب الانسان ! — طفح من مجرد أن وجود ياروبياجوف قد وُضع موضع الشك ! لقد اصطبغ وجه الشيخ بحمرة شديدة ، ورفع ذراعيه نحو السماء ، وأعول يقول هاتفاً :

— كفى ! لعنتى عليكم . . . أنا خارج من هذه الدار ! يا نيقولاى ، خذ حقيبتى . . . انى راحل !

قال ذلك وهرع يخرج بالغاً ذروة الغضب . فاندفعت وراءه نينا ألكسندروفنا وكوليا وبتيتسين .

قالت فاريا لأخيها :

— هذا الذى فعلت ؟ قد يرَجعَ الى هناك ! يا للعار ! يا للعار !

فصرخ جانيا قائلاً وهو يكاد يختنق من شدة الغيظ :

— كان عليه الاّ يسرق !

والتقت نظرته فجأة بنظرة ايبوليت ، فاجتاحه نوع من الارتعاش فجأة . وصاح يقول :

— أما أنت أيها السيد العزيز ، فلقد كان ينبغى لك أن تتذكر أنك تقيم تحت سقف غيرك على كل حال . . . وتتمتع بحسن الضيافة ، ولا ينبغى لك أن تغيظ شيخاً أصبح من الواضح أنه فقد عقله . . .

أوشك ايبوليت أن يندفع هو أيضاً ، ولكنه سرعان ما سيطر على نفسه ، فقال بهدوء :

— لا أشاركك الرأى فى اعتبار أبيك مجنوناً . حتى اننى أرى أنه الآن أعقل مما كان فى الآونة الأخيرة . ألا تصدقنى ؟ لقد أصبح أكثر ارتياباً وحذراً . انه يرصد كل ما يقال ويزن كل كلمة تصدر منه . . . وحين كلمنى عن كابيتوشكا انما كان يرمى الى هدف معين : تصور أنه كان يريد أن يحملنى على الكلام عن . . .

— عن الشيطان . . . لا يهمنى أن أعرف ما الذى كان يريد أن يحملك عليه ! وأرجوك أن لا تحاول المكر والمواربة معى ، أيها السيد !

كذلك قال جانيا بصوت صارخ . وتابع كلامه يقول :

— اذا كنت تعرف أنت أيضاً السبب الحقيقى الذى يجعل هذا الشيخ فى مثل هذه الحالة (ولقد أحسنت التجسس عندى خلال هذه الأيام الخمسة ، فلا بد أنك تعرف ذلك السبب) ، فان عليك أن تمتنع امتناعاً صارماً عن اثارة حنق هذا . . . الشقى ، وعن تعذيب أمي بتضخيم قضية ليس لها شىء من خطورة الشأن ، فما هى الا قضية

سكيرين لا أكثر . فضلاً عن أنها لم يثبت صدقها ولم يقم دليل على صحتها ، ولست أوليها أى اهتمام . . . ولكنك امرؤ لا تستطيع الا أن تفسد كل شىء ، ولا يمكنك الا أن تتجسس ، لأنك . . . لأنك . . .

— لأننى مسمار .

بهذا أكمل ايبوليت جملة جانيا وهو يضحك ساخراً .

— لأنك نذل . لقد عذّبت الناس خلال نصف ساعة ، وحاولت أن تفقدهم صوابهم متظاهراً بمحاولة الانتحار بمسدس كان خالياً . لقد مثّلت مسرحية مخجلة مخزية . يا مدّعى الانتحار . . . يا كيس حقد فوق ساقين ! لقد استضفتك فى هذا البيت ، فتحسنت صحتك : سمنت وزايلك السعال ، فانظر كيف تعترف بالجميل ، وانظر كيف . . .

— اسمح لى بكلمتين ، أرجوك . أنا هنا ضيف فارفارا آردالیونوفنا ، ولست ضيفك أنت . أنت لم تتفضل علىّ بأية ضيافة ، بل أظن أنك أنت نفسك تتمتع بضيافة السيد بتيتسين . ولقد رجوت أمى منذ اربعة أيام أن تبحث لى عن مسكن فى بافلوفسك ، وأن تجئ تقيم هى نفسها فى بافلوفسك ، لأن صحتى تتحسن هنا فعلاً ، وان لم أسمن ولا انقطع سعالى . فأعلمتني أمى مساء أمس أن المسكن قد تهيأ . لذلك أبادر فأبلغك أنا أيضاً أننى سأنتقل اليه فى هذا اليوم نفسه بعد أن أشكر أمك وأختك . لقد اتخذت قرارى هذا منذ مساء أمس . اغفر لى أننى قاطعتك . فانك ، اذا لم يخطئ ظنى ، كنت تريد أن تقول أشياء أخرى كثيرة .

قال جانيا مرتعشاً :

— اذا كان الأمر كذلك . . .

فقاطعه ايبوليت بقوله :

— اذا كان الأمر كذلك ، فاسمح لى أن أجلس .

— قال ايبوليت هذا وهو يحتل ، بهدوء ، الكرسى الذى كان يشغله الجنرال . — اننى مريض على كل حال . والآن أصبحت مستعداً لأن أصغى الى كلامك ، لا سيما وأن هذا الحديث بيننا قد يكون آخر حديث ، وقد يكون هذا اللقاء آخر لقاء .

شعر جانيا فجأة بخزى . وقال :

— صدّق أننى لن أخفض قدرى الى حيث أُجرى معك تصفية حساب ، واذا كنتَ . . .

فقاطعه ايبوليت قائلاً :

— تخطئ اذا تعاليت هذا التعالى . أنا من جهتى قد آليت على نفسى منذ اليوم الذى وصلت فيه الى هنا ، أن لا أحرم نفسى من لذة ان القى فى وجهك بكل شىء فى منتهى الصراحة متى وجب أن نفترق . وهذا أوان تنفيذ هذا المشروع ، بعد أن تنهى كلامك طبعاً .

— وأنا من جهتى أرجوك أن تخرج من هذه الغرفة .

— الأفضل أن تتكلم ، والا فقد تندم بعدئذ على أنك لم تقل كل ما كان يثقل صدرك .

قالت فاريا :

— كفى يا ايبوليت ! هذا كله مخزٍ . كُفَّ ، من فضلك !

فنهض ايبوليت ، وقال ضاحكاً :

— اذا كففت فانما أكف احتراماً لسيدة . لك ما

تشائين يا فارفارا آردالیونوفنا . فى سبيلك لا مانع عندى من اختصار هذا الحديث ، ولكن من اختصاره فحسب . ذلك أن المكاشفة بينى وبين أخيك قد أصبحت ضرورة مطلقة ، ولن أقبل بأية حال من الأحوال أن أخرج قبل ازالة سوء تفاهم .

هتف جانيا يقول :

— بل قل انك نمام ، فلا تستطيع أن تعزم أمرك على الانصراف قبل أن تقذف من فمك ما يمتلئ به من أقوال خبيثة .

قال ايبوليت ببرود :

— ها أنت ذا ترى أنك فقدت سيطرتك على نفسك . بصراحة : سوف تشعر بندامات كثيرة اذا لم تفصح عن كل ما تريد الافصاح عنه . أعود فأقول لك : اننى أتنازل لك عن دورى فى الكلام . سأنتظر .

لزم جافريلا آردليونوفتش الصمت ، ونظر باحتقار .

— لا تريد أن تتكلم ! تفضل أن تبرهن على الصلابة . لك ما تشاء . على كل حال ، سأكون من جهتى موجزاً أكبر الايجاز . لقد سمعت اليوم مرتين أو ثلاث مرات لوماً وتقريعاً على الضيافة التى قُدِّمت لى . هذا ظلم . انك حين دعوتنى الى السكنى هنا ، كانت نيتك أن تصطادنى بشباكك . كنت تفترض اننى أريد الانتقام من الأمير . وقد سمعتَ عدا ذلك أن آجلايا ايفانوفنا أظهرت مودة لى وأنها قرأت اعترافى . فخطر ببالك حينذاك أننى سأقف نفسى على تحقيق مصالحك . لعلك أملت أن تتخذنى مساعداً لك . لا أقول أكثر من هذا ! لا ولا أطلب منك

اعترافاً بصحته أو تأييداً لصدقه . يكفيني أن أعرف انني أضعك أمام ضميرك ، وأننا نتفاهم الآن تفاهماً تاماً .

هتفت فاريا تقول :

— الله وحده يعرف ماذا تصنع من أمر بسيط !

فقال جانيا :

— انك كما قلت لك : «صبي ونمام» .

— اسمحي يا فارفارا آرداليونوفنا : انني أكمل كلامي . طبعاً ، أنا لا أستطيع أن أحب الأمير ولا أن احترمه . ولكنه انسان طيب حقاً ، وان يكن . . . مضحكاً . فليس هناك اذن أي سبب يحملني على أن أكرهه ، ومع ذلك لم أُظهر لأخيك أنه كان يحرضني على الأمير . كنت أنتظر الخاتمة ليتاح لي أن أضحك . كنت أعلم أن أخاك لن يلبث أن يكشف أمامي عن حقيقة نفسه وأن يرتكب أكبر الخطأ . وذلك ما حدث . . . انني مستعد لأن أترفق به الآن ، ولكنني لا أفعل ذلك الا مراعاة لك يا فارفارا آرداليونوفنا . ومع ذلك فانني بعد أن استبان لك أن ايقاعي في الفخ ليس بالأمر السهل الى تلك الدرجة ، أريد أيضا أن أشرح لك السبب الذي يحدوني الى وضع أخيك في موضع مضحك حرج ازائي . ألا فاعلمي انني فعلت ذلك عن كره وبغض ، أعترف بذلك صادقاً . لقد قدّرت انني حين أموت (وسوف أموت على كل حال ، رغم انني سمنت كما تدعون) ، سوف أذهب الى الجنة بهدوء أعظم وطمأنينة أكبر اذا استطعت أن أضع في موضع الهزء والسخرية شخصاً واحداً على الأقل يمثل أفراد تلك الفئة الكبيرة من الناس الذين اضطهدوني طوال حياتي ، والذين كرهتهم وأبغضتهم

طوال حياتي . ان أخاك المحترم هو الصورة الواضحة لهذا النوع من الناس . انني أكرهك يا جافريلا آرداليونوفيتش ؛ وقد يدهشك أن تعرف انني لا أكرهك **الا** لأنك النموذج ، والتجسيد ، والرمز والقمة للعادية التافهة الوقحة المغرورة المبتذلة البشعة ! أنت العادية المتنفخة ، التي لا يساورها شك في شيء والتي تنعم بسكينة أولمبية . أنت الروتين ؛ أنت روتين الروتين ! لن تنبت في فكرك أو قلبك أية فكرة شخصية ولن يومض فيهما أي معنى أصيل في يوم من الأيام . ولكن حسدك لا حدود له . أنك مقتنع اقتناعاً جازماً بانك عبقري من الطراز الأول . ومع ذلك فان الشك يستولي عليك ويحاصر نفسك في لحظات الكآبة ، فتشعر عندئذ بنوبات قوية من الغضب والحسد . آه ، وان نقطاً سوداً تلوح في الأفق الذي ينبسط أمام عينيك ، نقطاً سوداً لن تغيب الا يوم تصبح غبياً غباوة كاملة ، وذلك ما ستصير اليه في مستقبل غير بعيد . على أن أمامك طريقاً طويلاً متنوعاً . لست أزعم أنه سيكون طريق فرحة . وهذا ما يسرني . وأقول لك قبل كل شيء آخر : انك لن تحظى بيد الانسانة التي تطمع فيها .

صاحت فاريا تقول :

— هذا لا يُحتمل ! هلا انتهيت أيها الحاقد الكريه ؟

وكان جانيا ملتزماً الصمت ، قد شحب وجهه وارتعش جسمه . وسكت ايبوليت ، وحدّق اليه بنظرة ثابتة ، مبتهجاً بارتباكه ، ثم نقل عينيه الى فاريا وابتسم ، ثم حيّا وخرج دون أن يضيف كلمة واحدة .

كان من حق جافريلا آردالیونوفتش أن يشكو قدره وأن يتبرم من سوء حظه . ولبثت فاريا بضع لحظات لا تجرؤ أن تخاطبه بكلمة . حتى انها لم تنظر اليه بينما كان يذرع الغرفة أمامها بخطى واسعة . وأخيراً اقترب من النافذة وأدار ظهره لأخته . خطر ببال فاريا المثل الروسى : «لكل عصا طرفان» . وسُمعت جلبة فى الطابق الأعلى من جديد .

قال جانيا لأخته فجأة حين رآها تنهض :

— أتذهبين ؟ انتظرى : انظرى فى هذا .

وتقدم نحوها ورمى على الكرسى أمامها ورقة صغيرة مطوية كما تطوى رسالة .

صاحت فاريا تقول وهى ترفع ذراعيها :

— رباه !

وكانت الرسالة مؤلفة من سبعة أسطر تماماً :

«جافريلا آردالیونوفتش ، اننى وقد اقتنعت بعواطفك الطيبة نحوى ، قررت أن أستشيرك طالبةً نصحك فى قضية تهمنى . فأتمنى أن ألقاك غداً فى الساعة السابعة تماماً عند الدكة الخضراء . ليس المكان بعيداً عن منزلنا . ان فارفارا آردالیونوفنا التى يجب أن تصحبك **حتماً** تعرفه جيداً .

آ . ا .»

قالت فارفارا آردالیونوفنا وهى تعبر عن دهشتها بمباعدة يديها :

— فافهمها بعد هذا !

ورغم رغبة جانيا الشديدة فى التظاهر باللامبالاة فى هذه اللحظة فانه لم يستطع أن يخفى شعوره بالظفر ، ولا سيما بعد التنبؤات القاتلة التى قالها ايبوليت . وها هى ذى ابتسامة صادقة تعبر عن رضى الغرور تضىء وجهه . وكانت فاريا نفسها مشرقة المحيّا من الفرح .

— ويحدث هذا فى اليوم الذى يعلنون فيه خطبتها عندهم ! فحاول أن تفهمها بعد ذلك !

سألها جانيا :

— فى رأيك ، عمّ تريد أن تكلمنى غداً ؟

— ليس هذا بالأمر الهام . فانما الأمر الهام أنها لأول مرة منذ ستة أشهر تعرب عن رغبة فى أن تراك . اسمع يا جانيا : أياً كان الأمر ، وكيفما تمت هذه المقابلة ، فيجب عليك أن تتذكر أن هذا شىء **هام** ، هام الى أبعد الحدود ! فلا تتظاهر هذه المرة . لا تقترف خطيئة من جديد ، ولكن لا تجبن أيضاً . هل يمكن أن لا تكون قد أدركت الهدف الذى سعيت أنا اليه بالتردد اليهم خلال هذه الأشهر الستة ؟ تصور أنها لم تقل لى اليوم كلمة واحدة ، لم تظهر شيئاً البتة . كنت قد دخلت اليهم خلسة . كانت العجوز لا تعلم بوجودى . ولو لا ذلك لكان يمكن أن تطردنى . من أجلك انما جازفت . كنت أريد أن أعرف بأى ثمن . . .

تعالى الصياح والضجيج فى الطابق الأعلى من جديد . وهؤلاء عدة أشخاص يهبطون السلم .

هتفت فاريا تقول مرتاعة متقطعة الأنفاس :

— لا يجوز أن نسمح الآن بهذا مهما يكن من أمر !

يجب أن لا تحدث أية فضيحة ! امض اليه ، واطلب منه الصفح !

لكن رب الأسرة كان قد بلغ الشارع . وكان كوليا يسير وراءه حاملاً له حقيبة . وكانت نينا ألكسندروفنا واقفة على درجات سلّم الباب تبكى ، انها تود لو تركض وراء زوجها ، لكن بتيتسين ممسك بها يمنعها من ذلك ، قائلاً لها :

— انك تزيدين اهتياجه . وليس له مكان يذهب اليه . فسيعيدونه بعد نصف ساعة . لقد تحدثت فى هذا مع كوليا . دعيه يفعل ما تشاء له نزواته .

صرخ جانيا يقول له من النافذة :

— ما هذه الحذلقات ؟ الى أين عساك تذهب ؟ انك لا تدرى حتى الى أين تمضى !

وصاحت فاريا تقول :

— ارجع يا أبت ! ان الجيران يسمعون .

توقف الجنرال ، والتفت الى وراء ، وبسط يده وقال بتأثر :

— ألا فلتنصبَّ لعنتى على هذا المنزل !

فجمجم جانيا قائلاً وهو يغلق النافذة بقرقعة :

— لا بد له من لهجة مسرحية ! . .

وكان الجيران يرقبون ما يجرى فعلاً . وخرجت فاريا من الغرفة مسرعة .

فلما انصرفت فاريا تناول جانيا الرسالة من على المائدة ، وحملها الى شفتيه ، وتلمظ ، وهمَّ أن يثب عن الأرض كمن يرقص .

كان يمكن أن لا يكون للفضيحة التى أثارها الجنرال أية نتيجة فى وقت غير هذا الوقت . ولقد سبق أن كان بطل حوادث شاذة مفاجئة من هذا النوع ، ولو فى أحوال نادرة ، ذلك أنه فى الواقع انسان مسالم موادع جداً ، يغلب على ميوله أنها طيبة . ولعله حاول مائة مرة أن يكافح عادات التحلل التى اعتادها خلال السنين الأخيرة . كان يتذكر على حين فجأة أنه «رب أسرة» ، فيصالح امرأته ويذرف دموعاً صادقة . انه يحمل لزوجته نينا ألكسندروفنا احتراماً يبلغ حد العبادة ، لأنها تغفر له أشياء كثيرة دون أن تقول كلمة واحدة ، وتظل تحنو عليه رغم الانحلال الذى سقط فيه ، ورغم ما صار اليه من حال تبعث على السخرية والضحك . غير أن ذلك الكفاح السمح الذى كان يخوض غماره ضد اضطراب حياته كان لا يدوم مدة طويلة . انه هو أيضاً ، فى نوعه ، أشد اندفاعاً من أن يستطيع احتمال حياة التوبة والفراغ التى يحياها فى أسرته ، فكان ما يلبث أن يتمرد . وكانت تنتابه فى تلك الأحيان نوبات حماسة لعله يلوم نفسه عليها فى نفس اللحظة التي ينقاد فيها لها ، ولكنه لا يملك القوة اللازمة للتغلب عليها . كان فى تلك الأحوال يسعى الى مشاجرة ذويه ، ويأخذ يفيض فى الكلام والخطابة البليغة ، ويطالب بأن يُحترم احتراماً يتجاوز الحدود ولا يمكن تخيله ، ثم يختفى آخر الأمر ، حتى ليبقى غائباً عن البيت في بعض الأحيان زمناً طويلاً . وقد أصبح منذ سنتين لا يطلع على ما يجرى فى بيت أسرته الا عن طريق

السماع لا العيان . لقد انقطع عن الدخول فى هذه التفاصيل التى أصبح لا يوليها أى اهتمام .

ولكن «فضيحة الجنرال» اكتست فى هذه المرة شكلاً غير معهود . كأن حادثاً قد وقع ، فالجميع على علم به ولكن ما من واحد يجرؤ أن يتكلم عنه . ان الجنرال لم يرجع الى الأسرة «رسمياً» الا منذ ثلاثة أيام ، أعنى لم يرجع الى نينا ألكسندروفنا . ولكنه بدلاً من أن يظهر المذلة والندامة كما كان يفعل فى «رجعاته» السابقة ، فقد ظهرت عليه فى هذه المرة علامات اهتياج خارق . كان كثير الكلام مضطرباً ، يتجه الى كل قادم بخطب ملتهبة ، حتى كان يهجم على محدثيه هجوماً ، ولكنه يتحدث فى مسائل تبلغ من التنوع ومن الغرابة التى لا يتوقعها المرء أنه كان يستحيل على السامع أن يكتشف الموضوع الحقيقى الذى هو مصدر اضطرابه . واذا استثنينا لحظات من فرح ومرح ، فقد كان فى أكثر الأوقات شارد اللب حتى ليجهل هو نفسه ما الذى يستغرق فكره . كان يأخذ مثلاً فى سرد حكاية عن أسرة ايبانتشين ، وعن الأمير ، وعن ليبيديف ، ثم اذا هو يقطع حديثه فجأة ، ويتوقف عن الكلام توقفاً تاماً . ويردّ بابتسامة بلهاء على أولئك الذين يسألونه عن تتمة القصة ، دون أن يلاحظ أن أحداً يلقى عليه سؤالاً ، أما هو فيكتفى بابتسامة فقط . لقد قضى الليلة الأخيرة في تنهد وأنين ، وأرهق نينا ألكسندروفنا ارهاقاً شديداً ، فكانت لا تنى تسخن له لصقاته ؛ حتى اذا طلع الصباح غفا على حين فجأة ، ولكن استيقاظه من النوم بعد أربع ساعات قد أعقبته تلك النوبة الشديدة المضطربة من الوسواس التى

أدت الى تشاجره مع ايبوليت ، وصبّه «اللعنة على ذلك المنزل» . وقد لوحظ أيضاً أنه خلال تلك الأيام الثلاثة هوى الى حالة متصلة من الغرور وفى نتيجتها الى التأذى الشديد . وقد أكد كوليا لأمه ملحاً أن هذا المزاج الحزين الذى يعانى منه أبوه انما يرجع الى حرمانه من الشراب ، وربما الى غياب ليبيديف الذى كان الجنرال قد ارتبط به ارتباطاً حميماً فى الآونة الأخيرة . فقد حدث بين الرجلين منذ ثلاثة أيام شقاق لم يكن متوقعاً ، شقاق ألقى الجنرال الى غضب شديد . حتى أن نوعاً من شجار وقع بينه وبين الأمير . وقد توسل كوليا الى الأمير أن يشرح له سبب ما وقع ، فأدرك أخيراً أن الأمير هو أيضاً يكتم عنه أمراً من الأمور . ولو صحّ أن ما افترضه جانيا من أن حديثاً خاصاً قد جرى بين ايبوليت ونينا ألكسندروفنا ، فمن الغريب عندئذ أن يكون هذا الشخص الشرير الذى نعته جانيا صراحة بأنه نمام ، لم يمتعْ نفسه بلذة اطلاع كوليا على نفس الغرار . من الجائز جداً أن لا يكون ايبوليت ذلك الصبى السيئ الذى صوّره جانيا فى حديثه الى أخته ، وان يكون الشر الذى فى نفسه شراً من نوع آخر . ومن جهة أخرى ، اذا كان ايبوليت قد أطلع نينا ألكسندروفنا على شىء ، فلعله لم يفعل ذلك منتوياً «تمزيق قلبها» فحسب . يجب أن لا ننسى أن دوافع أعمال الانسان هى فى العادة أشد تعقداً وأكثر تنوعاً مما نتصور حين نريد تعليلها . انه لمن النادر أن نستطيع الاحاطة بها احاطة دقيقة . وأفضل ما يفعله القصاص فى بعض الأحيان أن يقتصر على عرض الأحداث . وذلك ما سنفعله فى ايضاحاتنا المقبلة عن

النازلة التى ألمت بالجنرال ، لأننا نجد أنفسنا الآن مضطرين اضطراراً مطلقاً الى أن نولى هذه الشخصية الثانوية من الاهتمام والمكان أكثر مما كنا نفترض أن نوليها حتى الآن .

لقد تعاقبت الأحداث متسلسلة على النظام التالى :

ان ليبيديف ، بعد ذهابه الى بطرسبرج سعياً وراء العثور على فرديشنكو ، قد رجع الى بافلوفسك مع الجنرال فى ذلك اليوم نفسه ولم يطلع الأمير على أى شىء خاص . فلولا أن الأمير كان ذاهلاً هو أيضاً فى ذلك الوقت ، وكان غارقاً فى مشاغل تهمه أكبر الاهتمام ، للاحظ أن ليبيديف ، فضلاً عن أنه لم يزوده بأى ايضاح خلال اليومين اللذين أعقبا عودته ، كان يتحاشى أيضاً لقاءه . فلما لاحظ الأمير ذلك أخيراً ، تذكر على دهشة منه ، أنه رأى ليبيديف ، خلال هذين اليومين ، حين كان يلقاه عرضاً ، رآه مشرقَ المزاج ، وأنه فى صحبة الجنرال دائماً . كان الصديقان لا يفترقان أبداً . وكان الأمير يسمع فى بعض الأحيان أحاديث صاخبة حامية تدور فوق غرفته ، ويسمع مناقشات مرحة تقطعها انفجارات ضحك . حتى انه فى ذات مرة ، فى ساعة متأخرة جداً من السهرة ، وصلت الى مسمعه أصداء أغنية غير متوقعة ، من الأغانى التى يغنيها الجنود حين يشربون الخمر ؛ فتعرف صوت الجنرال الخفيض المبحوح ، ولكن الأغنية انقطعت فجأة وأعقبها صمت . ثم قامت مناقشة حامية ، مخمورة حسب كل الدلائل ، واستمرت خلال قرابة ساعة . وكان لا يعجز السامع عن أن يحزر أن الصديقين اللذين يسمران فوق قد تعانقا بعد قليل ، وأن أحدهما أخذ يبكى آخر الأمر . ثم لم تلبث

أن نشبت مشاجرة عنيفة على حين فجأة ، هدأت بعد برهة وجيزة أيضاً . فى أثناء تلك الآونة كلها ، كان كوليا فى حالة هم شديد . وكان الأمير لا يكاد يمكث فى البيت لحظة أثناء النهار ، وكان فى بعض الأحيان لا يعود الا فى ساعة متأخرة جداً من الليل . فكان يقال له دائماً ان كوليا ظل يسعى اليه ويسأل عنه طوال اليوم . ولكن الفتى كان اذا لقى الأمير لا يبدو عليه أن لديه شيئاً خاصاً يريد أن يفضى به اليه ، اللهم الا أن يقول له انه «مستاء» من الجنرال ومن سلوكه الحالى أشد الاستياء ، «فانهما لا ينفكان يمشيان فى الطريق ، ويسكران فى حانة قريبة ، ويتشاتمان فى وسط الشارع ، ويهيج كل منهما صاحبه ، ولا يستطيعان أن يفترقا» . فلما قال له الأمير ان ذلك ليس الا تكراراً لما كان يجرى قبل ذلك كل يوم تقريباً ، لم يعرف كوليا بماذا يجيب ، وعجز أخيراً عن تحديد موضوع قلقه الراهن .

وفى غداة الليلة التى سمع فيها الأمير الأغنية المخمورة والمشاجرة ، كان الأمير يتهيأ للخروج فى نحو الساعة الحادية عشرة ، فاذا بالجنرال يظهر أمامه بغتة ، وهو فى حالة انفعال شديد يكاد يبلغ الذهول .

— اننى منذ مدة طويلة اترقب فرصة الحصول على شرف لقائك يا ليف نيقولايفتش المبجَّل . نعم ، منذ مدة طويلة ، طويلة جداً .

بهذا جمجم الجنرال وهو يضغط على يد الأمير ضغطاً يوشك أن يكون موجعاً . فدعاه الأمير أن يجلس .

— لا ، لن أجلس ، ثم اننى لا أريد أن امنعك

من الخروج ، سأجئ فى مرة أخرى . أظن اننى أستطيع أن أهنئك . . . بتحقق . . . أمنيات قلبك .

— أية أمنيات قلبى ؟

اضطرب الأمير . لقد كان يبدو له ، كما يحدث هذا لأكثر الذين يكونون فى مثل حالته ، أن أحدا لا يرى ولا يحزر ولا يفهم شيئاً .

— اطمئن بالاً ! لا أحب أن أضايقك فى أرهف عواطفك . لقد مررت أنا بمثل هذه الحالة ، وأعرف أنه ما ينبغى لغريب أن يدس أنفه . . . ان صح التعبير . . على حد قول المثل . . . حيث لا يجب أن يدسه . هذه حقيقة أعانيها كل صباح . وانما أنا جئت اليك لشأن آخر ، شأن هام ، هام جداً يا أمير .

رجاه الأمير مرة أخرى أن يجلس ، وجلس هو نفسه .

— لا بأس . لحظة قصيرة . . . لقد جئت أسألك نصيحة . لا شك فى أن حياتى تنقصها أهداف عملية ، ولكننى ، احتراماً منى لنفسى ، وبوجه عام . . . اهتماماً منى بتلك الروح العملية التى يهملها الروسى اهمالاً شديداً . . أود أن أهيء لنفسى ، ولزوجتى ، ولأولادى . . . وضعاً يمكننا . . . الخلاصة : جئت ألتمس منك نصحاً يا أمير .

فهنأه الأمير تهنئة حارة على هذه النية .

وأسرع الجنرال يقاطع الأمير قائلاً :

— غير أن هذا كله لا قيمة له . وانما أنا جئت لأمر أخطر شأناً . لقد قررت أن أوضح لك يا ليف نيقولايفتش ، كما أوضح لانسان تبلغ ثقتى بصدقه وكرمه أن . . . أن . . . ألا تدهشك أقوالى يا أمير ؟

لئن لم يكن الأمير مدهوشاً دهشة كبيرة ، فلقد كان يلاحظ ضيفه مع ذلك بكثير من الانتباه والاستطلاع . كان الشيخ شاحباً بعض الشحوب ، وكانت تلمّ بشفتيه رعشة خفيفة فى بعض اللحظات ، وكانت يداه لا تجدان لهما مكانا تستقران فيه . لقد جلس منذ بضع دقائق ، ولكنه نهض أثناء ذلك فجأة مرتين ، ثم أسرع يجلس ثانيةً ، دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ مناوراته . وكان على المائدة كتب ، فتناول واحداً منها أثناء كلامه ، وفتحه ، و ألقى نظرة عليه ، ثم عاد يطويه فوراً ويرده الى مكانه . ثم تناول كتاباً آخر لم يفتحه لكنه ظل قابضاً عليه بيده اليمنى طول الوقت ، يهزه بغير انقطاع .

وهتف فجأة يقول :

— حسبى هذا ! أرى أننى أزعجتك كثيراً .

— لا ، أبداً ، لم تزعجنى . . . أرجوك . . . بالعكس : اننى أصغى اليك باهتمام ، وأحاول أن أدرك . . .

— يا أمير ، أريد أن يكون لى مركز يفرض الاحترام . . . أريد أن أحصل على احترام نفسى . . . وحقوقى . . .

— ان من يرغب هذه الرغبة لهو جدير لذلك وحده بكل احترام .

نطق الأمير بهذه الجملة الشائعة معتقداً اعتقاداً جازماً بأنها ستحدث فى نفس الجنرال أثراً حسناً . كان يحس ، بغريزته ، أن جملة من هذا النوع ، جوفاء سارة فى آن واحد ، تستطيع اذا هى قيلت فى الوقت المناسب ، أن تدخل الهدوء والطمأنينة الى نفس انسان مثل الجنرال ، ولا سيما فى الحالة التى هو عليها . ومهما يكن من أمر ،

فما كان يجوز استئذان زائر كهذا الزائر بالانصراف الا بعد التخفيف عنه . تلك هى المسألة .

أعجب الجنرال بالجملة كثيراً ، فقد ارضت غروره واثرّت فيه واهترت فجأة عاطفته ، و غيّر لهجته فى الحال وانطلق يقدم شروحاً طويلة مستفيضة تشتعل حماسة . لكن الأمير لم يفهم من كلامه شيئاً رغم ما بذل من جهود الاصغاء التام . لقد تكلم الجنرال قرابة عشر دقائق ،، بتدفق سريع وتعجل عظيم ، كما يفعل انسان لا يتسع وقته لأن يعبّر عن الخواطر التى تزدحم فى رأسه ، حتى لقد أخذت تترقرق فى عينيه دموع آخر الأمر . ولكن جميع العبارات التى نطق بها كانت لا رأس لها ولا ذنب ، كانت أقوالاً عجيبة غير متوقعة ، وخواطر متناثرة مفككة تتصادم وتتضارب فى حديثه المضطرب المشوش .

وختم الجنرال كلامه فجأة بقوله وهو ينهض :

— هذا يكفى ! لقد فهمت عنى فأنا الآن أشعر براحة . ان قلباً كقلبك لا يمكن الا أن يفهم انساناً يتألم . يا أمير ، انك تملك نبل المثل الأعلى ! ما الآخرون اذا قيسوا بك ؟ ولكنك شاب ، فهأنا ذا أهب لك بركتى . الخلاصة اننى جئت اليك ألتمس أن تحدد لى ساعة لحديث هام : فعلى هذا الحديث انما أعقد الأمل وأعلق الرجاء . انى لا أنشد الا صداقة وقلباً يا أمير . أنا لم أستطع أن أسيطر على مطالب قلبى فى يوم من الأيام .

— ولكن لماذا لا نجرى الحديث الآن ؟ اننى مستعد لأن أصغى اليك . . .

فقاطعه الجنرال بحرارة :

— لا يا أمير ، لا ! ليس الآن ! أنا الآن في حلم ! ان القضية خطيرة الشأن للغاية ! ان الساعة التى سنجرى فيها ذلك الحديث ستقرر مصيرى . ان تلك الساعة ستكون ساعتى أنا ، ولا أحب فى لحظة مقدسة كتلك اللحظة ، أن يقطع علينا حديثنا أول قادم ، أول قادم .

— وهنا مال الجنرال على الأمير فهمس فى أذنه يقول بلهجة السر وبما يشبه الرعب : — وليس نادراً ان يكون وقحاً لا يساوى نعل . . . نعل قدمك . . . يا حبيبى الأمير ! لست أقول قدمى أنا . لاحظ جيدا اننى لم أذكر قدمى أنا ، لأننى أشد احتراماً لنفسى من أن أتحدث عن قدمى أنا بغير لف ودوران ، ولكنك وحدك قادر على أن تفهم أننى اذ امتنع فى مثل هذه الحالة عن ذكر نعل قدمى ربما كنت أبرهن على عزة شديدة وكبرياء عظيمة . ما من أحد غيرك يستطيع أن يفهم هذا ؛ وهو أعجز من غيره على فهم ذلك . هو لا يفهم شيئاً يا أمير . انه عاجز عن الفهم عجزاً مطلقاً ! لا بد للمرء من قلب حتى يمكن أن يفهم !

شعر الأمير أخيراً بضيق يشبه أن يكون خوفاً . فضرب للجنرال موعداً هو مثل هذه الساعة من الغد . وخرج الجنرال قوياً منتعشاً قد سُرّى عنه وكاد يهدأ بالاً . وفى المساء ، بين الساعة السادسة والساعة السابعة ، أرسل الأمير يرجو ليبيديف أن يجيء اليه لحظة .

فهرع ليبيديف الى الأمير مسرعاً أشد الاسراع ، وقال وهو يدخل «انه لشرف عظيم» له أن يلبى طلب الأمير

وأن يمثل بين يديه . كان كمن أصبح لا يتذكر أنه اختبأ عن الأمير خلال ثلاثة أيام ، وأنه تحاشى لقاءه عامداً .

جلس ليبيديف على حافة كرسى وهو يتكلف التبسم ، ويصطنع وجهه حركات تودد ، وتفتعل عيناه المتفرستان تعبيراً عن الضحك ، ويفرك يديه ، ويظهر بمظهر انسان ساذج كل السذاجة يتهيأ لأن يسمع نبأً هاماً انتظره زمناً طويلاً ، وأحس به جميع الناس منذ مدة . انزعج الأمير من جديد . لقد أصبح واضحاً له أن جميع من حوله قد أخذوا يأملون منه شيئاً على حين فجأة ، أصبحوا ينظرون اليه على نية أن يزجوا اليه التهنئة بحادث عليه مدار تلك التلميحات والابتسامات والغمزات . لقد مرّ به كيللر ثلاث مرات ، هو أيضاً متعجلاً ، راغباً رغبة واضحة فى أن يزجى اليه التهنئة ، فكان فى كل مرة يندفع مسترسلاً فى كلام متحمس غامض ثم يقطع حديثه فجأة وينصرف قبل أن ينهيه . (لقد أصبح كيللر فى الأيام الأخيرة يفرط فى الشراب ويحدث ضجيجا ويثير جلبة شديدة فى قاعة من قاعات البلياردو) . وكوليا نفسه ، رغم حزنه ، قد اندفع ، مرتين او ثلاث مرات ، يلمح فى حديثه مع الأمير بصورة غامضة .

اتجه الأمير الى ليبيديف يسأله بلهجة قاطعة وبشيء من الانزعاج عن رأيه فى الحالة التى آل اليها الجنرال ، وفى مصدر القلق الذى يعاني منه الآن . ووصف له بكلمات مقتضبة المشهد الذى جرى بينه وبين الجنرال . فأجاب ليبيديف يقول بلهجة جافة :

— لكل امرئ همومه يا أمير . ولا سيما . . . فى

عصر عجيب معذَّب كهذا العصر الذى نعيش فيه . هذه هى المسألة .

قال ليبيديف ذلك ثم صمت كما يصمت رجل أسيء اليه وخاب ظنه فيما كان ينتظره خيبة قاسية .

قال الأمير مبتسماً :

— يا لها من فلسفة !

— الفلسفة قد تكون لازمة ، قد تكون لازمة جداً لعصرنا هذا من الناحية العملية ، ولكن الناس يهملونها . هذا واقع . أما أنا ، أيها الأمير المبجل ، فقد أوليتنى ثقتك في حالة تعرفها ، ولكنك قصرت هذه الثقة على حد معين ، وقصرتها على الوقائع الملحقة بهذه الحالة . . . اننى أفهم هذا ولا اشتكي منه البتة .

— ولكأن هناك شيئاً قد أغضبك يا ليبيديف ، هه ؟

فهتف ليبيديف يقول بحماسة وهو يضع يده على قلبه :

— لا ، أبداً يا عزيزى الأمير المبجل ، يا صاحب البهاء ! أبداً ! بالعكس : لقد أدركت فوراً أننى كنت لا استحق أن تشرفنى بثقتك السامية التي كنت أتطلع اليها ، كنت لا أستحقها لا بحكم وضعى فى المجتمع ، ولا بحكم ذكائى وأخلاقى ، ولا بحكم ثرائى ، ولا بحكم ماضيّ ، ولا بحكم معارفى . واذا أمكننى أن أخدمك فانما أنا أخدمك كما يخدم عبد أو أجير ، لا أكثر من ذلك . . . أنا لست زعلان ، بل حزين .

— دعك من هذا يا لوكيان تيموفيفتش !

— لا أكثر من ذلك ! وهذا هو شأنى الآن ، فى الحالة الراهنة . لقد كنت أقول لنفسى حين ألقاك ، وحين

أتبعك بقلبى وفكرى : أنا لا أستحق أن يفضى الىّ بما يفضى به صديق الى صديقه ، ولكننى ، بصفتى صاحب الدار ، قد أتلقى منه ، فى اللحظة المناسبة ، فى تاريخ محدّد ان صحّ التعبير ، أمراً من الأوامر ، أو قد أتلقى منه على الأقل اشارة من الاشارات بشأن بعض التبديلات الوشيكة المتوقعة .

كان ليبيديف ، وهو ينطق بهذه الكلمات ، ما ينفك يحدق بعينيه الصغيرتين الثاقبتين ، الى الأمير الذى كان يتأمله مدهوشاً . لم يكن قد فقد أمله فى اشباع فضوله .

هتف الأمير يقول بلهجة توشك أن تكون غضباً :

— لا أفهم شيئاً البتة ، وانك . . . ما أفظعك من دساس !

انفجر الأمير ضحكاً صريحاً على حين فجأة .

فأسرع ليبيديف يشاركه الضحك . وكان واضحاً من نظرته المشرقة أن آماله قد قويت بل وازدادت .

— هل تعلم ماذا سأقول لك يا لوكيان تيموفيفتش ؟ لا تزعل : اننى مدهوش من سذاجتك وسذاجة أشخاص آخرين أيضاً ! ان ما تظهرونه من سذاجة فى توقع أن أكشف لكم عن أمر من الأمور ، فى هذه اللحظة ، فى هذه الدقيقة ، يبلغ من الشدة ما يجعلني أشعر بحرج وخجل حين ألاحظ أن ليس هنالك شيء أبلغكم اياه فأرضيكم . حقاً ، أحلف لك أن ليس ثمة أى أمر أفضى به اليك . لعلك حتى لا تتصور هذا !

وعاد الأمير يضحك .

واصطنع ليبيديف هيئة الجد والرصانة . صحيح أن

فضوله يتصف أحياناً بفرط السذاجة وقلة التكتم ، ولكن هذا لا ينفى انه كان رجلاً ماكراً يحسن اللف والدوران ، حتى انه قادر فى بعض الأحيان على أن يلتزم صمتاً يبلغ غاية المكر . وقد حمله الأمير بردوده المستمرة على أن يعتبره أشبه بعدو . ولكن لئن كان الأمير يرده ، فانه لم يكن يفعل ذلك احتقاراً له ، بل لأن فضول ليبيديف ينصب على موضوع دقيق . لقد كان الأمير ، قبل بضعة أيام ، ينظر الى بعض أحلامه نظرته الى جريمة ، بينما كان لوكيان تيموفييتش لا يرى فى رفضه الا دليلاً على كره له وشك فيه ، فكان ينصرف مقروح القلب حاقداً ، وكان يحسد كوليا وكيللر بل ويحسد أيضاً ابنته نفسها ، فيرا لوكيانوفنا . ولعله كان فى هذه اللحظة بالذات يرغب رغبة صادقة فى أن ينقل الى الأمير نبأً لعله يحظى من الأمير بأكبر الاهتمام ، لكنه لزم صمتاً عابساً ولم يفصح عنه .

وقال أخيراً بعد صمت :

— فى أى شيء يمكن أن أخدمك أيها الأمير المعظم ، ما دمت أنت الذى . . . استدعيتنى ؟

ظل الأمير شارد الذهن برهة من الزمن هو أيضاً . ثم قال :

— كنت أريد أن أتكلم عن الجنرال ، وعن . . . تلك السرقة التى كلمتنى فيها . . .

— أية سرقة ؟

— عجيب أمرك . لكأنك أصبحت الآن لا تفهم ! حقا انك لانسان غريب يا لوكيان تيموفيفتش ! ما هذا التمثيل الذى تعمد اليه دائماً ؟ اننى أقصد المال ، المال ،

الأربعمائة روبل التى فقدتها منذ أيام والتى كانت فى المحفظة ، وجئت تحدثنى عنها هنا فى الصباح ، قبل أن تذهب الى بطرسبرج . هل فهمت عنى أخيراً ؟

فقال ليبيديف عندئذ بصوت بطىء كأنه لم يدرك ما يُسأل عنه الا فى هذه اللحظة :

— آ . . . تقصد تلك الاربعمائة روبل ! أشكرك ، يا أمير ، على اهتمامك الصادق هذا بى . ان هذا الاهتمام يشرفنى ، ولكننى . . . وجدت المبلغ منذ مدة طويلة .

— وجدته ؟ آ . . . الحمد لله !

— ان حمدك هذا يصدر عن قلب نبيل ، لأن الأربعمائة روبل ليست أمراً هيناً بالنسبة الى انسان شقى لقى عناء كبيراً فى جنى رزقه ورزق أيتامه . . .

قال الأمير مصححاً :

— ما عن هذا أكلمك ! يسرنى طبعاً أن تكون قد وجدت مالك ، ولكن . . . ولكن كيف وجدته ؟

— على أيسر نحو : وجدته تحت الكرسى الذى كانت سترتى معلقة عليه . فلا شك أن المحفظة انزلقت من الجيب وسقطت هنالك .

— تحت الكرسى ؟ مستحيل . . لقد قلتَ لى انك بحثت عن المحفظة فى كل مكان . فكيف لم ترها فى اكثر الأماكن احتمالاً ؟

— لقد نظرت فى ذلك الموضع فعلاً ! أتذكر أننى أمعنت النظر ! جثوت حتى صرت أمشى على أربع ، ثم لم أتكل على عينى وحدهما بل أزحت الكرسى وتلمست المكان بيدىّ . فلم أجد الا فراغاً كراحة يدى ، وظللت مع

ذلك أتلمس . ان هذه الترددات تستولى دائماً على فكر من يبحث عن شىء ويصر أن يعثر عليه . . . حين يكون الشىء المفقود هاماً أو حين يكون فقده مدعاة حزن له : فهو يرى أن ليس ثمة شىء فى المكان الذى يبحث فيه عن الشىء ، ومع ذلك ينظر فى المكان نفسه خمس عشرة مرة .

دمدم الأمير يقول متحيراً :

— طيب . . . ولكن كيف أمكن أن يحدث هذا ؟ . . ما زلت لا أفهم ، لقد قلتَ فى البداية ان المال لم يكن هناك ، ثم اذا أنت تجده هناك فى ذلك المكان نفسه فجأة ؟ !

— نعم ، وجدته هناك فجأة !

حدّق الأمير الى ليبيديف بنظرة غريبة ، ثم سأله على حين بغتة :

— والجنرال ؟

فأجاب ليبيديف وهو يصطنع من جديد هيئة من لا يفهم :

— الجنرال ؟ ماذا ؟

— غريب أمرك . اننى أسألك ماذا قال الجنرال حين عثرت على محفظتك تحت الكرسى ؟ ألم تقوما بالبحث فى أول الأمر معاً ؟

— نعم ، فى أول الأمر بحثنا معاً . ولكننى فى هذه المرة لم أقل له شيئاً ، أعترف لك بذلك . آثرت أن يبقى جاهلاً بأننى عثرت على محفظتى وحدى .

— ولكن . . . لمَ هذا ؟ . . وهل كان المال تاماً لم ينقص منه شىء ؟

— عددت ما كان فى المحفظة فلم افتقد شيئاً لم ينقص من المال روبل واحد .

قال الأمير مستغرق الفكر :

— كان فى وسعك أن تخبرنى بهذا على الأقل .

— خشيت أن أزعجك يا أمير ، فان لك من مشاغلك الشخصية ما قد يكون خارقاً اذا جاز لى أن أقول هذا . ثم لقد تظاهرت أنا نفسى بأننى لم أعثر على شىء ؛ فبعد أن فتحت المحفظة وعددت المال الذى كان فيها فتحققت من تمامه ، طويتها ثانيةً وأرجعتها الى مكانها تحت الكرسى .

— لماذا ؟

قال ليبيديف وهو يضحك ضحكاً ساخراً على حين فجأة ويفرك يديه سروراً :

— هى فكرة ساورتنى . كان يشوقنى أن أرى ما قد يحدث بعد ذلك .

— فهل المحفظة ما تزال تحت الكرسى منذ أول أمس ؟

— لا . لم تبق تحت الكرسى الا أربعاً وعشرين ساعة . كانت رغبتى هى أن يعثر عليها الجنرال هو أيضاً . قلت لنفسى : ما دمت قد انتهيت الى العثور عليها ، فلا يمكن الا أن يلاحظ الجنرال ، هو أيضاً ، شيئاً ظاهراً للعيان الى هذا الحد ، شيئاً يثب الى البصر من تحت الكرسى وثباً ان صح التعبير . وقد نقلت الكرسى وغيرت موضعه مراراً بحيث يصبح المرء مضطراً الى رؤية المحفظة اضطراراً ، ولكن الجنرال لم يبصر شيئاً . دام ذلك أربعاً وعشرين ساعة . لا بد أنه فى هذه الآونة ذاهل شديد

الذهول . أمر لا يمكن فهمه : انه يتكلم ، ويروى قصصاً ، ويضحك ، ويقهقه قهقهة شديدة فى بعض الأحيان ، ثم اذا هو ينتابه غضب عنيف منى على حين فجأة ، لا أدرى لماذا ! خرجنا أخيراً من الغرفة ، ولكننى تعمدت أن أترك الباب مفتوحاً . فرأيت الجنرال يتردد لحظة وكأنه يريد أن يقول لى شيئاً . فأغلب الظن أنه قد روّعه أن تُترك هنالك محفظة فيها مبلغ ضخم كذلك المبلغ . ولكنه بدلاً من أن يشير الى هذا ، غضب على حين فجأة ، ولم يقل شيئاً . فما ان صرنا في الشارع وقطعنا بضع خطوات حتى تركنى ومضى فى اتجاه آخر . ثم لم نلتق بعد ذلك الا مساء فى الحانة .

— ولكن هل سحبت المحفظة من تحت الكرسى أخيراً ؟

— لا ، أبداً . وانما هى اختفت من ذلك المكان فى الليل .

— وأين هى الآن ؟

— هى ذى . . . لقد وجدتها هنا فجأة ، فى حافة سترتى ، انظر . . . تفضّل جُسها .

قال ليبيديف ضاحكاً فجأة وهو ينهض قائماً وينظر الى الأمير متوددا .

كانت الحافة اليسرى من السترة منتفخة من الأمام انتفاخاً يلفت النظر حقاً . فاذا جسّ المرء ذلك الموضع أدرك فوراً وجود محفظة من الجلد انزلقت تحت البطانة من ثقب فى الجيب .

— لقد أخرجتها لأدقق النظر فيها ، فرأيت المال كاملاً ، فعدت أدسها فى موضعها نفسه ؛ وهكذا ترانى أحملها

فى حافة السترة منذ صباح أمس . حتى انها تلطم ساقىَّ .

— وتتظاهر بأنك لم تلاحظ ذلك ؟

— أنا لا ألاحظ شيئاً ، هىء هىء ! واعلم ، أيها الأمير المبجَّل ، اعلم . . . رغم أن هذا الموضوع لا يستحق أن يلفت انتباهك ، اعلم أن جيوبى تكون فى حالة حسنة دائماً . فما هى الا ليلة واحدة حتى كان احدها مثقوباً ! لقد أنعمت النظر فى الثقب متعمداً ، فرأيت أنه يشبه أن يكون خرقاً أحدث بسكين . أمر لا يصدقه العقل ، أليس كذلك ؟

— و . . . الجنرال ؟

— ظل غاضباً طول النهار ، أمس واليوم . انه مستاء جداً . على أن نشوة الخمرة تجعله شديد المراعاة والمجاملة أحياناً ، ثم اذا هو يصبح رقيق العاطفة حتى لتسيل دموعه ، ثم اذا هو يثور على حين فجأة ثورة عارمة تبث الرعب فى قلبى ، والحق يقال ! ذلك اننى ، يا أمير ، لست رجل قتال وحرب . وأمس ، بينما كنا معاً فى الحانة ، وقعت حافة سترتى تحت بصره بما يشبه المصادفة ، وكانت ترسم حدبةً ظاهرة كل الظهور ، فرمقها الجنرال بطرف عينه ، واجتاحه الغضب . لقد أصبح منذ مدة طويلة لا ينظر الىّ وجهاً لوجه ، الا حين يكون فى نشوة سكر أو يقظة عاطفة . ولكنه نظر الىَّ أمس مرتين فكان فى عينيه من الشرر ما أجرى فى ظهرى رعدة . على كل حال ، أنا أنوى أن أعثر على المحفظة غداً ، ولكننى حتى غد أحب أن أتسلى به ليلة اخرى .

صاح الأمير يقول :

— لماذا تعذبه هذا التعذيب ؟

فأجاب ليبيديف يقول بحرارة :

— أنا لا أعذبه يا أمير ، لا أعذبه . اننى أحبه حباً صادقاً ، و . . . احترمه . لك أن تصدِّق أو لا تصدّق : لقد أصبح الآن أغلى فى قلبى وأعزّ فى نفسى مما كان . أصبحت اعتبره مزيداً من الاعتبار !

قال ليبيديف هذه الكلمات وهو يصطنع هيئة فيها من فرط الجد والاخلاص ما أثار استياء الأمير .

— أتحبه ثم تعذبه هذا التعذيب ؟ اسمع : انه منذ أعاد المحفظة المفقودة الى مكان بارز : تحت الكرسى أولاً وفى حافة سترتك ثانياً ، قد برهن على أنه لا يريد أن يمكر معك ، وبرهن على أنه يسألك الصفح والعفو . هل سمعت ؟ انه يطلب منك أن تصفح عنه ! معنى هذا أنه يعتمد على رهافة عواطفك ، وأنه يثق بصداقتك له . فكيف تجيز لنفسك بعد هذا أن تذل انساناً . . . شريفاً الى هذا الحد ؟

قال ليبيديف وقد التمعت عيناه :

— انساناً شريفاً ، أيها الأمير ، شريفاً حقاً ! أنت وحدك أيها الأمير النبيل ، استطعت أن تقول كلاماً عادلاً هذا العدل كله ! لذلك ترانى مخلصاً لك متفانياً فى سبيلك الى حد العبادة ، رغم كل عفونة الرذائل التى تعشش فى نفسى ! لقد اتخذت قرارى ! سوف اكتشف المحفظة الآن ، فى هذه اللحظة نفسها ، لا أنتظر الغد . انظر : هأنا ذا أخرجها أمام بصرك . هى ذى . هذا هو المبلغ كاملاً ، خذه أيها الأمير النبيل واحتفظ به الى غد . سوف استرده منك غداً أو بعد غد . ولكن هل تعلم يا أمير أن هذا

المال لا بد أن يكون قد قضى الليلة الأولى فى مكان ما تحت حجر بحديقتنا الصغيرة ؟ ما رأيك فى هذا ؟

— لا تقل له دفعة واحدة انك عثرت على المحفظة . دعه يلاحظ أن حافة سترتك قد خلت من المحفظة ، فيفهم بنفسه .

— هل هذه فكرة حسنة ؟ أليس الأفضل أن أبلغه أننى وجدت المحفظة ، متظاهراً باننى قبل ذلك لم يخطر ببالى شىء ؟

أجاب الأمير واجماً مفكراً :

— لا ، لا . فات الأوان . هذا أشد خطراً . حقاً ان الأفضل هو أن لا تقول شيئاً ! كن رقيقاً لطيفاً فى معاملته ، ولكن . . . لا تفرط فى ذلك . . و . . . أنت تعلم . . .

— أعلم يا أمير ، أعلم . أقصد . . . أعلم أننى على الارجح لن أفعل شيئاً من ذلك ، اذ لا بد أن يكون للمرء قلب كقلبك حتى يتصرف هذا التصرف . ثم اننى قد أصبحت أنا نفسى سريع الاهتياج سيئ الطبع . اذ هو الآن يسلك معى بعض الأحيان مسلك استعلاء ، تارة ينتحب ويقبلنى ، وتارة يأخذ يذلنى ويعاملنى باحتقار على حين فجأة . ففى لحظة من تلك اللحظات سأبرز له حافة سترتى عامداً ليراها . . . هىء هىء ! . . الى اللقاء يا أمير . . . أظن أننى حبستك عن الخروج ، وأننى أعكر عليك أهم عواطفك ، اذا جاز لى أن أقول . . .

— ولكن احفظ السر ، ناشدتك الله ، كما فعلت من قبل !

— بخطى لا وقع لها ، بخطى لا وقع لها !

رغم أن الأمر انتهى ، فقد بقى الأمير مهموماً ربما أكثر مما كان مهموماً من قبل . انه ينتظر ، نافد الصبر ، اللقاء الذى يجب أن يتم غداً بينه وبين الجنرال .

كان موعد اللقاء بين الساعة الحادية عشرة والنصف وبين الساعة الثانية عشرة . ولكن الأمير أخَّره عنه ظرف طارئ لم يكن فى الحسبان . فلما وصل الى البيت كان الجنرال ينتظره . وقد لاحظ من النظرة الأولى أن الجنرال كان مستاء ، ولعله كان مستاء من هذا الانتظار نفسه . اعتذر الأمير عن التأخر وأسرع يجلس ، لكنه كان يشعر بوجل غريب فكأن الزائر مصنوع من خزف يخشى الأمير أن يكسرّه فى كل لحظة . انه لم يشعر قبل ذلك فى يوم من الأيام بوجل ازاء الجنرال ، بل ولم تخطر بباله فكرة عن هذا . ولم يلبث أن لاحظ أن أمامه الآن رجلاً يختلف كل الاختلاف عن رجل الأمس : فالخجل والذهول قد حلت محلهما الآن لدى الجنرال رصانة خارقة ، فكأنه قد اتخذ قراراً قاطعاً لا سبيل الى الرجوع عنه . ورغم أن هدوء الأعصاب هذا كان ظاهرياً أكثر مما كان واقعياً ، فان ذلك لا ينفى أن وضع الجنرال كان فيه نبل وانطلاق ، على شىء من الشعور بكرامة مكبوتة ؛ حتى لقد بدأ يكلم الأمير بلهجة فيها شىء من التنازل والتواضع كاللهجة التى يصطنعها أولئك الأشخاص ذوو الكبرياء الذين يخالط انطلاقهم الحرّ شعور باساءة أُلحقت بهم ظلماً . وكان يتحدث بنبرة لطيفة ، على شىء من المرارة فى صوته .

قال بوقار وهو يومئ برأسه الى المائدة :

— اليك المجلة التى أخذتها منك فى ذلك اليوم . شكراً .

— آ . . . نعم . . هل قرأت تلك المقالة يا جنرال ؟ ما رأيك فيها ؟ شائقة ، هه ؟

كذلك قال الأمير مسرعاً الى انتهاز هذه الفرصة للتحدث فى موضوع لا يمس جوهر الأمور .

— قد تكون المقالة شائقة ، لكنها كُتبت كتابة رديئة ، وهى باطلة حتماً ، حتى ليمكن أن يقال انها محشوة بالأكاذيب .

كان الجنرال يتكلم بلهجة فيها تسلط ، وفيها شىء من بطء مقصود .

— أوه ، انها قصة ساذجة جداً : ان كاتبها جندى قديم شهد اقامة الفرنسيين بموسكوه ، فروى أموراً شائقة . ثم ان مذكرات شهود العيان ثمينة دائماً ، مهما تكن شخصية الكاتب . أليس كذلك ؟

— لو كنت فى مكان رئيس التحرير ، لما نشرت هذه المقالة . أما عن مذكرات العيان بوجه عام فان الناس أميل الى تصديق كاذب متبجح لكنه مشوقٌ مسلٍ منهم الى تصديق رجل له قيمته ومزاياه . اننى أعرف مذكرات عن عام ١٨١٢ هى . . . يا أمير ، لقد عزمت أمرى : اننى مغادر هذا المنزل ، منزل السيد ليبيديف .

قال الجنرال ذلك ، وألقى على الأمير نظرة مهيبة .

فانبرى الأمير يقول على غير هدى وهو لا يعرف بماذا يجيب :

— ان لك مسكنك فى بافلوفسك عند . . عند ابنتك .

وتذكر فى تلك اللحظة أن الجنرال انما جاء ليستشيره فى أمر يتوقف عليه مصيره .

— بل عند زوجتى ، أى فى بيتى وبيت ابنتى .

— معذرة : اننى . . .

— اننى مغادر منزل ليبيديف يا عزيزى الأمير ، لأننى قطعت علاقتى بهذا الرجل . قطعتها فى مساء أمس ، آسفاً على أننى لم أفعل ذلك قبل هذا الأوان . اننى أطلب الاحترام يا أمير ، وأرغب فى الاحترام حتى من الأشخاص الذين أهب لهم قلبى ان صح التعبير . يا أمير ، اننى كثيراً ما أهب قلبى ، فأخدع فى جميع الأحيان تقريباً . ان هذا الرجل لم يكن جديراً بهبتى .

فقال الأمير بتحفظ :

— انه يتصف بشىء من الفوضى فعلاً ، وان له كذلك بعض الخصال التى . . . ولكن له قلباً رقيقاً ، كما ان له فكراً ماكراً ، وهو خفيف الظل أحياناً .

ان هذه التعابير المنتقاة ، وتلك اللهجة التى تدل منه على تقدير وتوقير ، قد أرضتا غرور الجنرال ، رغم أن ومضات من ريب ما تزال تلتمع فى عينيه . ولكن نبرة الأمير كان فيها من الانطلاق الطبيعى والاخلاص الواضح ما لم يبق معه مجال لشك .

قال الجنرال مستأنفاً كلامه :

— أما أن له مزاياه أيضاً ، فلقد كنت أول من اعترف بذلك حين أوشكت أن أهب صداقتى لهذا الانسان . ذلك اننى فى غير حاجة لا الى بيته ولا الى ضيافته ، لأن لى أسرتى أنا أيضاً . لست أحاول أن أبرئ نفسى من عيوبى . أنا امرؤ مفرط . ولقد شربت معه خمراً ، فلعلنى

الآن أندم على هذا . ولكن الخمرة لم تكن الشيء الوحيد الذى ربطنى به (اغفر غلاظة المصارحة عند انسان منزعج يا أمير) . وانما أغرتنى به تلك المزايا نفسها التى أشرت اليها . غير أن لكل شيء حداً ، حتى المزايا . فحين تبلغ به الجرأة حد الادعاء فجأة بأنه سنة ١٨١٢ ، أيام طفولته ، قد فقد ساقه اليسرى ودفنها فى مقبرة فاجانكوفو بموسكو ، فان كلامه هذا يتجاوز الحدود ، ويدل على استهتار ، ويبرهن على وقاحة . . .

— لعل ذلك لم يكن منه الا مزاحاً يهدف منه الى الاضحاك !

— أنا أفهم هذا . ان كذبة بريئة يخترعها صاحبها للاضحاك ، حتى ولو كانت غليظة ، لا تجرح قلب الانسان . أحياناً يكذبون عن شعور بالصداقة ان صح التعبير ، وذلك ليسروا محدثيهم . ولكن اذا اشتمل ذلك على قلة احترام ، واذا كان المقصود من قلة الاحترام هذه اظهار أن العلاقة أصبحت ثقيلة على الصدر ، فليس يبقى لرجل نبيل فى مثل هذه الحالة الا أن يتنحى جانباً ، وأن يقطع جميع العلاقات ، وأن يردّ الشخص الذى صدرت منه الاساءة الى مكانه الحقيقى .

وكان الجنرال قد احمر وهو يتكلم . قال الأمير :

— ثم ان لبيديف لا يمكن أن يكون قد وُجد بموسكو سنة ١٨١٢ ، فهو أصغر سناً من أن يكون ذلك صحيحاً .

دعوى مضحكة .

— هذا أولاً . ولكن هب أنه كان فى ذلك الزمان قد وُلد منذ مدة . فكيف يستطيع أن يزعم جهاراً أن

شاسيورا[1] فرنسيا قد صوّب اليه مدفعه ، فقطع بقنبلة احدى ساقيه ليتسلى بذلك ؛ فالتقط ساقه المقطوعة فنقلها الى بيته ثم دفنها فى مقبرة فاجانكوفو . وهو يقول انه بنى لها نصبا كتب على أحد جانبيه ما يلى : «هنا ترقد ساق الموظف لبيديف» ، وكتب على الجانب الآخر : «استرح أيها الرفات الغالى الى أن يطلع الصباح المشرق» ؛ ويقول أخيراً انه يُقيم قداساً على روح ساقه (وهذا وحده تجديف) ، ويسافر الى موسكو لهذه الغاية كل عام . وهو يدعونى ، تأييدا لكلامه ودعماً لدعواه ، أن أصحبه الى موسكو ليرينى القبر ، وليرينى ، فى الكرملين ، ذلك المدفع الفرنسى نفسه الذى أُخذ من العدو ، مؤكدا أنه المدفع الحادى عشر بعد الباب ، وأنه فالكونيت فرنسى[2] من طراز عتيق .

قال الأمير وهو ينفجر ضاحكاً :

— وما يزال مع ذلك بساقين واضحتين ! أؤكد لك أنها مزاحة بريئة ، فلا تغضب منها .

— ولكن اسمح لى أن يكون لى أنا أيضاً رأى : فلأن يظهر أن له ساقين اثنتين فهذا لا يقطع بأن قصته لا يمكن أن تطابق الواقع . فهو يؤكد أن له ساقاً من صنع تشرنوسفيتوف . . .

— صحيح : يقال أن فى امكان المرء أن يرقص بساق من عند تشرنوسفيتوف .

---

[1] من chasseur بالفرنسية وهو جندى من جنود المشاة او الخيالة . المراجع .

[2] من falconetto بالايطالية وهو مدفع صغير . **المراجع** .

— أعرف هذا ، لأن تشرنوسفيتوف حين اخترع ساقه الصناعية قد هرع يريتها على الفور . ولكن ساق تشرنوسفيتوف» أحدث كثيراً من ذلك التاريخ . . . ثم ان ليبيديف يؤكد أن زوجته المرحومة لم تعرف فى يوم من الأيام ، أثناء زواجها ، أن له ساقاً من خشب . وقد أوضحت له جميع ما تشتمل عليه قصته هذه من وجوه الاستحالة والسخف . فأجابنى بقوله : «اذا ادعيت أنك كنت وصيف نابوليون سنة ١٨١٢ ، فاسمح لى أنا أيضا بأن أكون قد دفنت ساقى فى مقبرة فاجانكوفو» .

قال الأمير وقد وقف متحيراً :

— كيف ؟ هل أنت . . .

نظر الجنرال الى الأمير بتعال قاطع يخالطه شىء من سخر ، وقال له ببطء خاص :

— أكمل فكرتك يا أمير ، أكملها ، اننى متسامح .

قل كل شىء : انه ليبدو لك أمراً مضحكاً أن ترى أمامك انساناً سقط الى هذا الحضيض من الذل و . . . العقم ، وأن تعلم أن هذا الانسان كان هو نفسه شاهد . . . أحداث كبرى . ألم يعمد هو الى الوشاية بى لديك حتى الآن ؟

— لا ، لم يقل لى ليبيديف شيئاً ، اذا كان ليبيديف هو من تقصد . . .

— هِمْ . . كنت أظن غير هذا . والحق أن حديثنا قد بدأ بالكلام عن تلك . . . المقالة الغريبة التى ظهرت فى مجلة «الأرشيف» . لقد أشرت أنا الى بطلان تلك المقالة ، لأننى شهدت بنفسى . . . أرى أنك تبتسم وتتفرس فىَّ يا أمير ، هه ؟

— لا ، أبداً . . . اننى . . .

تابع الجنرال حديثه بلهجة بطيئة جداً :

— اننى أبدو صغير السن ، ولكننى أكبر سنا مما أبدو . فى سنة ١٨١٢ كنت فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمرى . أنا لا أعرف سنى على وجه الدقة . لقد صغَّروه فى سجل الخدمة ، وارتضيت أنا لنفسى ، عن ضعف منى ، أن أُنقص منه سنوات .

— أؤكد لك يا جنرال أننى لا أرى أية غرابة فى أن تكون قد وُجدت بموسكو سنة ١٨١٢ ، و . . . طبيعى أن تكون لك ذكريات تستطيع أن ترويها . . . كسائر أولئك الذين وجُدوا فى ذلك العهد . ان أحد الذين سجلوا ذكريات حياتهم» قد افتتح كتابه بذكر أنه كان سنة ١٨١٢ طفلاً رضيعاً وأن الجنود الفرنسيين أطعموه خبزاً بموسكو .

قال الجنرال متسامحاً :

— هأنت ذا ترى يا أمير أن قصتى ، وان لم تكن استثناء ، فهى تخرج عن نطاق المألوف مع ذلك . انه ليحدث كثيراً أن تبدو الحقيقة مستحيلة الوقوع . وصيف الامبراطور ! ذلك يلوح غريباً كل الغرابة طبعاً . غير أن حادثاً خارقاً يقع لطفل فى العاشرة من عمره ربما كان يفسره أنه انما كان طفلاً . ما كان لهذا الحادث أن يقع لى فى الخامسة عشرة من عمرى ؛ وذلك لسبب بسيط هو أننى فى الخامسة عشرة من عمرى ما كان لى أن أهرب من منزلنا الخشبى فى شارع «باسمانايا القديمة» ، يومَ دخول نابوليون الى موسكو ، من أمى التى تأخرت فى مغادرة موسكو فكانت ترتعد خوفاً . فلو كنت فى الخامسة عشرة من

عمرى لشاركتها رعبها . أما فى العاشرة فقد كنت لا أخشى شيئاً ، فتسللت بين الجمهور حتى بلغت درجات مدخل القصر ، لحظة كان نابوليون ينزل عن حصانه .

قال الأمير يؤيد كلامه خجلاً :

— فعلاً ، لقد أصبت حين لاحظت أن سن العاشرة هى السن التى يكون فيها المرء غير خائف . . .

وكان يعذب الأميرَ أن يتصور أنه سيحمر وجهه . قال الجنرال :

— بالضبط ، ولقد جرى كل شىء على نحو بسيط طبيعى لا يوجد مثله الا فى الحياة الواقعية . فلو كتب هذه القصة روائى لخرجت من بين يديه ترهات باطلة وأموراً لا يصدقها العقل .

هتف الأمير يقول :

— حقاً ! لقد أعجبتنى هذه الفكرة أنا أيضاً ، ومنذ مدة قصيرة . اننى أعرف قضية واقعية عن جريمة قتل كان الدافع اليها سرقة ساعة . وقد تحدثت الجرائد عن هذه الجريمة منذ وقعت» . فلو أن روائياً تخيّل هذه الجريمة ، لانبرى الناس الذين يعرفون حياة الشعب يصيحون قائلين مع النقاد : هذا مستحيل . ولكنك حين تقرأ حكاية هذا الحادث في الجرائد تحس أنه واحد من تلك الحوادث التى تعلمك حقائق الحياة الروسية . — وختم الأمير كلامه قائلاً بحرارة وقد سرَّه أنه لم يظهر عليه احمرار الوجه : — انك قد أجدت ملاحظة هذه الظاهرة يا جنرال !

فهتف الجنرال يقول وقد سطعت عيناه برضاء :

— أليس كذلك ؟ هذا طفل ، هذا صبى لا يشعر

بالخطر ، يتسلل خلال الجمهور ليرى بهاء الموكب وسناء البزات العسكرية وليرى الرجل العظيم الذى طالما سمع الناس يتحدثون عنه ؛ ذلك أن العالم كان قد أصبح منذ عدة سنين لا يتكلم الا عنه . لقد ملأ اسمه الدنيا ، حتى ليمكننى أن أقول اننى رضعت اسمه مع حليب أمى . ويمرُّ نابوليون على بعد خطوتين منى ، فاذا ببصره يقع على نظرتى مصادفة . كنت ارتدى ثياب طفل من أبناء النبلاء . كان أهلى يكسوننى بأجمل الملابس . وكنت بين ذلك الحشد الكبير ، الشخصَ الوحيد الذى له هذه الهيئة ، فتصور اذن . . .

— لا شك أن ذلك خطف بصره وبرهن له على أن الناس لم ينفضوا جميعاً ، حتى ان أفراداً من النبلاء قد لبثوا بموسكو مع أولادهم .

— تماماً ! بالضبط ، كان يرغب أن يجتذب اليه النبلاء ! فحين حدّق الىَّ بنظرته التى تشبه نظرة النسر ، فلا بد أنه رأى جواباً يسطع فى عينىَّ . قال : "Voilà un garçon bien éveillé! Qui est ton père?" [1] فأجبته فوراً بصوت يكاد يخنقه الانفعال : «جنرال قضى فى ساحة الشرف ذائداً عن وطنه» . قال : "Le fils d'un boyard et d'un brave par-dessus le marché! J'aime les boyards. M'aimes-tu petit?" [2] كان السؤال سريعاً ، ولكن جوابى لم يكن أقل سرعة ، فانى لم ألبث أن قلت له : «ان قلب الروسى

---

[1] «هذا صبى شاطر . من أبوك ؟» (بالفرنسية فى الأصل) .

[2] «ابن نبيل ، نبيل وشجاع فوق ذلك ! أحب النبلاء . هل تحبنى يا صغير ؟» (بالفرنسية فى الأصل) .

يقدر أن يعرف الرجل العظيم ولو كان عدو وطنه !» الحق اننى لا أتذكر هل كان جوابى بهذه الكلمات حرفاً حرفاً . . . لقد كنت طفلاً . . . ولكن لا شك أن هذا كان هو المعنى ! أخذ نابوليون . وفكّر لحظة ثم قال لرجال حاشيته : «أحب كبرياء هذا الولد ! ولكن اذا كان تفكير جميع الروس هو هذا التفكير ، فان . . .» ولم يكمل جملته ودخل القصر . وأسرعت اختلط بحاشيته وأركض وراءه . فكان رجال الموكب يفسحون لى طريقا ، لأنهم أصبحوا يعدوننى من المقربين لديه . حدث هذا كله فى طرفة عين . . . ولكننى أتذكر أن الامبراطور ، حين بلغ القاعة الأولى ، توقف فجأة أمام صورة الامبراطورة اكاتيرينا ، فتأملها ملياً مستغرقاً فى التفكير ، وهتف يقول أخيراً : «كانت امرأة عظيمة !» ثم مضى فى طريقه . ما انقضى يومان الا كان كل من فى القصر وفى الكرملين يعرفوننى . وكانوا يلقبوننى [1] "le petit boyard" وكنت لا أرجع الى البيت الا لقضاء الليل . وكاد أهلى أن يجنوا من ذلك . وغداة غد مات وصيف نابوليون ، البارون بازانكوره ، الذى لم يتحمل مشاق الحملة . فتذكرنى نابوليون ، فجاءوا يبحثون عنى ويأخذوننى دون أى شرح أو تفسير . ألبسونى بزة المتوفى الذى كان فتى فى الثانية عشرة من العمر ، وأدخلونى على الأمبراطور مرتدياً تلك البزة . فأومأ برأسه ، فأبلغونى عندئذ أننى فزت برضى الامبراطور عن تسميتى وصيفاً لصاحب الجلالة . شعرت بسعادة ، لأننى كنت أحس منذ زمن طويل بعاطفة قوية نحوه . . .

---

[1] «النبيل الصغير» (بالفرنسية فى الأصل) .

ثم ، لا شك أنك تقدّر ما فى البزة اللامعة من قوة الاغراء لطفل . . . أصبحت أرتدى فراكاً أخضر قاتماً ، تزينه أزرار مذهبة ، مع ذيول ضيقة طويلة وأكمام ذات حواش حمراء ؛ وكانت تطريزات الذهب تغطى الحواف والأكمام والياقة ، وكانت الياقة عالية مستقيمة مفتوحة . أما السروال فملتصق بالجسم ، أبيض اللون ، مصنوع من جلد الشاموا ؛ وفوق السروال صديرة من حرير أبيض ؛ والجوربان من حرير أيضاً ، وللحذاءين عرى وأزرار . . . فاذا قام الامبراطور بنزهة على الحصان وكنت أنا فى حاشيته ، ألبست حذاءين لهما ساقان عاليان على طريقة الفرسان . ورغم أن الحالة لم تكن حسنة ، ورغم أن كوارث ضخمة كانت متوقعة ، فقد كانت قواعد الآداب تراعى مراعاة صارمة فى حدود الامكان ، حتى لقد كانت الدقة فى مراعاتها على قدر قوة الاحساس بأن الكوارث قريبة .

تمتم الأمير يقول بلهجة تكاد تكون يائسة :

— نعم ، طبعاً . . . لا شك أن مذكراتك سيكون لها . . . شأن .

بالطبع كان الجنرال يردد على مسامع الأمير ما قاله أمس لليبيديف . فلذلك كانت أقواله تسيل غزيرة . لكنه في تلك اللحظة ألقى على الأمير نظرة جديدة فيها ارتياب . ثم استأنف كلامه يقول بمزيد من الكبرياء :

— مذكراتى ؟ تكلمنى عن تدوين مذكراتى ؟ ان هذا لم يغرنى يا أمير ! أو قل ان شئت انها مدوَّنة منذ الآن ، ولكننى . . . أخفيها مقفلا عليها بالمفتاح . فلتُنشر بعد أن يغطى التراب عينىَّ . ولسوف تترجم عندئذ الى عدة

لغات حتماً ، لا لقيمتها الأدبية طبعاً ، بل لخطورة الأحداث الضخمة التى كنت شاهد عيان لها ، رغم أننى طفل . بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك : ان صغر سنى هو الذى أتاح لى أن أنفذ الى أخفى خفايا ما يجرى فى غرفة «الرجل العظيم» ! كنت فى الليل أسمع أنات ذلك «العملاق فى الشقاء» . لم يكن ثمة سبب يدعوه الى اخفاء أناته ودموعه عن طفل ، رغم اننى كنت قد أدركت أن سبب عذابه هو صمت الامبراطور الكسندر .

قال الأمير خجلاً :

— صحيح . لقد كتب اليه رسائل . . . ليعرض عليه الصلح . . .

— الواقع أننا لا نعرف ماذا تضمنت رسائله من عروض ، ولكنه كان يكتب ويكتب كل يوم ، فى كل ساعة ، رسالة تلو رسالة ! كان مضطرباً اضطراباً رهيباً . وكنا وحيدين فى ذات ليلة من الليالى فأسرعت اليه مخضلّ العينين بالدموع (آه . . . كم كنت أحبه !) وقلت له صارخاً : «اطلب المغفرة من الامبراطور الكسندر ، اطلب عفوه !» كان يجب علىّ طبعاً أن أقول : «اعقد صلحاً مع الامبراطور الكسندر» ، لكننى طفل ، فكنت أعبرّ عن تفكيرى كله بسذاجة . أجابنى وهو يذرع الغرفة طولا وعرضا : «آه يا بنى ! آه يا بنى ! أنا مستعد لأن ألثم قدمى الامبراطور ألكسندر ، (لكأنه نسى أننى لا أبلغ من العمر الا عشرة أعوام ، حتى لقد كان يجد لذة فى محادثتى) ولكننى فى مقابل ذلك قد نذرت كرهاً خالداً ومقتاً أبدياً لملك بروسيا وامبراطور النمسا ، و . . على كل حال . . . أنت لا تفهم

من أمور السياسة شيئاً !» لكأنه تذكر فجأة من يخاطبه ، فصمت ، ولكن عينيه ظلتا ترسلان شرراً خلال مدة طويلة . فتصور أننى أدوّن هذه الوقائع كلها ، أنا الذى شهدت أضخم الأحداث ، وأننى انشرها الآن : وتصور عندئذ انواع النقد وصنوف الغرور الأدبى ، وألوان الحسد ، وروح التحزب ، و . . . آه . . . لا . . . أشكرك أجزل الشكر !

أجاب الأمير برقة بعد لحظة :

— فيما يتعلق بروح التحزّب ، فانك على حق تماماً ، وأنا أؤيد قولك . من ذلك اننى قرأت فى الآونة الأخيرة كتاب شاراس عن معركة واترلو . ان الكتاب جاد ولا ريب . والاختصاصيون يقطعون بأن كاتبه مطلع اطلاعاً واسعاً . ولكنك تلاحظ فى كل صفحة من صفحاته تلذذا بخفض قيمة نابوليون . حتى لكأن المؤلف كان يمكن أن يسره أعظم السرور أن ينكر على نابوليون أى ظل لموهبة فى المعارك الأخرى أيضاً . لا شك أن روح التحزب هذه لا تليق بكتاب جاد الى هذا الحد . هل كنت مشغولاً كثيراً بالخدمة قرب . . . الامبراطور ؟

طار الجنرال فرحاً . ان ملاحظة الأمير هذه قد بدّدت بما فيها من رصانة وبساطة آخر ما كان يساوره من شكوك .

— شاراس ! آ . . . أنا أيضاً أثار استيائى ، حتى لقد كتبت اليه عندئذ ، ولكننى . . . لا أتذكر الآن على وجه الدقة . . . أتسألنى هل كنت مشغولاً بخدمتى ؟ لا ، لا ! لقد سُميت وصيفاً للامبراطور ، لكننى منذ ذلك الحين لم آخذ الأمر مأخذ الجد ؛ ثم ان نابوليون لم يلبث أن فقد كل أمل فى تقارب بينه وبين الروس ؛ وكان لا بد له والحالة هذه

من أن ينسانى ، لأنه لم يجتذبنى اليه فى الأصل الا لأغراض سياسية ، هذا اذا . . . اذا لم يكن قد تعلق بى تعلقاً عاطفياً شخصياً . الآن أقول هذا صراحة . أما أنا فان القلب هو الذى كان يدفعنى اليه . ولم أكن أطالب بخدمة . كل ما هنالك اننى كان علىَّ أن أجئ الى القصر من حين الى حين . . . وأن أصحب الامبراطور فى نزهاته على الحصان . ذلك كل شىء . كنت أجيد ركوب الخيل . وقد اعتاد أن يخرج الى النزهة قبل العشاء . وكانت حاشيته تتألف من دافو ، وأنا ، والمملوك رستان» . . .

أضاف الأمير على غير شعور منه تقريباً :

— وكونستان .

— لا ، لم يكن كونستان من الحاشية . كان قد ذهب يحمل رسالة . . . الى الامبراطورة جوزيفين» . فحلّ محله ضابطان من ضباط الحرس ، وبضعة فرسان بولنديين . . . تلك كانت حاشيته كلها ، طبعا ، عدا الجنرالات والمارشالات الذين كان نابوليون يصطحبهم لدراسة الأرض وتوزيع الجيوش ، ولاستشارتهم . . . واذا صدقت ذاكرتى الآن ، فان دافو هو الذى يصحبه أكثر من أى شخص آخر : كان دافو ضخم الجسم بديناً ، بارد الأعصاب ، وكان يضع على عينيه نظارتين ، وكانت له نظرة غريبة . فكان الامبراطور يتشاور معه أكثر مما يتشاور مع أى شخص آخر . كان يحترم آراءه . أذكر أنهما فى ظرف من الظروف ظلا يبحثان معاً خلال عدة أيام متتالية . كان دافو يأتى صباحاً ومساء ، وكانت تجرى بينهما مناقشات كثيرة . وأخيراً بدا أن نابوليون أصبح على أهبة أن يسلم . كانا فى المكتب معاً . وكنت

أنا ثالثهما ، ولكنهما كانا لا ينتبهان الىَّ ؛ ووقع بصر نابوليون علىّ مصادفة على حين فجأة ، فانعكست فى عينيه فكرة غريبة . فقال يسألنى بغتة : «ما رأيك أيها الصبى ؟ أذا اعتنقت الديانة الارثوذكسية وحررت أقنانكم ، يتبعنى الروس أم لا ؟» فهتفت أقول له مستاء : «كلا ، أبداً !» شدّه نابوليون من جوابى . قال : «فى وميض الوطنية الذى التمع فى عينى هذا الصبى ، قرأت الآن رأى الشعب الروسى كله . كفى يا دافو ! ما هذا كله الا خيال ! أرنى مشروعك الآخر .»

قال الأمير مهتماً اهتماماً قوياً :

— لكن ذلك المشروع يشتمل على فكرة عظيمة ! هل تعتقد أن ذلك المشروع كان من صنع دافو ؟

— تشاوروا عليه معاً فى أقل تقدير . لا شك أن الفكرة جاءت من نابوليون . انها فكرة نسر . ولكن المشروع الثانى كان يشتمل أيضا على فكرة . . . انه "conseil du lion" [1] المشهور ، كما سمى نابوليون نصيحة دافو تلك . وكان محتواها أن يعتصم بالكرملين مع الجيش كله ، وأن يقيم فيه أبنية من خشب ، ومتاريس قوية ، وأن يصف فيه مدافع ، وأن يذبح أكبر عدد من الخيول ويملّح لحومها ، ثم أن يغتصب من السكان جميع ما لديهم من غلال ليستطيع الصمود حتى الربيع . فاذا طلع الربيع حاول أن يشق طريقاً بين الروس . ولقد فُتن نابوليون بهذه الخطة . فكنا نقوم كل يوم بجولات على صهوات الخيل حول الكرملين ،

---

[1] «نصيحة الأسد» (بالفرنسية فى الأصل) .

فيشير نابوليون الى الأماكن التي يجب فيها الهدم ، والتى ينبغى فيها البناء ، وحيث يجب بناء مسنيات وخنادق ، واستحكامات مثلثة او أبراج . ما كان أسرع خاطره وأثبت بصره وأحزم قراره ! وسوى أخيراً كل شيء . وكان دافو يلح من أجل أن يصدر اليه الأمر الحاسم النهائى . وعادا يجتمعان فى خلوة لا يشاركهما فيها ثالث غيرى . وعاد نابوليون يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، عاقداً ذراعيه على صدره . فكنت لا أستطيع أن أحول عينىَّ عن وجهه ، وكان قلبى يخفق خفقاناً قوياً . قال دافو : «أنا ماض» . فسأله نابوليون : «الى أين ؟» ، فأجاب دافو : «آمر بتمليح لحوم الخيل» . فارتجف نابوليون . كان المصير يتقرر . سألنى فجأة : «ما رأيك فى خطتنا يا ولد ؟» طبيعى أنه وجّه الىَّ هذا السؤال كما يعمد عقل عظيم فى آخر لحظة الى استعمال طريقة «اليانصيب» . فبدلاً من أن أجيب نابوليون التفت نحو دافو وقلت له بما يشبه الوحى أو الالهام : «اهربوا الى بلادكم بسرعة يا جنرال !» تهدّم المشروع . هزّ دافو كتفيه وخرج مدمدماً : "Bah! Il devient superstitieux!" [1] وفى الغداة صدر الأمر بالانسحاب .

قال الأمير بصوت خافت جداً :

— هذا كله شائق جداً . . . اذا كانت الأمور قد جرت على هذا النحو . . .

ثم أسرع يقول مصححاً :

— اعنى . . . أردت ان أقول . . .

---

[1] «يا سلام ! يصبح موسوساً» (بالفرنسية فى الأصل) .

كان الجنرال قد بلغ من النشوة بالقصة التى رواها أنه أصبح لا يستطيع أن يحجم عن التورط فى أى تهور . وها هو ذا يهتف قائلاً :

— آ . . . أمير . . . انك تقول : «اذا كانت الأمور قد جرت على هذا النحو ! . .» ولكننى أؤكد لك أن ما قصصته عليك هو أقل من الواقع ، أقل كثيراً من الواقع ! ان كل هذا لا يتصل الا بأمور سياسية يسيرة الشأن . غير أننى أكرر أننى قد شهدت الدموع يسكبها فى الليل ذلك الرجل العظيم ، وسمعت أناته . ما من أحد سواي شهد ذلك . صحيح أنه أصبح فى نهاية الأمر لا يبكى ، فقد نضبت دموعه ، وأصبح لا يزيد على أن يئن من حين الى حين . وكان وجهه يزداد عبوساً واكفهراراً . لكأن الأبدية قد مدّت جناحها عليه منذ ذلك الحين . وكنا فى بعض الأحيان نقضى فى الليل ساعات بكاملها وحيدين صامتين ، بينما المملوك روستان يغط بالغرفة المجاورة فى نوم عميق . ألا ما كان أعمق نوم ذلك الرجل ! وكان نابوليون يقول اذا تحدث عنه : «لكنه فى مقابل ذلك مخلص لى ووفى لعرشى !» وفى يوم من الأيام كنت مثقل القلب ، فرأى دموعاً فى عينى . فنظر الىَّ بحنان وقال متعجباً : «تشاركنى أحزانى ؟ لعلك الولد الوحيد الذى يشاطرنى ألمى ، عدا الولد الآخر ، ابنى ، le roi de Rome [1] . أما الآخرون فانهم جميعا يكرهوننى . حتى اخوتى سيكونون أول من يخونوننى وقت الشدة» . فأخذت أبكى ناشجاً وهرعت اليه ،

---

[1] ملك روما . (بالفرنسية فى الأصل) .

فأصبح لا يستطيع كظم ما فى نفسه ، فتعانقنا وامتزجت دموعنا . قلت له باكياً «اكتب رسالة الى الامبراطورة جوزيفين !» فارتعش نابوليون ، وفكّر لحظة ، ثم قال يجيبنى : «لقد ذكّرتنى بالقلب الثالث الذى يحبنى . شكراً يا صديقى !» وكتب على الفور رسالة الى جوزيفين حملها كونستان فى الغداة .

قال الأمير :

— أحسنت جداً . فانك ، فى وسط الأفكار السيئة التى كانت تغزوه قد أيقظت فى قلبه عاطفة جميلة نبيلة .

هتف الجنرال يقول متحمساً :

— تماماً ! ما أحسن تعبيرك عن هذا وأنت تستسلم لاندفاعات قلبك ! — والأمر الغريب أن دموعاً قد انبجست عندئذ من عينيه حقاً حينذاك . — نعم يا أمير ، كانت لذلك المشهد عظمته ! هل تعلم أننى أوشكت أن أصحبه الى باريس ؟ ولو فعلت ذلك لتبعته حتماً الى «منفاه فى الجزيرة القائظة» . ولكن مصيرينا كانا مفترقين ، وأسفاه ! فانفصلنا ، فأما هو فرحل الى تلك الجزيرة القائظة التى لعله تذكر فيها ، أثناء لحظة من لحظات حزن قاس ، دموعَ ذلك الفتى المسكين الذى عانقه وسامحه بموسكو ؛ وأما أنا فأُرسلت الى مدرسة الضباط الفتيان حيث لم أجد الا نظاماً قاسياً ورفاقاً غلاظاً . . . وأسفاه ! . . . وانهار كل شىء بعد ذلك ! لقد قال لى فى يوم الانسحاب : «لا أريد أن انتزعك من أمك لأصطحبك . لكننى أتمنى أن أفعل شيئاً لك» . وكان قد امتطى صهوة جواده . «اكتب لى كلمة فى ألبوم أختى للذكرى» — قلت له بوجل ، ذلك أنه كان مظلم الوجه شديد الاضطراب .. فعاد

أدراجه ، وطلب منى قلماً ، وتناول الألبوم ، وقال يسألنى ممسكاً بالقلم : «كم عمر اختك ؟» فأجبته : «ثلاث سنين» . فقال [١] "Petite fille alors" وكتب فى الألبوم : [٢] "Ne mentez jamais! Napoléon, votre ami sincère" نصيحة كهذه النصيحة ، فى لحظة كتلك اللحظة ! ما رأيك ؟

— نعم . . . لهذا دلالته البليغة .

— وقد وضعنا تلك الورقة من الألبوم وراء زجاج فى اطار مذهب . واحتفظت بها أختى طوال حياتها فى صالونها ، معلقة اياها فى أكرم مكان من منزلها . وماتت أختى أثناء ولادة ، ومنذ ذلك الحين لا أدرى ماذا حلّ بتلك الورقة . . ولا أين صارت . ياه ! . . الساعة الآن هى الثانية ! لقد احتجزتك مدة طويلة يا أمير ! ذلك أمر لا يُغتفر .

ونهض الجنرال من الكرسى .

تمتم الأمير يقول :

— بالعكس ! لقد أسرت لى و . . . وان لما رويته لقيمة كبيرة ، فأنا ممتن لك أشد الامتنان !

مرة أخرى شدّ الجنرال على يد الأمير شداً قوياً الى حد الايلام . وحدّق اليه بعينين ساطعتين ووجه انسان ثاب الى نفسه فجأة ووميضت فى رأسه فكرة مباغتة . قال :

— يا أمير ، انك تبلغ من طيبة القلب وبساطة العقل أننى أشفق عليك فى بعض الأحيان . اننى أتأملك بعاطفة

---

[١] هى اذن بنت صغيرة . (بالفرنسية فى الأصل) .

[٢] «اياك والكذب ! نابوليون ، صديقك المخلص» . (بالفرنسية فى الأصل) .

وحنان . أسأل الله أن يباركك ! انني أتمنى لك أن تبدأ حياتك وأن تزدهر . . . في الحب . أما حياتي أنا فقد انتهت ! آه . . . مغفرة ! مغفرة !

وأسرع يخرج مخفياً وجهه بيديه . لم يستطع الأمير أن يشك في صدق انفعال الجنرال . وقد ادرك أيضاً أن الشيخ انصرف منتشياً بما حقق من نجاح . ولكنه كان يحس احساساً غامضاً بأنه ازاء واحد من أولئك المتشدقين الذين يبلغون من تلذذهم بكذبهم أنهم ينسون أنفسهم ولكنهم يظلون مع ذلك في أشد حالات نشوتهم يشعرون شعوراً صميماً بأن الناس لا يصدقونهم ولا يمكن أن يصدقوهم . لقد كان الشيخ ، وهو في مثل تلك النفسية ، يمكن أن يعود الى نفسه ، وأن يخجل خجلاً شديداً ، فيشعر بأنه قد أهين اذا هو تصوّر أن الأمير أحس نحوه بشفقة شديدة . لذلك تساءل الأمير قلقاً : «ألم أرتكب خطأ حين تركت له أن يتحمس ذلك التحمس ؟» وما هي الا لحظة حتى انطلق الأمير يضحك على حين فجأة ضحكاً استمر عشر دقائق . وأوشك بعد ذلك أن يلوم نفسه على ذلك الضحك ، لكنه أدرك حالاً أنه ما ينبغي له أن يؤاخذ نفسه على شيء ، ما دام يحمل للجنرال تلك الشفقة كلها .

وقد صدقت تنبؤاته . ففي ذلك المساء نفسه تلقى رسالة غريبة مقتضبة لكنها جازمة ، فيها يعلن له الجنرال أنه يقطع صلته به أيضاً الى الأبد ، فهو ما يزال يضمر له الاعتبار والشكر ، ولكنه يرفض أن يقبل ، حتى منه ، «تلك الشفقة التي تقتل كرامة انسان عانى حتى الآن من صنوف الخطوب وأنواع المحن ما يكفيه» . حين علم الأمير

أن الجنرال أصبح يعيش معتكفاً عند نينا ألكسندروفنا زال قلقه عليه تقريباً . ولكن الجنرال ، كما أسلفنا ، مضى يفعل جرسة عند اليزافيتا بروكوفيفنا . اننا لا نستطيع أن نروي هنا تفاصيل ما وقع . وحسبنا أن نشير بكلمتين الى جوهر الحديث الذي جرى بينهما . ان اليزافيتا بروكوفيفنا ، بعد أن روّعها الجنرال ، قد استبد بها استياء قوي حين سمعته يبدي آراء شديدة المرارة في حق جانيا . فأُخرج من البيت مطروداً مجللاً بالعار . لذلك قضى الليل كله والصباح مهتاجاً اهتياجاً بلغ من الشدة أنه فقد كل سيطرة على نفسه فاذا هو يندفع في الشارع أخيراً كانما أصابه جنون .

كان كوليا لا يدرك ما يجري الا بعض الادراك ، وكان لا يزال يأمل أن يؤثر في أبيه بالصرامة . قال له :

— هيه ! أين سنطوّف الآن ؟ ما رأيك يا جنرال ؟ لا تريد أن تذهب الى الأمير ، لقد حدث شقاق بينك وبين ليبيديف ، وليس معك مال . وأنا لا يكون معي مال أبداً . وها نحن في وسط الشارع بلا حمّص .

قال الجنرال مدمدماً :

— لأن يكون المرء مع نساء ، خير من أن يكون بلا حمص . لقد كفلت لي هذه القافية» نجاحاً قوياً . . . في نادي الضباط . . . سنة ٤٤ . . . نعم سنة الف وثمانمائة . . واربع وأربعين ! . . أصبحت لا أتذكر . . . آه . . لا تذكرني ، لا تذكرني ! «أين شبابي ؟ أين نضارتي ؟» كما كان يهتف . . . من الذي كان يهتف بهذا يا كوليا ؟

— هذه كلمات مستمدة من كتاب غوغول «النفوس الميتة» يا أبت .

بهذا أجاب كوليا وهو يرمق أباه بنظرة مرتعبة .

— النفوس الميتة ! آ . . . نعم . . الميتة ! حين ستدفنونني ، اكتب على قبرى : «هنا ترقد نفس ميتة !»

«العار يلاحقنى فى كل مكان !»

من قال هذا يا كوليا ؟

— لا أعرف يا ابتاه !

— ياروبياجوف لم يوجد ! ياروشكا ياروبياجوف ! . . كذلك صاح يقول الجنرال بلهجة حانقة وهو يقف فى وسط الشارع . — ان ابنى ، ابنى نفسه هو الذى يؤكد ذلك . ياروبياجوف الذى ظل لى أخاً حقاً خلال أحد عشر شهراً ، والذى من أجله خضت تلك المبارزة . . . لقد قال له رئيسنا الأمير فيجورتسكى ، ذات يوم ، بينما كنا نشرب : «اسمع أنت يا جريشا» ! وددت لو أعرف من أين حصلت على وسامك ، وسام القديسة آنا ؟» فأجابه قائلاً : «من ساحات معارك وطنى انما حصلت عليه !» وهتفت أنا أقول : «مرحى يا جريشا !» فكان ذلك سبب مبارزة . ثم تزوج . . . ماريا بتروفنا سو . . . سوتوجينا ، وقُتل بعد ذلك فى ميدان القتال . . . لقد وثبت رصاصة عن الصليب الذى كنت أحمله على صدرى ، ووثبت الى جبينه رأساً . وهتف : «لن أنسى أبداً !» وسقط ميتاً حيث كان يقف . اننى . . . خدمت وطنى بشرف يا كوليا ، خدمت وطنى بنبل ولكن «العار يطاردنى فى كل مكان !» ستأتيان أنت ونينا الى قبرى . . . «نينا المسكينة !» كذلك كنت أسميها فى الماضى يا كوليا ، منذ زمن طويل ، فى

الآونة الأولى ، وكان ذلك يسرها . . . نينا ، نينا ! ماذا صنعت بحياتك ؟ كيف يمكنك أن تحبينى ، أيتها النفس الصابرة ؟ ان أمك لها نفس ملاك يا كوليا . هل تسمعنى ؟ ان لها نفس ملاك !

— أعرف هذا يا بابا ! حبيبى بابا ! فلنعد الى البيت ، الى ماما ! لقد أرادت أن تركض وراءنا . لماذا تتردد ؟ لكأنك لا تدرك . . . ماذا بك ؟ لماذا تبكى ؟

وكان كوليا نفسه يبكى ويلثم يدى أبيه .

— أتلثم يدىَّ أنا ؟ !

— نعم ، يديك أنت ، يديك أنت ! أفى هذا ما يدهش ؟ كفى ، كفى ! ما بالك تبكى فى وسط الشارع ، أنت الجنرال ، أنت رجل الحرب ؟ تعال !

— بارك الله فيك يا بنى الصغير ، لأنك ما تزال تحترم أباك الشيخ الساقط ، رغم العار ، رغم العار الذى يجلله ! . . أسأل الله أن يجعل لك ولداً مثلك . . . Le roi de Rome... . . . آه . . . «ألا فلتحل لعنة الله على هذا المنزل» !

صاح كوليا مندفعاً يقول :

— ولكن ماذا جرى ؟ ماذا حدث ؟ لماذا أصبحت لا تريد أن تعود الى البيت الآن ؟ ماذا جرى لعقلك ؟

— سوف أشرح لك ، سوف أشرح لك . . . سوف أقول لك كل شىء . لا تصرخ ، والا سمعنا الناس . . . le roi de Rome . . . أواه ! اننى أحس باشمئزاز وحزن !

«اين قبرك يا من ارضعتنى ؟»

من قائل هذا يا كوليا ؟

— لا أعرف ، لا أعرف من قال هذا الكلام ! فلنذهب فوراً الى البيت ، فوراً ! لأضرب جانيا اذا لزم

الأمر . . . ولكن الى أين تمضى من جديد ؟

أما الجنرال فكان يجره نحو درجات مدخل منزل مجاور .

— ألى أين تذهب ؟ ليس هذا البيت بيتنا !

كان الجنرال قد جلس على درجات المدخل جاذبا اليه كوليا من يده ، ودمدم يقول له :

— انحن على ، انحن على ! سأقول لك كل شيء . . . سأشرح لك عارى . . . مِلْ على . . . اصغ بسمعك الىّ . . . سأقول لك ذلك فى أذنيك . . .

صاح كوليا يقول مرتاعاً ، ولكنه قرب منه أذنه مع ذلك :

— ماذا أصابك ؟

قال الجنرال هامساً وهو يرتجف ارتجافاً شديداً :

— . . . Le roi de Rome

— ما هـــــذا ؟ أى le roi de Rome ما شأنك به ؟ ماذا ؟

عاد الجنرال يهمس قائلاً وهو يتشبث بكتف «صغيره» مزيداً من التشبث :

— أُ . . . أُ . . . أُريد . . أُريد أن أقول لك كل شيء . . ماريا . . ماريا . . بتروفنا . . سو . . سو . . سو . .

تخلص كوليا من عناق الجنرال وأمسكه من كتفيه ونظر اليه مشدوهاً . كان العجوز قد احمر وجهه احمراراً شديداً ، وازرقّت شفتاه وأخذت تلم بوجهه تشنجات خفيفة . وتهاوى فجأة متهالكاً على ذراعى كوليا برفق .

فأعول كوليا صارخاً بصوت أسمع الشارع كله :

— سكتة !

لقد أدرك اخيراً ماذا حدث .

الواقع أن فارفارا آردالیونوفنا ، حين حدثت أخاها ، قد بالغت بعض المبالغة فى ادعاء الدقة للمعلومات التى توافرت لديها عن خطبة الأمير وآجلايا ايبانتشينا . من الجائز انها ، بصفتها امرأة فطنة ، قد حزرت ما كان لا بدّ أن يقع فى المستقبل القريب ، ومن الجائز أيضاً أن تكون من شدة حسرتها على تبدد حلم ساورها (حلم لم تصدقه هى نفسها حقاً) لم تستطع أن تمنع نفسها عن التمتع بتلك اللذة التى يستطيبها الطبع البشرى وهى لذة تضخيم الشقاء الذى ألمّ ، وأن تسكب فى قلب أخيها قطرة جديدة من سمّ ، رغم حبها المخلص له وعطفها عليه . ومهما يكن من أمر ، فانها ما كانت لتستطيع أن تحصل من صديقاتها الآنسات ايبانتشين ، على معلومات تبلغ ذلك المبلغ من الدقة . فان الأمر قد اقتصر على اشارات ، وجمل ناقصة لم تكتمل ، ووقفات عن الكلام وصمت ، وألغاز . من الجائز كذلك أن تكون أختا آجلايا قد اندفعتا متعمدتين فى البوح ببعض الأمور بغية أن تستدرجا فارفارا آردالیونوفنا الى الكلام وأن تستخرجا منها شيئاً . وليس بالمستبعد على كل حال أيضاً أن تكونا قد انقادتا لتلك اللذة التى يستطيبها طبع النساء فناكدتا صديقتهما قليلاً رغم أنها من صديقات طفولتهما حقاً . فلا بد أنهما قد أدركتا ، بعد كل ذلك الوقت ، الهدفَ الذى كانت تسعى اليه المرأة الشابة ، أو بعضَ هذا الهدف على الأقل .

ومن جهة أخرى ، فلعل الأمير قد أخطأ هو نفسه ،

حين زعم لليبيديف عن حق تام أنه ليس ثمة ما يبلغه اياه وأن حياته لم يطرأ عليها أى شىء خاص . الواقع أن كل واحد كان ازاء ظاهرة غريبة . لا شىء حدث فعلاً ، ولكن جميع الأمور تجرى كما لو كان قد حدث أمر هام جداً . ذلك ما حزرته فارفارا آردالیونوفنا بما تملك من غريزة المرأة وصدق حدسها .

من الصعب جداً مع ذلك أن نعرض عرضاً منطقياً كيف أدرك جميع أفراد أسرة ايبانتشين ، فى وقت واحد ، أن حدثاً هاماً قد طرأ على حياة آجلايا وأنه سيقرر مصيرها . ولكنهم ، منذ أن قامت هذه الفكرة فى أذهانهم ، قد أحسوا جميعاً ، على الفور ، أنهم كانوا قد توقعوا هذا الأمر بل تنبأوا تنبؤاً واضحاً بهذا الاحتمال الذى أصبح جلياً منذ حادثة «الفارس الفقير» ، وربما قبل ذلك ؛ غير أنهم كانوا يرفضون فى ذلك الأوان أن يصدقوا سخافة كهذه السخافة . ذلك ما كانت تؤكده أختا آجلايا . وطبيعى أن اليزافيتا بروكوفيفنا كانت قد تنبأت بكل شىء وفهمت كل شىء قبل غيرها ، «حتى أن قلبها شعر من ذلك بألم شديد» . ولكن سواء أكان ذلك الادراك النافذ قد تأتى لها منذ مدة طويلة أم قصيرة ، فان الأمير قد أصبح لا يوقظ فى ذهنها الا فكرة منفّرة ، لأنها فكرة تحيّر عقلها . كان هناك سؤال يقتضى حلاً على الفور . ولكن المسكينة اليزافيتا بروكوفيفنا لم تكن عاجزة عن حل هذا السؤال فحسب بل كانت عاجزة ، رغم كل جهودها ، حتى عن طرحه على نفسها طرحاً واضحاً . ان الأمر حرج دقيق : «هل الأمير شخص مناسب أو لا ؟ هل المشروع حسن أم هو سيئ ؟

واذا كان سيئاً (وذلك ما لا شك فيه) فلماذا هو سيئ ؟ واذا كان حسناً (وهذا يبدو ممكنا كذلك) ففيم حسنه ؟» أما رب الأسرة ، ايفان فيدوروفتش ، فقد أظهر دهشته فى أول الأمر طبعاً ، ثم اعترف يقول انه «فى الحقيقة قد اشتبه هو أيضاً فى المسألة وانه كان يحس أن هناك شيئاً ما ، طوال تلك المدة ، ولو من حين الى حين أو فى الفينة بعد الفينة» ! واذ شعر بثقل نظرة قاسية كانت زوجته تلقيها عليه ، سكت عن الكلام ولم يزد شيئاً . ولكن ذلك لم يدم الا نهاراً ، ذلك أنه اذ خلا الى امرأته فى المساء ورأى نفسه مضطراً الى أن يتكلم ، عزم على أن يشرح ما بنفسه ، وتجرأ فأبدى آراء لم تكن متوقعة . قال : «ما هو الأمر فى الواقع ؟ . . (برهة صمت) . . . لا شك أن هذا كله غريب اذا صحّ أنه صادق فعلاً . انه لا يجادل بل . . . (برهة صمت أخرى) ومن جهة ثانية ، اذا نظرنا الى الأمور نظرة سليمة ، رأينا أن الأمير فتى طيب جداً ، والله ! ثم . . . ثم . . . انه يحمل اسماً ينتمى الى أسرتنا . وذلك كله من شأنه . . . أن يعلى مقام اسمنا المهان فى المجتمع . . . من وجهة نظر المجتمع طبعاً . . . لأن . . على كل حال . . المجتمع هو المجتمع . . . ثم ان الأمير ، مهما يكن من أمر ، يملك ثروة ، وان لم تكن ثروة طائلة . . انه . . و . . . و . . .» . (صمت طويل ثم عثرة قاطعة .) وثارت ثائرة اليزافيتا بروكوفيفنا وخرجت عن طورها بعد أن استمعت الى أقوال زوجها .

كان رأيها أن كل ما جرى انما هو «حماقة لا يمكن اغتفارها ، بل حماقة مجرمة ، بل خيالات سخيفة خرقاء !»

قبل كل شيء يكفينا أن هذا «الأمير الصغير رجل مريض ، رجل أبله . وثانياً ، انه انسان غبى لا يعرف المجتمع ولا يستطيع أن يكون له فيه مكان : لمن نقدّمه ؟ الى أين ندخله ؟ انه ديموقراطى غير لائق ، وحتى لا رتبة له . . . ثم . . . ثم . . . ما عسى تقول بيلوكونسكايا ؟ أهذا هو الزوج الذى حلمنا به لابنتنا آجلايا ؟» وكانت هذه الحجة الأخيرة دامغة بطبيعة الحال . لقد كان قلب الأم يترف دماً ودموعاً ويرتعش حين تخطر ببالها هذه الفكرة ، رغم أن ذلك القلب نفسه ، كان يصعد منه ، فى اللحظة نفسها ، صوت يسألها : «فى أى شيء لا يستحق الأمير أن يكون الصهر المنشود ؟» كانت اعتراضات ضميرها نفسه هى التى تبث فى اليزافيتا بروكوفيفنا أكبر الهم وأشد القلق .

أما أختا آجلايا فاعجبتهما فكرة زواج آجلايا بالأمير ، حتى لقد كانتا لا تريان فيه غرابة كبيرة . الخلاصة انهما كان يمكن حتى أن تنحازا بغتة الى تأييد هذا الزواج ولكنهما عاهدتا نفسيهما على التزام الصمت . يجب أن نذكر أن المحيطين باليزافيتا بروكوفيفنا كانوا قد لاحظوا منذ زمن طويل أنها على قدر اصرارها وعنادها فى محاربة مشروع من المشروعات العائلية التى يجرى حولها نقاش ، يكون اقتناعها فى كثير من الأحيان بصواب هذا المشروع . وعموما كان يستحيل على الكسندرا ايفانوفنا ان تلزم الصمت تماماً . لقد ألفت أمها منذ مدة طويلة أن تستنصحها ، فها هى ذى ما تنفك تستوضحها رأيها ، وتسألها عن ذكرياتها خاصة : «كيف جرت الأمور حتى وصلت الى ما وصلت اليه ؟ لماذا لم يلاحظ أحد شيئاً من قبل ؟ كيف لم يجر كلام حول هذا

الموضوع آنذاك ؟ ماذا كان يعنى ذلك «الفارس الفقير» الكريه ؟ لماذا قُضى عليها ، هى اليزافيتا بروكوفيفنا ، أن تنفرد بحمل الهمّ عن الجميع ، أن تلاحظ كل شيء ، وأن تدرك كل شيء ، بينما لا يزيد الآخرون على أن ينظروا الى الأمور بغير اكتراث ؟» الخ الخ الخ . استمرت ألكسندرا ايفانوفنا على حذرها فى أول الأمر ، واكتفت بأن ذكرت أنها توافق أباها على رأيه فى أن زواج أمير من أسرة ميشكين وآنسة من آل ايبانتشين أمر يمكن أن ينظر اليه المجتمع نظرة احترام كبير ؛ ثم تشجعت شيئاً فشيئاً فأضافت الى ذلك أن الأمير ليس رجلاً «ضعيف العقل» ولم يكن ضعيف العقل فى يوم من الأيام ؛ أما عن وضعه الاجتماعى فلا أحد يستطيع الآن أن يعرف بم سيقاس بعد بضع سنين ، شأن رجل محترم عندنا فى روسيا ، هل ستقاس قيمته بما يحققه من نجاح فى وظيفة رسمية أم هى ستقاس بمقياس آخر ؟ وأجابت الأم فى الحال وبصورة قاطعة بأن ألكسندرا فتاة «تحررية ، وأن الذنب فى ذلك كله انما هو تلك القضية المشئومة التى يسمونها قضية المرأة» . وما انقضى نصف ساعة حتى مضت اليزافيتا بروكوفيفنا الى المدينة ، ومنها ذهبت الى كامنى أوستروف» لترى بيلوكونسكايا التى كانت قد وصلت الى بطرسبرج منذ برهة وجيزة ولكنها لا تنوى أن تمكث فيها الا وقتاً قصيراً . لقد كانت بيلوكونسكايا عرّابة آجلايا .

أصغت «السيدة العجوز» الى جميع مسارّات اليزافيتا بروكوفيفنا ، المحمومة اليائسة ، ولكنها بدلاً من أن تؤثر فيها تلك الدموع السخينة التى ذرفتها الأم المرتبكة تماماً ،

لم تزد على أن ألقت نظرة مستهزئة . لقد كانت الأميرة بيلوكونسكايا تتصف باستبداد قوى . وكانت ترفض أن تساوى بينها وبين الأشخاص الذين تربطها بهم ولو صداقة قديمة . وكانت تتعمد أن تعامل اليزافيتا بروكوفيفنا معاملتها لامرأة تعتبرها [1] protegée ، كما كانت تفعل ذلك قبل خمسة وثلاثين عاماً ، ولا تستطيع أن تألف ما تبديه هذه من أوضاع فيها اندفاع واستقلال . وقد لاحظت ، فيما لاحظت ، «أنهم جميعاً ، كما يبدو ، قد استعجلوا الأمور وفق عادتهم الدائمة وجعلوا من الحبة قبة» وان ما سمعته الآن من اليزافيتا بروكوفيفنا لا يكفى لاقناعها بأن حادثاً خطير الشأن قد حدث فعلاً . أليس من الأفضل لهم أن يصبروا وينتظروا فيروا ما يجىء به المستقبل ؟ وكان من رأيها أن الأمير شاب لائق ، وان يكن مريضاً وغريباً وتافهاً الى أقصى حدود التفاهة ؛ وأنكى ما فى الأمر أنه يعول خليلة علناً» . ادركت اليزافيتا بروكوفيفنا حق الادراك أن بيلوكونسكايا كانت غاضبة بعض الشىء من الاخفاق الذى مُنى به يفغينى بافلوفتش رغم أنها زكّته . عادت اليزافيتا بروكوفيفنا الى بافلوفسك وهى أشد حنقاً منها حين تركتها ، وسرعان ما أظهرت ذلك لذويها حين قالت لهم «انهم قد فقدوا عقولهم» ، وان أحداً ، غيرهم ، لا يسير أموره بهذه الطريقة . «لماذا هذا التعجل ! ماذا جرى ؟ اننى ، مهما أبحث ، لا أجد أن شيئاً قد وقع بالفعل ! فانتظروا حتى يقع شىء ! ان أشياء كثيرة يمكن أن تخطر ببال ايفان فيدوروفتش ! هل يجب أن

---

[1] محمّيتها (بالفرنسية فى الأصل) .

نجعل من الحبة قبة ؟» ، الخ الخ الخ .

وكانت النتيجة هى أن عليهم أن يسكنوا وأن يواجهوا الموقف بهدوء وأن يصبروا . ولكن الهدوء لم يدم عشر دقائق ، وأسفاه ! فان قصة ما جرى اثناء غياب الأم فى كامنى أوستروف ، سبّبت أول اخلال بهدوء الأعصاب . (ان زيارة اليزافيتا بروكوفيفنا للأميرة بيلوكونسكايا قد تمت فى الصباح . وفى العشية انما كان الأمير قد جاء بعد نصف الليل ظاناً أن الساعة هى العاشرة) . فحين ساءلت الأم بنتيها محمومة عن هذا الموضوع ذكرت لها أختا آجلايا تفاصيل كثيرة . لقد قالتا فى أول الأمر أن «ما من شىء حدث البتة» وان الأمير جاء ، فجعلته آجلايا ينتظر نصف ساعة قبل أن تظهر له . ثم ما ان دخلت حتى اقترحت عليه أن يلعبا بالشطرنج . وكان الأمير لا يعرف هذه اللعبة فغلبته آجلايا فى الحال . وفاضت نفس آجلايا فرحاً بهذا الانتصار ، فعيّرته بجهله ، وبلغت من الضحك عليه أن منظره أصبح يثير الشفقة . ثم اقترحت عليه أن يلعبا بالورق لعبة «المهبول» ، غير أن ما حدث هذه المرة كان نقيض ما حدث قبل ذلك : فان الأمير كان يجيد هذه اللعبة كما يجيدها . . . استاذ ! كان فيها استاذاً حقاً ! وقد لجأت آجلايا الى الغش والاحتيال فكانت تبدل أوراقها خلسةً ، وكانت تسترق النظر الى أوراقه ، ورغم ذلك كله كانت تظل هى «المهبول» ، وتكرر هذا خمس مرات تقريباً . فغضبت آجلايا غضباً شديداً حتى فقدت كل سيطرة لها على نفسها ، وأخذت تصب على رأس الأمير ألفاظاً تبلغ من الغلظة والنبو أنه كف عن الضحك ، بل شحب شحوباً

شديداً حين سمعها تقول «انها لن تطأ قدماها هذه الغرفة ما كان هو فيها ، وان مجيئه اليهن ، وخاصة فى منتصف الليل ، كان وقاحةً منه بعد كل ما جرى» . ثم خرجت من الغرفة صافقةً وراءها الباب صفقاً أحدث قرقعة شديدة . فانصرف الأمير بوجه كوجه من ينصرف من جنازة رغم كل ما بذلته الأختان من جهود لمواساته . وبعد انصرافه بربع ساعة عادت آجلايا تنزل من الطابق الأعلى الى الشرفة فجأةً ، وقد بلغت من السرعة والعجلة فى نزولها أنها لم يتسع وقتها حتى لمسح عينيها اللتين كانت فيهما آثار دموع . وانما هرعت هابطةً لأن كوليا قد جاء ومعه قنفذ . فأخذن جميعهن ينظرن الى القنفذ . وسألنه عن القنفذ فقال انه ليس له بل لرفيقه كوستيا ليبيديف التلميذ أيضاً ، الذى بقى واقفاً فى الشارع ويستحى أن يدخل لأنه يحمل فأسا ، وانهما قد اشتريا القنفذ والفأس من فلاح صادفاه . وكان الفلاح فى أول الأمر لا يريد أن يبيع الا القنفذ ، وقد طلب خمسين كوبيكا ثمناً له ، ولكنهما أقنعاه بأن يبيع أيضاً فأسه التى يمكن أن تنفعهما والتى كانت فأساً جيدة كل الجودة على كل حال . أخذت آجلايا تضرع الى كوليا أن يبيعها القنفذ فوراً ، وبلغت من الحاحها أنها خاطبته بقولها : «عزيزى كوليا» ، وقد قاوم الفتى مدة طويلة ، لكنه لم يصمد الى النهاية ، فنادى كوستيا ليبيديف ، فصعد هذا حاملا فأساً بيده ، مرتبكاً أشد الارتباك . وعُلم عندئذ على حين فجأة أن القنفذ ليس لهما ، وانما هو لرفيق ثالث ، اسمه بتروف عهد اليهما بمبلغ صغير من المال ليشتريا له به «تاريخ» شلوسر الذى كان رفيق رابع يحاول أن يبيعه بثمن

بخس لحاجته الى المال . فلما مضيا الى شراء الكتاب استسلما للغواية أثناء الطريق ، فاشتريا القنفذ ، فهما الآن يأتيان بتروف بالقنفذ والفأس بدلاً من «تاريخ» شلوسر . لكن آجلايا ألحت عليهما حتى قررا أخيراً أن يبيعاها القنفذ . فما ان امتلكته حتى وضعته بمساعدة كوليا فى سلة مضفورة وغطته بمنشفة وعهدت الى كوليا بأن يحمله الى الأمير على الفور راجيةً منه أن يقبله «هديةً تعبر عن عميق تقديرها له» . فقبل كوليا أن يقوم بهذه المهمة مسروراً ، ووعد بأن يتولى انفاذها على أحسن وجه ، ولكنه أسرع يسأل آجلايا : «ما تعنيه هذه الهدية ، هذا القنفذ ؟» فأجابته آجلايا بأن هذا ليس من شأنه ، فردَّ قائلاً ان هدية كهذه الهدية لا بد أن يكون لها دلالة رمزية ، فغضبت آجلايا وقالت له انه صبى شقى ، لا أكثر من ذلك . فأجابها قائلاً : لولا أنه يحترم فيها المرأة ولولا أن مبادئه تصدُّه لأراها فوراً كيف يستطيع أن يردَّ اهانة كهذه الاهانة . ولكن ذلك لم يمنعه أخيراً من أن يقوم بالمهمة متحمساً ، فمضى يحمل القنفذ الى الأمير ووراءه كوستيا ليبيديف . ولم تصبر آجلايا ، فحين رأته يهز السلة هزاً قوياً صاحت تقول له : «أرجوك يا عزيزى كوليا ، حذار أن تسقط السلة من يدك !» وكأنها لم تتشاجر معه منذ هنيهة . وكذلك كان شأن كوليا ، فانه هو أيضاً قد نسى انهما قد تشاجرا منذ قليل ، وأسرع يقف ليجيبها متحمساً بقوله : «لا ، لن أدع للسلة أن تسقط من يدى يا آجلايا ايفانوفنا . اطمئنى بالاً !» ثم اندفع يركض . وانفجرت آجلايا تضحك ، وعادت تصعد الى غرفتها مشرقة الوجه ، ولبثت على هذه الحال من انشراح

المزاج طوال النهار .

صعقت هذه الأنباء اليزافيتا بروكوفيفنا تماماً . ولم يكن ثمة داع الى ذلك فيما يبدو . ولكن حالتها النفسية كانت لا تتيح لها أن ترى الأمور رؤية أخرى . لقد بلغ قلقها ذروته . وكان القنفذ هو الذى يذكى هذا القلق خاصةً . ما معنى ارسال القنفذ الى الأمير ؟ أليس هذا اشارة متفقاً عليها ؟ أليس اصطلاحاً يضمر معنى خبيثاً ؟ فما هو معناه اذن ؟ هل هذا نوع من البرقية ؟ زد على ذلك أن ايفان فيدوروفتش المسكين الذى حضر التحقيق مع بنتيه رد رداً أفسد الأمر كله اذ قال ان ارسال القنفذ لا يشتمل فى رأيه على أية رسالة متفق عليها . والأبسط من هذا ان نقول ان «القنفذ قنفذ لا أكثر ، وقد يرمز الى الصداقة ، أو الى نسيان الاساءات ، أو الى المصالحة ، وليس ارساله ، على كل حال ، الا دعابة بريئة ومزاحة طارئة» .

يجب أن نذكر ، عابرين ، أن الجنرال كان على صواب تماماً . فان الأمير قد عاد الى بيته ، بعد أن أهانته آجلايا وطردته ، مستسلماً لأعمق اليأس ، فلما رأى كوليا بالقنفذ على حين فجأة بعد نصف ساعة من حزن شديد وكرب مظلم ، أضاءت السماء فوراً أمام عينيه ، فكأنه بُعث الى الحياة بعثاً جديداً بعد موت . وأخذ يسائل كوليا متلقفاً كل كلمة تنفرج عنها شفتا الصبى ، مكرراً السؤال الواحد عشر مرات ، ضاحكاً كطفلٍ ، شاداً على يدى التلميذين فى كل لحظة ، وكان الصبيّان يضحكان هما أيضاً ، وينظران اليه فرحين كل الفرح . ان هناك أمراً لا مراء فيه : هو أن آجلايا قد صفحت عنه فأصبح فى وسعه

أن يعود اليها فى هذا المساء نفسه . كان هذا هو الأمر الأساسى فى نظره ، بل كان هذا أكثرَ من ذلك أيضاً ، كان هذا عنده كلَّ شىء .

وصاح يقول أخيراً وهو فى ذروة النشوة :

ـــ كم نحن أطفال حتى الآن يا كوليا ! و . . . وما أحسن أن يكون المرء طفلاً ! . .

فأجابه كوليا بلهجة تعبرٍ عن السلطة وخطورة الشأن :

ـــ انها هائمة بحبك . . . ذلك هو الأمر كله يا أمير !

فاحمر وجه الأمير ، لكنه لم يجب هذه المرة بكلمة واحدة . وأخذ كوليا يضحك صافقاً يديه احداهما بالأخرى . فما هى الا لحظة حتى شاركه الأمير ضحكه ؛ وأخذ ، منذ ذلك الحين حتى المساء ، ينظر فى ساعته كل خمس دقائق ليرى كم مضى من الزمن وكم بقى حتى المساء .

لقد تغلبت حالة اليزافيتا بروكوفيفنا النفسية فى تلك اللحظة على كل شىء . أصبحت لا تستطيع السيطرة على نفسها ، واستسلمت لنوبة عصبية . وها هى ذى ، رغم اعتراضات زوجها وبنتيها ، ترسل فى طلب آجلايا فوراً لتلقى عليها سؤالاً أخيراً ولتحصل منها على جواب واضح قاطعٍ شافٍ . «يجب أن نفرغ من هذه القضية مرة واحدة ، ونهائياً فلا نذكرها بعد اليوم أبداً !» قالت ذلك ثم أضافت : «والا فلن أظل حيةً الى هذا المساء !» وعندئذ انما أدرك الجميع مدى البلبلة التى بلغتها الأمور . وقد استحال انطاق آجلايا بكلمة واحدة ؛ فانها لم تزد على أن أظهرت دهشة مصطنعة ، فاستياءً ، ثم انفجرت ضاحكة ، وتهكمت على

الأمير ، واستهزأت بجميع الذين كانوا يسألونها . ومضت اليزافيتا بروكوفيفنا الى سريرها لتضطجع قليلاً ، ثم لم تعد الى الظهور الا ساعة الشاى ، فى اللحظة التى يُفترض أن الأمير يصل فيها . فكانت ترتعش من شدة الانفعال بانتظار مجىء الأمير ، حتى اذا وصل أوشكت أن تصاب بنوبة عصبية .

أما الأمير فقد دخل هو نفسه وجلاً ، كمن يخطو متلمساً طريقه فى الظلام . وكان يبتسم ابتسامة غريبة وهو ينظر الى الحضور حتى لكأنه يطرح سؤالاً عليهم لأن آجلايا لم تكن فى الغرفة ثانية ، ففزع من غيابها لحظة دخوله . وكان الجمع لا يضم الا أهل الدار فما من غريب بينهم . حتى الأمير «ش» ، كانت قد احتجزته فى بطرسبرج أمور نشأت عن وفاة عمٍ يفغينى بافلوفتش . وقد أسفت اليزافيتا بروكوفيفنا على غيابه : «لو كان هنا لوجد شيئاً يقوله حتماً .» وكانت هيئة ايفان فيدوروفتش تدل على هم عميق ، وكانت أختا آجلايا رصينتين تلتزمان الصمت كأنهما تعاهدتا على ذلك . لم تعرف اليزافيتا بروكوفيفنا من أى طرف تبدأ الحديث . وها هى ذى تفرغ غضبها فجأةً على السكك الحديدية ، وترشق الأمير بنظرة تحمل معنى التحدى .

وأسفاه ! ان آجلايا لم تجىء بعد ، فها هو ذا الأمير يحس بأنه ضائع . كان يشعر بارتباك شديد وحيرة بالغة ، وحاول بتمتمة مضطربة أن يقول ان اصلاح شبكة السكك الحديدية يمكن أن يكون ذا فائدة كبيرة ، ولكن آديلائيدا أخذت تضحك على حين فجأة ، فارتبك الأمير تماماً من جديد . وفى تلك اللحظة بالذات دخلت آجلايا هادئة رصينة ، فردت على تحية الأمير رداً فيه أبهة واحتفال ،

ومضت تجلس ببطء مهيب فى أبرز مكان مرموق حول المائدة المستديرة . ثم ألقت على الأمير نظرة مستفهمة . فأدرك الجميع أن لحظة تبديد جميع أنواع سوء التفاهم قد حانت .

قالت آجلايا تسأل الأمير بلهجة واثقة توشك أن تشتمل على غضب :

— هل وصلك قنفذى ؟

فأجاب الأمير وقد احمر احمراراً شديداً وشعر بانهيار :

— نعم .

— فقل لنا على الفور ماذا ترى فى هذا . ذلك أمر لا بد منه حتى يهدأ بال أمى وأسرتنا كلها .

فهتف الجنرال فجأة يقول بقلق :

— اسمعى ، يا آجلايا . . .

وأردفت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول مرتاعة :

— هذا يتجاوز كل الحدود !

فردّت الفتاة فوراً على كلام أمها تقول بشىء من الصرامة :

— ليست المسألة مسألة حدود يا maman. لقد بعثت اليوم الى الأمير قنفذاً ، فأريد الآن أن أعرف رأيه . اننى مصغية اليك يا أمير .

— ماذا تقصدين بكلمة «الرأى» هنا يا آجلايا ايفانوفنا ؟

— رأيك فى القنفذ .

— بتعبير آخر . . . أنا أقدِّر يا آجلايا ايفانوفنا أنك تريدين أن تعرفى كيف استقبلت قنفذاً . . . أى كيف نظرت الى الأمر . . . أعنى كيف فهمت مسألة ارسال قنفذ . . . فاذا صدق ظنى ، فاننى افترض . . . باختصار . . .

وانقطعت أنفاسه فصمت .

وانتظرت آجلايا جوابه حوالى خمس ثوان ثم قالت :

— هيه . . . ما أراك قلت شيئاً ذا بال ! طيب . . أنا أوافق على أن ندع أمر القنفذ جانباً . ولكن يسرنى كثيراً أن أستطيع أخيراً أن أضع حداً لجميع الالتباسات التى تراكمت حتى الآن . فاسمح لى فى آخر المطاف ، أن أعرف من فمك أأنت تنوى أن تخطبنى أم لا ؟

صاحت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول :

— آه ، رباه ! . .

وارتعش الأمير وقام بحركة تقهقر الى وراء . وتجمّد ايفان فيدوروفتش شدهاً . وقطّبت الأختان حواجبهما .

— لا تكذب يا أمير . قل الحقيقة . انهم بسببك يصدعوننى بأسئلة غريبة . فهل لاستفساراتهم وتحقيقاتهم هذه من أساس تقوم عليه ؟ تكلم !

أجاب الأمير وهو يتحمس فجأة :

— أنا لم أخطبك يا آجلايا ايفانوفنا . ولكنك . . . تعرفين بنفسك مدى حبى لك وثقتى بك . . . حتى فى هذه اللحظة . . .

— لقد طرحت عليك سؤالاً : هل تطلب يدى أم لا ؟

فأجاب الأمير بصوت منطفئ :

— أطلبها .

فأثار هذا الجواب حركة قوية عامة .

قال ايفان فيدوروفتش وقد انفعل انفعالاً قوياً :

— ما هكذا تُعالَج هذه الأمور يا صديقي العزيز !

هذا . . . اذا كان هذا حقاً ، فانه أمر مستحيل ، يا جلاشاه . معذرة يا أمير ، معذرة يا صديقى العزيز . . .

ثم أضاف ينادى زوجته مستنجداً بها :

— اليزافيتا بروكوفيفنا ! . . ينبغى . . . ينبغى أن نفهم . . .

فصاحت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول بحركة انكار :

— أنا أرفض ، أنا أرفض !

— اسمحى لى يا maman أن أقول كلمتى أنا أيضاً . أعتقد أن لى حقاً فى الادلاء بصوتى فى موضوع من هذا النوع : هذه لحظة حاسمة فى حياتى (تلك هى الجملة التى قالتها آجلايا بهذه الألفاظ نفسها) ، فأريد أن أعرف أنا نفسى أين موقعى ، ويسرنى عدا ذلك أن تكونوا كلكم شهوداً علىَّ . . . فاسمح لى أن أسألك اذن ، يا أمير ، ما هى الوسائل التى تنوى أن تحقق لى بها سعادتى «ما دمت تكن هذه النية» ؟

— الحقيقة أننى لا أعرف بماذا أجيبك يا آجلايا ايفانوفنا . هنا . . . أى جواب يمكن هنا ؟ أهو ضرورى حقاً ؟

— يبدو انك مضطرب مختنق الأنفاس ، فاسترح لحظةً واستردَّ قواك : اشرب كأساً من الماء ، على أنك ستؤتى بشىء من الشاى حالاً .

— أحبك يا آجلايا ايفانوفنا ، أحبك كثيراً ، ولا أحب غيرك و . . . لا تمزحى ، أرجوك . أنا أحبك كثيراً .

— ولكن القضية قضية هامة . نحن لسنا أطفالاً ، ويجب أن ننظر الى الأمر نظرة وضعية . . . هلاَّ تفضلت فذكرت لنا الآن مقدار الثروة التى تملكها ؟

تمتم ايفان فيدوروفتش يقول مشدوهاً :

— كفى يا آجلايا ! ماذا أصابك ؟ ما هكذا . . . لا . . لا . . .

وهمست اليزافيتا بروكوفيفنا بصوت مرتفع :

— يا للعار !

وأضافت ألكسندرا تقول بتلك اللهجة نفسها :

— هى مجنونة !

وسألها الأمير مدهوشاً :

— ثروتى ؟ تقصدين المال الذى أملكه ؟

— بالضبط .

تمتم الأمير يقول وقد احمر وجهه :

— أملك . . . أملك الآن مائة وخمسة وثلاثين ألف روبل .

فقالت آجلايا معبرةً عن دهشتها بصراحة دون أن تحمر البتة :

— لا أكثر ؟ على كل حال ، لا بأس بها ، لا سيما اذا عرف المرء كيف يقتصد فى نفقاته . . . هل تنوى الحصول على وظيفة ؟

— كنت أريد أن أقدم امتحاناً لأصبح معلم أطفال . . .

— فكرة عظيمة . هذه وسيلة مضمونة لزيادة مواردنا . هل يمكنك أن تصبح من رجال البلاط ؟

— من رجال البلاط ؟ لم أفكر فى هذا من قبل قط ، ولكن . . .

نفدت قدرة الأختين فى هذه المرة على كظم ما فى نفسيهما فانفجرتا تضحكان . كانت آديلائيدا قد لاحظت منذ مدة ، من بعض التقبضات العصبية فى وجه آجلايا ،

علامات ضحك تحاول آجلايا حبسه ولكنه لن يلبث أن ينطلق انطلاقاً لا سبيل الى مغالبته . وأرادت آجلايا أن تصطنع هيئة تهديد ازاء ضحك أختيها ولكنها لم تستطع أن تتمالك نفسها ثانية واحدة فاستسلمت لنوبة ضحك مجنون يوشك أن يكون هستيرياً . ثم نهضت فى النهاية بوثبة واحدة ، وخرجت من الغرفة راكضة .

هتفت آديلائيدا تقول :

— كنت أعلم أن ذلك كله سينتهى بالضحك وحده ! فهمت ذلك منذ البداية ، منذ حكاية القنفذ .

فصاحت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول وقد اعترتها نوبة غضب شديد :

— لا ، هذا لن أسمح به ، لن أسمح به !

واندفعت فى أثر آجلايا . وتبعتها بنتاها مسرعتين . ولم يبق فى الغرفة الا الأمير ورب الأسرة .

قال الجنرال بغتةً ، ولكن دون أن يبدو عليه أنه يعرف هو نفسه ماذا يريد أن يقول على وجه الدقة :

— هذا ، هذا . . . يا ليف نيقولايفتش ، هل كان يمكنك تصور شىء كهذا ؟ لا ، حقاً لا . . . هه ؟

أجاب الأمير حزيناً :

— أرى أن آجلايا ايفانوفنا قد ضحكت علىّ .

— انتظر يا صديقى ، سأذهب الى هناك . ابق انت هنا . . . لأن . . . قل لى أنت على الأقل يا ليف نيقولايفتش كيف وقع ذلك كله وما معنى هذا الأمر فى جملته ان صح التعبير ؟ عليك أن تعترف يا صديقى اننى أنا الأب . ومع ذلك ، رغم اننى الأب ، فاننى لا أفهم من

الأمر شيئاً البتة ! فاشرح لى أنت على الأقل !

— اننى أحب آجلايا ايفانوفنا ، وهى تعرف ذلك . . . تعرفه منذ زمن طويل فيما أظن .

رفع الجنرال منكبيه . وقال :

— غريب ، غريب . . . وهل تحبها كثيراً ؟

— أحبها كثيراً .

— غريب . هذا كله يبدو لى غريباً . أقصد . . . مفاجأة كهذه المفاجأة . . . اسمع يا صديقى . . . أنا ليست الثروة هى التى تهمنى (رغم اننى كنت أقدِّر أن تكون ثروتك أكبر) ولكننى . . . أفكر فى سعادة ابنتى . . . الخلاصة . . هل أنت قادر ، ان صح التعبير ، على أن تحقق لها تلك . . السعادة ؟ ثم . . . ما هو الأمر ؟ أمزاحة منها أم تصريح صادق ؟ لا أقصد من جهتك بل من جهتها ؟

فى تلك اللحظة سُمع صوت ألكسندرا ايفانوفنا وراء الباب : كانت الفتاة تنادى أباها .

— انتظرنى يا صديقى العزيز ، انتظرنى ! انتظر وفكِّر ، سأرجع حالاً . . .

قال له مسرعاً وركض يلبى نداء ألكسندرا شبهَ مذعور .

فوجد هنالك امرأته وابنته تذرفان دموعاً غزيرة وقد ارتمت كل منهما فى ذراعى الأخرى . كانت دموعهما دموع سعادة ، وحنان ، ومصالحة . وكانت آجلايا تقبِّل يدى أمها وخديها وشفتيها . كانت كل منهما تحضن الأخرى بحرارة .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا :

— هى ذى يا ايفان فيدوروفتش ، انظر اليها ، انها هى الآن ، بكاملها !

حوّلت آجلايا وجهها المبلل بالدموع ولكنه مشرق بالسعادة ، عن صدر أمها ، نظرت الى أبيها ، وانطلقت تضحك ضحكة رنانة ، ثم اندفعت نحوه فاحتضنته بذراعيها احتضاناً شديداً وقبّلته عدة مرات . ثم ارتمت على أمها من جديد ، فدفنت وجهها فى صدرها حتى لا يراه أحد ، وعادت تبكى . فغطتها اليزافيتا بروكوفيفنا بطرف شالها .

— اه ! كيف يمكن هذا ؟ كيف تعاملينا هكذا ؟ ما أنت ، بعد هذا كله ، الاَّ بنت صغيرة قاسية !

كذلك قالت الأم لابنتها ، ولكنها قالت هذا الكلام فى هذه المرة مع تعبير عن الفرح ، حتى لكأنها تتنفس بحرية أكبر .

فصاحت آجلايا تقول فجأة :

— قاسية ! نعم ، قاسية ! أنا فتاة شريرة ، طفلة أفسدها الدلال ! قولى هذا الكلام لأبى . هه ، هو ذا هنا . أأنت هنا يا بابا ؟ هل سمعت ؟

بهذا خاطبت أباها ضاحكةً من خلال الدموع .

فقال الجنرال وقد أسكرته النشوة وراح يلثم يد ابنته (اما آجلايا فلم تنزع يدها) :

— عزيزتى . . . معبودتى ! أأنت تحبين اذن هذا . . . الفتى ؟

فصرخت آجلايا تقول فجأة وهى تنصب رأسها :

— كلا ثم كلا ثم كلا ! . . أنا لا أطيقه . . فتاك هذا ! لا أطيقه ! واذا تجرأت أن تقول لى مرةً أخرى يا بابا . . . اعرفْ أننى أكلمك جادة ، هل سمعت ؟ اننى أتكلم جادة !

وكانت آجلايا تتكلم جادة بالفعل ، حتى لقد كانت محمرة أشد الاحمرار وكانت عيناها تقدحان شرراً . صمت الأب مرتاعاً ، ولكن اليزافيتا بروكوفيفنا أومأت له من وراء آجلايا ، فأدرك أن تلك الايماءة تعنى «لا تسألها عن شيء» .

قال :

— اذا كان الأمر كذلك يا ملاكى فليكن ما تشائين . افعلى ما يحلو لك . ولكنه ينتظر هناك وحيداً . أفلا يجب افهامه بالحسنى واللطف أن ينصرف ؟

وأومأ الجنرال لاليزافيتا بروكوفيفنا ، هو أيضاً ، بغمزة من عينيه .

— لا ، لا ، لا داعى الى هذا . لا لزوم لاصطناع «اللطف» . امض اليه انت . وسأجيء بعدك فوراً ، سوف أستغفر هذا . . . الشاب ، لأننى أسأت اليه .

قال ايفان فيدوروفتش مزايداً بهيئة جادة :

— بل أسأت اليه اساءة بالغة .

— اذن . . . فابقوا جميعاً هنا . أذهب اليه أنا أولاً ، ثم تلحقون بي فوراً . هذا أفضل .

فما ان وصلت الى الباب حتى استدارت فجأة وقالت لهم بلهجة حزينة :

— أحس أننى سوف أضحك ! أحس أننى ساموت من الضحك !

ولكنها لم تلبث أن عادت تسعى الى الأمير راكضة .

سأل ايفان فيدوروفتش امرأته متعجلاً :

— هيه ؟ ما هذا أخيراً ؟ ما رأيك ؟

فأجابته اليزافيتا بروكوفيفنا بتلك اللهجة المتعجلة نفسها :

— أخاف أن أقول رأيى . الأمر فى نظرى واضح .

— وهو واضح فى نظرى أنا أيضاً . واضح كالنهار . انها تحب .

— بل قولا انها مولّهة حباً ! ولكن ماذا وجدت فيه ؟

كذلك قالت الكسندرا ايفانوفنا .

رسمت اليزافيتا بروكوفيفنا علامة الصليب على صدرها وقالت :

— اذا كان هذا هو قدرها فليباركها الله !

قال الجنرال مؤيداً :

— نعم ، هذه هى الكلمة : انه قدرها . ولا مفرّ للانسان من قدره !

وعاد الجميع الى الصالون حيث كانت تنتظرهم مفاجأة جديدة .

ان آجلايا ، حين لقيت الأمير ، لم تضحك كما كانت تخشى ذلك ، حتى انها خاطبته بلهجة تكاد تكون خجلى . قالت له :

— اغفر لفتاة حمقاء طائشة ، لطفلة أفسدها الدلال (قالت له ذلك وتناولت يده) ، وثق ثقة تامة بأننا جميعاً نحترمك كثيراً . فاذا كنتُ قد سمحت لنفسى بأن أجعل . . . براءتك الطيبة الكريمة محلّ استهزاء ، فاصفح عنى ولا تعدد ذلك منى الا عبثاً من عبث الأطفال . اغفر لى اننى ألححت على أمر سخيف لا يمكن أن يتحقق طبعاً . . .

قالت آجلايا هذه الكلمات الأخيرة بنبرة خاصة .

وقد دخل الأب والأم والأختان الى الصالون فى اللحظة المناسبة تماماً ، فسمعوا تلك الجملة التى أذهلتهم : «أمر

سخيف لا يمكن أن يتحقق طبعاً» . وقد ذُهلوا خاصةً من اللهجة الجادة التى قالت آجلايا بها تلك الجملة . فنظرت الأعين الى الأعين يسأل بعضها بعضاً . ولكن الأمير لم يكن يبدو عليه أنه فهم ، وكان مشرق الوجه متهلل الأسارير .

ودمدم يقول :

— لماذا تتكلمين هكذا ؟ لماذا أنت . . . تستغفرينني ؟

حتى لقد أراد أن يضيف أنه ليس جديراً بأن يُستغفر. من يدرى ؟ لعله كان قد أدرك معنى تلك الجملة : «أمر سخيف لا يمكن أن يتحقق طبعاً» . ولكن طبيعة فكره كانت خاصةً جداً بحيث أن تلك الكلمات نفسها لعلها غمرته فرحاً . وما من شك فى أنه قد بلغ ذروة السعادة منذ قدَّر أنه سيكون فى وسعه أن يعود فيرى آجلايا ، وأنه سيُسمح له بأن يكلمها ، وأن يبقى الى جانبها ، وأن يتنزه فى صحبتها . ولعله كان يقنع بهذا وحده طول العمر ! (ولقد كان يبدو على اليزافيتا بروكوفيفنا أنها تخشى بغريزتها تلك القناعة التى أدركتها فيه ، فكانت تشعر بمخاوف صميمة ما كان لها أن تستطيع الافصاح عنها) .

يصعب على المرء أن يتصور ما أظهره الأمير فى ذلك المساء من حماسة وتألق . لقد بلغ من المرح أن مرحه انتقل الى أولئك الذين كانوا يرونه . هذا ما قالته أختا آجلايا فيما بعد . لقد كان متدفقاً فى الكلام ، وذلك أمر لم يحدث له منذ ستة أشهر ، أى منذ ذلك الصباح الذى تعرف فيه الى آل ايبانتشين . ولقد كان واضحاً أنه منذ عودته الى بطرسبرج قد قرر عامداً أن ينطوى على نفسه وأن

يلتزم الصمت . حتى انه قبل ذلك المساء بزمن قصير قد قال للأمير «ش» على مرأى ومسمع من الجميع انه يعتقد أن عليه أن يلتزم الصمت ، لأنه لا يحق له الحط من قدر الفكرة بافصاحه هو عنها . أما فى ذلك المساء فانه كاد يكون الشخص الوحيد الذى تكلم . كان حاضر البديهة طلق اللسان يجيب عن جميع الأسئلة بوضوح كامل وانشراح تام وافاضة مسهبة . ومن جهة أخرى ، لم يشتمل حديثه على أى شئ يشف عن مجاملة . انه لم يعبر الا عن أفكار جدية وآراء رصينة كانت فى بعض الأحيان عويصة . وأبدى كذلك ملاحظات مكنونة شخصية ونظرات خاصة . ولقد كان يمكن أن يكون هذا كله محل هزء لو لا أن الأمير كان يتكلم «بلغة منتقاة» ، كما شهد له الحضور بذلك فيما بعد . ولئن كان الجنرال يحب حديث المواضيع الجدية ، فقد وجد هو واليزافيتا بروكوفيفنا أن أحاديث الأمير مسرفة فى العلمية ، حتى أن وجهيهما قد تجهما قبيل نهاية السهرة . ولكن الأمير بلغ من الانتعاش والحميّا أنه أخذ يروى فى النهاية حكايات مضحكة كان هو أول من يضحك لها ، فيأخذ الآخرون يضحكون لضحكه المرح أكثر مما يضحكون للحكايات ذاتها . أما آجلايا فانها لم تكد تتكلم طوال السهرة . ولكنها فى مقابل ذلك لم تنقطع عن الاصغاء الى ليف نيقولايفيتش لحظةً واحدةً وكانت تتأمله حتى أكثر مما تصغى اليه .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا فيما بعد لزوجها :

— انظر كيف تتأمله ! انها لا تحوِّل بصرها عنه لحظة . انها تشرب كل كلمة من كلماته ! فاذا قال لها

أحد انها تحبه قلبت الدنيا رأساً على عقب !

أجاب الجنرال قائلاً وهو يرفع منكبيه :

ـــ ما العمل ؟ هذا هو القدر !

وظل الجنرال مدة طويلة يكرر هذه الجملة التى كان يحب أن يرددها . يجب أن نضيف الى هذا أن الجنرال ، من حيث هو رجل أعمال ، كان ينظر نظرة عدم الارتياح الى كثير من جوانب الموقف الراهن ، ولا سيما خلوه من الوضوح . ولكنه كان قد قرر أن يصمت ، وأن يفكر فى الأمور على نحو ما تفكر . . . اليزافيتا بروكوفيفنا .

لم تدم نشوة الأسرة الا مدة قصيرة ، ففى الغداة وقعت بين آجلايا وبين الأمير مشاجرة جديدة ، وتكرر ذلك فى كل يوم من الأيام التى تلته . فكانت آجلايا تظل تستهزئ بالأمير وتسخر منه حتى لتكاد تعامله كما يعامل مهرج . صحيح أنهما كانا فى بعض الأحيان يجلسان ساعة أو ساعتين فى الحديقة فى العريشة . ولكن لوحظ أن الأمير كان فى مثل هذه الأحوال يقرأ لها جريدة أو كتاباً طول الوقت تقريباً . . .

وبينما كان يقرأ لها الجريدة ذات يوم ، قاطعته قائلة :

ـــ غريب ! لقد لاحظت أن ثقافتك ناقصة نقصاً يدعو الى الأسف الشديد حقاً ؛ فاذا سئلت عن أمر من الأمور عجزت عن أن تقول ماذا فعلت الشخصية الفلانية ، ومتى وقع الحادث الفلانى ، وما هو القانون الفلانى . ذلك أمر يدعو الى الشفقة عليك والرثاء لك فعلاً .

فأجابها الأمير :

ـــ قلت لك ان حظى من التعليم ضئيل .

ـــ فماذا بقى لك اذن ؟ اى اعتبار يمكن أن أحمله لك بعد هذا ؟ هيا واصل القراءة ، بل كفى الآن ، اكفف عن القراءة .

وفى ذلك المساء نفسه أثارت أزمة جديدة سريعة بدت للجميع لغزاً لا يُفهم . فحين عاد الأمير «ش» ، أظهرت آجلايا له كثيراً من المودة واللطف ، وسألته طويلاً عن يفغيني بافلوفتش (لم يكن الأمير ليف نيقولايفتش قد وصل بعد) . وفجأة أباح الأمير «ش» لنفسه أن يلمح الى «تغير جديد قريب سيحدث فى الأسرة» ، وذكر فكرة كانت قد أفلتت من اليزافيتا بروكوفيفنا هى أنه ربما كان من الأفضل ارجاء زواج آديلائيدا قليلاً ليتم الاحتفال بالزفافين فى آن واحد معاً . فلما سمعت آجلايا هذه الكلمات غضبت غضباً شديداً فظيعاً لا يتصوره الخيال ، ووصفت هذا كله بأنه «افتراضات سخيفة» ، بل مضت الى أبعد من ذلك فقالت فيما قالت : «انها لا تنتوى بعد أن تحل محل خليلات أى انسان» .

فوجئ الجميع بهذه الكلمات ، وفوجئ بها الأبوان خاصة . وألحت اليزافيتا بروكوفيفنا ، أثناء اجتماع سرى مع زوجها ، على ضرورة أن يُسأل الأمير ايضاحاً حاسماً فى أمر ناستاسيا فيليبوفنا .

فحلف ايفان فيدوروفتش على أن ما قالته آجلايا لم يكن الا «اندفاعة» أثارها فيها شعور بالحياء و«الخفر» ؛ وأن هذه الاندفاعة ما كان لها أن تحدث لو لا أن الأمير «ش» تكلم عن الزواج ، لأن آجلايا تعرف هى نفسها

حق المعرفة أن الكلام عن علاقة بين الامير وناستاسيا فيليبوفنا ليس الا نميمة من اناس أشرار ، وأن ناستاسيا فيليبوفنا ستتزوج روغوجين ، وأن الأمير لا شأن له فى هذا الموضوع كله اطلاقاً ولا فى الصلة التى لا وجود لها الآن ، بل ولم يكن لها وجود فى يوم من الأيام اذا أردنا أن نقول الحقيقة كلها .

أما الأمير فما من شىء أثار اضطرابه وظل يتمتع بهناءته وسعادته . صحيح أنه كان يلاحظ فى بعض الأحيان تعبيراً كئيباً ونفاد الصبر فى عينى آجلايا ، ولكنه كان يثق أكثر بشىء آخر ، فكانت هذه السحابة تغيب عن بصره من تلقاء نفسها . كان قد اقتنع فلا يمكن أن يزعزع اقتناعه شىء . ولعله قد غلا فى هدوء البال وطمأنينة النفس ؛ وهذا على الأقل ما شعر به ايبوليت الذى لقيه صدفة ذات يوم فى الحديقة العامة .

لقد استوقف ايبوليتُ الأميرَ يومئذ وبدأ كلامه بأن قال له :

— هيه ! ألم أكن على حق يومَ قلت لك انك مولَّه حباً ؟

فمدَّ الأمير اليه يده وهنأه على أن وجهه يدل على «تحسن صحته» . وكان يبدو على المريض نفسه أنه استرد بعض أمله ، وذلك ما يحدث للمصدورين فى كثير من الأحيان .

ولقد كان ايبوليت ينتوى خاصة ، حين اقترب من الأمير ، أن يقول له كلاماً جارحاً عن هيئة السعادة التى تبدو عليه . ولكن سرعان ما زايلته هذه الفكرة وأخذ يتكلم

عن نفسه ، فأفاض فى ارسال الشكايات تلو الشكايات متكررةً لا نهاية لها ولا اتساق بينها . وختم كلامه قائلاً :

— لا تستطيع أن تتصور مدى ما يتصفون به هناك من شدة التزق والصغار وسرعة الاهتياج وقوة الأثرة وحب الظهور وتفاهة النفوس . هل تصدق أنهم قبلوا ايوائى على شرط صريح هو أن أموت بأقصى سرعة ممكنة . لذلك تراهم الآن غاضبين غضباً شديداً لأننى لم ألفظ آخر أنفاسى بل تحسنت صحتى . يا للمهزلة ! أراهن على أنك لا تصدق كلامى !

لم يشعر الأمير بالرغبة فى المعارضة .

وأضاف ايبوليت يقول باهمال :

— حتى ليخطر ببالى أحياناً أن أعود أسكن عندك ! أنت لا تصدق اذن أنهم لا يتورعون عن ايواء انسان بشرط أن يموت ولا يتأخر موته ، هه ؟

— كنت أتصور أنهم حين دعوك اليهم كانوا يسعون الى هدف آخر .

— هىْ هىْ ! ما أنت بالبسيط الى الحد الذى يحلو للناس أن يزعموه ! لم يحن الحين بعد ، والا لكشفت لك بعض الأمور عن جانيا الصغير هذا وعن الآمال التى تملأ رأسه . انهم يحاولون نسفك يا أمير . وهم يبذلون فى سبيل ذلك جهوداً كبيرة . . . لذلك يشفق عليك المرء حين يراك هادئاً هذا الهدوء . ولكن من المؤسف أنك لا تستطيع أن تكون غير هذا !

سأله الأمير ضاحكاً :

— أهذا ما يجعلك ترثى لحالى ! هل ترى اذن

اننى أكون أسعد حالاً اذا كنت أكثر قلقاً ؟

— خير للانسان أن يكون تعيساً «عارفاً» ، من أن يكون سعيداً و . . . مخدوعاً . يبدو أنك لا تخشى منافسةً . . . من تلك الجهة ، هه ؟

— ان تلميحاتك الى المنافسة فيها شيء من الاستهتار يا ايبوليت . يؤسفنى أننى لا يحق لى أن أجيبك . أما جافريلا آرداليونوفيتش ، فلا بد أن تسلّم لى بأنه يصعب عليه أن يحافظ على الهدوء بعد كل ما فقد ، هذا اذا كنت تعرف شئونه ولو بعض المعرفة . يخيَّل الىَّ أن من الأفضل أن يُنظر الى الأمور من هذه الزاوية . ما يزال فى وسعه أن يصلح نفسه . ان أمامه سنين طويلة ، وان الحياة غنية . . . على أن . . . على أن . . . — هنا أخذ الأمير يتمتم متلعثماً وقد فقد تسلسل أفكاره فجأة ، فقال : — . . . أما مسألة نسفى . . . فانني لا أفهم حتى ماذا تقصد . الأفضل ترك هذا الحديث يا ايبوليت .

— لنتركه الآن . لا سيما وأنك لا تستطيع أن تستغنى عن اظهار كرمك والتدليل على سماحتك . نعم يا أمير ، أنت لا بد لك من أن تلمس بيدك . وهبك لمست بيدك فانك لن تصدق . هأ هأ ! . . . ولكن قل لى : ألا تحتقرنى الآن احتقاراً عميقاً ؟

— لماذا ؟ ألأنك تألمت وتتألم أكثر منا جميعاً ؟

— لا ، بل لأننى غير جدير بآلامى .

— ان من أمكنه أن يتألم أكثر من الآخرين هو بهذا نفسه جدير بتلك الزيادة من المحن . حين قرأت آجلايا ايفانوفنا اعترافك ، تمنت أن تراك ، ولكن . . .

قاطعه ايبوليت ، كأنما ليغيِّر مجرى الحديث بأقصى سرعة ، قاطعه قائلا :

— انها ترجئ . . . ذلك مستحيل عليها . . . أفهم ، أفهم : . . بالمناسبة : يقال انك أنت الذى قرأت لها ، بصوت عالٍ ، كل تلك الثرثرة المشوشة المضطربة . الحق أننى كتبت ما كتبت . . . وفعلت ما فعلت ، في نوبة هذيان . اننى لا أتصور كيف يستطيع امرؤ أن يكون — لا أقول قاسياً (فلو قلت ذلك لكنت أذل نفسى) بل أقول صبيانياً ومغتراً وحقودا الى الحد الذى يمكنه فيه أن يؤاخذنى على هذا الاعتراف وأن يستعمله سلاحاً ضدى ! لا تخف ، فلست أتكلم عنك أنت . .

— ولكن يؤسفنى أن أراك تتبرأ من تلك الأوراق يا ايبوليت ، فان فيها نبرة صدق واضحة . حتى الفقرات المضحكة منها وهى كثيرة (هنا صعَّر ايبوليت وجهه) ، انما يكفِّر عنها الألم ، لأن الادلاء بهذه الاعترافات قد أوجب هو نفسه مواجهة الألم أيضا . . . ولعله كان فعلاً كبيراً من أفعال البسالة . لا شك أن الفكرة التى انقدت لها كانت تستوحى عاطفة نبيلة ، مهما تكن المظاهر . كلما فكرت في هذا مزيداً من التفكير ، اقتنعت به مزيداً من الاقتناع ، أحلف لك . اننى لا أحكم عليك . اننى أقول لك رأيى ؛ ويؤسفنى اننى صمتُّ حينذاك . . .

احمر وجه ايبوليت . وقد خطر بباله للحظة أن الأمير يهزل ، وأنه يمد له شباكاً . ولكنه تأمل وجهه فلم يسعه الا أن يؤمن بأنه صادق . فعاد الهدوء الى أسارير وجهه . وقال :

— ويجب أن أموت !

وأوشك أن يضيف الى ذلك قوله : «كيف يجوز

أن يموت رجل مثلى ؟» لكنه أمسك ، وتابع كلامه يقول :

— لا تستطيع أن تتخيل كيف يثقل علىّ صاحبك جانيا ؛ لقد اعترض علىّ ذات يوم قائلاً ان الذين سمعوا اعترافى قد يكون بينهم ثلاثة أو أربعة سيموتون قبلى ! يا لها من فكرة ! هو يظن أن هذا يعزيني . هأ هأ ! . . هم أولاً لم يموتوا بعد . ثم هبهم نفقوا قبلى فعلاً ، فلا شك أنك تسلّم لى بأن ذلك لا يسرّى عنى كثيراً ! انه يقيس الناس بنفسه . على أنه مضى الى أبعد من ذلك أيضا . لقد شتمنى قائلاً ببساطة : ان على المرء فى مثل هذه الحالة ، اذا كان يحترم نفسه ، أن يموت صامتاً ، وان هذه القضية كلها لا تشتمل من جانبى الا على أنانية ! يا لها من فكرة ! والحق أن الأنانية فيه هو ! ما أنعم أنانية أمثال هؤلاء الناس ، بل قل ما أكثف أنانية أمثال هؤلاء الناس الذين لا يستطيعون أن يروها فى أنفسهم ! . . هل قرأت ، يا أمير ، شيئاً عن موت رجل اسمه ستيبان جليبوف» فى القرن الثامن عشر ؟ لقد وقع تحت بصرى أمس مصادفة . . .

— من هو ستيبان جليبوف هذا ؟

— هو رجل رُفع على الخازوق فى عهد بطرس الأكبر.

— آ . . . رباه ! عرفت من هو ! لقد ظل على الخازوق خمس عشرة ساعة ، فى برد شديد ، لا يغطيه الا معطف على كتفيه ، ثم مات صامداً بقوة نفسية خارقة . نعم قرأت هذا . . . ولكن ما الذى تريد أن تقوله ؟

— اللّه يهب لبعض الناس ميتةً كتلك الميتة ، ولكن لا يهبها لنا نحن ! أتراك تظن أننى غير قادر على أن أموت كما مات جليبوف ؟

قال الأمير مرتبكاً :

— لا ، لا ، أبداً . . . كل ما أردت أن أعبّر عنه هو أنك . . . بل قل اننى لم أرد أن أزعم أنك لا تشبه جليبوف ، وانما أردت أن أشير الى أنك . . . فى ذلك الزمان يمكن أن تكون . . .

— حزرت : تريد أن تقول اننى فى ذلك الزمان يمكن أن أكون مثل أوسترمان» لا مثل جليبوف . أليس هذا ما تريد أن تقوله ؟

سأله الأمير مدهوشاً :

— أىّ أوسترمان ؟

فتمتم ايبوليت يقول متحيراً :

— أوسترمان ، الدبلوماسى أوسترمان ، الذى عاصر بطرس الأكبر .

وتبع ذلك صمت فيه ارتباك .

ثم قال الأمير بلهجة بطيئة بعد لحظة تأمل :

— لا ! ليس ذلك ما أردتُ أن أقوله . لا يخيّل الىّ انه يمكن أن تكون مثل أوسترمان . . .

اكفهر وجه ايبوليت .

فأسرع الأمير يضيف مستدركاً :

— على كل حال ، سأقول لك الآن لماذا قامت فى ذهنى هذه الفكرة . ان أناس ذلك الزمان (ويميناً ان هذا قد خطف انتباهى دائماً) كانوا يختلفون اختلافاً كبيراً عن أناس العهد الذى نعيش فيه . لكأنهم كانوا من جنس آخر . نعم ، حقاً ، لكأنهم ينتمون الى نوع انسانى غير النوع الذى ننتمى اليه نحن . . . فى ذلك الزمان ، كان

الانسان انسانَ الفكرة الواحدة ان صح التعبير . أما معاصرونا فلأن أعصابهم أكثر توتراً ، ولأنهم أكثر تطوراً وأشد حساسية فهم يستطيعون أن يتبعوا فكرتين أو ثلاثاً فى آن واحد . . . ان الانسان الحديث أوسع وأرحب . وانى أؤكد لك أن هذا هو ما يمنعه من أن يكون كتلة واحدة كما كان انسان القرون الخوالى . . . اننى . . . اننى لم أقل كلامى الا بهذا المعنى ، وليس . . .

— انك تحاول الآن أن تعزينى عن معارضتك ايای بتلك السذاجة . هأ هأ ! . . انك لطفل تماماً يا أمير ! على وجه العموم ، ألاحظ أنكم جميعاً تعاملوننى كما يعامَل . . . فنجان من خزف . . . لا بأس ! . . لست أزعل . على كل حال ، لقد جرى حديثنا مجرى مضحكاً . أنت فى بعض الأحيان طفل حقاً يا أمير . واعلمْ من جهة أخرى يا أمير اننى كنت أطمع فى أن أكون شيئاً أفضل من أوسترمان . لا يستحق العناء أن يُبعث المرء حيا من بين الأموات فى سبيل أن يكون رجلاً مثل أوسترمان . . . وعلى كل حال يجب فى رأيى أن أموت بأقصى سرعة ممكنة ، والا لرأيتنى أتمنى أنا نفسى أن . . . دعنى . الى اللقاء ! ولكن قل لي : ما هى فى رأيك أفضل طريقة لموتى ؟ أقصد . . . ما أقرب ميتة الى الفضيلة ؟ لماذا لا تجيب ؟

قال الأمير بصوت خافت :

— مُرَّ بقربنا وأنت تغفر لنا سعادتنا !

— هأ هأ هأ ! هذا بعينه ما كنت أفكر فيه ! لقد توقعت كلاماً من هذا النوع حتماً ! ومع ذلك ، فانك . . . فانك . . . هيَّا . . . هيَّا . . . طيب ! آه ! يا للناس البلغاء ! الى اللقاء ، الى اللقاء !

إن النبأ الذى نقلته فارفارا آردالیونوفنا الى أخيها كان صحيحاً كل الصحة : ستقام سهرة فى دار آل ايبانتشين ، ومن المتوقع أن تحضرها بيلوكونسكايا . لقد انتظروا وصول الضيوف ذلك المساء فعلاً . لكن فارفارا تكلمت في الأمر ، على عادتها ، بحدة تزيد قليلاً عن الحد اللازم . صحيح أن السهرة قد تقررت بسرعة متعجلة ، ووسط اضطراب شديد لا ضرورة له اطلاقاً . وذلك لأنه «لا شيء فى هذه الأسرة يتم كما يتم فى غيرها» ؛ وكل شيء يُفسَّر بنفاد الصبر لدى اليزافيتا بروكوفيفنا التى كانت «لا تريد أن تبقى فى الشك» ، كما يُفسَّر بما يعانيه الأبوان من ارتعاد قلبيهما على سعادة ابنتهما الحبيبة . ثم ان بيلوكونسكايا كانت على وشك أن تسافر فعلاً ؛ واذ أن لحمايتها وزناً كبيراً فى المجتمع ، واذ كان المأمول أن تظهر رضاءها بالأمير ، فقد كان الأبوان يعوِّلان على ما تنعم به تزكية «السيدة العجوز» من قدرة كبيرة على فتح أبواب المجتمع الراقى أمام خطيب آجلايا . فاذا كان فى هذا كله جانب غريب فسيبدو ، تحت هذه الحماية ، أقلَّ غرابة بكثير . ولقد كانت عقدة العقد لدى الأبوين أنهما كانا لا يستطيعان أن يفصلا فى هذا السؤال : «هل تشتمل هذه القضية على شيء غريب والى أى حد ؟ أم هو أمر لا غرابة فيه اطلاقاً ؟» . لذلك فان الرأى الصريح الصديق الذى يمكن أن يقدمه أشخاص لهم وزنهم وكفاءتهم يمكن أن يكون مواتياً جداً فى هذا الأوان الذى لم يُبرم فيه شيء حاسم بعد ، بفضل موقف آجلايا .

وعلى كل حال كان لا بد من ادخال الأمير ، عاجلاً أو آجلاً ، الى المجتمع الراقى الذى لا يعرف الأمير عنه شيئاً حتى الآن . باختصار ، كان المراد هو «عرض» الأمير. على أن ذلك لا ينفى أن السهرة ستحتفظ بطابع البساطة ، وأنها لن تضم الا «أصدقاء للأسرة» عددهم محدود جداً . والى جانب بيلوكونسكايا كان يُنتظر حضور زوجة شخص مرموق هو رجل من كبار أصحاب المناصب العليا . أما من بين الشبان فكان لا يُنتظر الا حضور يفغينى بافلوفتش الذى كان عليه أن يرافق بيلوكونسكايا .

ولقد علم الأمير ، قبل ثلاثة أيام عن مجئ بيلوكونسكايا ، لكنه لم يسمع عن السهرة الا قبل موعدها بيوم واحد . وقد لاحظ طبعاً ما كان يبدو على أفراد الأسرة من انشغال ، وأدرك من بعض الاشارات أنهم ليسوا واثقين بأنه سيحدث فى نفوس الناس أثراً حسناً . ولكن أفراد أسرة ايبانتشين جميعاً كانوا يعدونه عاجزاً من شدة بساطته عن ادراك أنواع القلق التى يحدثها لهم ، لذلك كانوا فى قرارة أنفسهم ينظرون اليه شاعرين بغم وخوف . أما هو فكان لا يكاد يهتم أى اهتمام بالحدث القادم ، وكان ما يشغل باله غير هذا تماماً . ان آجلايا تزداد نزقاً وجهامة ساعةً بعد ساعة . فكان ذلك يقتله قتلاً . ولما علم أن يفغينى بافلوفتش سيحضر الاستقبال أيضاً ، أظهر فرحاً شديداً وقال انه يود أن يراه منذ مدة طويلة . فاذا بهذه الكلمات ، لسبب من الأسباب لم ترض الجميع ، واذا بآجلايا تخرج من الغرفة غاضبةً . وفى وقت متأخر من الليل ، بعد الساعة الحادية عشرة ، بينما كان الأمير يهم أن ينصرف ،

انتهزت آجلايا فرصة فأعادته لتقول له بضع كلمات فى خلوة :

— أود أن لا تجىء الينا غداً طوال النهار ، وأن لا تظهر الا فى المساء ، بعد أن يلتئم شمل جميع . . . الضيوف هؤلاء . هل تعرف أننا فى انتظار ضيوف ؟

قالت آجلايا هذه الكلمات بلهجة فيها تململ وقسوة . هذه أول مرة تشير فيها الى «السهرة» . كانت هى أيضاً تكره فكرة حضور الضيوف ولا تكاد تطيقها . لقد لاحظ الجميع ذلك . ولعلها كانت تشعر برغبة مسعورة فى أن تختلق مشاجرة مع أبويها فى هذه المناسبة ، غير أن شعوراً بالكبرياء والحياء صدَّها عن ذلك . وقد أدرك الأمير فوراً انها توجس هى أيضاً بعض المخاوف فى شأنه ، (ولا تريد أن تعترف بمخاوفها) . وأحسَّ هو نفسه فجأة بنوع من الرعب .

قال يجيبها :

— نعم ، أعلم . اننى مدعو .

وأحست بحرج من المضى الى أبعد من ذلك .

قالت له وهى تنفجر غاضبة فجأة ، دون أن تدرى لماذا ، ولكن دون أن تستطيع السيطرة على نفسها :

— هل يستطيع المرء أن يكلمك جاداً ولو مرة واحدة فى حياتك ؟

— تستطيعين ذلك . اننى مصغٍ اليك . يسرنى هذا . كذلك تمتم الأمير .

فصمتت آجلايا لحظةً ، ثم قررت أن تتكلم ، ولكن بنفور واضح لا يخفى . قالت :

— لم أشأ أن اناقشهم فى هذا الأمر : هناك حالات

لا يستطيع المرء فيها أن يُسمعهم صوت العقل . لطالما كرهت بعض القواعد التى تخضع لها maman أحياناً . أنا لا أتكلم عن بابا : فان المرء لا يطالبه بشىء . و maman ، فان لها خلقاً نبيلاً وطبعاً يتصف بالشهامة حتماً : حاول أن تعرض عليها شيئاً دنيئاً فترى . ولكنها تنصاع مع ذلك لهذه السخافة . لا أتكلم عن بيلوكونسكايا : فهذه عجوز شريرة وطبيعة سيئة ؛ ولكنها تملك شكيمة قوية فتعرف كيف تمسكهم جميعاً بيديها . ان لها هذه الخصلة على الأقل .

آه ! يا للحطة ! والأمر مضحك حقاً : لقد كنا ننتمى دائماً الى الطبقة المتوسطة ، الى الطبقة المتوسطة كل التوسط . فما بالنا نريد دفع أنفسنا الى المجتمع الراقى ؟ ان اختىّ تهويان هما أيضاً الى هذه الآفة . انه الأمير «ش» الذى أفسد عقول الجميع . لماذا سُررت ذلك السرور كله حين عرفت أن يفغينى بافلوفتش آتٍ ؟

قال الأمير :

— اسمعى يا آجلايا . يخيَّل الىَّ أنك تخافين كثيراً أن «أتبهدل» غداً . . . فى ذلك المجتمع ؟

قالت آجلايا وقد احمرت احمراراً شديداً :

— أخاف عليك ؟ لماذا يجب أن أخاف عليك ؟ هل يهمنى أنا أن . . تتجلل أنت بالخزى ؟ ما شأنى أنا وهذا ؟ ثم كيف يمكنك أن تستعمل مثل هذه التعابير ؟ ما معنى كلمة «تبهدل» ؟ هذا لفظ منحط مبتذل .

— كلمة من كلمات . . . التلاميذ .

— نعم . . كلمة من كلمات التلاميذ ! كلمة بشعة ! واضح أنك تنوى استعمال ألفاظ من هذا النوع فى الحديث

غداً . ما عليك الا أن تبحث فى ذاكرتك ، متى عدت الى البيت ، عن ألفاظ أخرى من هذا الطراز : ستثير بها أثراً رائعاً ! . . خسارة أنك تجيد الدخول الى صالون ! أين تعلمت هذا ؟ هل تستطيع كذلك أن تحسن احتساء فنجان من الشاى حين ينظر الجميع اليك ليروا كيف عسى تفعل ذلك ؟

— أحسب اننى أستطيع .

— يؤسفنى هذا : لأنه يُفقدنى فرصة الضحك منك . حطِّم على الأقل اناء الخزف الصينى الموجود فى الصالون ! أنه غالى الثمن . هلاَّ سررتنى فحطمته ؟ انه هدية ؛ حطِّمه فتُجنَّ ماما وتطفق تبكى أمام الجميع من شدة تعلقها به . قم بحركة من تلك الحركات المعهودة فيك : اخبط الاناء واكسره . تعمد أن تجلس قربه .

— بالعكس . سأحاول أن أجلس بعيداً عنه الى أقصى حد . شكراً على أنك نبهتنى الى هذا .

— هذا أنت خائف سلفاً من حركاتك واشارات يديك الكثيرة ! وأراهن على أنك ستختار «موضوعاً» للحديث تسترسل فيه مطنباً مسهباً . . موضوعاً جدياً ، علمياً ، رفيعاً ، يتاح لك فيه أن تتفيهق ! ما أجمل ذلك !

— أعتقد أن هذا يكون غباءً . . اذا لم يجئ فى محله .

قالت أخيراً وقد نفد صبرها :

— اسمع ما سأقوله لك الآن مرةً والى الأبد : اذا تكلمت فى موضوع كموضوع عقوبة الاعدام أو الوضع الاقتصادى فى روسيا ، أو النظرية القائلة بأن «الجمال سينقذ العالم» . . .

فسيسرنى هذا ، طبعاً واضحك منه كثيراً ، ولكننى أحذرك منذ الآن : اذا فعلت شيئاً من هذا فلا تظهرن أمامى بعدئذ قط ! هل تسمعنى ؟ اننى اتكلم جادة ! اننى أتكلم فى هذه المرة جادّة !

وقد قالت هذا التهديد بلهجة **الجد** فعلاً . حتى لقد كان فى أقوالها وفى نظرتها تعبير غير معهود لم يسبق للأمير أن لاحظه فيها يوماً حتى ذلك الحين ولا يشبه رغبة فى مزاح حتماً !

— أرى أنك تتصرفين تصرفاً سيجعلنى «أسترسل» حتماً فى الحديث . . وقد أكسر اناء الخزف أيضاً . منذ قليل كنت غير خائف من شىء ، أما الآن فقد أصبحت أخاف كل شىء . أنا الآن على يقين من أننى سأتبهدل .

— ما عليك اذن الا أن تصمت . اجلس وابق ساكتاً .

— مستحيل . اننى مقتنع بأن الخوف سيدفعنى الى الكلام وسيجعلنى أكسر اناء الخزف . وقد تزل قدمى فأقع على الأرض أو أرتكب أية خراقة أخرى من هذا النوع ، فقد سبق أن حدث لى ذلك . وسأظل أحلم بهذا طوال الليل . لماذا كلمتنى فى هذا الأمر ؟

نظرت اليه آجلايا مظلمة الوجه .

فقال الأمير أخيراً بلهجة قاطعة :

— هل تعلمين ؟ اننى أفضل أن لا أجئ غداً . استمرض وكفى !

فضربت آجلايا الأرض بقدمها وشحبت غضباً وقالت :

— رباه ! هل رأى أحد شيئاً كهذا فى يوم من

الأيام ؟ يقرر أن لا يجىء بينما السهرة مقامة من أجله هو ! آه . . . يا رب ! . . ما أعظمها سعادة أن يعامل المرء رجلاً بمثل هذه . . . البلادة !

قاطعها الأمير بعجلة قائلا :

— طيب . . طيب . . سأجئ . . سأجئ . . . لك علىّ عهد أن أجىء وأن لا أنطق بكلمة واحدة طوال السهرة . ذلك ما سأفعله .

— وسيكون هذا حسناً جداً . ولكنك قلت منذ برهة : «سأستمرض» ، فمن أين تجىء بأمثال هذه التعابير ؟ أأنت تتعمد تعمداً أن تكلمنى بهذه اللغة ؟ انك تقصد مناكدتى ، أليس كذلك ؟

— عفوك . هذه أيضاً كلمة من كلمات التلاميذ . لن أستعملها بعد الآن . أنا أفهم حق الفهم أن تساورك مخاوف فى شأنى . . . (لا . . لا تزعلى !) ، وهذا يسرنى سروراً عظيماً . انك لا تستطيعين أن تتصورى مدى ما أشعر به الآن من خوف ، ومدى ما تغمرنى به كلماتك من فرح . ولكن ذلك الخوف كله لا قيمة له . أؤكد لك أنه سخف . شهد الله يا آجلايا أن الفرح وحده سيبقى . اننى لأحب كثيراً أن أراك طفلة الى هذا الحد ، طفلةً تبلغ هذا المبلغ من نبل النفس وطيب القلب ! آه يا آجلايا . . . كم تستطيعين أن تكونى رائعة !

كانت آجلايا على وشك أن تغضب ، غير أن عاطفة كانت هى نفسها لا تتوقعها قد اجتاحت كل روحها فى تلك اللحظة على حين فجأة . قالت تسأله بغتة :

— ألن تلومنى ذات يوم . . . فيما بعد . . . على هذه

الأقوال الفظة التى خاطبتك بها الآن ؟

— دعيك من هذا ! ماذا تظنين ؟ ولكن ما لى أرى وجهك يصطبغ بالحمرة من جديد ؟ هذه نظرتك تعود الى الاظلام ! انها مظلمة مسرفة فى الاظلام أحياناً يا آجلايا ! لم تكن لك هذه النظرة فى الماضى . اننى أعرف مصدر هذا . . .

— اسكت ، اسكت !

— بل الأفضل أن أتكلم . اننى أريد أن أفاتحك فى هذا الأمر منذ مدة طويلة . وقد سبق أن كلمتك فيه . . . ولكن ذلك لم يكفِ ، لأنك لم تصدقينى . ان هناك شخصاً يقف بيننا . . .

— اسكت . اسكت . اسكت !

هكذا قاطعته آجلايا بشدة ، ممسكة ذراعه امساكاً قويا ، وقد اعتراها نوع من الرعب . ونوديت فى تلك اللحظة ، فتركته وولّت هاربة ، كأنما سعدت بهذا المخرج .

أصيب الأمير بحمى طوال الليل . من الغريب أن الحمى أخذت تجتاحه كل ليلة منذ بعض الوقت . وفى هذه المرة وصل الى حالة قريبة من الهذيان ، فكانت تحاصره هذه الفكرة : ماذا لو أصابته نوبة صرع فى الغد أمام جميع الضيوف ؟ ألم يسبق أن أصيب بنوبات فى حالة اليقظة ؟ جمّدته هذه الفكرة رعباً . وظل طول الليل يرى نفسه فى سهرة مدهشة لا مثيل لها وسط أناس غرباء . ان الشىء الأساسى هو أنه أخذ «يتبهدل» . كان يعرف أن عليه أن يصمت ، ومع ذلك ظل يتكلم طول الوقت محاولاً اجبار سامعيه على شىء ما . وكان يفغينى بافلوفتش وايبوليت

بين المدعوين ، وكان يبدو أن بينهما علاقة وثيقة حميمه .

واستيقظ بعد الساعة الثامنة على صداع وأفكار مشوشة ومشاعر غريبة . ان رغبة عارمة جامحة لا يعرف لها سبباً معقولاً تستبد الآن به ، وهى أن يرى روغوجين . أراد أن يراه ويكلمه كثيراً ، عن ماذا ؟ ليس يدرى . ثم ها هو ذا يقرر أن يذهب الى ايبوليت دون أن يكون هنالك باعث واضح على ذلك . كان قلبه قد بلغ من الاضطراب أن جميع أحداث هذا الصباح ، رغم أنها أحدثت فى نفسه أثراً قويا ، لم تستطع أن تستنفد كل انتباهه . ومن بين هذه الأحداث زيارة ليبيديف له .

لقد جاءه ليبيديف فى وقت مبكّر ، بعد الساعة التاسعة بقليل ، ويكاد يكون ثملاً تماماً . كان الأمير قد لاحظ ، رغم أنه اصبح فى الآونة الأخيرة قليل الانتباه ، أن مسلك ليبيديف اصبح سيئاً جداً منذ غادر الجنرال ايفولجين بيته ، أى منذ ثلاثة أيام . أصبح ليبيديف شديد الوساخة والرثاثة الآن ، ورباط عنقه مقلوب ، وياقة سترته فيها تمزقات . وهو يحدث فى بيته كثيراً من الصخب والجلبة حتى ليُسمع زعيقه من خلال فناء الدار . وقد جاءت فيرا الى الأمير باكيةً فى ذات يوم ، فروت له أموراً شتى . أخذ ليبيديف يتكلم أمام الأمير الآن بلهجة غريبة ، لاطماً صدره متهماً نفسه بفعلة سيئة لا يدرى السامع ما عسى تكون . . . وختم كلامه قائلاً بلهجة المأساة :

— لقد تلقيت . . . تلقيت جزاء خيانتى وحطتى . . تلقيت صفعة ! . .

قال الأمير :

— صفعة ؟ ممن ؟ . . وفى مثل هذه الساعة المبكرة ؟

فأجاب ليبيديف وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

— فى مثل هذه الساعة المبكِّرة ؟ لا شأن للساعة فى الأمر . . . حتى ولو كانت العقوبة عقوبة جسمية . . . ولكنها صفعة معنوية . . . صفعة نفسية لا جسمية ! . .

قال ليبيديف ذلك وجلس فجأة دون احتفال فى هذه المرة ، وأخذ يروى قصته . واذ كانت قصته مفككةً جداً ، فقد قطب الأمير حاجبيه وتهيأ للانصراف . غير أن بضع كلمات خطفت انتباهه على حين فجأة ، فلبث فى مكانه كالمتجمد من الدهشة . . . لقد كان السيد ليبيديف يروى أموراً غريبة .

يبدو أنه تكلم فى أول الأمر عن رسالة ما ، ذكر بصددها اسم آجلايا ايفانوفنا . ثم أخذ ، دون أى تمهيد ، يتهم الأمير نفسه بألفاظ مُرَّة ، ويفهمه أن الأمير قد أهانه ، لأنه — أى الأمير — قد شرَّفه فى أول الأمر بأن محضه ثقته فى أمور تتعلق «بشخص» ما (يقصد ناستاسيا فيليبوفنا) ، ثم قطع صلته به قطعاً كاملاً وأبعده ابعاداً مشيناً مهيناً ، حتى لقد تملص تملصاً فظاً من الاجابة عن «سؤال برىء يتعلق باحتمال حدوث تغير قريب فى المنزل» . واعترف ليبيديف وهو يذرف دموعاً من دموع السكارى أنه «بعد تلك الاهانة أصبح لا يطيق الصبر على هذا الوضع ، لا سيما وأنه كان يعرف . . . أشياء كثيرة ، من روغوجين ، ومن ناستاسيا فيليبوفنا ، ومن صديقة لها ، ومن فارفارا آردالیونوفنا . . . نفسها . . . وحتى من . . من آجلايا ايفانوفنا نفسها . تصور أن هذا حدث بواسطة فيرا ، بواسطة بنتى الحبيبة فيرا ،

بنتى الوحيدة . . . نعم نعم . . . على أنها ليست وحيدة ، ما دام لى ثلاث بنات . ولكن من ذا الذى كتب الى اليزافيتا بروكوفيفنا ليطلعها على الأمور فى سرية تامة ؟ هىء هىء ! من أعلمها بجميع صلات و . . . حركات ناستاسيا فيليبوفنا ؟ هىء هىء هىء ! من هو ذلك المراسل الذى لم يذكر اسمه ، هه ؟ هلاَّ قلت لى من هو ؟»

صاح الأمير قائلاً :

— هل يمكن أن تكون أنت ؟

فأجاب السكير برصانة :

— بالضبط وفى هذا اليوم نفسه ، فى الساعة الثامنة والنصف ، أى منذ نصف ساعة . . . لا بل منذ ثلاثة أرباع الساعة ، أبلغت تلك الأم النبيلة أن هناك مغامرة . . . ذات دلالة . ابلغتها ذلك ببطاقة نقلتها اليها الخادمة من باب الخدم . فاستقبلتنى .

سأله الأمير وهو لا يصدق أذنيه :

— رأيت اليزافيتا بروكوفيفنا منذ قليل ؟

— رأيتها منذ برهة ، وتلقيت منها صفعة . . . صفعة معنوية . فلقد ردَّت الىَّ الرسالة بل لقد رمتها فى وجهى دون أن تفضها . . . ثم أمسكت تلابيبى وأخرجتنى من الغرفة . . . معنوياً لا جسمياً . . . على أنها أوشكت أن تفعل ذلك جسمياً !

— ما هى تلك الرسالة التى رمتها فى وجهك دون أن تفضها ؟

— ولكن أأنا لم . . . هىء هىء هىء ! كيف لم أقل لك ذلك بعد ؟ يبدو لى أننى ذكرت لك هذا من

قبل . . . المسألة هى أننى كنت قد استلمت رسالةً لأوصلها الى المرسلة اليه . . .

— رسالة ممَن ؟ الى من ؟

لقد كانت بعض «ايضاحات» ليبيديف عسيرة الفهم الى أبعد الحدود ، وكان يصعب على المرء أن يفهم منها أى شىء . كل ما استطاع الأمير أن يميزه هو أن الرسالة كانت قد استلمتها فيرا ليبيديفا من خادمة بغية أن توصلها فيرا الى نفس العنوان . . . «كما فى السابق . . . كما فى السابق ، لتوصلها الى شخص معين من الشخصية نفسها (اننى أطلق كلمة «الشخصية» على احدى المرأتين ، وأطلق اسم «الشخص» على المرأة الثانية للحط من شأنها ، وللتفريق ، لأن هناك فرقاً كبيراً بين ابنة جنرال نبيلة وبين امرأة هى . . . غادة كاميليا) . المهم أن الرسالة قد كتبتها «شخصية» يبدأ اسمها بحرف آ» .

صاح الأمير قائلاً :

— أهذا ممكن ؟ أتراها كتبت الى ناستاسيا فيليبوفنا ؟ ذلك غير معقول !

— حصل . كل ما هنالك أن الرسائل ان لم تكن قد أُرسلت الى ناستاسيا فيليبوفنا فقد أُرسلت على الأقل الى روغوجين ، والأمران واحد . . . حتى ان هناك رسالة من تلك التى يبدأ اسمها بحرف «آ» قد بُعثت الى السيد تيريتتيف ليتولى ايصالها .

أضاف ليبيديف هذه الجملة الأخيرة وهو يغمز بعينه ويبتسم .

واذ كان ليبيديف يقفز فى كل لحظة من موضوع الى

موضوع وينسى ما كان بدأ يقوله ، فقد صمت الأمير ليتيح له أن يفرغ جعبته . غير أن هناك نقطة ظلت غامضة جداً : أكانت الرسائل تُبعث بواسطته أم بواسطة فيرا ؟ انه حين أكَّد أن الكتابة الى روغوجين والكتابة الى ناستاسيا فيليبوفنا سيان ، قد ترك للسامع أن يفهم أن هذه الرسائل ، اذا كان ثمة رسائل ، لا تُنقل بواسطته . فما يزال يصعب على المرء أن يعرف ما هى المصادفة التى جعلت تلك الرسالة تقع فى يديه . أغلب الظن أنه سرقها من فيرا بطريقة من الطرق . . . حتى اذا تمَّ له الاستيلاء عليها بالاختلاس حملها الى اليزافيتا بروكوفيفنا وهو يضمر نيةً ما . ذلك هو ما أدركه وفهمه الأمير .

صاح يقول وقد اعتراه اضطراب شديد :

— لقد فقدت عقلك !

فأجابه ليبيديف بشىء من المكر :

— لم أفقده تماماً أيها الأمير المعظَّم . . . والحق أن الفكرة الأولى التى خطرت لى هى أن أعطيك أنت الرسالة ، خدمةً لك . . . لكننى فكرت فرأيت أن هذه الخدمة أوْلى أن تُقدَّم هناك ، وأن من الأفضل أن أحمل كل شىء الى علم تلك الأم التى هى أنبل الأمهات طراً . . . لا سيما وأننى سبق أن نبهتها مرةً فى كتاب غفل من التوقيع . وفى البطاقة التى بعثتها اليها سلفاً ، فى الساعة الثامنة وعشرين دقيقة من هذا الصباح والتى طلبت فيها أن تستقبلنى ، وقَّعت هذا التوقيع أيضاً : «مراسلك المجهول» ، فأدخلونى فى الحال ، فوراً ، بل وبتعجل شديد ، من سلم الخدم . . . على الأم التى هى أنبل الأمهات طراً .

— ثم ؟ . .

— تعرفُ التتمة : لقد كادت تضربنى ، اقصد قليلاً ، حتى ليمكننى أن أعدَّنى مضروباً تقريباً . أما الرسالة فقد رمتها فى وجهى . صحيح أنها أوشكت ان تحتفظ بها ، وقد رأيت ولاحظت ذلك ، ولكنها عدلت عن هذه الفكرة ، فرمت الرسالة قائلة : «ما دامو قد وثقوا بشخص مثلك لايصال الرسالة ، فهلمَّ أوصلها . . .» حتى لقد شعرت بأنها مهانة . فلو لا أنها شعرت بذلك لاستحت أن تقول مثل هذا الكلام أمامى . انها امرأة شديدة الاندفاع .

— أين الرسالة الآن ؟

— معى : هذه هى .

وأعطى الأميرَ رسالة آجلايا الى جافريلا آردالیونوفتش ، تلك البطاقة التى أراها جافريلا آردالیونوفتش لأخته منتصراً بعد ساعتين من نفس هذا الصباح .

— لا يجوز أن تبقى هذه الرسالة فى حوزتك .

فقال ليبيديف بحرارة :

— اننى أعطيك اياها ، أعطيك اياها ! أنا أعود الآن الى خدمتك مخلصاً ، أنا الآن ملك يديك ، رأساً وقلباً . أعود الى خدمتك بعد خيانة طارئة عارضة ! اطعن قلبى ، ولكن دع لى اللحية ، كما قال توماس موروس . . . فى انجلترا وفى بريطانيا العظمى[1] . Mea culpa, mea culpa ، كما قال أبو روما ، أى بابا روما ، لكننى أسميه أنا دائماً «أبو روما» .

---

[1] هذا ذنبي ، هذا ذنبي . (باللاتينية فى الأصل) .

قال الأمير ملحاً :

— يجب ايصال هذه الرسالة فوراً . أنا أتولى ذلك .

— أليس الأفضل ، يا أيها الأمير اللطيف الاحساس ، المؤدب ، أن . . .

قال ليبيديف ذلك وهو يجعِّد وجهه تجعيدة غريبة متملقة ، وتحرك على كرسيه كأن أحداً وخزه بابرة فجأة ، وغمز بعينه غمزة ماكرة ، وأشار بيديه الى شىء ما .

قال له الأمير بلهجة التهديد :

— ماذا تعنى ؟

فهمس ليبيديف يقول بلهجة مداهنة وكأنها لهجة أسرار :

— ألا نفتحها أولاً ؟!

فوثب الأمير وقد عبَّر وجهه عن غضب يبلغ من القوة أن ليبيديف أوشك أن يولى هارباً . ولكنه حين بلغ الباب ، توقف ينتظر الصفح والعفو .

هتف الأمير يقول بلهجة تعبِّر عن حزن عميق :

— آه يا ليبيديف ! هل يمكن حقاً أن يبلغ امرؤ من الانحطاط ما بلغت أنت ؟

استردت ملامح ليبيديف هدوءها . اقترب فى الحال من الأمير يقول لاطماً صدره ، والدموع فى عينيه :

— أنا منحط ! أنا منحط !

— هذه دناءات !

— بالضبط : دناءات . هذه هى الكلمة المناسبة !

— علام هذا السلوك . . . العجيب ؟ ما أنت فى حقيقة الأمر الا . . . جاسوس ! لماذا كتبت رسائل بغير

توقيع ، ووروعت امرأة طيبة هذا الطيب نبيلة هذا النبل ؟ ولماذا لا يكون من حق آجلايا ايفانوفنا أن تكتب الى من تشاء الكتابة اليه ؟ هل ذهبت اليوم الى هناك لتتشكى ؟ ماذا كنت تنتظر من هذه الخطوة التى قمت بها ؟ ما الذى دفعك الى هذه الوشاية ؟

— لذة الفضول هى وحدها ورطتنى فيها . . . وكذلك الرغبة فى أن أخدم انسانة نبيلة . نعم . . .

كذلك تمتم ليبيديف ثم أردف يقول :

— أما الآن فأنا لك وحدك ، أنا ملك يمينك من جديد ! اشنقنى اذا شئت !

سأله الأمير باستطلاع يمازجه اشمئزاز :

— هل ذهبت الى اليزافيتا بروكوفيفنا وأنت على هذه الحال ؟

— لا ، لا . . . كنت أنضر . . . وحتى أكثر أدباً . وبعد تلك المهانة فقط أصبحت . . . على هذه الحال .

— طيب ، كفى ، دعنى .

ومع ذلك اضطر الأمير الى أن يكرر هذا الرجاء عدة مرات قبل أن يقرر زائره الانصراف . وحتى بعد أن فتح ليبيديف الباب عاد الى وسط الغرفة سائراً على رؤوس الأصابع ، واستأنف تجعيد وجهه محاكياً الحركات الدالة على فض الرسالة . ولكنه لم يجرؤ أن يقرن الاشارة بالقول ، ثم خرج وعلى شفتيه ابتسامة وادعة ودود .

من كل ثرثرته التى تُثقل سامعها كثيراً ، تبرز واقعة رئيسية خارقة : هى أن آجلايا تعانى أزمة شديدة من قلق وحيرة . ان أمراً ما يعذّبها عذاباً قوياً (همس الأمير يقول :

«الغيرة») . وظهر من هذا كله كذلك أن أناساً سيئى النية كانوا يضلّونها ، وانه لغريب كل الغرابة أن تمحضهم كل هذه الثقة . لا ريب فى أن خططاً خاصة ، لعلها مهلكة . . . خططاً غريبة على كل حال قد نبتت فى هذا الرأس الصغير الذى تعوزه الخبرة ولكنه شديد الحميّا كثير الكبرياء . هذه الاستنتاجات أغرقت الأمير فى ذعر رهيب ، حتى بلغ من الاضطراب أنه أصبح لا يدرى ماذا يفعل . كان يحس أنه ازاء شىء يجب منعه بأى ثمن . ونظر مرة أخرى فى عنوان الرسالة المختومة : آه ، انه من جهته لا يساوره شك ولا يخامره قلق ، فان ثقته تحميه من ذلك . وانما يأتى القلق الذى توقظه هذه الرسالة فى نفسه من أنه لا يثق بجافريلا آرداليونوفتش . ومع ذلك أوشك أن يقرر تسليم الرسالة بنفسه ، حتى لقد خرج من بيته وقد نوى هذه النية ، ولكنه عدل عن هذا الرأى فى أثناء الطريق . وبمصادفة تشبه أن تكون عمداً اتفق أن لقى كوليا حين كاد يبلغ بيت بتيتسين . فكلفه الأمير بأن يوصل الرسالة الى أخيه كما لو كانت مرسلةً اليه من آجلايا ايفانوفنا رأساً . ولم يُلق كوليا أى سؤال ، وحمل الرسالة الى أخيه ، فلم يخطر ببال جانيا أن الرسالة يمكن أن تكون قد تنقلت بين أيدى ذلك العدد كله من الوسطاء . وحين عاد الأمير الى البيت رجا فيرا لوكيانوفنا بأن تجىء اليه وقال لها ما كان يجب أن يقوله ليهدئ روعها ، ذلك أنها كانت قد ظلت حتى ذلك الحين تبحث عن الرسالة باكية . وقد ذعرت حين علمت أن أباها سرقها منها . (وقد باحت له فيما بعد بأنها سبق أن توسطت عدة مرات سراً بين روغوجين وآجلايا ايفانوفنا .

لم يكن قد خطر ببالها أن فى ذلك شيئاً مخالفاً لمصالح الأمير . . .) .

كان الأمير مبلبل الأفكار كثيراً . فلما هرعوا يقولون له نقلاً عن كوليا ان الجنرال مريض ، لم يكد يفهم ماذا يقصدون . ولكن انصرافه الى هذا الحادث أحسن اليه احساناً كبيراً . لقد قضى النهار كله ، حتى المساء ، فى بيت نينا ألكسندروفنا (الذى نقل اليه المريض طبعاً) . ولم يكن لحضوره أى فائدة تُذكر ، غير أن هناك أناساً يحب المرء أن يكونوا بقربه فى بعض الظروف الشاقة الصعبة . لقد كان كوليا متأثراً أشد التأثر ، وكان يبكى بكاء هيستيرياً . ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون فى عمل متصل طوال الوقت : فقد مضى يبحث عن طبيب ووجد ثلاثة أطباء ، وسعى راكضاً الى الصيدلى والى الحلاق . وأُنعش الجنرال ، لكنه لم يسترد شعوره ، وقال الأطباء «انه فى خطر على كل حال» . لم تترك فاريا ونينا ألكسندروفنا المريض . وكان جانيا مضطرباً مصعوقاً ، ولكنه لا يريد أن يصعد ، حتى لقد كان يخاف أن يرى المريض . انه يعقف يديه ألماً وحسرة ، واستطاع فى حديث مفكك جرى بينه وبين الأمير أن يقول ان «هذه مصيبة تنزل فى مثل هذا الوقت بما يشبه العمد !» وتراءى للأمير أنه فهم التلميحة التى تتضمنها هذه الكلمات . كان ايبوليت قد ترك منزل بتيتسين . وفى نحو المساء هرع ليبيديف . كان قد نام نوماً متصلاً منذ «الايضاح» الذى تم فى الصباح حتى هذا الوقت . وكان قد ذهب عنه سكره تقريباً ، وكان يذرف على المريض دموعاً صادقة كأنه أخوه . وكان يتهم نفسه بصوت عال

دون أن يحدد الخطأ الذى ارتكبه ، وكان يتعب نينا ألكسندروفنا بما يكرره عليها فى كل لحظة من «أنه وحده سبب كل شىء ولا أحد سواه . . . وأن سلوكه لم تدفعه اليه الا لذة الفضول . . . بل أن «المرحوم» (لا يدرى المرء لماذا كان يصر على أن يصف الجنرال بهذا مع أن الجنرال ما يزال حياً) كان رجلاً عبقرياً !» كان ليبيديف يلح على عبقرية الجنرال جاداً جداً خاصاً ، كأن لهذه الواقعة فى اللحظة الراهنة شأناً كبيراً وفائدة ضخمة . فقالت له نينا ألكسندروفنا أخيراً ، وقد رأت صدق دموعه ، قالت له بلهجة ودود دون أن يبدو عليها شىء من لوم : «طيب . . . أسأل الله لك العون ! لا تبك ! لا تبك ! سيغفر الله لك !» فكان لهذه الكلمات واللهجة التى قيلت بها أثر كبير فى ليبيديف ، أثر بلغ من الشدة أنه لم يترك بعد ذلك نينا ألكسندروفنا طوال السهرة وفى الأيام التالية ، الى أن مات الجنرال ، كان يبقى عندهم من الصباح الى المساء تقريباً . وقد أوفدت اليزافيتا بروكوفيفنا مَنْ يسأل عن أنباء الشيخ مرتين أثناء ذلك النهار . وفى الساعة التاسعة من المساء حين ظهر الأمير فى صالون آل ايبانتشين الذى كان قد امتلأ بالمدعوين ، أخذت اليزافيتا بروكوفيفنا تسأل عن المريض فوراً باهتمام كبير ، حريصةً على معرفة التفاصيل . فلما سألتها بيلوكونسكايا : «من هو هذا المريض ؟ ومن هى نينا ألكسندروفنا ؟» كان جوابها يشتمل على كثير من الجد والوقار . فأُعجب الأمير بهذه البادرة اعجاباً كبيراً . وكان هو نفسه ، فى الايضاحات التى قدَّمها الى اليزافيتا بروكوفيفنا ، يتكلم بطريقة «رائعة» كما عبَّرت أختا آجلايا عن ذلك فيما بعد :

لقد تكلم «بتواضع ، وهدوء ، ورصانة ، دون أن يقول كلاماً زائداً ، ودون أن يحرك يديه باشارات لا جدوى منها . وكان قد دخل الصالون دخولاً موفقاً كل التوفيق ، وكانت ثيابه لا مأخذ عليها البتة» ، لم تتعثر قدمه «فيسقط على الأرض» ، كما كان يخشى بالأمس ، بل حتى لقد أحدث فى نفوس جميع الحضور أجمل تأثير .

وقد لاحظ من جهته فوراً ، بعد أن جلس وتلفت ينظر فيما حوله ، أن هذا الجمع لا يشبه فى شىء ، الأشباحَ التى خوفته بها آجلايا بالأمس ولا الكوابيس التى وافته فى الليلة البارحة . هذه أول مرة فى حياته يكتشف فيها زاوية مما يُطلق عليه هذا الاسم المروع : «المجتمع الراقى» . لقد كان منذ مدة طويلة ، بسبب ما انعقدت عليه نفسه من نيات ومشاريع وميول ، يحترق شوقاً الى دخول تلك الدائرة المسحورة ؛ وكان مهتماً شديد الاهتمام بالانطباع الأول الذى سوف يتركه فيه هذا المجتمع . وكان انطباعه فاتناً رائعاً . لقد بدا له فى الحال أن هؤلاء الناس كافة انما خُلقوا ليكونوا معاً ، وأن آل ايبانتشين لا يقيمون «سهرة» هذا المساء ، وأنه ليس ازاء مدعوين بل ازاء اصدقاء «حميمين» ، وأنه هو نفسه فى موقف رجل يعود بعد فراق قصير الى أشخاص يمحضهم الود ويشاركهم آراءهم . ان آداب سلوكهم التى تتميز بالفتنة والرقى ، وبساطتهم وصدقهم الظاهرى ، ان ذلك كله قد أحدث فى نفسه أثراً يشبه أن يكون سحرياً . لم يستطع حتى أن يخطر بباله أن هذه الطيبة وهذا النبل فى آداب السلوك وهذا السمو فى الفكر وهذا الشعور الرفيع بالكرامة ، أن ذلك كله قد لا يكون

الا اخراجاً مسرحياً متقناً . والحق أن أكثر المدعوين كانوا رغم مهابتهم الظاهرية أناساً تافهين الى حد بعيد ، وكان غرورهم يمنعهم من جهة أخرى أن يدركوا أن عدداً من مزاياهم ليس لهم فيه أى فضل لأنه غير شعورى وموروث ؛ بل ان الأمير ، فى غمرة افتتانه بالاحساس الأول ، لم يُغره حتى أن يفترض هذا الافتراض . انه ، على سبيل المثال ، يرى شيخاً من كبار موظفى الدولة (يمكن أن يكون فى السن جَداً له) ، يقطع حديثه ليصغى الى كلام شاب غرٍ مثله ليس بذى خبرة . حتى ان هذا الشيخ لا يصغى اليه فحسب ، بل يبدو عليه أيضاً أنه يحترم رأيه ، فهو يظهر له كثيراً من الود واللطف ، وهو يبش له بشاشة فيها كثير من الصدق ، رغم أنهما لا يعرف أحدهما الآخر ، وانما يلتقيان أول مرة . لعل هذا التهذيب الرقيق هو الذى أثّر فى طبيعة الأمير الحارة الحسّاسة . ولعله كان سلفاً متهيئاً للانطباع السعيد وحتى مأسوراً به .

والحقيقة هى أن جميع هؤلاء الاشخاص رغم انهم كانوا طبعاً «أصدقاء» للأسرة واصدقاء بعضهم البعض ، لم يكونوا مع ذلك لا أصدقاء للأسرة ولا لبعضهم البعض الى الحد الذى ظنه الأمير حين قُدِّم اليهم وتعرَّف بهم . ان بينهم أناساً ما كان لهم أبداً أن يعدوا آل ايبانتشين اندادا لهم بحال من الأحوال . بل ان بينهم أناساً يكره بعضهم بعضاً أعمق الكره . ان العجوز بيلوكونسكايا كانت طوال حياتها «تزدرى» امرأة ذلك «الشيخ الذى هو من كبار موظفى الدولة» . وكانت هذه الأخيرة من جهتها لا تحب اليزافيتا بروكوفيفنا . اما زوجها ، «الموظف الكبير» الذى كان

حامى الزوجين ايبانتشين منذ شبابهما والذى يحتل الآن فى بيتهما مكان الشرف ، فكان له فى نظر الجنرال ايبانتشين شأن يبلغ من العلو والرفعة أن الجنرال ايبانتشين ما كان ليستطيع بحال من الأحوال أن يشعر فى حضوره بعاطفة غير عاطفة التقديس والرهبة ؛ فلو ظن فى لحظة من اللحظات أنه ند له فكفَّ عن اعتباره الهاً من آلهة الأولمب مثل جوبيتر ، اذن لاحتقر نفسه صادقاً . وكان بين الحضور أيضاً أناس لم يلتق بعضهم ببعض منذ سنين ، ولا يحمل بعضهم لبعض من عاطفة غير عدم الاكتراث ، هذا اذا لم يحمل بعضهم لبعض نفوراً . ولكن هذا لا ينفى أنهم يلتقون الآن التقاء مَنْ كانوا بالأمس معاً ، فهم فى أشهى صحبة وأمتع مجالسة . ولم يكن عدد المجتمعين كبيراً على كل حال . هناك ، عدا بيلوكونسكايا ، و«الشيخ الجليل» الذى كان فى الواقع شخصية خطيرة الشأن ، وزوجته ، كان هناك رجل آخر يلفت الانتباه ، هو جنرال يحمل لقب بارون أو كونت ، واسمه ألمانى . ان هذا الرجل الصموت الى حد خارق كان يُشتهر بأنه يعرف شئون الدولة معرفة معجزة ، حتى لقد كان يُعدُّ عالماً من العلماء ان صح التعبير . انه واحد من أولئك الاداريين الفطاحل الذين يعرفون «كل شىء ، الا روسيا نفسها» ، والذين يصدرون فى كل خمسة أعوام «قولاً يهزُّ الناسَ عمقُه» ويصبح مثلاً من الامثال ويصل الى مسامع أعلى الشخصيات مقاماً . انه واحد من أولئك الموظفين الأعلين الذين يموتون فى العادة بعد عمر فى الوظيفة طويل جداً (بل طويل طولاً عجيباً) ، والذين يكونون قد وصلوا الى رتب عالية واحتلوا مناصب رائعة وملكوا ثروة ضخمة ،

دون أن يكونوا قد قاموا مع ذلك بأية مآثر كبيرة ، حتى انهم يظهرون بعض النفور من المآثر . ان هذا الجنرال هو ، فى الوظيفة ، الرئيس المباشر لصاحبنا ايفان فيدوروفيتش الذى كان بعاطفة الشكر الحارة وبدافع حب الذات أيضاً يرى أن لرئيسه عليه أيادى بيضاء ويعتقد أنه مدين له بفضل كبير ، رغم أن الآخر لم يكن يعد نفسه محسناً الى ايفان فيدوروفتش ، حتى لقد كان لا يكترث به كثيراً . وهو رغم رضاه عن الخدمات التى يقدمها اليه ايفان فيدوروفتش ، مستعد لأن يستبدل به شخصاً آخر على الفور اذا ظهر له أن ثمة اعتبارات ، ولو كانت ثانوية ، تجعل الاستغناء عنه أمراً مناسباً . وكان الحفل يضم سيداً آخر خطير الشأن هو رجل متقدم فى السن يبدو عليه أنه يمت بقربى الى اليزافيتا بروكوفيفنا ، ولكنه فى حقيقة الأمر لا تربطه بها أية قرابة . ان له رتبة ومركزاً يُحسد عليهما . هو رجل غنى كريم المحتد ، قوى البنية ، مزدهر الصحة . وهو الى ذلك محدث بارع . وقد اشتهر بأنه رجل ساخط (بالمعنى المقبول تماماً لهذه الكلمة) ، بل أنه رجل صفراوى (وحتى تلك سمة كانت فيه فاتنة) وكانت آدابه فى السلوك آداب رجل ارستوقراطى انجليزى ، وكانت أذواقه انجليزية أيضاً (من ذلك مثلاً أنه كان يحب أن يأكل الشواء دامياً ، ويحب المركبات الفخمة ، والخدم بأزيائهم الرسمية الخ .) . وهو على علاقة حميمة «بالموظف الكبير» ، يبذل فى سبيل تسليته كل جهد . وكانت اليزافيتا بروكوفيفنا ، من جهة أخرى ، تداعب خيالَها فكرةٌ غريبة هى أن هذا السيد الكهل (الذى كان لا يُعدُّ من المتمسكين كثيراً بأهداب الفضيلة ، وكان

يُعدُّ من هواة الجنس اللطيف) قد يريد ذات يوم أن يحقق سعادة ألكسندرا بطلب يدها . وتحت هؤلاء المدعوين الذين هم أعلى أفراد الحفل مقاماً وأكثرهم مهابة ، تأتى فئة من المدعوين أصغر سناً ، لكنهم أناس مرموقون أيضاً . فمن هؤلاء الأمير «ش» ويفغينى بافلوفتش ، ومنهم الأمير «N» الفاتن المعروف بما حقق من انتصارات مع النساء فى أوروبا كلها . انه فى نحو الخامسة والأربعين من العمر ، فارع القامة ممشوق القد ، يملك موهبة مدهشة فى الحديث . وهو رغم أن ثروته تضاءلت قليلاً ، ما يزال يؤثر أن يقضى أيامه فى الخارج محتفظاً بهذه العادة . وهناك أخيراً فئة ثالثة تضم أولئك الذين لا ينتمون الى «الدائرة المغلقة» من المجتمع ، ولكن يمكن أن نراهم فيها أحياناً بسبب ما ، مثلهم مثل أسرة ايبانتشين . كان آل ايبانتشين ، بما لهم من حس سليم ولباقة يستوحونها سلوكهم ، يحبون فى المناسبات القليلة التي يقيمون فيها حفلات استقبال ، أن يجمعوا بين أفراد المجتمع العالى وبين أفراد طبقة أدنى تمثل صفوة «المجتمع المتوسط» . فكان الناس يحمدون لهم هذا الحساب ويصفونهم بأنهم يعرفون مكانهم ويحسنون التصرف ، وذلك رأى كان آل ايبانتشين يعتزون به . فالى تلك الطبقة المتوسطة كان ينتمى أحد المدعوين وهو مهندس برتبة عقيد فنى يتصف بالجد وتربطه بالأمير «ش» صداقة قريبة ، فالأمير «ش» هو الذى عرَّفه بأسرة ايبانتشين وأدخله الى بيتها . وكان الرجل قليل الكلام فى المجتمع ، يزيِّن سبابة يده اليمنى الكبيرة خاتم ضخم أغلب الظن أنه هدية امبراطورية . وأخيراً فقد كان بين الحضور أديب شاعر أصله ألمانى لكن

أدبه روسى . انه رجل فى نحو الثامنة والثلاثين من عمره ، لائق المظهر فلا ضير فى ادخاله الى المجتمع الراقى . ان هيئته حسنة ، رغم أن فى وجهه شيئاً يبعث على النفور . وهو يعنى بهندامه عناية كاملة ، وينتمى الى أسرة ألمانية ان تكن بورجوازية فانها تحظى باعتبار كبير . ولقد كان يحسن الاستفادة من الظروف وانتهاز الفرص ليندس تحت حماية شخصية من الشخصيات العالية ، وأن يحافظ على الحظوة لديها . وقد ترجم فى الماضى عن اللغة الألمانية الى اللغة الروسية كتاب شاعر ألمانى كبير ، وصدَّر الكتابَ المترجم باهداء مفيد . وكان يحسن الانتفاع بعلاقات الصداقة مع شاعر روسى شهير توفى الآن (ان هناك فئة كبيرة من الكتاب يحلو لأفرادها أن ينشروا فى الصحف مزاعمهم عن صداقة حميمة تربطهم بمؤلفين كبار ، وذلك بعد وفاة المؤلفين هؤلاء) ، وقد أدخلته الى أسرة ايبانتشين منذ مدة قصيرة زوجة «الشيخ الجليل» . كانت هذه السيدة تُعدُّ حامية الأدباء والعلماء . والحق أنها قد دبَّرت راتباً لكاتب أو كاتبين بواسطة أناس من أصحاب المناصب الرفيعة الذين كان لها عليهم نفوذ . ولقد كان لها فى الواقع تأثير ووزن . انها فى الخامسة والأربعين من عمرها (فهى اذن زوجة شابة بالنسبة الى زوجها الذى كان عجوزا) ، ولقد كانت جميلة وكانت ما تزال تحب — وذلك ميل شائع فى كثير من النساء اللواتى بلغن عمرها — أن ترتدى ملابس فيها كثير من البهرج . وكان ذكاؤها دون الوسط ، وكانت ثقافتها الأدبية مشكوكاً فيها . ولكنها كانت مولعة أشد الولع بحماية الأدباء ، كولعها بارتداء أحلى الملابس . وكانت تهدى اليها كتب

كثيرة وترجمات كثيرة . وقد نشر كاتبان أو ثلاثة ، بعد استئذانها ، الرسائل التى كانوا قد كتبوها اليها فى موضوعات هامة جداً . . . ذلك هو المجتمع الذى حسبه الأمير فضةً خالصة أو ذهباً نقياً بغير شائبة . وعدا هذا فقد اتفق أن كان جميع هؤلاء فى ذلك المساء ، فى أصفى مزاج مفتتنين بأنفسهم . كان كل واحد منهم مقتنعاً بأن زيارته تغمر أسرة ايبانتشين فخراً وشرفاً . ولكن الأمير ، وا أسفاه ، لم يكن يدرك هذه الأمور الدقيقة . لم يدر فى خلده مثلاً أن آل ايبانتشين ، وقد عقدوا النية على خطوة تبلغ من الخطورة مبلغ تقرير مصير ابنتهم ، ما كان لهم أن يتجرأوا على اعفاء أنفسهم من تقديمه ، هو الأمير ليف نيقولايفتش ، الى هذا الموظف الكبير الشيخ ، الذى يعد حامى أسرتهم ؛ وأن هذا الشيخ الذى يمكن أن يحتفظ بأكمل هدوئه اذا علم أن كارثة كبيرة قد حلت بأسرة ايبانتشين ، لا بد أن يستاء أشد الاستياء لو زوَّج الأبوان ابنتهما دون أن يستشيراه ودون أن يحصلا على موافقته ان صح التعبير . أما الأمير «N» ، هذا الشاب الفتَّان ، الذى لا شك فى أنه يفيض مرحاً وصراحةً ، فقد كان مقتنعاً اقتناعاً مطلقاً بأن ظهوره هذه الليلة فى صالون أسرة ايبانتشين حادث يشبه شروق الشمس . انه يضعهم فى موضع أدنى منه بمراحل ؛ ولا شك أن هذه الفكرة البريئة النبيلة هى التى كان يستمد منها طلاقته المحببة وبشاشته الودود فى معاملتهم . كان يعلم أنه سيجب عليه فى تلك السهرة أن يروى شيئاً ليبهج الحفل ويفتنه ، فكان يتهيأ للقيام بهذا الدور وحتى وافاه الهامه . ان الأمير ليف نيقولايفتش حين أصغى بعد قليل الى ما

حكاه هذا الشاب قد أحسَّ أنه ما سمع فى يوم من أيام حياته شيئاً يمكن أن يقارن بهذه الفكاهة المتألقة ، وهذا المرح المدهش وهذه السذاجة التى تكاد تكون مؤثرة فى فم دون جوان مثل الأمير «N» . ليته عرف الى أى حد كانت هذه الحكاية قديمة ، ذابلة ، معادة مكرورة . ان هذه القصة التى رواها الأمير «N» يمكن أن تعد عند آل ايبانتشين السذَّج البسطاء فكاهة جديدة وارتجالاً متألقاً يصدر صادقاً عفوَ الخاطر عن محدث بارع فتان ، ولكنها فى أى صالون آخر لا بد أن يُحكم عليها بأنها باعثة على أكبر الضجر وأشد الملل ! وحتى الشويعر الألمانى ، رغم كل ما اصطنعه من تودد وتواضع ، كان يميل كذلك الى الاعتقاد بأن حضوره يشرف الدار . ولكن الأمير لم يلاحظ من الموقف الا وجهه الحسن ، أما وجوهه الأخرى فهو لا يراها . ولم تكن آجلايا قد تنبأت بتلك المصيبة . حتى انها كانت هى نفسها فى ذلك المساء رائعة الحسن . كانت الفتيات الثلاث يرتدين ثياباً أنيقة ، ولكن بغير غلو واسراف ، وقد صفَّفن شعورهن تصفيفاً جديداً غير مألوف لهن . وكانت آجلايا جالسة قرب يفغيني بافلوفتش تكلمه وتمازحه بلهجة حميمة جداً . وكان يفغيني بافلوفتش أكثر رصانة مما عُهد فيه ، ولا شك أن ذلك كان منه مراعاة ومداراة للشخصيات المرموقة . على أنه رجل معروف فى اجتماعات المجتمع الراقى منذ مدة طويلة ، وكان يُنظر اليه على أنه ، رغم شبابه ، واحد من أبناء ذلك المجتمع . وقد حضر فى ذلك المساء وعلى قبعته شريط أسود ، وهذا ما جلب له ثناء بيلوكونسكايا : ففى ظروف كهذه الظروف ما كان لابن

عم آخر من رجال المجتمع الراقى أن يفعل مثل هذا حداداً على وفاة عم كذلك العم . وقد أظهرت اليزافيتا بروكوفيفنا رضاها عن ذلك أيضاً . ولكن كان يبدو عليها كثير من الهم وانشغال البال . ولاحظ الأمير أن آجلايا نظرت اليه مرة أو مرتين بانتباه ، وبدا عليها الرضى عنه . وشيئاً بعد شيء أحس بقلبه يتفتح سعادةً . ان الخواطر «الخيالية» والمخاوف التى اجتاحته من قبل (بعد الحديث مع ليبيديف) تبدو له الآن ، من خلال تذكرها تذكـــــراً مفـاجئاً ولكنه متكرر ، أشبهَ بأحلام لا صلة بينها وبين الواقع ، أحلام غير معقولة بل ومضحكة ! (وقبل ذلك ، طوال النهار ، كانت أعزُّ رغبة فى قلبه ، وان تكن رغبة غير شعورية ، هى أن يبرهن لنفسه على أنه لم يكن ثمة مجال لتصديق تلك الأحلام) . وكان يتكلم قليلاً ، ويقتصر على الاجابة عن الأسئلة التى تُلقى عليه . وفى النهاية لزم صمتاً كاملاً ، وظل يصغى الى الآخرين كانسان بلغ قمة المتعة . وشيئاً فشيئاً ، استولى عليه نوع من الالهام مستعد لأن ينطلق فى كل لحظة . . . ومع ذلك ، لئن عاد يتكلم فهو انما تكلم مصادفةً ليجيب عن سؤال ، دون أية نية مبيتة فيما يبدو . . .

الفصل السابع

بينما كان الأمير يتأمل باستمتاع آجلايا التى تتابع مع الأمير "N" ويفغيني بافلوفتش حديثاً مرحاً ، كان الرجل المسن المولع بانجلترا يتحدث فى الطرف الآخر من الصالون مع «الموظف الكبير» ، فاذا هو اثناء الاندفاع فى الكلام ينطق باسم نيقولاى اندريفتش بافليشيف فجأة . فالتفت اليهما الأمير على الفور وأخذ يتابع حوارهما .

كان الكلام يدور على الانظمة الجديدة واضطرابات فى ضياع الملاكين بمقاطعة «ز . . .» . ولا بد أن القصة التى كان يرويها الرجل المشغوف بعادات الانجليز كان فيها ما يبعث على الضحك لأن «الموظف الكبير» أخذ يضحك أخيراً حين سمع صاحبه يعبر عن حميته الصفراوية . كان الرجل المشغوف بعادات الانجليز يتكلم بسهولة ويسر ، وهو يمطُّ ألفاظه بنوع من الازدراء ، وكان يروى كيف أن تلك النظم الجديدة قد أجبرته على أن يبيع بنصف الثمن ضيعته الرائعة فى تلك المقاطعة ، رغم أنه لم يكن فى حاجة الى مال ؛ وكيف احتفظ فى الوقت نفسه بضيعة مفلسة لا يجنى منها الا الخسارة ، عدا اضطراره الى ملاحقة دعوى فى شأنها لدى القضاء ودفع مبلغ ايضا لقاءها . «ومن أجل أن أتحاشى ملاحقة دعوى أخرى تتعلق بالأراضى التى خلَّفها بافليشيف ، آثرت أن اتخلى عن الميراث أصلاً . يكفى أن يؤول الىّ ميراث أو ميراثان من هذا النوع حتى تصير حالى الى دمار . لاحظْ أن نصيبى من ذلك الارث كان يقدَّر بثلاثة آلاف ديسياتيناً ، أطياناً ممتازة !»

لاحظ ايفان فيدوروفتش الاهتمام الشديد الذى كان ينصرف به الأمير الى ذلك الحديث ، فاقترب منه فجأة وقال له بصوت خافت :

— اسمع . . . ان ايفان بتروفتش يمت بقرابة الى المرحوم نيقولاى اندريفتش بافليشيف . أظن أنك تبحث عن أقرباء له ، أليس كذلك ؟

كان ايفان فيدوروفتش حتى ذلك الحين لا يتجه بنظره وعنايته الى أحد غير رئيسه الجنرال . لكنه وقد لاحظ منذ برهة أن ليف نيقولايفتش مهمل اهمالاً تاماً ، شعر من ذلك بشىء من القلق . لهذا حاول أن يُشركه فى الحديث بعض الاشراك بتقديمه الى «الشخصيات» مرة أخرى وبتزكيته لديها . فلما التقت نظرته بنظرة ايفان بتروفتش قال :

— ان ليف نيقولايفتش انما نشأه نيقولاى اندريفتش بافليشيف حين مات عنه أبواه .

فأجاب ايفان بتروفتش بقوله :

— تـ . . . شر . . . . فنا . وانى لأتذكرك تذكراً واضحاً . لقد عرفتك وتذكرت حتى وجهك منذ تولى ايفان فيدوروفتش تعريف كل منا بالآخر . الحق أنك لم تتغير كثيراً ، رغم أن عمرك لم يكن يتجاوز العاشرة أو الحادية عشرة حين رأيتك . حتى أن فى ملامحك شيئاً رسخ فى ذاكرتى . . .

سأله الأمير بما يشبه الشده :

— عرفتنى طفلاً ؟

فتابع ايفان بتروفتش كلامه يقول :

— منذ زمن بعيد جداً ! . . كان ذلك فى زلاتوفرخوفو ، حيث كنت تقيم عند قريباتى . كنت فى ذلك العهد أكثر

من الذهاب الى هناك . ألا تتذكرنى ؟ لا عجب . . . لقد كنتَ عندئذ فى حالة مرضية لا أدرى ما هى . . . حتى انى أذكر أن دهشة شديدة قد اعترتنى حين رأيتك . . .

قال الأمير مؤكداً بحرارة :

— أنا لا أتذكر شيئاً !

وأظهر الحوار الذى كان هادئاً كل الهدوء من جهة ايفان بتروفتش ومنفعلا انفعالاً مدهشاً من جهة الأمير ان الآنستين العجوزين اللتين تمتان بقرابة الى المرحوم بافليشيف وكانتا تعيشان فى أراضيه بزلاتوفرخوفو ، واللتين عُهد اليهما بتربية الأمير ، هما فى الوقت نفسه قريبتان لايفان بتروفتش . وكسائر الناس ، كان ايفان بتروفتش لا يكاد يعرف شيئاً عن البواعث التى حدت ببافليشيف الى ذلك الاهتمام بالأمير الصغير الذى جعل نفسه وصياً عليه . «لم يخطر ببالى أن أسأل عن هذا الأمر فى ذلك الوقت» . كذلك قال ايفان بتروفتش . ولكنه برهن مع ذلك على أن له ذاكرة ممتازة ، فهو لم ينس حتى أن كبرى قريبتيه ، وهى مارفا نيكيتيشنا ، كانت شديدة القسوة على الأمير الذى عهد به اليها ، وأضاف ايفان بتروفتش الى ذلك قوله : «حتى لقد بلغتْ من قسوتها اننى شاجرتها مرةً بسببك ، لأننى كنت أشجب أسلوبها فى التربية ، القائم على أن تلهب بالسياط جسم طفل مريض . . . وهذا . . . كما تعلم . . .» ولا كذلك أختها الصغرى ناتاليا نيكيتيشنا ، فقد كانت نفسها زاخرة بالحنان على الطفل المسكين . . . — وتابع موضحاً : «لا بد أن تكونا الآن كلتاهما فى مقاطعة «ز» ، حيث أورثهما بافليشيف ضيعة صغيرة ممتازة (ولكن أما تزالان على قيد الحياة ؟

لا أدرى) . أظن أن مارفا نيكيتيشنا كانت تنتوى أن تدخل الدير . على أننى لا أؤكد ذلك . من الجائز أن أكون قد سمعت هذا الكلام بصدد امرأة أخرى . . . آ . . . نعم . . تذكرت . . . لقد قيل لى هذا عن زوجة طبيب . . .»

كان الأمير يصغى الى هذه الأقوال وقد سطعت عيناه اعجاباً وحناناً . وأعلن من جهته بحرارة شديدة أنه لن يغفر لنفسه فى يوم من الأيام أنه تنقل فى داخل البلاد خلال هذه الأشهر الستة ثم لم يتح له أن يمضى الى زيارة مربيتيه السابقتيـــــن . «لقد كان فـــــى كل يـوم ينوى أن يفعل ذلك ، ثم تحول الظروف بينه وبين انفاذ ما يعقد النية عليه . . . غير أنه فى هذه المرة قد قرر جازماً أن يذهب . . . من كل بد . . . ولو الى مقاطعة «ز . . .» أأنت تعرف اذن ناتاليا نيكيتيشنا ؟ يا لها من روح رائعة ، قديسة ! وكذلك مارفا نيكيتيشنا . . . معذرة . . . يخيَّل الىَّ أنك تخطئ الظن فيها قليلا ! صحيح أنها كانت صارمة ، ولكن . . . كيف لا يُفقدها صبرَها طفل أبله تماماً فى ذلك الأوان ؟ (هىء هىء !) . اننى كنت أبله كل البلاهة حينذك . ألا تصدق ؟ (هأ هأ !) . . . ثم . . . ثم انك قد رأيتنى فى ذلك العهد ، و . . . من الغريب أننى لا أتذكرك ! هل أنت . . . آه . . . يارب ! أصحيح أنك قريب نيقولاى اندريفتش بافليشيف حقاً ؟»

قال ايفان بتروفتش مبتسماً وهو يتفرس فى الأمير :

— أ . . . ؤ . . . كد لك ذلك .

— أرجوك . . . ما أردت أن أقول اننى . . . أشك فى صدق كلامك ! . . ثم . . . هل يمكن الشك فى هذا

(هىء هىء !) . . . ولو قليلاً ؟ نعم ، ولو قليلاً ؟ (هىء هىء !) . وانما أردت أن أقول ان المرحوم نيقولاى آندريفتش بافليشيف كان رجلاً رائعاً ! ما كان أكرمه ! أحلف لك !

لا أقول ان الأمير كان يشعر باختناق ، بل أقول ان «امتلاء قلبه بالسعادة قد سدَّ حلقه» على حد التعبير الذى استعملته آديلائيدا فى صباح الغد حين تحدثت مع خطيبها الأمير «ش» . . .

قال ايفان بتروفتش ضاحكاً :

— ولكن لماذا يستحيل أن أمت بقرابة لرجل كريم كرماً عـ . . . ـظيماً ؟

اضطرب الأمير وشعر بخجل شديد فأسرع يقول بمزيد من التعجل والحرارة :

— أنا . . . هذه سخافة جديدة أقولها . . . لأننى . . لأننى . . لأننى . . يميناً ان لسانى قد خان فكرى ! ولكننى أعود فأسألك ما عسى تكون قيمة شخصى أنا بالقياس الى أمور كهذه الأمور ، بالقياس الى أمور ضخمة هذه الضخامة ؟ بالقياس الى رجل عظيم هذه العظمة ! ذلك أنه — شهد الله — كان أعظم الرجال . . . أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

كانت أعضاء الأمير كلها ترتعش . أما من أين جاءه هذا التأثر المباغت ولماذا اجتاحته هذه العاطفة كلها فجأة ، دون تناسب بينها وبين موضوع الحديث ، فذلك أمر يصعب تعليله . ولكننا نستطيع أن نقطع بأنه بلغ من الانفعال فى تلك اللحظة أنه كان يحس بشعور الشكر كاوياً محرقاً ، دون أن يعرف ماذا يشكر ولا من يشكر ، حتى لكأن الشكر لايفان بتروفتش ولجميع الحضور عموماً . هو «ذاب

سعادةً» . نظر اليه ايفان بتروفتش بمزيد من التفرس . وحدَّق اليه «الموظف الكبير» بكثير من الانتباه كذلك . وألقت عليه بيلوكونسكايا نظرات تفيض غضباً ، وأخذت تقرص شفتيها . وتوقف الأمير "N" ، ويفغينى بافلوفتش ، والأمير «ش» ، والآنسات — توقفوا جميعاً عن الكلام وأصاخوا بأسماعهم . وكانت آجلايا تبدو مذعورة ، أما اليزافيتا بروكوفيفنا فقد ارتعبت حقاً . عجيب أمر الأم وبناتها : انهن هنَّ اللواتى ارتأين وقررن أن من الأفضل أن يبقى الأمير صامتاً طوال السهرة ، فلما رأينه منعزلاً كل الانعزال فى ركن من الصالون راضياً عن حظه ، أخذ يساورهن الخوف ؛ حتى لقد خطر ببال ألكسندرا أن تقطع الغرفة كلها مقتربةً منه على حذر لتنضم به الى جماعتهم ، اى الى جماعة الأمير «N» قربَ بيلوكونسكايا . حتى اذا اندفع الأمير الآن فى الحديث تضاعف قلقهن وازدادت مخاوفهن .

قال ايفان بتروفتش بلهجة فخمة وقد كفَّ عن التبسم :

— انك لعلى حق حين تصفه بأنه كان انساناً رائعاً . . . نعم ، لقد كان انساناً ممتازاً ! — وأضاف بعد صمت قصير : — انساناً ممتازاً وجديراً بالاعتبار — وزاد على ذلك بعد برهة أخرى فقال بمزيد من الفخامة :

— بل ويمكن القول انه كان جديراً بكل احترام . ومما يثلج صدر المرء حقا أن يرى أنك من جهتك . . .

قال «الموظف الكبير» وكأنه يحاول أن يستجمع ذكرياته :

— أليس بافليشيف هذا هو ذلك الرجل الذى كانت له حكاية . . . غريبة . . . مع قس . . مع القس . . . نسيت اسمه . . . ولكن أثارت حكايته فى حينها تقوّلات

كثيرة ؟ . .

قال ايفان بتروفتش :

— القس جورو ، يسوعى . نعم ، أولئك هم رجالنا الممتازون الجديرون بالاعتبار ! ولكن بافليشيف كان نبيل المحتد وكان يملك ثروة ، وكان موظفاً بالبلاط . . . ولو بقى فى الوظيفة لأمكن أن . . . ولكنه ترك وظائفه وترك جميع علاقاته فجأة ليعتنق الديانة الكاثوليكية ويصبح يسوعياً حتى لقد فعل ذلك علانية تقريباً وبما يشبه الحماسة . بصراحة : لقد مات فى الوقت المناسب . . . نعم . جميع الناس قالوا هذا حين مات . . .

أصبح الأمير لا يستطيع كبح جماح نفسه ، فصاح يقول بلهجة مروعة :

— بافليشيف . . . بافليشيف اعتنق الكاثوليكية ؟ مستحيل !

فدمدم ايفان بتروفتش بلهجة رصينة :

— كيف «مستحيل» ؟ هذا كثير ياعزيزى الأمير . يجب أن توافق على أن . . . ولكنك تقدر المتوفى قدراً كبيراً . . . والحق أنه كان انساناً ذا قلب كبير ، وذلك هو السبب الذى أعزو اليه خاصةً كل ما حققه ذلك المحتال جورو من نجاح لديه . ولكن فى وسعك أن تسألنى أنا عن المتاعب والهموم التى أصابتنى فى أعقاب هذا الأمر . . . ولا سيما مع جورو ذاك نفسه !

وأضاف ايفان بتروفتش يقول ملتفتاً نحو الرجل العجوز مخاطباً اياه فجأة — تصور انهم أرادوا حتى أن يدَّعوا حقوقاً فى الميراث . فاضطررت أن أعمد الى أشد الاجراءات . . .

لأسمعهم صوت العقل . . . ذلك أنهم يعرفون ما يفعلون ! هؤلاء أناس مدهشون ! ولكن . . الحمد لله ! لقد حدث الأمر بموسكو ، فاتجهت فوراً الى الكونت وأرجعناهم . . . الى الرشاد .

هتف الأمير يقول من جديد :

— لا تستطيع أن تتصور مدى ما أحدثته فى نفسى من ألم واضطراب !

— آسف . ولكن ذلك كله لم يكن فى حقيقة الأمر الا سفاسف ، وكان يمكن أن ينتهى بلا شىء ، كما يحدث عادةً . اننى مقتنع بذلك . — ثم أضاف يقول مخاطباً العجوز من جديد : — فى الصيف الماضى التحقت الكونتيسة ك . . . بأحد الأديرة الكاثوليكية بالخارج ، فيما يقال . ان مواطنينا لا يملكون أية قدرة على المقاومة حين يتسلط عليهم أولئك . . . المحتالون ولا سيما فى الخارج .

ودمدم العجوز بلهجة العليم بالأمور :

— أظن أن مرد ذلك كله الى أننا . . . متعبون . ثم ان لأولئك الناس أسلوباً خاصاً فى التبشير يمتاز بكثير . . . بكثير من الرشاقة . هذا عدا أنهم يعرفون كيف يخيفونك . لقد أخافونى أنا نفسى . اعترف لكم بذلك . حدث هذا سنة ١٨٣٢ بمدينة فيينا . ولكننى لم أسقط بين أيديهم ، بل ولّيت هارباً . هأ هأ !

هنا تدخلت بيلوكونسكايا فجأة فقالت :

— لقد سمعت ياصديقى العزيز أنك فى ذلك الوقت قد هربت من فيينا الى باريس فى صحبة امرأة جميلة هى الكونتيسة ليفيتسكايا . فمن أجل تلك المرأة ، لا تخلصاً

من يسوعى ، انما تركت الخدمة .

أجاب العجوز مبتسماً لحلاوة تلك الذكرى الجميلة :

— طيب . . . ولكن هذا لا ينفى أن ذلك حدث بسبب يسوعى . . . — ثم أضاف يقول بلهجة لطيفة ودود ، مخاطباً الأمير ليف نيقولايفتش الذى كان يصغى الى الحديث فاغر الفم من الدهشة ، وكان ما يزال يبدو مصعوقاً : — يبدو عليك أن لك عواطف دينية قوية جداً ، وذلك أمر يندر أن نراه الآن لدى الشباب . — كان واضحا أن العجوز يرغب فى معرفة الأمير معرفة أكمل ، وأن هناك أسباباً تدفعه الى بدء الاهتمام به اهتماماً قوياً .

قال الأمير فجأة :

— كان بافليشيف رجلاً راجح العقل ، وكان مسيحياً حقاً . فكيف يمكن أن يعتنق ديانة . . . ليست مسيحية ؟ ذلك أن الكاثوليكية دين ليس من المسيحية فى شىء !

كانت عيناه تسطعان وكان يجيل بصره على من حوله كأنه يريد أن يشمل الحضور كافةً بنظرة واحدة .

جمجم العجوز يقول وهو يرشق ايفان فيدوروفتش بنظرة تنم على الدهشة :

— أظن أن هذا يتجاوز الحدود !

وانبرى ايفان بتروفتش وهو يستدير على كرسيه :

— كيف يمكن القول ان الكاثوليكية ليست ديانة مسيحية ؟ فما هى اذن ؟

استأنف الأمير كلامه قائلاً بانفعال شديد ولهجة قاطعة الى اقصى الحدود :

— هى أولاً ديانة ليست مسيحية ! هذه نقطة أولى .

أما النقطة الثانية فهى أن كاثوليكية روما أسوأ من الالحاد نفسه فى رأيى ! نعم ، ذلك هو رأيى ! ان الالحاد يقتصر على المناداة بالعدم ، أما الكاثوليكية فهى تمضى الى أبعد من ذلك : انها تبشر بمسيح شوهته وأفسدت صورته وسوأت وجهه ، انها تبشر بمسيح هو نقيض الحقيقة ! انها تبشر بنقيض المسيح ، أؤكد لكم ! هذه قناعتى الشخصية منذ زمن طويل ، وما أكثر ما عذبتنى أنا نفسى . . . ان الكاثوليكية الرومانية تؤمن بأن الكنيسة لا يمكن أن تبقى على الأرض ما لم تمارس سلطة سياسية شاملة وتعلن : Non possumus![1] . بل ان الكاثوليكيـــة الرومانية فى رأيى ليست ديانة . وانما هى استمرار للامبراطورية الرومانية الغربية . فكل شىء فيها خاضع لهذه الفكرة ؛ حتى الايمان . لقد استولى البابا على الأرض ، والعرش الأرضى ، وأشهر السيف . ثم لم يتغير شىء منذ ذلك الحين ، اللهم الا أن يكون السيف قد أضيف اليه الكذب والمكر والخديعة والتعصب والخرافة والسفالة . لقد عبثوا بأقدس عواطف الشعب وأنقاها وأكثرها براءة ، وحماسة . لقد باعوا كل شىء بالمال ، كل شىء ! . . باعوا كل شىء بسلطة دنيوية حقيرة . فكيف لا تكون هذه العقيدة نقيض المسيحية ؟ وكيف يمكن أن لا تكون الكاثوليكية سبب الالحاد ؟ لقد خرج الالحاد من الكاثوليكية الرومانية نفسها ! وباتباع الكاثوليكية انما بدأ الالحاد : هل كان يمكن أن يصدقوا أنفسهم ؟ ثم قوى الالحاد بالكره الذى حمله لهم الناس . ان الالحاد ثمرة

---

[1] لا نستطيع ! (باللاتينية فى الأصل) .

أكاذيبهم وعجزهم الروحى . الالحاد ! ما يزال الالحاد فى بلادنا لا يُرى الا فى بعض فئات المجتمع ، لا يُرى الا لدى «المجتثة جذورهم» على حد التعبير الموفق الذى استعمله يفغينى بافلوفتش . أما هناك ، فى أوروبا ، فان جماهير كبيرة من الشعب قد بدأت تفقد الايمان . كان عدم تدينها فى الماضى ناشئاً عن الجهل والكذب . أما الآن فهو ناشئ عن التعصب وعن كره الكنيسة والمسيحية !

توقف الأمير عن الكلام لاهثاً . لقد تكلم بتدفق شديد . هو الآن شاحب اللون مختنق الصدر . تبادل الحضور نظرات دهشة . وأخيراً أخذ الشيخ يضحك ضحكاً صريحاً . وأخرج الأمير «N» نظارته وأخذ يحدق بها الى الأمير . وترك الشويعر الألمانى الركن الذى كان قد تلبث فيه فاقترب من المائدة وعلى شفتيه ابتسامة شريرة .

قال ايفان بتروفتش بصوت ممطوط ، وقد لاح فى وجهه الضجر وما يشبه وخزات الضمير :

— أن . . . ت . . تبا . . لغ . . كثيرا . ان تلك الكنيسة يمثلها كذلك رجال يستحقون كل احترام ، رجال فضلاء . . .

— أنا لم أتكلم عن ممثلى الكنيسة كأفراد . وانما تكلمت عن الكاثوليكية الرومانية فى حقيقتها . أنا انما تكلمت عن روما . هل يمكن أن تزول الكنيسة زوالاً تاماً ؟ أنا لم أقل هذا قط !

— موافق . ولكن كل ما تقوله معروف فلا داعى الى الكلام فيه . ثم . . . ثم ان هذا كله من اختصاص علم اللاهوت . . .

— لا ، لا ! ليس هذا من اختصاص علم اللاهوت

وحده ، أوكد لك ! هذا أمر يمسنا كلّنا مساً أقرب كثيراً مما تتصور . هنا انما يكمن خطؤنا : ما يزال يصعب علينا أن نألف فكرة أن هذه المسألة ليست مسألة لاهوتية فحسب ! لا تنسوا أن الاشتراكية هى أيضاً ثمرة الكاثوليكية وجوهرها . فالاشتراكية ، كأخيها الالحاد ، انما وُلدت من اليأس . انها نقيض أخلاقى للكاثوليكية . انها ترمى الى الحلول محل السلطة الروحية التى فقدها الدين ، تهدف الى ارواء الظمأ الروحى الذى يحرق الانسانية ، والى تخليص الانسانية لا بالمسيح بل بالعنف ! انما هو أيضاً الحرية بواسطة العنف ، والاتحاد بواسطة السيف والدم ! «ممنوع الايمان بالله . ممنوع التملك . ممنوع أن يكون للمرء شخصية ، fraternité ou la mort *[١] ، ومليــونـــا رأس !» .

وقديماً قيل : تعرفونهم من أعمالهم ! ألا لا يذهبن بكم الظن الى أن هذا كله لا أذى فيه ، ولا خطر علينا منه ! لا . . . يجب علينا أن نواجههم ، وأن نواجههم بأقصى سرعة ! ينبغى لمسيحنا ، للمسيح الذى حافظنا عليه ولم يستطيعوا حتى أن يعرفوه ، ينبغى لهذا المسيح أن يشرق ويتألق فى مواجهة الغرب ! علينا أن ننتصب أمامهم ، لا لنعض صنارة اليسوعية فتصطادنا ، بل لننفث فيهم حضارتنا الروسية . ولا يقلْ أحد عندنا انهم يعرفون كيف يبشرون بأناقة ، كما قال واحد منا منذ برهة . . .

أجاب ايفان بتروفتش قائلاً وقد لاح فى وجهه قلق شديد ، واخذ يلقى على ما حوله نظرات دهشة ، بـل

[١] الأخوة أو الموت (بالفرنسية فى الأصل) .

وطفق يظهر علامات رعب :

ـــ ولكن اسمح لى ، اسمح لى . . . لا شك أن آراءك آراء محمودة ، وتزخر وطنية ، ولكن ذلك كله فيه غلو كثير . . . فمن الخير أن نترك هذا الموضوع . . .

ـــ لا ، ليس ثمة شيء من غلو ، بل ، بالعكس ، فيه شيء من التهوين ، التهوين بالذات ، لأننى عاجز عن التعبير عن فكرى كله ، ولكن . . .

ـــ ! . . . إسـ . . سمح لى !

صمت الأمير جامداً على كرسيه ، راشقاً ايفان بتروفتش بنظرة مشتعلة .

قال الشيخ الصغير بلهجة ودود دون أن يخرج عن هدوئه :

ـــ يبدو لى أنك أخذت فعلة صاحبك المحسن اليك مأخذ الفاجعة . ان أعصابك مهتاجة . . . وربما كان مرد ذلك الى العزلة التى تعيش فيها . فلو عاشرت الناس ، وأنا آمل أن يحسن المجتمع الراقى استقبال شاب ممتاز مثلك ، لهدأت ثائرتك ولوجدت أن هذا كله أبسط كثيراً مما تتصور . . . ثم ان هذه الحالات نادرة جداً . . . وفى رأيى أن بعضها يرجع الى شبعنا ، وأن بعضها الآخر يرجع الى . . . السأم . .

صاح الأمير يقول :

ـــ نعم . . . هذا هو الأمر تماماً . هذه فكرة عظيمة ! انه «السأم» ! ان «سأمنا» هو السبب . ليس الشبع هو السبب بل الظمأ ! هنا جافيت أنت الصواب ! فنحن أناس عطاش لم يرتو ظمؤنا . بل قل أن ظمأ محموماً يلتهمنا التهاماً ! و . . . لا تظنوا أن ذلك ظاهرة تبلغ

من تفاهة الشأن أنها لا تستحق منا الا الضحك . معذرة ، يجب على المرء أن يحسن الاحساس بالأمور قبل وقوعها ! ان مواطنينا متى لمسوا الشاطئ ، ومتى اطمأنوا الى أنه هو الشاطئ فعلاً ، بلغوا من السرور أنهم ما يلبثون أن يصلوا من ذلك الى أقصى التطرف . لِمَ هذا ؟ ان حالة بافليشيف تدهشكم ، فأنتم تتصورون أنه فقد عقله أو أنه هوى من فرط طيبته . وليس الأمر كذلك فى الحقيقة ! ان تحمس النفس الروسية فى مثل هذه الظروف لا يثير دهشتنا نحن وحدنا ، بل يثير دهشة أوروبا كلها . حين يتحول روسى الى الكاثوليكية فانه لا بد أن يصبح يسوعياً ، ولا بد أن يصبح من أكثر اليسوعيين تطرفاً وتعصباً . واذا اعتنق الروسى مذهب الالحاد ، فانه لا يتردد فى المطالبة باستئصال الايمان بالله بالعنف اى بحد السيف ! فما سبب التعصب المفاجئ ؟ ألا تعرفون ذلك ؟ سببه أن الروسى يعتقد أنه اكتشف له وطناً هناك ، وطناً غاب عن عينيه هنا ، فاذا هذا الاكتشاف يملؤه فرحاً . لقد وجد شاطئ الأمان ، لقد وصل الى البر . فها هو ذا يهرع اليه ويغمره بالقبلات ! انه لا يفعل ذلك من باب الغرور ؛ ان الروس لا يصبحون ملاحدة أو يسوعيين لأن شعوراً خبيثاً بالزهو قد سيطر على أنفسهم . وانما هم يصبحون ملاحدة أو يسوعيين بتأثير ظمأ نفسى ، بتأثير حنين الى قضية أسمى ، الى أرض ثابتة وطيدة ، الى وطن كفوا عن الايمان به لأنهم لم يعرفوه فى يوم من الأيام ! ان الانسان الروسى سهل الانتقال الى الالحاد ، انه أسهل انتقالاً الى الالحاد من أى شخص آخر فى العالم ! ومواطنونا لا يصبحون ملاحدة فحسب ،

بل لا بدّ لهم أن **يؤمنوا** بهذا الالحاد ، كأنه دين جديد ، لا يلاحظون انهم بذلك انما يؤمنون بالعدم . فالى هذا الحد يبلغ بنا الظمأ . «من لم يكن تحت قدميه أرض ، لم يكن له اله أيضاً» . ليست هذه الفكرة منى أنا . وانما عبَّر لى عنها تاجر من أنصار الكنيسة القديمة» التقيت به فى سفر . الحقيقة أنه لم يقل هذا الكلام بنصه ، وانما قال : «من يجحد وطنه يجحد الهه أيضاً» . تصوروا أنه قد وجد فى روسيا أناس مثقفون ثقافة عالية انتموا الى ملة «الخليستى»» . . . والحق أننى أتساءل لماذا نعد هذه الملة أسوأ من العدمية واليسوعية والالحاد ؟ لعلها قد تكون أعمق منها . ولكن ذلكم ما يمكن أن يؤدى اليه الحنين ! . . أروا رفاق كريستوفر كولومبس العطاش الملتهبين شواطئ «العالم الجديد» ؛ اكشفوا للانسان الروسى عن «العالم» الروسى ؛ أتيحوا له أن يجد ذلك الذهب ، ذلك الكنز الذى تخفيه الأرض عن بصره ! أظهروا على ما سيتحقق فى المستقبل للانسانية كلها من تجدد وانبعاث ربما بفضل الفكر الروسى والاله الروسى والمسيح الروسى ؛ افعلوا ذلك كله تروا أىَّ عملاق قوى عادل ، حكيم حليم ، سينتصب قائماً أمام العالم المذهول . المذهول والمروَّع ، ذلك أنهم لا يتوقعون منا الا السيف ، السيف والعنف ، فهم اذ يقيسوننا بمقياس أنفسهم لا يستطيعون أن يتصورونا فى صور غير صور الهمجية . ذلك ما كان حتى الآن ، ولسوف ينمو هذا الظن الخطأ مزيداً من النمو فى المستقبل ! و . . .

غير أن حادثاً وقع فى تلك اللحظة فقطع كلام الخطيب على نحو لم يكن فى الحسبان .

ان هذا الحديث الطويل المحموم كله ، هذا السيل المتدفق من الكلام المضطرب و الملتهب من الأفكار المتحمسة المشوشة المتصادمة فى فوضى ، انما كان ينذر بشىء ذى خطورة خاصة على مزاج الشاب الذى فار وغلى الآن على حين فجأة دون سبب ظاهر . وقد دُهش من بين الحضور جميعُ أولئك الذين يعرفون الأمير (حتى لقد شعروا بخجل) ، من اندفاعته هذه التى لا تتفق وما عهدوا فيه من تحفظ دائم بل خجول ، وكياسة نادرة فى بعض الأحوال وشعور فطرى بما يليق التزامه من آداب . ولم يفلحوا فى فهم علة هذا الخروج عن عاداته المعهودة فيه ، اذ لم يكن ممكناً تعليله بما انكشف له من أمر بافليشيف . أما فى ركن السيدات فقد عُدَّ انساناً فقد عقله . وقد اعترفت بيلوكونسكايا فيما بعد أنها «كانت ستهرب لو دام ذلك المشهد برهة أخرى» . وأما «الشيخان الصغيران» فقد كادا ينذهلان منذ لحظة الشده الأولى . نظر الجنرال الموظف الكبير باستياء وصرامة وهو جالس على كرسيه . ولزم العقيد الفنى هدوءاً تاماً ، فلم يحرك ساكناً . وشحب لون الألمانى ، لكنه ظل يبتسم ابتساماً زائفاً وهو ينظر فيما حوله ليرى كيف يتصرف الآخرون . وعلى كل حال ، كان يمكن أن تنتهى «هذه الفضيحة» كلها على أبسط نحو طبيعى ، ربما فى دقيقة واحدة . حتى لقد قام ايفان فيدوروفتش الذى شُده شدهاً قوياً ، ولكنه ثاب الى نفسه واسترد هدوءه قبل الآخرين ، قام بعدة محاولات لوقف الأمير ، فلما لم يفلح اقترب منه بثبات وعزم . فلو انقضت دقيقة واحدة أخرى لكان من الممكن ، اذا اقتضت الضرورة ذلك ، أن يقرر اخراجه

بلطف وصداقة ، زاعماً له أنه مريض ، وذلك زعم قد يكون صادقاً ، وكان ايفان فيدوروفتش من جهته مقتنعاً به كل الاقتناع . . . ولكن الأمور جرت مجرى آخر .

كان الأمير ، منذ أن دخل الصالون ، قد مضى يجلس فى أقصى مكان عن اناء الخزف الصينى التى خوفته آجلايا من كسره ذلك التخويف كله . شىء لا يكاد يصدقه العقل : ان الأمير ، بعد الذى قالته له آجلايا بالأمس ، قد ترسخ فى نفسه اقتناع لا سبيل الى مغالبته بأنه لن يستطيع تحاشى كسر هذا الاناء مهما يبذل من جهد لتفادى هذه المصيبة . ذلك توجس غريب لا يصدَّق ، ولكنه كان يحس به حقاً . فى أثناء السهرة كانت قد اجتاحت نفسَ الأمير مشاعرُ أخرى ، قوية ممتعة فى آن واحد ، هى تلك المشاعر التى سبق أن تحدثنا عنها . وقد نسى توجسه . فلما سمع أحداً ينطق باسم بافليشيف ، وقاده ايفان فيدوروفتش الى ايفان بتروفتش ليقدمه اليه مرةً أخرى ، اقترب من المائدة وجلس على مقعد قربَ اناء الخزف الصينى ، الضخم الرائع ، الموضوع فوق قاعدة فى مستوى كوعه تقريباً ، ووراءه قليلاً .

وحين نطق بالكلمات الأخيرة من خطابه نهض فجأة ، وأجرى ذراعه بحركة واسعة طائشة ، ولفت كتفيه على غير ارادة منه ، فاذا . . . اذا بصرخة تدوّى منطلقةً من أفواه الحضور جميعاً ! لقد ترنح الاناء ، وتأرجح فى أول الأمر ولاح أنه يهم أن يسقط على رأس أحد الشيخين الصغيرين ، لكنه لم يلبث أن مال الى الجهة الأخرى التى كان فيها الألمانى ، فلو لا أن أسرع الألمانى يثب من مكانه مرتاعاً لسقط عليه ، لكنه هوى على الأرض . فأحدث سقوطه

قرقعة شديدة ردَّ عليها الحضور بصيحات ، وتناثر حطامه الثمين على السجادة هنا وهناك ! استولى على الحفل ذعر ودهشة . أما الأمير فمن الصعب بل ومن نافل القول أن نصف حالته ! لكننا لا نستطيع أن نعفى أنفسنا من الاشارة الى أن احساساً خاصاً قد اجتاحه فى تلك اللحظة عينها وفجأة تميز عن احساسات أخرى غيره ، غامضة وغريبة . ان الاحساس الذى شدهه وأسَره أكثر من أى احساس آخر ، لم يكن هو الشعور بالخجل أو الفضيحة أو الرعب أو المفاجأة ، بل هو الشعور بتحقق النبوءة ! لو حاول أن يعلل لنفسه ما يشتمل عليه ذلك الشعور من قوة الأسر لما استطاع ذلك ولكنه كان يحس أن هذا الشعور قد حاصر قلبه وملأ نفسه برهبة تكاد تكون غيبيةً . وبعد لحظة بدا له أن كل شىء يتسع من حوله وأن الرهبة تتبدد أمام احساس بالضياء والفرح والنشوة . انقطعت من ذلك أنفاسه ، و . . . ولكن اللحظة انقضت . الحمد لله ! لم يكن الأمر ما كان يظن . استرد تنفسه ، ونظر حوله .

لبث وهلة طويلة كمن لا يشعر بالاضطراب الذى يحيط به ؛ بل قل انه كان يفهم فهما تاماً ويرى كل ما كان يجرى ، ولكنه كان يحس كأنه شخص منفرد فى خارج الحادثة ، كشخص خفى من شخوص الحكايات الخرافية ، يرقب فى حجرة تسلل اليها أناساً غرباء يهمه أمرهم . رأى حطام الاناء يُجمع ، وسمع أحاديث سريعة ، وأبصر آجلايا محدقةً اليه : كان وجه آجلايا شاحباً وكانت هيئتها غريبة ، غريبة جداً ، ولكن نظرتها لا تعبِّر عن أى كره ، ولا تعبر عن أى غضب . كانت تتأمله مرتاعة ، غير أن عينيها

زاخرتان بالعطف والمحبة ، بينما هى تلقى على الآخرين نظرات حانقة . . . فاجتاحت قلبَه بهجة لذيذة على حين فجأة .

وأخيراً لاحظ مبهوتاً أن جميع الحضور قد جلسوا ، حتى لقد كانوا يضحكون فكأن شيئاً لم يحدث ! وانقضت دقيقة فاشتد الضحك . انهم يضحكون الآن من انشداهه ، ولكنهم يضحكون مرحين ، بمودة ومحبة . وهؤلاء أشخاص عدة يكلمونه بعبارات فيها كثير من الملاطفة ، ولا سيما اليزافيتا بروكوفيفنا التى تتكلم ضاحكة وتقول كلمات رقيقة غاية الرقة . وها هو ذا يحس بايفان فيدوروفتش يربت على كتفه فجأة بكثير من الصداقة . وكان ايفان بتروفتش يضحك هو أيضاً . ولكن الشيخ الصغير كان أكثر الحضور بشاشة ولطفاً : انه يتناول يد الأمير ويشد عليها برفق ويربت عليها بيده الأخرى ، ويناشده أن يهدأ بالاً ، كما يفعل المرء مع طفل اعتراه خوف ، فكان لذلك وقع جميل فى نفس الأمير ، وأخيراً أجلسه بقربه . أخذ الأمير يتأمل وجه الشيخ مفتوناً ، وظل لسبب ما لا يقوى على أن ينطق بكلمة واحدة اذ تقطعت أنفاسه . لقد أعجبه وجه الشيخ كثيراً .

وتمتم يقول أخيراً :

— كيف ؟ أصحيح حقاً أنكم تغفرون لى ؟ و . . . أنت أيضاً يا اليزافيتا بروكوفيفنا ؟

فاشتد الضحك ، وترقرقت الدموع فى عينى الأمير . انه لا يستطيع أن يصدِّق بهجة كهذه البهجة .

قال ايفان بتروفيتش :

— لا شك فى أنه كان اناءً رائعاً . اننى أعرفه

منذ خمس عشرة سنة . . . نعم . . . منذ خمس عشرة سنة . . .

وقالت اليزافيتا بروكوفيفنا بصوت عال :

— أهذه كارثة ؟ حتى الانسان يأتى أجله أما هنا فجرة من فخار !

ثم أضافت تقول وقد لاح فى وجهها تعبير عن الخوف :

— أصحيح أن الأمر أحدث فيك هذا الاضطراب كله يا ليف نيقولايفتش ؟ هيّا يا صديقى ! كفاك كفاك ! انك لتخيفنى حقاً !

سألها الأمير :

— وهل غفرتم لى **كل شىء** ؟ لا كسر الاناء وحده ، بل **كل شىء** أيضاً ؟

وهمَّ الأمير أن ينهض ، ولكن الشيخ الصغير أمسك يده ، وأبى أن يتركه .

همس يقول من فوق المائدة لصاحبه ايفان بتروفتش ، ولكن صوته لم يكن من الخفوت بحيث لا يسمعه الأمير :

C'est très curieux et c'est très sèrieux! [1]

— ألم أسىء اذن الى أحد منكم ؟ انكم لا تستطيعون أن تتصوروا مدى السعادة التى تغمرنى من هذه الفكرة . على أن الأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك : فأنّى لمثلى أن يسىء الى واحد مثلكم ؟ ان مجرد افتراض هذا اهانة لكم .

— هدئ نفسك ياصديقى . انك تبالغ . لا داعى

---

[1] هذا مثير للفضول وخطير جداً (بالفرنسية فى الأصل) .

الى هذا الشكر كله . هى عاطفة جميلة ، لكنك تبالغ فيها .

— أنا لست شاكراً لكم ، بل أنا . . . معجب بكم ، وأنى لسعيد بتأملكم . لعل كلامى سخيف ، ولكن لا بدّ لى من الكلام ، لا بد لى من الافصاح . . . ولو احتراماً لنفسى .

كانت تعترى الأمير حركات اندفاعية تدل على الاضطراب والحمى . من الجائز جداً أن كلماته لم تعبر دائماً عما كان يود أن يقوله . كان يبدو عليه أنه يريد أن يستأذن فى الكلام . ووقع بصره على بيلوكونسكايا .

قالت :

— لا بأس ، يا عزيزى ، أكمل ، أكمل ، ولكن لا تلتهث . لقد بدأت من الالتهاث فأنظر الى ما وصلت اليه . تكلم بغير خشية أو رهبة . ان هؤلاء السادة قد رأوا أناساً كثيرين أغرب منك ، فلن تدهشهم . يعلم الله أن فهمك ليس بالأمر العسير ، كل ما هناك أنك قد كسرت هذا الاناء فأخفت الجميع .

كان الأمير يصغى اليها مبتسماً ، وفجأة سأل الشيخَ الصغير قائلاً :

— أأنت الذى انقذت من النفى ، منذ ثلاثة أشهر ، الطالب بودكوموف والموظف شفابرين ؟

فاحمر الشيخ قليلاً ، وجمجم بكلام يدعوه فيه أن يهدئ نفسه .

وأردف الأمير فى الحال يقول مخاطباً ايفان بتروفتش :

— وعنك أنت سمعت أنك فى مقاطعة «ن» قد

وهبت أخشاب بناء لفلاحين يسكنون فى أراضيك حين امتحنوا بحريق ، رغم أنهم بعد انعتاقهم كانوا قد أساءوا معاملتك ؟

فدمدم ايفان بتروفتش يقول :

— أوه ! هذه مبالغة !

على أن وجهه قد عبَّر عن ارتياح واعتزاز . والحق أنه لم يخطئ فى هذه المرة حين تحدث عن «مبالغة» ، ذلك أن الأمر لم يكن الا شائعة كاذبة وصلت الى مسامع الأمير .

واستأنف الأمير كلامه ملتفتاً الى بيلوكونسكايا فقال لها وهو يبتسم ابتسامة مشرقة :

— وأنت ، يا أميرة ، ألم تكرمى وفادتى وتعامليني معاملة الابن اعتماداً على رسالة توصية من اليزافيتا بروكوفيفنا ؟ ألم تسدى الىَّ كذلك نصيحة لن أنساها ما حييت ، كما تنصح أم ابنها ؟ أتذكرين ؟

قالت بيلوكونسكايا بحنق :

— ماذا أصابك ؟ انك لشاب طيب ولكنك مضحك . فاذا نفحك أحد قرشين أخذت تكيل له الشكر كأنه أنقذ حياتك ؟ تظن أن هذا حسن ، كلا ، هذا مستقبح .

وأوشكت أن تغضب مزيداً من الغضب ، ولكنها أخذت تضحك على حين فجأة ، وكان فى ضحكها هذه المرة بشاشة ومودة . فهدأ وجه اليزافيتا بروكوفيفنا أيضاً ، وأشرق محيَّا ايفان فيدوروفتش .

تمتم الجنرال بلهجة الارتياح والفرح مردداً كلمات بيلوكونسكايا التى أثرت فيه تأثيراً كبيراً :

— لقد قلت حقاً أن ليف نيقولايفتش رجل يبلغ

من الـ . . . رجل يمكن أن . . . على شرط أن لا يلتهث أثناء الكلام ، كما نبَّهت الأميرة الى ذلك . . .

وكانت آجلايا وحدها تبدو حزينة . ومع ذلك كان وجهها ما يزال مصطبغاً بحمرة ، ربما من أثر الاستياء .

كرر الشيخ الصغير يقول لايفان بتروفتش :

— حقاً انه لطيف جداً .

كان الأمير فى حالة اضطراب ما ينفك يزداد . وها هو ذا يستأنف الكلام فيقول بتدفق يتسارع أكثر فأكثر ، وتزداد فيه الغرابة والحماسة :

— لقد دخلت الى هنا معذب القلب ، و . . . وكنت خائفاً منكم ، وكنت خائفاً من نفسى . كنت خائفاً من نفسى خاصة . حين عدت الى بطرسبرج كنت قد آليت على نفسى لأعرفنَّ أناس الطبقة الأولى مهما كلّف الأمر ، أولئك الذين ينتمون الى أسر أصيلة عريقة أنتمى أنا الى واحدة منها بالوراثة . أنا الآن بين أمراء مثلى ، أليس كذلك ؟ كنت أريد أن أتعرف اليكم ، وكان ذلك أمراً لا بد منه ، لا بد منه قطعاً ! . . لقد طالما سمعت عنكم سوءاً كثيراً ، لقد سمعت عنكم من السوء أكثر مما سمعت عنكم من الخير . حُدِّثت عن ضيق فكركم ، عن فقر اهتماماتكم ، عن رجعية عقلكم ، عن ضحالة ثقافتكم ، عن سخافة عاداتكم . آه . . ما أكثر ما يُكتب عنكم من أمور ! لذلك كنت زاخر النفس بحب الاطلاع وشدة القلق حين جئت الى هنا اليوم . كان ينبغى لى أن أرى بعينى ، وأن أكوِّن لنفسى اقتناعاً شخصياً عن السؤال التالى : هل صحيح أن الطبقة العليا من المجتمع الروسى تافهة لا تصلح

لشيء ، وأن زمانها قد ولّى ، وأن حيويتها قد نضبت ، وأنها أصبحت عاجزةً عن أى شيء الا أن تموت ، وأنها رغم ذلك ما تزال مصرة اصراراً عنيداً بدافع الغيرة الحقيرة على أن تحارب رجال . . . رجال المستقبل ، وأن تسدَّ أمامهم الطريق ، دون أن تدرك أنها هى نفسها تُحتضر ؟ صحيح أننى من قبل أيضاً كنت لا أصدق كثيراً هذه الآراء ، لأن بلادنا روسيا لم تضم فى يوم من الأيام طبقة عليا حقاً ، اللهم الا رجال البلاط الذين تميزوا بزيهم الرسمى أو . . . ولكن تلك الطبقة قد زالت الآن زوالاً تاماً ، أليس الأمر كذلك ؟

قال ايفان بتروفتش وهو يضحك ساخراً :

— ولكن ليس الأمر كذلك !

فدمدمت بيلوكونسكايا تقول نافدة الصبر :

— ها هو ذا يستأنف !

فقال من جديد الشيخ الصغير بصوت خافت :

— [1] Laissez le dire ، ان جسمه كله يرتجف .

كان الأمير قد خرج عن حالته الطبيعية قطعاً .

— فماذا رأيت هنا ؟ رأيت أناساً يفيضون لطافة فكر ، وصراحة قول ، وقوة ذكاء . رأيت شيخاً وقوراً ينتبه الى صبيٍ مثلى انتباهاً زاخراً بالعاطفة والمحبة ، ويصغى الى كلامه حتى النهاية . وأرى أناساً قادرين على أن يفهموا وأن يغفروا . وهؤلاء أناس روس طيبون لا يكادون يقلون طيبة وميلاً الى المودة والصراحة عن أولئك الذين لقيتهم هناك ؛

---

[1] دعوه يتكلم (بالفرنسية فى الأصل) .

وهم قد لا يقلون عنهم قيمة . فهل ثمة مفاجأة أحلى من هذه المفاجأة ؟ آه . . . اسمحوا لى أن أفصح عن شعورى هذا ! سمعت الناس كثيراً يقولون ان كل شيء فى المجتمع الراقى لا يعدو أن يكون آداباً سطحية ومحافظة على الشكل بالية ، أما نسغ الحياة فقد جف . وكثيراً ما اعتقدت أنا بصدق هذا الكلام . ولكننى أرى الآن رؤية العين أن هذا لا يمكن أن يصدق على بلادنا . قد يكون فى مكان ما ، غير بلادنا . هل يمكن أن يصدِّق المرء أنكم الآن جميعاً يسوعيون ودجَّالون ؟ منذ قليل سمعت قصة الأمير «N» : أليست تشتمل على فكاهة زاخرة بالصدق و العفوية ؟ أليست تشتمل على طيبة حقيقية ؟ هل يمكن أن تخرج أقوال كهذه الأقوال من فم رجل . . . ميت ، من فم رجل جفَّ قلبه ويبست موهبته ؟ هل كان فى وسع أموات أن يستقبلونى كما استقبلتمونى ؟ أليس فى هذا عنصر للمستقبل ، للآمال ؟ هل يمكن أفراداً مثلكم أن لا يدركوا وأن يتخلفوا ؟

قال «الموظف الكبير» ، وهو يبتسم ابتسامة فيها قليل من السخر :

— أرجوك ثانية ، هدئ نفسك يا صديقى العزيز . سنتكلم عن هذا كله فى يوم آخر ، وسيسرنى كثيراً أن . . .

وتنحنح ايفان بتروفتش والتفت على مقعده . وعاد ايفان فيدوروفتش يضطرب ويتحرك . ان رئيسه الجنرال شُغل بالحديث مع زوجة الموظف الكبير ، وأصبح لا يولى الأمير أى انتباه . ولكن السيدة كانت تصغى كثيراً ما الى الأمير وتنقل بصرها اليه .

تابع الأمير كلامه يقول باندفاعة محمومة جديدة مخاطباً

الشيخ الصغير بلهجة الثقة بل وبلهجة المسرَّة :

— لا ، لا ، ان الأفضل أن أتكلم ! ان آجلايا ايفانوفنا قد حظرت عليَّ بالأمس أن أتكلم ، حتى لقد حددت لى مواضيع يجب أن لا أقاربها ، فهى تعلم أننى أكون مضحكاً حين أعالجها ! أنا فى السنة السابعة والعشرين من عمرى ، ولكنى أدرك أن سلوكى سلوك طفل . لا يجوز لى أن أعبر عن فكرى . قلت هذا منذ زمن طويل . لم أتكلم بصراحة الا فى موسكو ، مع روغوجين . . . قرأنا بوشكين معاً ، قرأناه كاملاً . كان هو لا يعرف شيئاً ، كان لا يعرف حتى اسم بوشكين . . . ما زلت أخشى أن تفسد هيئتى المضحكة فكرى ، وأن تحط من قدر **الفكرة الرئيسية** . ان حركاتى واشاراتى غير موفقة . انها تجىء فى غير محلها ، فتثير الضحك وتحط من قدر الفكرة . ينقصنى أيضاً حس الاعتدال والقصد . وذلك أمر خطير ، بل هو أخطر شىء . . . أنا أعلم أن خير ما أفعله هو أن أبقى ساكناً وصامتاً . فحين أسكن وأصمت يمكن أن أبدو للناس عاقلاً بل عاقلاً جداً ، ويُتاح لى عدا ذلك أن أفكِّر . ولكن الآن من الأفضل أن أتكلم . انك تنظر الىَّ بترحيب كبير ، لذلك قررت أن أتكلم . ان فى ملامح وجهك فتنة رائعة ! لقد وعدت آجلايا ايفانوفنا بالأمس أن أصمت طوال السهرة .

قال الشيخ الصغير وهو يبتسم : [1] Vraiment?

— غير أن هناك لحظات أقول فيها لنفسى ان هذا التفكير خطأ ، فالصدق المخلص يساوى حركة موفقة .

---

[1] حقاً ؟ (بالفرنسية فى الأصل) .

أليس كذلك ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

— أحياناً .

— أريد أن أشرح لكم كل شىء ، كل شىء ، كل شىء ! آ . . . نعم ! أتظنون اننى امرؤ خيالى ؟ عقائدى ؟ لا ، لا ، يميناً ان أفكارى كلها بسيطة كل البساطة . . . ألا تصدقوننى ؟ أتبتسمون ؟ اسمعوا . . . أنا فى بعض الأحيان نذل لأننى أفقد الايمان . منذ قليل ، حين كنت آتياً الى هنا ، تساءلت : «كيف عسانى أكلمهم ؟ ما هى العبارات التى أستهل بها الحديث حتى يفهموا عنى ولو قليلاً ؟» شعرت بخوف شديد ، وعليكم أنتم انما خفت أكثر بكثير ! فهل كان من حقى أن أخاف ؟ ألم يكن خوفى شيئاً مخجلاً ؟ أى ضير فى أن يوجد أمام انسان تقدمى جمهور كبير من الرجعيين والشريرين ؟ على أن فرحى الآن ناشئ عن اقتناعى بأن ذلك الجمهور لا وجود له فى الواقع ، وأن ليس ثمة الا عناصر زاخرة بالحياة ! ثم انه ما ينبغى لنا أن يبث الاضطرابَ فى نفوسنا أن نتصور أننا مضحكون ، أليس كذلك ؟ الحق أننا مضحكون . فنحن خفاف طائشون ، ونحن ذوو عادات سخيفة ، ونحن نضجر ، لا نجيد أن نرى ولا أن نفهم . نحن جميعاً هكذا ، جميعاً ، أنتم ، وأنا ، وهم أيضاً ! آه . . . لا يزعلنكم أن تسمعونى أقول لكم وجهاً لوجه انكم مضحكون ؟ واذا كان الأمر كذلك ، أفلا يمكن أن تعدُّوا مادة خام ؟ بل اننى لأقول لكم ان من الخير فى بعض الأحيان وحتى من الأفضل أن يكون المرء مضحكاً ، فيكون الناس أميل الى الصفح والتواضع . انه لم يوهب لنا أن نفهم كل شىء جملة

واحدة ؛ والانسان لا يبلغ الكمال دفعة واحدة ! فمن أجل الوصول الى الكمال ، يجب فى أول الأمر أن يفهم المرء أشياء كثيرة ! ولو أدركنا بسرعة مفرطة فقد ندرك ادراكاً فاسداً فى أغلب الظن . اننى أقول هذا لكم ، لكم أنتم الذين أمكن أن تفهموا أشياء كثيرة جداً . . . وألا تفهموها . لقد أصبحت الآن لا أخشى عليكم . فانكم تصغون بغير غضب الى صبى مثلى يكلمكم بهذه اللهجة ، أليس كذلك ؟ أتضحك يا ايفان بتروفتش ؟ أنت تعتقد أننى ديموقراطى ، اننى داعية من دعاة المساواة ، اننى هنا محام **عنهم** ، وأننى **عليهم** خائف ، أليس كذلك ؟ (أضاف الأمير هذا وهو يطلق ضحكة تشنجية ؛ ولقد كان فى كل لحظة يطلق ضحكة قصيرة متقطعة متحمسة) . فاعلم اذن اننى عليكم خائف ، عليكم جميعاً وعلينا جميعاً فى آن واحد . أنا نفسى أمير من سلالة قديمة أجلس الآن مع أمراء . اننى أتكلم من أجل خلاصنا المشترك ، حتى لا تندثر طبقتنا وتغيب فى الظلمات بغير نفع ، لأنها لم تدرك شيئاً ولم تزد على أن تشاجرت وفقدت كل شىء . لماذا نزول ونخلى مكاننا للآخرين بينما يمكن أن نبقى التقدميين والأوائل ؟ لنكن تقدميين فنبقى الأوائل . فلنصبح خداماً لنكون الأوائل» .

وهمَّ فجأة أن ينهض عن مقعده ، لكن الشيخ العجوز ظل ممسكاً به يحدِّق اليه بعينين يزداد قلقهما لحظة بعد لحظة .

— اسمعوا ! أنا أعرف أن لا خير فى الكلام . وأن الأفضل أن تكون قدوة أن تبدأ . . . ولقد بدأت . . و . .

وهل يمكن حقاً أن يكون المرء شقياً ؟ أوه ! . . ما قيمة حزنى وشقائى اذا كنت أملك القدرة على أن أكون سعيداً ؟ اعلموا اننى لا أفهم أن يمرَّ امرؤ بشجرة دون أن يشعر لمرآها بالسعادة ، أو أن يكلم انساناً دون أن يسعد بحبه ! أواه ! ان الكلمات تعوزنى للتعبير عن هذا . . . ولكن ما أكثر الأشياء الجميلة التى نراها عند كل خطوة نخطوها ، والتى يحس بجمالها كل انسان مهما يكن ضالاً ! انظروا الى الطفل ، انظروا الى فجر الاله الخالق ، انظروا الى العشب ، كيف ينبت فى الأرض ، انظروا الى الأعين التى تتأملكم وتحبكم . . .

كان الأمير قد نهض وهو يتكلم . وكان الشيخ الصغير يتابعه بنظراته مرتاعاً . ولوَّحت اليزافيتا بروكوفيفنا بذراعيها وصاحت تقول : «آ . . . رباه !» وكانت قد حزرت ما يجرى ، قبل سائر الحضور . وهرعت آجلايا نحو الأمير فأمكنها أن تصل اليه فى اللحظة المناسبة لتتلقى سقوطه بذراعيها . كانت الفتاة مصعوقة من الرعب ، منقلبة الوجه من الحزن ، وقد سمعت العويل الوحشى «للروح التى صرعت الشاب المسكين وطرحته أرضاً» . ان المريض يسجو الآن على السجادة وقد أسرع أحدهم فدسَّ تحت رأسه وسادة .

لم يكن أحد يتوقع هذه الحادثة . وحاول الأمير «N» ويفغينى بافلوفتش والشيخ الصغير ، بعد ربع ساعة ، أن يعيدوا الى السهرة حياتها ونشاطها ، ولكن ما انقضى نصف ساعة حتى انفض المدعوون جميعاً دون أن يفوتهم طبعاً أن يعبروا عن مواساتهم وأسفهم ممزوجين بتعليقات على الحادث . قال ايفان بتروفتش فيما قال ان رأيه هو «أن الشاب متعصب

للسلافية» ، أو هو يميل الى شيء من هذا القبيل ، ولكن هذا ليس خطراً» . ولم يفصح الشيخ العجوز عن شيء ما . صحيح أن الجميع قد زعلوا كثيراً أو قليلاً في غد أو في غداة غد . حتى ان ايفان بتروفتش شعر بأن كرامته قد أهينت ، ولو اهانة يسيرة . ورئيس ايفان فيدوروفتش أظهر لمرؤوسه شيئاً من الجفاء مدةً من الوقت . و«الموظف الكبير» ، و«حامي» أسرة ايبانتشين أصدر هو أيضاً ، من جهته ، بعض المواعظ لرب الأسرة ، ولكنه أضاف اليها بعبارات لطيفة أنه شديد الاهتمام بمصير آجلايا . الواقع أنه رجل لا يخلو من طيبة ، ولكن من الأسباب التي أثارت اهتمامه بالأمير في ذلك المساء ، ما كان قد سمعه عن قصة العلاقات السابقة التي قامت بين الأمير وبين ناستاسيا فيليبوفنا . ان الأشياء القليلة التي سمعها عن هذا الأمر قد حيَّرته حيرة شديدة ، وكان يود لو يلقي أسئلة حول هذا الموضوع .

قالت بيلوكونسكايا لاليزافيتا بروكوفيفنا بعد السهرة ، لحظة الانصراف :

— ما عسى أقول لك ؟ انه حسن وانه سيئ . واذا أردت معرفة رأيي صريحاً قلت لك انه الى السوء أقرب . انك لترين بنفسك ما نوعه رجلاً : انه مريض !

قررت اليزافيتا بروكوفيفنا في قرارة نفسها أن الأمير «لا يطاق» ، وفي الليل حلفت لنفسها أنه «لن يتزوج آجلايا ما بقيت هي على قيد الحياة» . وقد استيقظت في الصباح على هذا العزم نفسه . ولكنها وقعت في تناقض مدهش عند الغداء بعد الظهر بقليل .

ذلك أن آجلايا قد أجابت عن سؤال ألقته عليها

أختاها (بكثير من اللباقة والكياسة في الواقع) ، فقالت بلهجة باردة لكنها متغطرسة :

— أنا لم أقطع له عهداً قط ، ولا عددته خطيبي في يوم من الأيام . انني لا أكترث به أكثر مما أكترث بأي شخص .

فاحتدمت اليزافيتا بروكوفيفنا فجأة وقالت بلهجة حزن :

— لم أكن أتوقع منك هذا ! أنا أعلم أنه من المستحيل أن يكون خطيباً لك ، والحمد لله على أن الأمر انتهى هذه النهاية ! ولكنني ما كنت أتوقع أن يصدر عنك كلام مثل هذا الكلام ! ظننتك تتصرفين تصرفاً آخر . أنا من جهتي كان يمكنني أن أطرد جميع ضيوف الأمس ولا أحتفظ بأحد غيره . ذلك هو رأيي فيه ! . .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا ذلك وصمتت فجأة كالمرتاعة مما قالت . آه . . . ليتها علمت كم كانت ظالمةً لابنتها في تلك اللحظة ! كان كل شيء قد تقرر في ذهن آجلايا . انها أيضاً كانت تنتظر ساعتها ، ساعتها الحاسمة ؛ وكان كل تلميح طائش أو الماع متهور يحدث في قلبها جرحاً عميقاً .

الفصل الثامن

كانت بداية ذلك الصباح متأثرة لدى الأمير أيضاً بهواجس أليمة . ولقد كان يمكن تفسيرها بحالته المرضية . غير أن حزنه لم يكن له سبب معين . وكان ذلك ما يثير أشد عذابه . صحيح أنه كان ازاء وقائع واضحة أليمة لاذعة ، لكن حزنه يمضى الى أبعد من كل ما كان يتذكره أو يدركه . وكان يدرك أنه لن يستطيع وحده أن يهدئ قلقه . وشيئاً فشيئاً ترسخ فى نفسه انتظار حادث خارق حاسم سيقع له فى ذلك اليوم ذاته . ان النوبة التى اعترته فى الليلة البارحة أحرى أن تُعدَّ نوبة بسيطة ؛ حتى انها لم تخلف من الاضطرابات غير نوع من السويداء ، وشىء من الثقل فى الرأس ، وآلام فى الأعضاء . وكان ذهنه صافياً ، رغم أن نفسه كانت متألمة . لقد صحا من نومه فى ساعة متأخرة ، فسرعان ما عاودته ذكرى السهرة الماضية واضحة . حتى لقد وعى وان لم يكن بوضوح تام أنه نُقل الى منزله بعد النوبة بنصف ساعة . وعلم أن أسرة ايبانتشين أرسلت تسأل عن صحته . ثم أرسلت تسأل عن صحته مرة ثانية فى الساعة الحادية عشرة والنصف . فأبهجه ذلك . وكانت فيرا ليبيديفا من أوائل الأشخاص الذين زاروه وقدموا له خدماتهم . لقد أجهشت تبكى فجأة منذ رأته . ولكنها أخذت تضحك حين هدأ الأمير روعها . وتأثر هو تأثراً قوياً بهذا العطف الذى أظهرته له هذه الفتاة فتناول يدها وقبَّلها ، فاحمرت الفتاة وهتفت تقول مروَّعة وهى تسحب يدها بسرعة :

— آه . . . ماذا تفعل ؟ ماذا تفعل ؟

ولم تلبث أن غادرت الغرفة مضطربة اضطراباً خاصاً ، ولكن وقتها قد اتسع لأن تروى للأمير أن أباها أسرع فى الصباح المبكر الى بيت «المتوفى» (بذلك كان يسمى الجنرال ايفولجين) ، ليسأل هل مات فى الليل . وأضافت أن الرأى مجمع على أن المريض لن يعيش مدة طويلة . وحين عاد ليبيديف الى داره قبل الظهر ، جاء الى الأمير بنفسه ، قائلاً انه «لن يمكث الا دقيقة واحدة ، وانه لا يريد الا أن يطمئن عن صحة الأمير الغالية» ، الخ . هذا عدا أنه يريد أن يزور «خزانته الصغيرة» . وكان لا يتوقف عن الشكوى والأنين واطلاق الصيحات تلو الصيحات ، فلم يلبث الأمير أن صرفه ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يتجرأ فيلقى أسئلة عن النوبة التى اعترت الأمير فى الليلة البارحة ، رغم أنه كان واضحاً أنه يعرف الأمر بادق تفاصيله . وبعد ليبيديف وصل كوليا مسرعاً ، وقال هو أيضاً انه لا يريد أن يمكث الا دقيقة واحدة . ولكن كوليا كان متعجلا حقاً ، وكان يستبد به اضطراب عارم وقلق قاتم . وقد بدأ كلامه بأن سأل الأمير صريحاً ملحاً أن يوضح له كل ما كانوا يخفونه عنه ، وأضاف أنه قد علم بالأمس كل شىء تقريباً . لقد كان انفعاله عنيفاً عميقاً .

أطلعه الأمير على حقيقة الأمر بكل ما يحمله قلبه من مودة . عرض عليه الوقائع بدقة تامة . فكان وقعها على الفتى المسكين كوقع الصاعقة ، فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ، وطفق يبكى صامتاً . وأحس الأمير أن هذا انطباع من الانطباعات التى لا تمحى من النفس فى يوم من الأيام ، والتى لا بد أن تكون منعطفاً حاسماً فى حياة

مراهق وأسرع يطلعه على وجهة نظره فى الأمر ، مضيفاً الى قوله أن موت العجوز ، فى رأيه ، ربما يرجع خاصةً الى الارتياع الذى خلَّفه فى قلبه العمل السيئ الذى اقترفه ، وأن هذا التأثر قد لا يقدر عليه سائر الناس . سطعت عينا كوليا حين أنهى الأمير كلامه .

— ما أحقر جانيا وفاريا وبتيتسين ! لن أشاجرهم ، لكن كلاً منا سيسير بعد اليوم فى طريقه ! آه يا أمير ، لقد شعرت منذ أمس بعواطف جديدة كثيرة . هذا درس لى ! اننى أرى الآن أن علىَّ أن أكفل معيشة أمى رغم انها مكفولة عند فاريا ، ولكن ليس هذا كله بالمقصود . . .

وتذكر كوليا أنهم ينتظرونه فأسرع ينهض ؛ ثم سأل الأمير عن صحته متعجلاً ، فلما أجابه الأمير عن سؤاله قال له فجأة بسرعة :

— أليس هناك شىء آخر ؟ لقد سمعت أنه بالأمس . . . (على اننى لا يحق لى هذا) ولكن اذا احتجت فى أى يوم من الأيام الى خادم وفى مخلص ، لأى أمر من الأمور ، فان هذا الخادم واقف الآن أمامك . يخيَّل الىَّ أننا لسنا سعيدين ، لا أنت ولا أنا ، أليس كذلك ؟ ولكن . . . ولكننى لا أسألك . . . لا أسألك . . .

وحين انصرف كوليا استغرق الأمير فى التفكير أكثر . ان صحبه كافة يتنبأون له بالشقاء ؛ انهم جميعا قد خلصوا الى نتائجهم ؛ هم جميعاً يلوح عليهم أنهم يعرفون شيئا يجهله هو . ليبيديف يلقى أسئلة مستخفية ؛ كوليا يلمح تلميحات مباشرة ، فيرا تبكى . وحرك الأمير يده أخيراً باشارة غضب قائلاً لنفسه : «لعن الله سوء الظن . انه

مرض !» . وفى نحو الساعة الثانية ، استرد وجهه هدوءه حين رأى السيدات ايبانتشين يجئن اليه زائرات «مدةَ دقيقة واحدة» . ان زيارة دقيقة واحدة هى التى جاءت بهن فعلاً . لقد أعلنت اليزافيتا بروكوفيفنا بعد الافطار أنهم سيخرجون رأساً لنزهة يشتركون فيها جميعاً . قالت ذلك بلهجة آمرة ، قاطعة ، جافة ، دون شرح . وخرج الجميع ، أى الأم والآنسات والأمير «ش» . سارت اليزافيتا بروكوفيفنا رأسا فى اتجاه هو عكس الاتجاه الذى يسيرون فيه كل يوم . فأدرك الجميع ما تنتوى ، لكنهم لزموا الصمت مخافة أن يثيروا غضب ماما التى كانت تمشى فى طليعتهم دون أن تلتفت ، كأنها تريد أن تتحاشى اللوم أو الاعتراض . ونبَّهتها آديلائيدا أخيراً الى أنه ليس من الضرورى أن يركضوا هذا الركض كله للقيام بنزهة ، وأنهم عاجزون عن مجاراتها فى السير بهذه العجلة .

قالت اليزافيتا بروكوفيفنا وهى تلتفت الى وراء :

— بالمناسبة : نحن الآن قريبون من بيته . وهو قريبنا على كل حال ، مهما يكن رأى آجلايا ، ومهما يحدث من بعد ؛ لا سيما وأنه الآن شقى ومريض . أنا على الأقل سوف أزوره حتما . فمن شاء صحبنى ، ومن شاء أكمل نزهته ، فالطريق خال .

دخل الجميع طبعاً . وكما ينبغى ، بادر الأمير يعتذر مرة أخرى عن كسر الاناء الذى تهشم بالأمس . . . وعن الفضيحة .

فأجابت اليزافيتا بروكوفيفنا تقول :

— لا بأس ، لا أتأسف على الاناء بل أتأسف عليك .

انك تعترف الآن اذن بأن فضيحة قد وقعت : لا يدرك المرء ما حدث الا فى الغداة . . . على أن هذا نفسه لا بأس به أيضا ، لأن كل واحد يرى الآن أنه لا يمكن أن يُطلب منك الكثير . هيَّا ، الى اللقاء . اذا استطعت فتنتزه ، ثم نم قليلاً مرة أخرى . هذه نصيحتى لك . واذا بدا لك أن تزورنا كما كنت تزورنا فى الماضى فلا تحجم . عليك أن تثق الى الأبد بأنك ستظل صديق أسرتنا أو صديقى أنا على الأقل ، مهما يحدث من أمر ، ومهما ينتج من نتائج . أنا أضمن نفسى على الأقل . . .

وبادر الجميع يثبتون عواطف اليزافيتا بروكوفيفنا ، ويثنُّون عليها . ثم خرجوا ينصرفون . غير انهم باستعجالهم الساذج فى قول كلام يلاطف المسكين ويقوى عزيمته قد ارتكبوا قسوة لم تستطع اليزافيتا بروكوفيفنا حتى أن تفطن اليها . ان دعوته الى أن يزورهم «كما كان يزورهم فى الماضى» ، وكذلك قصر صداقته عليها هى («صديقى أنا على الأقل») ، ان ذلك كان بمثابة تنبيه . ولقد تذكر الأمير وضع آجلايا . صحيح أنها ابتسمت له ابتسامة أخاذة حين دخلت وحين خرجت ، ولكنها لم تنطق بكلمة واحدة ، حتى حين أكد الآخرون صداقتهم . ومع ذلك ثبّتت نظرها عليه مرتين . كان وجهها أشد شحوباً مما عُهد فيه من شحوب ، كأنها قضت ليلة مسهَّدة . وقرر الأمير أن يزورهم حتماً فى مساء ذلك اليوم نفسه «كما كان يزورهم فى الماضى» . ونظر الى ساعته محموماً . بعد خروج آل ايبانتشين بثلاث دقائق ، دخلت فيرا .

— ليف نيقولايفتش ، عهدت الىَّ آجلايا ايفانوفنا

منذ هنيهة بأن أنقل اليك رسالة سرية .

انفعل الأمير حتى أخذ يرتجف .

— رسالة مكتوبة ؟

— لا ، شفاهية ، لم يكد يتسع وقتها حتى لذلك . انها ترجوك ملحة أن لا تغيب عن بيتك طوال النهار دقيقة واحدة ، الى الساعة السابعة أو حتى الساعة التاسعة . اننى لم أسمع كلامها دقيقاً واضحاً فى هذه النقطة .

— ولكن لِمَ هذا ؟ ما معناه ؟

— لا أدرى اطلاقاً . لكنها كلفتنى أن انقل اليك هذه الرسالة آمرة أمراً صارماً .

— أهى استعملت تعبير «الأمر الصارم» ؟

— لا ، لم يكن تعبيرها واضحاً هذا الوضوح كله . ان وقتها لم يكد يتسع لأن تكلمنى ملتفتة . من حسن الحظ اننى دنوت منها . ولكن المرء يقرأ فى وجهها أنها تأمر أمراً ، سواء أكان الأمر صارماً أم لم يكن كذلك . لقد ألقت علىَّ نظرة انخلع لها قلبى . . .

ألقى الأمير سؤالين أو ثلاثة أسئلة أخرى ، لكنه لم يعلم أكثر مما علم . وفى مقابل ذلك اشتد قلقه . حتى اذا خلا الى نفسه تمدد على الديوان وعاد الى تخميناته : «قد يكون عندهم أحد قبل الساعة التاسعة ، فهى تخشى أن أقارف شذوذاً آخر أمام الزوار» . كذلك قال لنفسه أخيراً وعاد ينتظر حلول المساء نافد الصبر ناظراً فى ساعته . لكن حل اللغز قد جاءه قبل حلول المساء بمدة طويلة ، جاءه فى صورة زيارة جديدة بل فى صورة لغز ثان لا يقل عن الأول اقلاقاً : فبعد انصراف آل ايبانتشين بنصف ساعة

تماماً حضر اليه ايبوليت . كان ايبوليت متعباً مرهقاً ، فلم يستطع أن يقول كلمة واحدة بل تهاوى على أحد المقاعد كمن أغمى عليه ، واعترته نوبة سعال رهيبة ، وكان السعال مصحوباً ببصقات دم . ان عينيه تلتمعان ، وان بقعاً حمراً تظهر على خديه . دمدم له الأمير ببضع كلمات لم يجب عنها ، مقتصراً أثناء مدة طويلة على تحريك يده باشارة معناها أن يُترك مرتاحاً . حتى اذا استرد شيئاً من قوته ، قال بجهد ظاهر وصوت أبح :

— أنا ذاهب !

فقال الأمير يسأله وهو ينهض :

— أتريد أن أصحبك ؟ . .

لكنه توقف فجأة اذ تذكر أنه مُنع من الخروج منذ قليل .

فأخذ ايبوليت يضحك . وتابع يقول بذلك الصوت المحشرج المختنق نفسه :

— لست ذاهباً من عندك . بالعكس : لقد رأيت من اللازم أن أجيء اليك لأحدثك فى أمر من الأمور . ولو لا ذلك ما ازعجتك . أنا ذاهب الى **هناك** ، ويبدو فى هذه المرة بكل جد . خلاص ! لا أقول هذا التماساً للشفقة ، أؤكد لك . . . حتى لقد استلقيت هذا الصباح على فراشى مقرراً أن لا أغادره قبل حلول **تلك** اللحظة لكنى عدلت عن ذلك الرأى ونهضت مرة أخرى لأجيء اليك . . . معنى ذلك أن مجيئى كان لا بد منه .

— منظرك مؤلم . كان أحرى بك أن تستدعينى لا أن تحمّل نفسك عناء المجيء .

— طيب . كفى هذا الآن . لقد رثيتَ لحالى ، فقمت بما توجبه آداب المجتمع . . . آ . . . نسيت : كيف صحتك أنت ؟

— معافى . ولم أكن أمس . . . كذلك . . .

— أعرف . سمعت عن هذا . وكان اناء الخزف الصينى هو الضحية . خسارة أننى لم أكن هناك ! ولكنى جئت لأمر . أولاً : لقد سعدت اليوم برؤية جافريلا آردالیونوفتش يوافى آجلايا ايفانوفنا فى موعد مضروب قرب الدكة الخضراء . وأُعجبت أعظم الاعجاب بمدى ما يمكن أن يظهر فى هيئة انسان من حماقة وغباء . وقد ذكرت هذه الملاحظة لآجلايا ايفانوفنا نفسها بعد انصراف جافريلا آردالیونوفتش . . .

— ثم أضاف ايبوليت يقول وهو ينظر مرتاباً الى وجه الأمير الساكن : — أظن أنك أنت لا يدهشك شيء يا أمير . يقال ان من علامات قوة الفكر أن لا يدهش المرء شيء . أما أنا ففى رأيى أن ذلك يمكن أن يكون علامة غباء عميق أيضاً . . . على كل حال ، لست أعنيك أنت ، معذرة . . . اننـــى اليوم غير موفـــق فى اختيار تعابيرى .

بدأ الأمير يتكلم فقال :

— كنت أعلم منذ أمس أن جافريلا آردالیونوفتش . . .

لكنه لم يلبث أن صمت فجأة وقد اضطرب اضطراباً واضحاً مع أن ايبوليت قد ساءته قلة انفعاله .

— كنت تعلم ذلك ؟ هذا نبأ حقاً ! على كل حال ، لا تكلف نفسك عناء أن تحكى لى . . . ألم تشهد لقاء اليوم ايضاً ؟

— لا بد أنك تعرف أننى لم أكن هناك ، ما دمت قد حضرت اللقاء .

— لعلك اختبأت وراء دغل . على كل حال ، أنا مسرور لك طبعاً ، لأننى كنت أظن فى السابق أن جافريلا آرداليونوفتش قد أُعطيت له الأفضلية !

— أرجوك أن لا تكلمنى فى هذا الأمر يا ايبوليت ، خاصةً بهذه اللهجة .

— لا سيما وأنك تعرف كل شىء .

— أنت مخطئ . لم أُطلع على شىء تقريباً ؛ وان آجلايا ايفانوفنا لتعلم حتماً اننى غير مطلع على شىء . كنت أجهل حتى أمر ذلك الموعد . . . تقول ان لقاء قد تم بينهما على موعد مضروب ، أليس كذلك ؟ طيب ، دعنا من هذا . . .

— ولكن كيف يستطيع المرء أن يفهم عنك ؟ تارة تقول انك كنت تعلم ، وتارة انك لم تكن تعلم ، ثم تضيف : «طيب ، دعنا من هذا» . ولكن لا ، حذار من فرط الثقة ! لا سيما اذا كنت لا تعلم شيئاً . وان فرط ثقتك انما مرده الى أنك لا تعلم شيئاً . هل تعرف حسابات ذينك الشخصين : الأخ واخته ؟ ربما كنت تشتبه فيها على الأقل ، هه ؟ — ولاحظ ايبوليت حركة تململ من الأمير فأسرع يضيف قوله : — طيب ، طيب . . . أنا انما جئت الى هنا لأمر شخصى أريد أن . . أوضحه . شيطان يأخذنى ، لا يمكن حتى أن أموت دون ايضاحات . . رهيب عدد الايضاحات التى أقدمها . هل تريد أن تصغى الىَّ ؟

— تكلم ، اننى أصغى اليك .

— لكننى أغير رأيى مرة أخرى : سوف أبدأ مع ذلك بالكلام عن جانيا . لقد ضُرب لى موعد قرب الدكة الخضراء ، أنا أيضاً . هل تتخيل هذا ؟ على أننى لا أريد أن أكذب : يجب أن أذكر أننى أنا الذى ألححت على أن تحدد لى هذا الموعد واعداً بالكشف عن سر . لا أدرى هل وصلت قبل الأوان (أظن أننى سبقت الساعة فعلا) ، ولكننى ما ان جلست الى جانب آجلايا ايفانوفنا حتى رأيت جافريلا آرداليونوفتش وفارفارا آرداليونوفنا مقبلين وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر كأنهما يقومان بنزهة . فلما رأيانى شُدها بل وارتبكا ، لأنهما كانا لا يتوقعان أن أكون هناك . واحمرت آجلايا ايفانوفنا ، بل صدقنى أو لا تصدقنى اذا قلت لك انها اضطربت وفقدت سيطرتها على نفسها قليلاً ، سواء أكان ذلك لوجودى أنا أم لمجرد أنها رأت جافريلا آرداليونوفتش الذى كان فى غاية الجمال حقاً . المهم أنها احمرت احمراراً شديداً ، وختمت الموقف فى لمح البصر بصورة مضحكة : فقد نهضت نصف نهوض ، وردت على تحية جافريلا آرداليونوفتش وعلى ابتسامة التملق التى ابتسمتها فارفارا آرداليونوفنا ، ثم قالت لهما بلهجة مفاجئة حاسمة : «انما أردت أن أعبر لكما شخصياً عن رضائى بصدق عواطفكما . فكونا على ثقة بانى متى احتجت الى هذه العواطف . . .» ثم صرفتهما باشارة من رأسها ، فانصرفا لا أدرى أمهزومين أم منتصرين . أما جانيا فلا شك أنه كان مهزوما طبعا . انه لم يفهم شيئاً ، واصطبغ وجهه بحمرة قانية (ان سحنته تكتسى فى بعض الأحيان

تعبيراً غريباً !) وأما فارفارا آردالیونوفنا فأظن أنها أدركت أن عليها أن تنسل بأقصى سرعة وأن آجلايا ايفانوفنا لا يمكن أن يُطلب منها أكثر من ذلك . فاقتادت أخاها . انها أعقل منه ، وانى لمقتنع بأنها الآن تحتفل انتصاراً . وأما أنا فقد جئت لأتفاهم مع آجلايا ايفانوفنا على موضوع لقائها المزمع مع ناستاسيا فيليبوفنا .

صاح الأمير :

— مع ناستاسيا فيليبوفنا !

— أجل ! يبدو لى أنك فقدت هدوءك فبدأت تندهش ، هه ؟ يسرنى أن أرى أنك تريد أن تشبه الرجال . ولسوف أسلّيك فى مقابل ذلك . انظر كم يربح المرء حين يخدم آنسات شابات نبيلات . لقد تلقيت منها اليوم صفعة !

— صفعة معنوية ؟

كذلك سأله الأمير لاارادياً .

— نعم ، صفعة معنوية لا مادية . أظن أنه ما من يد يمكن أن ترتفع على انسان فى مثل حالتى ، ولو كانت يد امرأة . حتى جانيا لا يمكن أن يضربنى ! ومع ذلك فقد اعتقدت أمس فى لحظة من اللحظات أنه سيرتمى علىَّ ليشبعنى ضرباً . . . آ . . . يميناً اننى أحزر الآن ما يجول فى ذهنك . انك تقول لنفسك : «طيب . يجب أن لا يُضرب . ولكن من الممكن فى مقابل ذلك بل ومن الواجب أن يُخنق أثناء نومه بوسادة او بغطاء مبتل» . . . اننى أقرأ الآن هذا الخاطر فى وجهك .

قال الأمير محتجاً باشمئزاز :

— لم أفكر فى هذا أبداً !

— لا أدرى . . ولكننى حلمت هذه الليلة أن شخصا يخنقنى بغطاء مبلل . . . وسأقول لك من هو ذلك الشخص : تصور أنه روغوجين ! ما رأيك ؟ هل يمكن خنق انسان بغطاء مبتل ؟

— لا أدرى .

— سمعت أن الأمر ممكن . طيب . دعنا من هذا . والآن أريد أن ألقى هذا السؤال : لماذا أعدُّ أنا نماماً ؟ لماذا وصفتنى هى اليوم بأننى نمام ؟ لاحظ أنها لم تقل ذلك الا بعد أن أصغت الى كلامى حتى آخر كلمة ، وبعد أن ألقت علىَّ اسئلة . . . كذلك هنَّ النساء ! من أجلها هى انما كنت على علاقة بروغوجين ، هذا الشخص الطريف . ومن أجلها انما هيأت لها لقاء مع ناستاسيا فيليبوفنا . أترانى أسأت الى كبريائها حين أسمعتها أنها سعيدة «بفضلات» ناستاسيا فيليبوفنا ؟ أنا لا أنكر هذه الحقيقة . وقد رددت لها ذلك الكلام مراراً من أجلها وفى سبيل مصلحتها . كتبت لها رسالتين بهذا المعنى . واليوم ، للمرة الثالثة أثناء لقائنا أيضا . . . قد بدأت بأن قلت لها ان هذا يشتمل على مذلة لها . . . ثم ان كلمة «فضلات» هذه ليست اختراعاً منى ، وانما أنا استعرتها من غيرى ، وجميع من فى بيت جانيا يستعملونها على الأقل . وقد أيَّدت هى نفسها ذلك . فلماذا وصفتنى اذن بانننى نمام ؟ رأيتُ ، رأيت : ان رغبة محمومة فى الضحك علىَّ تستعر بها الآن نفسك ؛ وانى لأراهن أنك تطبِّق على حالتى هذه الأبيات السخيفة :

وفى ايام غروبى الحزين

قد يبتسم الحب لى

ابتسامة وداع»

هأ هأ هأ ! — كذلك صاح يضحك ضحكاً تشنجياً أعقبته نوبة سعال . ثم أضاف يقول بصوت محشرج : — لاحظ مدى تناقض جانيا : انه يتكلم عن «فضلات» ، أما هو نفسه فمما يسعى الآن أن يستفيد ؟

لبث الأمير صامتاً برهة طويلة . كان مصعوقاً .

وتمتم أخيراً يقول :

— ذكرتَ لقاء مع ناستاسيا فيليبوفنا ، أليس كذلك ؟

— دعك من هذا الكلام ، من المستحيل أن تجهل حقاً أن لقاء سيتم اليوم بين آجلايا ايفانوفنا وناستاسيا فيليبوفنا . ومن أجل ذلك ، وبفضل المساعى التى قمت بها أنا ، فقد تولى روغوجين ، تلبية لطلب من آجلايا ايفانوفنا ، دعوة ناستاسيا فيليبوفنا الى المجىء من بطرسبرج خصيصاً ، وهى الآن فى صحبة روغوجين ، بالقرب من مسكنك ، فى البيت الذى سبق أن أقامت فيه ، عند داريا ألكسيفنا . . . صديقتها ذات السمعة المشبوهة . . . فالى هناك ، الى ذلك البيت المشبوه انما ستذهب اليوم آجلايا ايفانوفنا لاجراء حديث ودى مع ناستاسيا فيليبوفنا ، ولحل مسائل مختلفة . انهما تريدان أن تنشغلا بالرياضيات . أكنت لا تعرف هذا ؟ بشرفك ؟

— غير معقول !

— هذا أحسن . ولكن أين لك أن تعرف بالأمر ؟

ومع ذلك ، فى جحر كالجحر الذى نعيش فيه ، لا يمكن أن تطير ذبابة الا ويبلغ نبأ طيرانها جميع النـــــاس ! الخلاصة . . . لقد نبهتك ، وفى امكانك أن تكون لى شاكراً . هيَّا ، الى اللقاء ! والأغلب فى العالم الآخر . كلمة أخرى : اذا كنت قد تصرفت معك تصرفاً وضيعاً ، فذلك . . . لأننى ليس ثمة سبب يدعونى الى أن أضحى فى سبيلك بمصالحى . قل لى من فضلك : لماذا عسانى أوثر مصالحك على مصالحى ؟ اليها انما أهديتُ أنا «اعترافى» (أكنت لا تعرف ذلك ؟) ، فسرعان ما قبلت هديتى راضية فأى رضاء ! هىء هىء ! لكننى تصرفت معها هى تصرفاً لا وضاعة فيه . لم أرتكب أى خطأ فى حقها . بل هى التى دبَّرت لى «مقلباً» ووضعتنى فى موضع حرج . . . على اننى لم اقترف ذنباً حتى فى حقك أنت . ولئن أبحت لنفسى تجاهها أن ألمح ذلك التلميح الى «الفضلات» والى أشياء أخرى من هذا القبيل ، فاننى فى مقابل هذا أحدد لك يوم الموعد وساعته ومكانه ، فأكشف لك الأوراق كلها . . . صحيح أننى أفعل هذا عن غضب وحقد ، لا عن نبل وشهامة . استودعك الله ! اننى ثرثار ثرثرة انسان على اللسان أو مسلول الصدر . افتح عينيك ، اتخذ اجراءاتك ، تصرَّف بأقصى سرعة ، اذا كنت جديراً بأن تسمى رجلاً . سيتم اللقاء هذا المساء . ذلك أمر مؤكد .

اتجه ايبوليت نحو الباب ، لكنه وقد ناداه الأمير وقف فى العتبة .

سأله الأمير :

— فى اعتقادك اذن أن آجلايا ايفانوفنا ستذهب اليوم

الى ناستاسيا فيليبوفنا بشخصها ؟

كانت بقع حمر تصبغ خديه وجبينه . أجابه ايبوليت وهو يلقى نظرة وراءه :

— لا أعرف تماماً . ولكن ذلك جائز . على أن الأمر لا يمكن أن يكون غير هذا . فان ناستاسيا فيليبوفنا لن تذهب اليها ، أليس كذلك ؟ واللقاء لا يمكن أن يجرى عند جانيا ففى بيته ميت تقريباً . ما قولك فى الجنرال ؟

قال الأمير معترضاً :

— يكفى هذا وحده حتى يكون الأمر مستحيلاً ، كيف يمكنها أن تخرج ولو أرادت ؟ انك لا تعرف عادات . . . هذا المنزل : انها لا تستطيع أن تذهب الى ناستاسيا فيليبوفنا وحيدة . ذلك هراء !

— سأقول لك شيئاً يا أمير : لا أحد يقفز من النافذة . ولكن حين يشب حريق فان أحسن رجل مهذب وأرقى سيدة مرموقة لا يترددان عن القفز من النافذة . اذا مسَّت الحاجة فستكون آنستنا مضطرة أن تذهب الى ناستاسيا فيليبوفنا . ولكن قل لى : هل آنساتك هؤلاء لا يُسمح لهن فى دارهن أن يذهبن الى أى مكان ؟

— ليس هذا ما أردت أن أقوله . . .

— اذا لم يكن الأمر كذلك ، فسوف يكفيها أن تهبط درجات المدخل ، وأن تسير قُدُمًا ، ولو ترتب على ذلك أن لا تعود الى الدار فى يوم من الأيام . هناك ظروف يحرق فيها الانسان سفنه ويمتنع حتى عن العودة الى منزله . ليست الحياة وجبات غداء ووجبات عشاء وأمراء أسماؤهم

«ش» فحسب . يبدو لى أنك تنظر الى آجلايا ايفانوفنا نظرتك الى صبية صغيرة أو تلميذة فى مدرسة داخلية . لقد قلت لها أنا هذا ، وأحسب أنها وافقتنى على رأيى . انتظر الساعة السابعة أو الثامنة . . . لو كنت فى مكانك لأوفدت شخصاً يرقبها فيعرف لحظة خروجها من الدار . فى وسعك أن ترسل كوليا على الأقل . ثق أنه سيسره أن يعمل جاسوسًا ، فى سبيل مصلحتك طبعا . . . هذه أمور نسبية جدا . . . هأ هأ !

قال ايبوليت ذلك وخرج . لم يكن ثمة سبب يدعو الأمير الى تكليف أى انسان بأن يتجسس له ، حتى ولو كان يرضى لنفسه استعمال مثل هذه الوسيلة . لقد أدرك الآن بعض الادراك لماذا أمرته آجلايا بأن لا يغادر بيته . لعلها تنتوى أن تعرج عليه لتأخذه معها ؛ صحيح أيضاً أنها قد تريد أن تحبسه فى البيت حتى لا يجئ بينما هى على ميعاد . . . نعم ربما كان هذا هو الأمر . شعر الأمير بدوار ، وبدا له أنه يرى الغرفة كلها ترقص من حوله . استلقى على الديوان وأغمض عينيه .

ان القضية تجرى مجرى حاسمًا نهائيًا ، بطريقة أو بأخرى . لا ، انه لا ينظر الى آجلايا نظرته الى صبية صغيرة أو تلميذة فى مدرسة داخلية . انه يدرك الأمر الآن : لقد طالما شعر بخوف ، وان شيئًا من هذا النوع هو ما كان يخشاه فعلاً . ولكن لماذا تريد آجلايا أن تراها ؟ سرت رعدة فى جسمه كله . واعترته حمى شديدة من جديد .

لا ، انه لا يعدها طفلة ! فى الآونة الأخيرة كانت لها آراء وأقوال روَّعته . وفى مرات أخرى ، كان يلوح له

أنها تبذل جهداً فوق طاقة الانسان فى سبيل أن تسيطر على نفسها ، فى سبيل أن تكبح اندفاعاتها ؛ وانه ليتذكر الآن أن ذلك كان يملؤه رعبا . صحيح أنه جهد فى هذه الأيام الأخيرة أن لا يوقظ تلك الذكريات ، وأن يطرد الأفكار السوداء . ولكن ماذا كان يختفى فى قرارة تلك النفس ؟ هذا سؤال عذّبه مدة طويلة ، رغم كل ما كان يشعر به نحو هذه النفس من ثقة . ولا بد أن ينحل كل شىء ويتضح كل شىء فى هذا المساء نفسه . فكرة فظيعة ! مرة أخرى «تلك المرأة» ! لماذا بدا له دائماً أن تلك المرأة سوف تظهر فى آخر لحظة فتحطم مصيره كما يُقطع خيط مهترئ ؟ أما أن هذا التوجس لم يبارحه فى يوم من الأيام فذلك أمر لا يتردد الآن فى أن يؤكده حالفاً اليمين ، رغم أنه كان فى شبه هذيان . لئن حاول أن ينساها هى فى الآونة الأخيرة ، فما ذلك الا لأنه كان يخشاها . ماذا اذن ؟ أهو يحبها أم هو يكرهها ؟ انه لم يلق على نفسه هذا السؤال مرة واحدة أثناء النهار . كان قلبه من هذه الناحية نقياً : كان يعرف من ذا يحب . . . ليس لقاؤهما هو ما يخيفه ، لا ولا وجه الغرابة فى هذا الموعد ، ولا الأسباب الداعية اليه ، المجهولة له ، ولا النهاية التى سينتهى بها هذا الاجتماع أيةً كانت تلك النهاية وانما هو يخشى ناستاسيا فيليبوفنا نفسها . لقد تذكّر بعد بضعة أيام أنه أثناء تلك الساعات من الحمى ، كان يلوح له دائماً أنه يرى عينيها ونظرتها ، وأنه يسمع صوتها ، صوتها الذى يلفظ أقوالاً غريبة ، ولكن لم يبق فى ذاكرته الا أشياء قليلة بعد تلك اللحظات من الحمى والكآبة . لقد

احتفظ باحساس غامض بأن فيرا جاءته بعشائه ، وأنه أكل الطعام ، ولكنه لا يتذكر أنام بعد ذلك أم لا . كل ما كان يعلمه أن وضوح الادراكات لم يعاوده فى ذلك المساء الا حين ظهرت آجلايا فجأة فى الشرفة . فنهض عن ديوانه واثباً ، وهبّ يستقبلها فى وسط الغرفة . كانت الساعة هى السابعة والربع . لقد جاءت آجلايا وحيدة . وهى تلبس ثياباً بسيطة كأنما ارتدتها متعجلة وخلعت عليها برنساً خفيفاً . وكان وجهها شاحباً شحوبه أثناء لقائهما الأخير ، ولكن عينيها تسطعان ببريق قوى جاف . انه لم يلاحظ فى نظرتها تعبيرا كهذا التعبير فى يوم من الأيام . تفرست فيه بانتباه .

ثم قالت له بصوت خافت ولهجة تبدو هادئة :

— أنت متأهب كل التأهب ، قد ارتديت ثيابك وحملت قبعتك بيدك . اننى استنتج من ذلك أنك قد أُبلغت . أعرف من الذى أبلغك : هو ايبوليت ، أليس كذلك ؟

تمتم الأمير يقول وهو الى الموت أقرب منه الى الحياة :

— نعم . . . حدثنى . . .

— طيب ، فلنذهب : انك لتعلم حق العلم أن عليك أن تصحبنى حتما . أظن أنك تقوى على الخروج .

— أقوى . . . نعم . . . ولكن . . . هل هذا ممكن ؟

وسكت فجأة ، وأصبح لا يستطيع أن ينطق بكلمة واحدة . تلك هى المحاولة الوحيدة التى قام بها لصدّ هذه الطائشة . ثم تبعها بعد ذلك كما يتبع عبد سيّدَه . انه رغم كل ما كان عليه فكره من غموض قد أدرك أنها ستذهب **الى هناك** ، ولو لم يصحبها ، فالأَوْلى اذن أن

يصحبها . لقد أدرك قوة التصميم والعزم لديها ، وأحس أنه غير قادر على أن يوقف هذه الاندفاعة الوحشية . سارا صامتين ، ولم يكادا يتبادلان كلمة واحدة طوال الطريق . ولكنه لاحظ أنها تعرف الطريق معرفة جيدة ، فلما اقترح عليها أن يسلكا شارعا صغيرا بعيدا بعض البعد لكنه غير مطروق كثيرا أصغت الى كلامه وبدا عليها أنها تنتبه اليه بتوتر ، ثم أجابت باقتضاب : «الأمران واحد !» . حتى اذا صارا قرب منزل داريا ألكسيفنا (وهو مبنى كبير عتيق من خشب) ، رأيا سيدة مرتدية ثياباً فخمة تخرج منه فى صحبة فتاة ، ورأيا المرأتين تركبان عربة رائعة كانت تنتظرهما أمام درجات المدخل . كانتا تضحكان وتتحدثان فى صخب ، ولم تنظرا الى القادمين الجديدين فكأنهما لم تريا هما . فما ان ابتعدت العربة حتى فتح الباب من جديد ، وظهر روغوجين الذى كان ينتظرهما فأدخلهما ثم أغلق الباب وراءهما .

قال روغوجين بصوت عال وهو يلقى على الأمير نظرة غريبة :

— ليس فى الدار كلها الآن أحد غيرنا نحن الأربعة !

كانت ناستاسيا فيليبوفنا تنتظرهما فى الحجرة الأولى . وكانت هى أيضاً تلبس ثياباً بسيطة جداً ، سوداء جميعاً . ونهضت لتستقبلهما ، لكنها لم تبتسم ولم تمدد يدها للأمير .

ثبتت نظرتها القلقة على آجلايا نافدة الصبر . جلست المرأتان متنائيتين : فأما آجلايا فقد جلست على الديوان بركن من الغرفة وأما ناستاسيا فيليبوفنا فقد جلست قرب النافذة . ولبث الأمير وروغوجين واقفين ؛ وما دعاهما أحد الى الجلوس على كل حال . ونظر الأمير الى روغوجين مرة أخرى بحيرة

يمازجها ألم ، ولكن روغوجين احتفظت شفتاه بابتسامة واحدة لم تتغير . واستمر الصمت عدة لحظات أخرى .

وأخيرا طافت بوجه ناستاسيا فيليبوفنا سحابة مشئومة : ان نظرتها التى ما تزال محدقةً الى الزائرة ثابتة عليها قد اتخذت الآن تعبيراً عن عناد ، وقسوة ، وبغض تقريباً . وكانت آجلايا ظاهرة الاضطراب ولكن على غير تهيب أو رهبة . انها حين دخلت لم تكد تلقى نظرة على منافستها ، وكانت مسُبلةً جفنيها على وضع الانتظار وكأنها تفكر . مرة أو مرتين أجالت بصرها على الغرفة ، كأنما عرضاً بغير عمد ، فعبّر وجهها عندئذ عن الاشمئزاز كأنها تخشى أن تتسخ فى مكان كهذا المكان . كانت تسوى ثيابها آليا وحتى غيرت مكان جلوسها على الديوان منتقلة الى ركنه . ليس مؤكداً أنها كانت شاعرة بكل حركاتها ، ولكن اذا كانت هذه الحركات قد صدرت عنها عفواً فذلك أدعى الى ايذاء الشعور وجرح الكرامة . وأخيراً عزمت أمرها على أن تواجه بثبات وقوة تلك النظرة الساطعة التى كانت تلقيها عليها ناستاسيا فيليبوفنا والتى لم تلبث أن قرأت فيها كره المنافسة واضحاً على الفور . لقد فهمت المرأة المرأة . فارتعدت آجلايا .

وقالت بعد لحظة ، لكن بصوت خافت جداً ، حتى أنها توقفت عن الكلام مرتين أثناء النطق بهذه الجملة القصيرة :

— لا شك أنك تعرفين السبب الذى حملنى الى استدعائك .

فأجابتها ناستاسيا فيليبوفنا بلهجة جافة قاطعة :

— لا ، لا أعرف شيئاً .

فاحمرت آجلايا . لعلها قد بدا لها فجأة أن وجودها الآن قرب هذه المرأة ، فى بيت «تلك المخلوقة» ، وحاجتها الى سماع جواب ناستاسيا فيليبوفنا ، أمر مذهل لا يصدقه العقل . فما ان سمعت أولى نبرات صوت ناستاسيا فيليبوفنا حتى سرى فى جسمها كله نوع من رعدة . ولاحظت «الأخرى» ذلك كله طبعاً ، لم يفتها منه شىء .

قالت آجلايا وهى تطرق محدقة الى الأرض بنظرة متجهمة ، قالت بصوت يكاد يكون هامسا :

— أنت تفهمين كل شىء . . . ولكنك تتظاهرين بأنك لا تفهمين .

فأجابت ناستاسيا فيليبوفنا وهى تبتسم ابتسامة ساخرة خفيفة :

— لماذا عسانى أتظاهر هذا التظاهر ؟

قالت آجلايا بخراقة تكاد تكون مضحكة :

— تستغلين وضعى . . . لأننى فى بيتك .

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول بحدة وقوة :

— أنت المسئولة عن هذا الوضع ، فأنا لم أستدعك ، وانما انت التى دعوتنى الى هذا اللقاء الذى ما زلت أجهل سببه .

رفعت آجلايا رأسها فى استعلاء وقالت :

— صونى لسانك . أنا ما جئت الى هنا لأقاتلك بهذا السلاح الذى هو سلاحك . . .

— ها . . . اذن لقد جئت الى هنا «لتقاتلى» على كل حال ! تصورى أننى كنت أتخيلك . . . أذكى .

وتبادلت المرأتان نظرة لم تحاولا أن تخفيا ما فيها من بغض . ومع ذلك كانت احدى هاتين المرأتين هى تلك المرأة نفسها التى بعثت منذ وقت قريب الى الأخرى بتلك الرسائل . لقد تبدد كل شىء من أول لقاء ، منذ أولى الكلمات . وماذا ؟ بدا وكأن أحداً من الأشخاص الاربعة الموجودين فى تلك الغرفة لم يعتبر هذا أمراً غريباً . فالأمير الذى كان بالأمس لا يصدق أن يكون حدوثُ هذا المشهد ممكناً ولو فى الحلم ، يراه الآن وكأنه قد تنبأ به منذ زمن طويل . ان الحلم العجيب الشاذ قد اكتسى على حين فجأة صورة واقع محسوس ملموس . وكانت احدى المرأتين فى تلك اللحظة تشعر نحو غريمتها باحتقار يبلغ من القوة وبرغبة فى اظهار هذا الاحتقار تبلغ من العنف (ولعلها لم تجئ الا لهذا الغرض ، كما زعم ذلك روغوجين فى الغد) أن الأخرى ما كان لها فيما يظهر أن تستطيع التزام أى موقف عقدت عليه عزمها من قبل أو أن تحافظ على أية فكرة انطوت عليها نفسها ، رغم كل ما فيها من غرابة الطبع واضطراب الفكر ومرض النفس ، ما دامت غريمتها تواجهها بهذا الاحتقار المسموم النسائى البحت . وأيقن الأمير بأن ناستاسيا فيليبوفنا لن تكون هى البادئة فى الاتيان على ذكر الرسائل . لقد أدرك من الشرر الذى كان يخرج من عينيها أن أمر هذه الرسائل يثقلها الآن جداً . ولكنه كان مستعداً لأن يدفع نصف حياته ثمناً لاغفال آجلايا أمر الالماع الى هذه الرسائل أيضاً .

غير أن آجلايا بدا عليها فجأة أنها ثابت الى رشدها واستردت سيطرتها على نفسها . قالت :

— لم تفهمى عنى . أنا لم أجئ الى هنا . . . لأشاجرك ، رغم أننى لا أحبك . وانما جئت . . . لأكلمك بطريقة انسانية . اننى حين دعوتك الى هذا اللقاء ، كنت قد حددت موضوعه ، ولن انثنى عن عزمى ولو لم تفهمينى البتة . واذا لم تفهمينى فذلك يضيرك أنت ولا يضيرنى أنا . لقد أردت أن أجيب عن مضمون الرسائل التى بعثت بها الىّ ، وأن يكون جوابى كلاماً لا كتابة فذلك فى رأيى أنسب . فاسمعى اذن جوابى على رسائلك . لقد أخذتنى بالأمير ليف نيقولايفتش شفقة منذ اليوم الأول الذى عرفته فيه ، وقويت هذه العاطفة فى نفسى حين علمت بكل ما جرى أثناء سهرتك . أخذتنى به شفقة لأنه انسان يبلغ من بساطة الفكر أنه ظن أن فى وسعه أن يكون سعيداً . . . مع امرأة . . . لها مثل هذا الطبع . وقد وقع ما كنت أخشى منه عليه : لم تستطيعى أن تحبيه ، وسببت له عذاباً كثيراً ، ثم هجرته . ولئن لم تستطيعى أن تحبيه فان مرد ذلك الى فرط زهوك . . . لا . . . لقد أخطأت التعبير . . فما ينبغى أن أقول الزهو . . بل الغرور . . وحتى كلمة الغرور ليست هى الكلمة المناسبة ، فانما الأحرى أن أقول الأنانية . انك أنانية الى حد . . . الجنون . وان الرسائل التى بعثت بها الىّ تنهض دليلاً على ذلك . لم يكن فى امكانك أن تحبى انساناً يبلغ مبلغه من البساطة . حتى ان من الجائز أن تكونى فى قرارة نفسك قد احتقرته وهزئت به وضحكت عليه . كنت لا تستطيعين أن تحبى الا عارك والا الفكرة الثابتة التى استبدت بنفسك وهى أنك قد دُنِّست وأُهنت . فلو عانيت عاراً أقل أو لم تعانيه البتة ، لما زادك ذلك

الا شقاء . . . (نطقت آجلايا هذه الكلمات بالتلذذ ، وكانت تتدفق فى الكلام تدفقاً سريعاً ، ولكنها تستعمل تعابير سبق أن تصورتها واجترتها منذ أن كانت لا تصدق ، حتى فى الحلم ، امكانَ حدوث هذا اللقاء . وكانت تراقب بنظرة سامة ما تحدث أقوالها من أثر فى وجه ناستاسيا فيليبوفنا الذى شوّهه الاضطراب) . تابعت آجلايا كلامها تقول : — هل تتذكرين رسالة كتبتها الىّ آنذاك . انه يقول انك تعرفين أمر هذه الرسالة بل وانك قرأتها ؟ اننى حين قرأت تلك الرسالة انما فهمت كل شىء ، وأدركت كل شىء حق الادراك . وقد أيّد هو نفسه ، فى الآونة الأخيرة ، كل كلمة من الكلمات التى أقولها لك الآن . وانتظرت بعد تلك الرسالة . حزرت أنك ستضطرين أن تجيئى الى هنا ، لأنك لن تستطيعى الاستغناء عن بطرسبرج : انك ما تزالين أصغر سناً وأبرع جمالاً من أن تطيقى الحياة فى الأقاليم . . . — وأضافت تقول بينما كان وجهها يحمر احمراراً شديداً (ولم يفارق هذا الاحمرار وجهها طوال مدة كلامها بعد ذلك) : — وهذه الكلمات كذلك ليست كلماتى أنا . وحين التقيت بالأمير من جديد تألمت له ألماً قوياً وأحسست أنه أُهين . لا تضحكى . واذا ضحكت كان ذلك دليلاً على أنك غير جديرة بأن تفهمى هذا . . .

ردت ناستاسيا فيليبوفنا تقول بلهجة حزينة جدية :

— انك لترين اننى لا أضحك .

— لست اكترث على كل حال . اضحكى ما شئت أن تضحكى . وحين سألته بنفسى قال لى انه أصبح لا يحبك منذ مدة طويلة حتى ان ذكراك وحدها أصبحت

تؤلمه ، ولكنه يرثى لحالك ، واذا فكر فيك شعر بأن قلبه قد «طُعن الى الأبد» . يجب أن أضيف أيضا أننى لم ألاحظ طوال حياتى رجلاً يضارعه فيما تتصف به نفسه من بساطة نبيلة وفيما يزخر به قلبه من ثقة لا حدود لها . فبعد أن سمعت كلامه ، أدركت أن فى امكان أى انسان أن يخدعه اذا أراد ، وأنه سيغفر لمن يخدعه ويصفح عنه . لذلك أحببته . . .

صمتت آجلايا مصعوقة ، وهى تتساءل كيف أمكنها أن تنطق هذه الكلمة . لكن كبرياء قوية سطعت فى نظرتها فى الوقت نفسه . وبدا عليها أنها لن تكترث بشىء بعد الآن ، ولو أخذت «هذه المرأة» تضحك منها للاعتراف الذى أفلت من لسانها . قالت :

— لقد قلت لك كل شىء ، ولا شك أنك تدركين الآن ما أنتظره منك ، هه ؟

أجابت ناستاسيا فيليبوفنا بصوت خافت :

— ربما كنت أدركه . ولكن قولى بنفسك .

فاشتعل وجه آجلايا غضباً ، وقالت بلهجة جازمة وهى تقطّع كلماتها :

— أردت أن أسألك بأى حق أجزت لنفسك أن تتدخلى فى عواطفه نحوى ؟ بأى حق تجرأت أن تكتبى لى رسائل ؟ بأى حق تصرحين له فى كل لحظة ، له ولى أنا ، بأنك تحبينه ، بعد أن هجرتِه وفررتِ منه ذلك الفرار المهين . . والمشين أيضاً ؟

أجابت ناستاسيا فيليبوفنا تقول مكدودة مجهدة :

— أنا لم أصرح بأننى أحبه ، لا لك ولا له ،

و . . . وانك على حق . . . لقد فررت منه . . .

وقد أضافت ناستاسيا فيليبوفنا هذه الجملة الأخيرة بصوت يكاد يكون مسموعا .

صاحت آجلايا تقول :

— كيف لم تصرحى «لا لى ولا له» ؟ ورسائلك ؟ من ذا الذى رجاك أن تكونى سمسارة زواج ، وأن تحضينى على تزوجه ؟ أليس هذا تصريحا ؟ لماذا تندسّين بيننا ؟ لقد اعتقدت فى أول الأمر أنك بالعكس تريدين أن تحمليني على كرهه والنفور منه بتدخلك فى شئوننا بغية أن أتركه . ثم لم أفهم حقيقة تفكيرك الا بعد ذلك : فأنت انما تخيلت أن تحققى عملاً باهراً باللجوء الى تلك الأساليب من الرياء والنفاق . . . أكنت قادرة على أن تحبيه ، أنت يا من تحبين غرورك ذلك الحب كله ؟ لماذا لم ترحلى من هنا وكفى ، بدلاً من كتابة تلك الرسائل المضحكة الىّ ؟ لماذا لا تتزوجين الآن هذا الرجل الشريف الذى يحبك كثيرا ، والذى شرّفك بأن قدم اليك يده خاطبا ؟ ان السبب واضح كل الوضوح : فلو تزوجت روغوجين لما بقى أى ضيم بعد ذلك . بالعكس : ستنالين شرفاً عظيماً ! لقد قال عنك يفغينى بافلوفتش انك قد قرأت شعراً كثيراً ؛ وانك قد «حصّلت من الثقافة فوق ما يتناسب مع . . . وضعك» ؛ وانك تعيشين بتخيلات كتبية وتهربين من العمل ؛ فاذا أضفنا الى هذا غرورك أحصينا بذلك جميع بواعثك . . .

— وأنت ، هل تعرف يديك عملا ؟

كانت الأمور قد أسرعت تجرى مجرى فاضحاً صارخاً ، وتسير سيراً لم يكن فى الحسبان . لم يكن فى الحسبان ،

لأن ناستاسيا فيليبوفنا ، حين جاءت الى بافلوفسك ، كانت ما تزال تراودها أحلام ، رغم أنها كانت تتوقع الشر أكثر مما تتوقع الخير طبعاً . ولكن آجلايا قد انجرفت فوراً كمن ينحدر من أعلى الجبل ، ولم تستطع أن تقاوم ما فى الانتقام من اغراء فظيع . حتى لقد دُهشت ناستاسيا فيليبوفنا من رؤيتها على هذه الحال . فكانت وقد تحيرت وارتبكت فى أول لحظة تنظر اليها ولا تصدق عينيها . أهى امرأة أسرفت فى قراءة قصائد الشعر كما افترض يفغينى بافلوفتش ، أم هى امرأة فقدت صوابها وكفى ، كما أيقن الأمير بذلك ؟ مهما يكن من أمر فان ناستاسيا فيليبوفنا رغم كل ما تحرص على ابدائه من استهتار وقح فى بعض الأحيان ، كانت فى الواقع أكثر حياء ، وأكثر رقة ، وأكثر ثقة مما يمكن أن يظن المرء . صحيح أن نفسها كانت تنطوى على كثير من صور الخيال وتهاويل الوهم ، ولكن المرء يجد فيها عواطف قوية عميقة . . . كان الأمير يفهم ذلك ، وارتسم ألم شديد فى وجهه . ولاحظت آجلايا هذا فاختلجت كرهاً ومقتاً . وانبرت تقول بغطرسة لا توصف ، جواباً على الملاحظة التى أبدتها ناستاسيا فيليبوفنا :

— كيف تجسرين أن تكلمينى بهذه اللهجة ؟

فأجابت ناستاسيا فيليبوفنا مدهوشة :

— لعلك لم تسمعينى سماعاً واضحاً . ما اللهجة التى كلمتك بها ؟

فاذا بآجلايا تقذفها فجأة بهذا الكلام :

— لو أنك أردت أن تكونى امرأة شريفة فلماذا لم تعمدى بكل بساطة الى قطع صلتك بالرجل الذى أغواك ،

توتسكى . . . مستغنية عن هذه الأوضاع المسرحية كلها ؟

فأجابتها ناستاسيا فيليبوفنا وقد أخذت ترتجف ارتجافاً شديداً ، وشحب لونها شحوباً رهيباً :

— ماذا تعلمين عن وضعى حتى تسمحى لنفسك بأن تحكمى علىَّ ؟

— أعلم أنك بدلاً من أن تلتمسى عملاً تجنين منه رزقك ، قد هربت مع روغوجين الثرى الواسع الثراء ، لتصطنعى بعد ذلك دور ملاك ساقط . ليس يدهشنى أن توتسكى قد أوشك أن ينتحر بسبب هذا الملاك الساقط !

قالت ناستاسيا فيليبوفنا بلهجة الاشمئزاز وبدا انها تغالب ألماً :

— حسبك ! انك تفهمينى على نحو ما فهمتنى . . . خادمة داريا ألكسييفنا ، التى ذهبت فى هذه الأيام الأخيرة الى محكمة الصلح تقاضى خطيبها . انها قد تفهمك أنت فهماً أصحَّ . . .

— أظن أنها فتاة شريفة تعيش من عملها . لماذا تتكلمين عن خادمة بهذا الاحتقار ؟

— أنا لا أحتقر العمل ، وانما احتقرك أنت حين تتحدثين عن العمل !

— لو أنك أردت أن تكونى شريفة لعملت غسّالة .

ونهضت المرأتان شاحبتين ورازت كل منهما الأخرى بنظرها .

صاح الأمير يقول مشوشا :

— كفى يا آجلايا ! هذا ظلم .

وكان روغوجين قد كفَّ عن الابتسام ، لكنه كان

يصغى زاماً شفتيه ، عاقداً ذراعيه على صدره .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا وهى ترتعش غضباً :

— انظر ! انظر اليها ! انظر الى هذه الآنسة ! ما كان أغبانى ! لقد كنت أتصورها ملاكاً ! أجئت الى هنا دون أن تصطحبى مربيتك يا آجلايا ايفانوفنا ؟ . . هل تريدين . . . هل تريدين أن أقول لك على الفور ، بصراحة ، دون لف أو دوران ، لماذا جئت الىَّ ؟ لقد كنت خائفة . ذلك هو سبب مجيئك .

— خائفة منك أنت ؟

كذلك سألتها آجلايا خارجة عن طورها ، وقد شدهها شدهاً ساذجاً وقحاً أن ترى غريمتها تجرؤ أن تقول لها هذا الكلام .

— نعم ، خائفة منى أنا ! لئن جئت الى هنا فلأنك كنت خائفة منى . المرء لا يحتقر من يخشاه . ما كان أضلَّنى حين أمكننى أن أحترمك ، حتى الى هذه اللحظة ؟ أتعرفين لماذا تخشيننى وما هو هدفك الرئيسى الآن ؟ لقد أردت أن تتأكدى بنفسك : هل يحبنى أكثر مما يحبك ، ام لا ، وذلك لأنك تغارين عليه غيرة فظيعة . . .

تمتمت آجلايا تقول زافرة :

— سبق أن قال لى انه يكرهك . . .

— جائز . جائز أن لا أكون جديرة به . . . لكننى أعتقد أنك كذبت ! لا يمكن أن يكرهنى ، ولا يمكن أن يكون قد قال هذا الكلام ! على أننى مستعدة لأن أغفر لك . . . مراعاة لوضعك . . . رغم أننى كنت أرى فيك رأياً أفضل . كنت أظنك أذكى وأجمل . يميناً

كنت أظن ذلك ! . . على كل حال ، خذى كنزك . . . خذيه . . انظرى . . انه يتأملك غائباً عن نفسه . . . خذيه ، ولكن على شرط : اخرجى من هنا فوراً ! اخرجى فى التو واللحظة ! . .

قالت ناستاسيا فيليبوفنا ذلك وتهالكت على مقعد وأجهشت باكية . لكن عينيها ما لبثتا أن سطعتا فجأة ببريق جديد ، فها هى ذى تنظر الى آجلايا محدقة ، ثم تنهض قائلة :

— وهل تريدين أن آمره . . . الآن ، هل تسمعين ؟ . . أن آمره فقط وسوف يهجرك فوراً ويبقى معى الى الأبد ويتزوجنى ؟ أما أنت فترجعين الى دارك راكضة وحيدة . هل تريدين أن أفعل هذا ؟ هل تريدين ؟

كذلك قالت ناستاسيا فيليبوفنا صارخة كالمجنونة ، ربما دون أن تصدِّق أنها قادرة على النطق بمثل هذه الأقوال . وكانت آجلايا قد اندفعت نحو الباب مذعورة ، ولكنها توقفت فى العتبة جامدة تصغى . وتابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها تقول :

— هل تريدين أن أطرد روغوجين ؟ أكنت تظنين أننى تزوجت روغوجين ارضاءً لك ؟ لسوف أصرخ حالا أمامك قائلة : «ارحل يا روغوجين !» ، وسوف أقول للأمير : «هل تذكر وعدك ؟» رباه ! لماذا هوَّنتُ شأنى وحقَّرتُ قيمتى فى نظرهم ؟ أنت يا أمير ، ألم تؤكد لى أنك ستتبعنى مهما يحدث لى وأنك لن تهجرنى فى يوم من الأيام ؟ ألم تؤكد أنك تحبنى وأنك تغفر لى كل شئ ، وأنك تحترمنى . . نعم . . لقد قلت هذا أيضاً ! وأنا التى فررت منك ، لا لشىء الا أن أدعك حراً طليقاً .

ولكننى عدلت الآن عن هذا ! لماذا عاملتنى كما تُعامَل امرأة داعر ؟ اسأل روغوجين هل أنا امرأة داعر ؟ اسأله فيقول لك ! أبعد أن جللتنى الآن بالعار ، على مرأى منك ومسمع ، تشيح وجهك عنى وتمضى معها متأبطاً ذراعها ؟ ألا فلتنصبَّ عليك اللعنة اذا فعلت ذلك ، لأنك الرجل الوحيد الذى محضته ثقتى .

ثم هتفت تقول باندفاعة جنون : — اذهب يا روغوجين ! — كانت الكلمات تخرج من صدرها بكثير من المشقة والعناء ، وقد تشوهت ملامح وجهها وبست شفتاها : واضح أنها كانت لا تصدق كلمة واحدة من هذا الكلام الذى اطلقته فى نوبة افتخار ، ولكنها كانت تريد أن تطيل الوهم برهة أخرى وأن تخدع نفسها . لقد بلغت النوبة من القوة والعنف أنها كان يمكن أن تميتها ، فى تقدير الأمير على الأقل . وصرخت تقول لآجلايا أخيراً وهى تومئ الى الأمير باشارة من يدها : — هذا هو . انظرى اليه ! ان لم يجئ اليَّ فوراً ، ان لم يرضَ أن يتركك من أجلى ، فما عليك الا أن تأخذيه . اننى أتنازل عنه ، فلا أريده بعد الآن ! . .

لبثت هى وآجلايا ساكنتين جامدتين كأنما فى الانتظار ، وكانتا تنظران الى الأمير زائغتى الهيئة . ولكن لعله ، هو ، لم يدرك كل ما كان فى ذلك التحدى من عنف ؛ بل انه لم يدركه حتماً . كان لا يميزّ أمامه الا ذلك الوجه الذى يلوح فيه اليأس والجنون والذى كان منظره «قد طعن قلبه الى الأبد» ، كما سبق أن قال ذلك يوماً لآجلايا . ثم لم يطق احتمال رؤية هذا المشهد أكثر من ذلك ،

فها هو ذا يلتفت الى آجلايا ، فيسألها بلهجة الرجاء والعتب مشيراً الى ناستاسيا فيليبوفنا :

— أهذا جائز ؟ ألا ترين كم هى . . . بائسة شقية ؟

ولم يستطع ان يقول أكثر من ذلك . فان نظرة ألقتها عليه آجلايا قد عقلت لسانه . ورأى فى هذه النظرة ألماً يبلغ من الشدة ، ورأى فيها كرهاً يبلغ من القوة أنه ضمَّ يديه احداهما الى الأخرى ، وأطلق صرخة ، وهرع نحو الفتاة . ولكن كان قد فات الأوان ! انها لم تطق أن يتردد ولو ثانية واحدة . فغطت وجهها بيديها ، وانطلقت تخرج من الغرفة صائحة : «آه . . . رباه !» وكان روغوجين قد تبعها ليفتح لها الباب .

وهرع الأمير وراءها أيضاً ، غير أن ذراعين قد احتضنتاه عند العتبة . كانت ناستاسيا فيليبوفنا تحدق فيه منقلبة السحنة مكفهرة الوجه ، وتمتمت شفتاها المزرقّتان تقولان له :

— أتركض وراءها ؟ وراءها ؟

وسقطت فى ذراعيه مغشياً عليها . فأنهضها وحملها الى الغرفة ووضعها على مقعد من المقاعد ، ولبث ماثلاً عليها منتظراً مشدوهاً . وكان يوجد على مائدة صغيرة كأس ماء . فتناوله روغوجين حين عاد ، ورش شيئاً من مائه على وجهها . ففتحت عينيها ، وظلت خلال دقيقة لا تعى شيئاً ، لكنها لم تلبث أن استردت شعورها فجأة ، فارتعشت ، وأسرعت الى الأمير تصيح قائلة له :

— أنت لى ، لى أنا ! هل انصرفت الآنسة المتكبرة ؟ هأ هأ هأ ! — كذلك قهقهت فى نوبة ضحك تشنجى ، وتابعت ضحكها وكلامها : — هأ هأ هأ . . . كنت قد

تنازلت عنه لتلك الآنسة ! فلماذا ؟ ما الداعى ؟ كنت مجنونة ! مجنونة ! . . يا روغوجين ، امض فى سبيلك . . . اذهب ! هأ هأ هأ !

نظر روغوجين اليهما نظرة ثاقبة دون أن يقول كلمة واحدة ، ثم أخذ قبعته وخرج . وبعد عشر دقائق كان الأمير جالساً قرب ناستاسيا فيليبوفنا لا يحول عنها عينيه ، ويمسح وجهها وشعرها بيديه فى رفق كما يفعل المرء بطفل . وكان يضحك ضحكاً مجلجلاً حين يسمعها تضحك ، وكان يوشك أن يجهش باكياً اذا رآها تبكى . وكان لا يقول شيئاً ، وانما ينتبه الى تمتمتها المحمومة المفككة التى لا يفهم منها شيئاً البتة ، ولكنه يصغى اليها مبتسماً ابتسامة رقيقة . حتى اذا لاحظ بزوغ نوبة جديدة من الحزن والدموع واللوم والتشكى ، عاد يلاعب شعرها ويمسح خديها بحنان ، ويحاول أن يواسيها وأن يعقّلها كبنية صغيرة .

الفصل التاسع

انقضى اسبوعان على الأحداث التى رويناها فى الفصل السابق . وقد تغيرت أحوال شخصيات قصتنا أثناء تلك المدة تغيراً كبيراً جداً ، حتى ليصعب أن نمضى فى الطريق الى آخره دون الدخول فى بعض التفسيرات . ولكننا نشعر نحن أنفسنا بأن علينا أن نكتفى بمجرد عرض الوقائع دون تفسيرات خاصة قدر الامكان وذلك لأن من العسير علينا فى كثير من الحالات أن نعلل هذه الأحداث . أغلب الظن أن مثل هذا التنبيه سيبدو للقارئ غريباً وغامضاً : فكيف يمكن أن يسرد المرء أحداثاً ليس فى ذهنه فكرة واضحة عنها ، وليس له رأى شخصى فيها ؟ فمن أجل أن لا نضع أنفسنا فى موضع أدعى الى شبهة الضلال والزيف أيضاً ، سنحاول أن نوضح فكرتنا بمثال ، آملين أن نجعل القارئ السمح يفهم المأزق الذى نجد أنفسنا أمامه ؛ وسيكون لهذا مزية ، هى أن المثال الذى اخترناه لن يكون استطراداً وخروجاً عن الموضوع ، بل سيكون التتمة المباشرة للقصة .

فبعد أسبوعين ، أى فى مطلع شهر تموز (بل وأثناء هذين الأسبوعين) ، اتخذت قصة بطلنا ، ولاسيما حدثها الأخير ، اتخذت فى ألسن الناس صورة عجيبة كان يسلّيهم جدا أن يتناقلوها . قصة لا يكاد يصدقها العقل ولكنها لا تكاد توضع موضع شك ، انتشرت شيئا فشيئا فى جميع الشوارع التى تجاور فيللات ليبيديف وبتيتسين وداريا ألكسييفنا وآل ايبانتشين ، أى فى المدينة كلها تقريباً ، بل وفيما حولها أيضاً . ان المجتمع كلّه ، أو كلّه على وجه التقريب

(أهل البلدة أو سكان الفيللات أو الوافدين من المدينة لسماع الموسيقى) قد أشاعوا القصة نفسها بألف شكل وشكل ؛ ومن تلك الأشكال كلها يخرج أن أميراً قد قام بفضيحة فى أسرة محترمة معروفة ، فترك آنسة من تلك الأسرة رغم أنه كان قد أتمَّ خطبته لها ، ومضى يتشبث بأذيال امرأة خليعة . لقد قطع جميع صلاته ، واستخف بجميع التهديدات ، ولم يكترث اى اكتراث باستياء الناس وامتعاضهم ، فأعلن أنه ينتوى أن يتزوج تلك المرأة الضائعة ، ببلدة بافلوفسك نفسها ، على مرأى ومسمع من جميع الملأ ، رافعاً رأسه ، محدقا الى البشر فى أعينهم بغير مبالاة . لقد زُيِّنت هذه القصة بتفاصيل فاضحة كثيرة . وأُقحم فيها أفراد معروفون محترمون كثيرون ، وصبُغت بألوان تضفى عليها هالة من الخيال والسر ، ودُعمت من جهة أخرى بوقائع ثابتة لا سبيل الى جحودها ، فلذلك طبعاً كانت الاشاعات والفضول العام لها ما يبررها . وقد قيل فى تأويل الحادث كلام كثير ، ولكن التأويل المرهف البارع أكثر من سائر التأويلات (وهو فى الوقت نفسه أقربها الى التصديق) هو ذلك الذى أشاعته تقوّلات بعض النمامين الرصينين من فئة الافراد العقلاء الذين يتعجلون دائماً وفى كل مجتمع لتأويل حادث من الحوادث للآخرين ، فهذه هى رسالتهم فى الحياة بل هذا هو عزاؤهم وتلك هى سلواهم فى كثير من الأحيان . ففى رواية هؤلاء أن الشاب ينتمى الى أسرة كريمة المحتد ، فهو أمير ، وهو غنى تقريباً ، وعبيط ، ولكنه ديموقراطى ومولع بذلك المذهب العدمى المعاصر الذى أوضحه السيد تورجينيف* . فهذا الشاب الذى لا يكاد يحسن التكلم بالروسية قد وقع

فى غرام ابنة الجنرال ايبانتشين ، وظفر بأن يجعل الأسرة تستقبله فى بيتها استقبال خطيب . ولكنه قد خدع هذه الأسرة بأسلوب يذكِّر بأسلوب ذلك الشاب الفرنسى ، طالب اللاهوت ، الذى نُشرت مغامرته منذ مدة قصيرة . ان طالب اللاهوت هذا قد طلب عند تخرجه أن يُنصَّب كاهنا ، فبعد أن قام بجميع الطقوس والشعائر ، وتلا جميع الأدعية والصلوات ، وحلف أغلظ الأيمان ، وتم تنصيبه كاهنا ، نشر فى الغداة رسالة مفتوحة الى أسقفه يعلن فيها على رؤوس الأشهاد أنه لا يؤمن بالله ، وأنه يرى أن من الحطة والدناءة من جانبه أن يخدع الشعب وأن يستغله ويعيش عالة عليه ، فهو لذلك ينكل عن تنصيبه بالأمس ، وينشر رسالته هذه فى الجرائد اللبرالية . فعلى غرار ما فعله ذلك الملحد ، انتظر الأمير سهرة فخمة أقامها أهل الفتاة ، وقدموه أثناءها الى كثير من الشخصيات البارزة المرموقة ، فأعلن أفكاره صراحة أمام جميع الناس ، وأهان عدداً من وجوه القوم وصفوة رجال المجتمع ، وتخلى عن خطيبته على مرأى ومسمع من الملأ بطريقة مهينة مشينة . وحين كلَّف الخدم باخراجه من المنزل راح يقاومهم مقاومة عنيفة فهشم أثناء ذلك اناءً رائعاً من خزف صينى . وهناك سمة بارزة من سمات الأخلاق السائدة فى عصرنا تضاف الى هذه القصة ، هى أن ذلك الشاب الطائش كان يحب خطيبته ابنة الجنرال حباً صادقاً ، ولكنه تخلى عنها لا لسبب آخر غير اشهار تشيعه للمذهب العدمى ومن أجل الفضيحة القادمة وحتى لا يحرم نفسه من متعة التزوج بامرأة ضائعة على مرأى المجتمع كله ويبرهن بذلك على اعتقاده الراسخ بأنه ليس ثمة نساء ساقطات ونساء

فاضلات ، وانما هنالك المرأة المتحررة فحسب . فهو لا يؤمن بالتصنيفات البالية التى يأخذ بها المجتمع الراقى ، وانما يؤمن «بقضية المرأة» وحدها ؛ بل هو يزعم أن للمرأة الساقطة فى نظره قيمة أكبر من قيمة المرأة التى لم تسقط . لقد بدا هذا التأويل محتملاً كل الاحتمال ، وأخذ به أكثر المصطافين فى بافلوفسك . ومما يسّر عليهم ذلك مزيداً من التيسير أن الوقائع اليومية كانت تأتى مصدقة له . صحيح أن كثيراً من التفاصيل ظلت أموراً لا سبيل الى فهمها . لقد كان يُقال ان الفتاة المسكينة قد بلغت من حب خطيبها (وكان بعضهم يسميه «مغويها») أنها هرعت اليه غداة تركها ولحقت به فى بيت عشيقته . وذهب بعض آخر الى غير هذا فقالوا انه استدرجها الى بيت تلك المرأة متعمداً ، بدافع العدمية وحدها ، أى ليجللها بالعار وليلطخها بالدنس . مهما يكن من أمر فان الاهتمام الذى أثاره هذا الحادث كان يشتد يوماً بعد يوم ، لاسيما وأنه لم يبق أى شك فى أن ذلك الزواج المشين قد أصبح وشيكاً .

والآن ، اذا سألنا أحد ايضاحات أو تفسيرات (لا عمّا يتصف به الحادث من أنه ينتمى الى المذهب العدمى ، لا . . .) ، وانما عن مدى انطباق هذا الزواج على رغبات الأمير ، وعما كان الأمير يرغب فيه حقاً ، وعن حالته النفسية فى تلك الآونة ، وعن أمور أخرى من هذا النوع ، لوجدنا أنفسنا مرتبكين فى الاجابة أشد الارتباك ، يجب أن نعترف بذلك . ولكننا نعلم أن الزواج قد تقرر فعلاً ، وأن الأمير نفسه قد كلّف ليبيديف وكيللر وصديقاً لليبيديف قُدّم اليه وعُرّف به فى هذه المناسبة ، كلفهم بأن يتخذوا

جميع التدابير وأن يعدوا جميع الاجراءات فى الكنيسة وفى البيت معاً ، وأمرهم بأن لا يحفلوا بالنفقات وأن لا يبالوها . وقد ألحت ناستاسيا فيليبوفنا على أن يتم الزفاف وفى أقرب وقت . وألح كيللر على أن يجعله الأمير فتى الشرف فى عرسه ، فلبى الأمير طلبه ، ووقع اختيار ناستاسيا فيليبوفنا على بوردوفسكى فتىً من جهتها ، فارتضى بوردوفسكى هذا الاختيار متحمساً . وحُدّد أول تموز موعداً لحفلة الزفاف . وعدا هذه الوقائع الدقيقة الصحيحة كل الصحة ، فنحن نعلم كذلك تفاصيل تحيّرنا أشد الحيرة لأنها تناقض ما سبق . لهذا يحق أن نقدّر أن الأمير ما ان كلّف ليبيديف والآخرين باعداد كل الترتيبات حتى كاد نسى فى نفس ذلك اليوم أن هناك زواجاً وزفافاً وعريساً وفتيان شرف وما الى ذلك ! ولعله لم يسرع الى تكليف غيره بهذه الأمور الا ليكفّ هو عن التفكير فيها والانشغال بها ، وربما ليمحوها من ذاكرته محواً تاماً . ولكن اذا صدق هذا ففى أى شىء كان يفكر ؟ ما هو الشىء الذى كان يريد أن يحتفظ بذكراه ؟ ماذا كانت نياته ؟ لا شك كذلك فى أن الأمير لم يتعرض لأى ضغط أو اكراه (من جانب ناستاسيا فيليبوفنا مثلاً) . صحيح أن ناستاسيا فيليبوفنا هى التى أرادت تعجيل الزفاف ؛ وأنها هى التى تخيلت هذا الزواج ، لا الأمير ؛ ولكن الأمير قد وافق موافقة حرة ، حتى انه وافق وهو ذاهل الهيئة كأن الأمر أمر عادى ليس على شىء من خطورة الشأن . اننا نعرف عدداً كبيراً من وقائع لا تقل غرابة عن ذلك ، ولكننا نرى أن تلك الوقائع لا تساهم فى ايضاح الحادث بل تزيده بتراكمها غموضاً على غموض . ولنضرب

مع ذلك مثالاً آخر .

نحن نعلم علم اليقين أن الأمير قد قضى فى أثناء هذين الأسبوعين أياماً وسهرات كاملة مع ناستاسيا فيليبوفنا وأنه كان يصحبها فى نزهاتها ويرافقها لسماع الموسيقى . كان يخرج معها كل يوم فى عربة . واذا انقضت ساعة دون أن يراها يقلق عليها (كانت كل المظاهر تدل اذن على أنه يحبها حباً صادقاً) . كان يبقى الى جانبها ساعات طوالاً يصغى اليها بابتسامة رقيقة عذبة أياً كان الموضوع الذى تتكلم فيه . وكان هو يصمت طول الوقت تقريباً . ولكننا نعلم أيضاً أنه فى تلك الأيام نفسها قد ذهب عدة مرات ، بل مراراً كثيرة ، الى منزل آل ايبانتشين على حين فجأة ، دون أن يكتم ذلك عن ناستاسيا فيليبوفنا التى كانت تخلد الى اليأس بهذا الصدد . ونحن نعلم أن آل ايبانتشين قد رفضوا استقباله الى آخر يوم من أيام اقامتهم فى بافلوفسك ، وأنهم اعترضوا دائماً على أن يتم لقاء بينه وبين آجلايا . فكان ينصرف دون أن يقول كلمة واحدة ، ثم يعود فى الغد وكأنه نسى رفض الأمس ، ثم يُرفض مرة أخرى طبعاً . ونحن نعرف أيضاً أن الأمير ، بعد هرب آجلايا من بيت ناستاسيا فيليبوفنا بساعة أو بأقل من ساعة ، قد مضى الى منزل أسرة ايبانتشين معتقداً أنه سيلقى آجلايا هناك . فما كان أشد الذعر الذى أحدثه فى المنزل وصوله ، لأن آجلايا لم تكن قد رجعت بعد ، وعلم أهل الدار منه أول نبأ عن الزيارة التى قامت بها آجلايا فى صحبته لناستاسيا فيليبوفنا . وقد حُكى بعد ذلك أن اليزافيتا بروكوفيفنا وبنتيها وحتى الأمير «ش» قد عاملوه بقسوة وعداوة ، وأعلنوا له

بألفاظ غاضبة انهم لا يريدون أن يعاشروه بعد الآن ولا أن يعرفوه ، لاسيما حين وصلت فارفارا آردالیونوفنا تبلغ اليزافيتا بروكوفيفنا فجأة أن آجلايا موجودة عندها منذ ساعة وأنها فى حالة رهيبة وأنها لا تريد الرجوع الى البيت فيما يبدو . وقد ثبت صدق هذا النبأ الأخير الذى بثّ الاضطراب فى نفس اليزافيتا بروكوفيفنا أكثر من أى شىء آخر . والواقع أن آجلايا حين خرجت من عند ناستاسيا فيليبوفنا كانت تؤثر أن تموت على أن تظهر أمام أنظار أهلها آنذاك . لذلك لجأت الى نينا ألكسندروفنا . ورأت فارفارا آردالیونوفنا من جهتها أن من الواجب أن تبادر الى ابلاغ اليزافيتا بروكوفيفنا كلَّ ما جرى بغير ابطاء . فهرعت الأم وابنتاها فوراً الى عند نينا ألكسندروفنا ، ولحق بهنّ الأب ، ايفان فيدوروفتش ، الى هناك منذ عاد الى البيت . ومضى الأمير ليف نيقولايفتش وراء السيدات ايبانتشين رغم أنهن صرفنه ورغم أنهن وجهن اليه كلمات جارحة . ولكن فارفارا آردالیونوفنا أمرت هناك بمنعه من الوصول الى آجلايا . وقد انتهت القضية على النحو التالى : حين رأت آجلايا أمها وأختيها يبكين بسببها ولكنهن لا يوجّهن اليها أى لوم ، ارتمت فى أحضانهن ورجعت معهن الى البيت فوراً . وحُكى أيضا — غير أن هذه الشائعة ظلت غير واضحة — أن جافريلا آردالیونوفتش قد مُنى بسوء الحظ مرة أخرى : فانه حين خلا الى آجلايا أثناء ذهاب فارفارا آردالیونوفنا الى اليزافيتا بروكوفيفنا ، ظن أن عليه أن ينتهز هذه الفرصة ليحدث آجلايا عن حبه . فلما سمعته آجلايا نسيت حزنها ودموعها وانطلقت تضحك فى قهقهة مجلجلة ، ثم ألقت عليه السؤال الغريب التالى :

أهو مستعد ، فى سبيل البرهان على حبه ، لأن يحرق أصبعه على لهب شمعة ؟ وقيل أن جافريلا آرداليونوفتش قد تحيّر وشُده وصُعق لهذا الاقتراح ، فلما رأت آجلايا ما تعبر عنه هيئته من هذا كله ، اعترتها نوبة ضحك فظيع ، وهربت الى الطابق الأعلى ، الى عند نينا ألكسندروفنا ، حيث وجدها أهلها بعد ذلك بقليل . وقد نقل ايبوليت هذه الواقعة الى الأمير فى الغد . ان ايبوليت الذى أصبح لا يستطيع أن يترك مرقده قد استدعى الأمير خصيصا لينقل اليه تلك الواقعة . لا نعرف كيف اطلع هو عليها . ولكننا نعرف أن الأمير حين سمع حكاية الأصبع والشمعة قد أخذ يضحك ضحكاً بلغ من الشدة ما أثار دهشة ايبوليت الشديدة . غير أن الأمير لم يلبث أن أخذ يرتجف ، وأجهش باكياً . . . ولقد كان الأمير خلال تلك الأيام ، علىّ وجه العموم ، فريسة قلق شديد واضطراب خارق معذب وغامض . حتى ان ايبوليت أعلن صراحة أن الأمير يُشعره بأنه رجل أصابه اختلال عقلى . على أن هذا الظن كان يصعب بناؤه على أساس محسوس حتى ذلك الحين .

اننا ، حين نعرض هذه الوقائع جميعها ونرفض أن نفسّرها ، لا نهدف الى أن نبيّض صفحة بطلنا فى نظر القارئ . بالعكس : نحن مستعدون لأن نشارك فى هذا الاستياء الذى أثاره سلوك الأمير حتى فى نفوس اصدقائه . ان فيرا ليبيديفا نفسها قد أحنقها هذا السلوك مدةً من الوقت . وان كوليا وكيللر قد أظهرا امتعاضهما كذلك . ولم يغيّر كيللر رأيه الا حين اختاره الأمير فتى الشرف لزفافه . أما ليبيديف فقد بلغ استياؤه من الصدق أنه دفعه الى أن

يدبر للأمير مكيدة سنتحدث عنها فيما بعد . اننا على وجه العموم نؤيد بلا تحفظ بعض الأقوال التى تتصف بالشدة وحتى بعمق النفاذ السيكولوجى ، أعنى الأقوال التى وجهها يفغينى بافلوفتش الى الأمير بغير لف أو دوران ، أثناء حديث ودى قام بينه وبينه بعد انقضاء ستة أيام أو سبعة على الحادث الذى وقع عند ناستاسيا فيليبوفنا . يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أن الأشخاص الذين تربطهم بأسرة ايبانتشين صلات مباشرة أو غير مباشرة قد اعتقدوا أن من واجبهم أن يشاركوا الأسرة فى قطع أى صلة بالأمير . فالأمير «ش» مثلاً قد أشاح عنه وجهه حين لقيه ، ولم يردد تحيته . ومع ذلك لم يخش يفغينى بافلوفتش أن يتعرض لشر اذا هو زار الأمير ، رغم أنه قد استأنف تردده على آل ايبانتشين كل يوم ، وأن الأسرة استقبلته بمودة ظاهرة واضحة . ففى غداة اليوم الذى غادر فيه آل ايبانتشين بافلوفسك ، ذهب يفغينى بافلوفتش الى الأمير . وكان حين دخوله عليه عالماً بالأقاويل التى كانت تروج فى المدينة ؛ بل لعله كان قد أسهم من جهته فى نشرها . وقد سُرَّ الأمير برؤيته سروراً عظيماً ، وسرعان ما أدار الحديث على آل ايبانتشين . فكان من شأن هذا الدخول فى الموضوع على نحو صريح مباشر أن حلّ عقدة لسان يفغينى بافلوفتش وأتاح له أن يمضى الى هدفه رأساً .

كان الأمير ما يزال يجهل رحيل آل ايبانتشين . فحين أنبأه يفغينى بافلوفتش بذلك تجمد دهشة وامتقع لونه . ولكنه بعد دقيقة ، هزّ رأسه مضطرب الهيئة مستغرق الفكر وقال مسلماً مذعناً : «لم يكن من ذلك بد» ؛ ثم أسرع يسأل عن «محل اقامتهم الجديد» .

وكان يفغينى بافلوفتش أثناء ذلك يرقبه بانتباه ، فأدهشه أن رأى الأمير يسرع فى سؤاله هذا الاسراع ، وأدهشه ما رآه من سذاجة فى الأسئلة التى يلقيها عليه ، وما لاح له فى كلامه من حيرة ونبرة صدق غريب فى الوقت نفسه ، وما كان يظهر عليه من قلق واضطراب . ومع ذلك أطلع الأمير على تفاصيل جميع الأحداث بكثير من الكياسة . لقد أعلمه أشياء كثيرة ، وكان أولَ من يحمل اليه الأنباء من عند آل ايبانتشين . أكدّ له أن آجلايا قد مرضت فعلاً ، وأنها قضت ثلاث ليال فى حمى وأرق ، وأن صحتها الآن قد تحسنت فنجت من الخطر ، ولكنها ما تزال فى حالة عصبية هستيرية . . . وأضاف : «من حسن الحظ على كل حال أن سلاماً تاماً يسود جوَّ المنزل ! انهم يحاولون أن لا يتكلموا عن الماضى ، لا بحضور آجلايا فحسب ، بل حتى فى غيابها . والأبوان يريدان أن تقوم الأسرة فى الخريف برحلة الى الخارج ، بعد زواج آديلائيدا رأساً . وقد استقبلت آجلايا أولى التلميحات الى هذا المشروع صامتة» . أما هو ، يفغينى بافلوفتش ، فقد يسافر الى الخارج أيضاً . وحتى الأمير «ش» قد يقرر أن يغيب مع آديلائيدا شهراً او شهرين ، اذا سمحت له أعماله بذلك . اما رب الأسرة ، الجنرال ، فسيبقى . والأسرة كلها تقيم الآن فى كولمينو ، على مسافة عشرين فرسخاً من بطرسبرج ، بمنزل ريفى واسع فى احدى الأراضى التى تملكها . ولم تكن بيلوكونسكايا قد سافرت بعدُ الى موسكو ، ويظهر أنها تأخرت متعمدة . لقد الحت اليزافيتا بروكوفيفنا الحاحاً شديداً على استحالة البقاء فى بافلوفسك بعد كل ما حدث . وكان هو يفغينى بافلوفتش

ينقل اليها الشائعات التى تسرى فى المدينة ، يوماً يوماً . وأعتقد آل ايبانتشين أن الذهاب الى فيللا ايلاجين مستحيل أيضاً .

أضاف يفغينى بافلوفتش يقول :

— لا شك أنك تسلّم يا أمير بأن الوضع قد أصبح لا يطاق . . . ولاسيما عند من يعرف ما يجرى فى بيتك كلَّ ساعة ، وبعد زياراتك اليومية **هناك** ، رغم الاصرار على رفض استقبالك . . .

أجاب الأمير وقد عاد يهز رأسه :

— نعم ، نعم ، أنت على حق . كنت أريد أن أرى آجلايا ايفانوفنا . . .

فصاح يفغينى بافلوفتش يقول فجأة بلهجة مؤثرة حزينة :

— آه يا عزيزى الأمير ! كيف أمكنك أن تسمح اذن بحدوث . . . كل ما حدث ؟ صحيح أن الأمر كان لك مفاجأة غير متوقعة . . . فأنا أسلّم بأنك لم يكن فى وسعك الا أن يطيش صوابك . . . ولم يكن فى وسعك أن تصد الفتاة عن الانقياد لنوبة الجنون التى اعترتها ، فذلك كله فوق طاقتك ! ولكن كان عليك أن تدرك مدى خطورة وقوة العاطفة التى كانت تدفع تلك الفتاة . . . اليك ! انها لم تشأ أن تشاركها الاخرى فيك ، وأنت . . أنت تركت هذا الكنز وحطمته !

قال الأمير وقد أرهقه الحزن :

— نعم ، نعم ، أنت على حق ، أنا مذنب . اسمع : ان آجلايا وحدها كانت تنظر الى ناستاسيا فيليبوفنا هذه النظرة . . . ما من أحد غيرها كان يرى فيها هذا الرأى .

هتف يفغينى بافلوفتش يقول باندفاع :

— ولكن هذا بعينه هو ما يثير الحنق : أن الأمر كله لم يكن فيه شىء من جد ! معذرة يا أمير ، لكننى . . . لكننى فكرت فى المسألة ، فكرت فيها ملياً . وأنا أعرف جميع المقدمات . أعرف كل ما حدث قبل ستة أشهر ، كله . لم يكن فى الأمر كله شىء من جد ! لم يكن ثمة الا فكر يعبث وخيال يهوم ، ووهم ، ودخان . . والغيرة المروَّعة ، الغيرة التى عصفت بقلب فتاة غير ذات تجربة ، هى التى استطاعت وحدها أن تجعلها تأخذ الأمر مأخذ الجد !

وهنا شعر يفغينى بافلوفتش بارتياح كامل ، فأطلق لسانه حراً يعبِّر عن استيائه بغير تحفظ . فاذا هو يرسم للأمير صورة للعلاقات بينه وبين ناستاسيا فيليبوفنا بأقوال ذكية واضحة ، وبنفاذ سيكولوجى عميق ، كما أسلفنا من قبل . ان يفغينى بافلوفتش قد أوتى موهبة الكلام فكانت هذه الموهبة تلاحَظ فيه دائماً ، ولكنه ارتقى هذه المرة الى مرتبة البلاغة النادرة . قال :

— لقد كان كل ما بينكما منذ البداية كذباً . وما كان الكذب بدايته فلا بد أن يكون الكذب نهايته . ذلك قانون من قوانين الطبيعة . اننى لا أرى رأى أولئك الذين يعدونك أبله . حتى اننى استاء حين أسمع كلامهم . انك أذكى من أن توصف بهذه الصفة . ولكن لا بد أنك تسلّم أنت نفسك بأن فيك غرابة تميزك عن الناس كافة . لقد خلصت أنا الى هذه النتيجة : أن سبب كل ما جرى يكمن قبل كل شىء فيما أسميه «اللاخبرة الفطرية» (لاحظ تعبير

«الفطرية» يا أمير) ، وفيما تتصف به من سذاجة شاذة . وانى لأضيف الى ذلك أنك يعوزك حس الاعتدال عوزاً خارقاً (تلك آفة فيك كثيراً ما اعترفت بها أنت نفسك) ؛ وينبغى أن نذكر أخيراً ذلك السيل المتدفق من المعانى المجردة المكتسبة التى يمتلئ بها دماغك والتى حسبتها باخلاصك وبراءتك آراء أصيلة طبيعية مباشرة ! عليك أن تعترف أنت نفسك يا أمير بأن علاقاتك مع ناستاسيا فيليبوفنا قد كان فى أساسها منذ البداية شىء **ديموقراطى اصطلاحى** (استعمل هذا التعبير للايجاز) أى ما تتصف به «قضية المرأة» من فتنة وسحر (أقول هذا لمزيد من الايجاز) . اعلمْ اننى مطلع على جميع تفاصيل الحادث الغريب الفاضح الذى جرى فى بيت ناستاسيا فيليبوفنا حين جاء روغوجين بأمواله . سأحاول ، اذا شئت ، أن أحلّلك وأن أُظهرك على صورتك كأنك تراها فى مرآة . فالى هذه الدرجة من الدقة أعرف حقيقة القضية والسبب الذى جعلها تجرى هذا المجرى ! أنت شاب ، كنت تعيش فى سويسرا وكان بك حنين الى وطنك ، وكانت روسيا تجذبك كأنها بلد مجهول ، ولكنها أرض موعودة . وقد قرأت حينئذ كتباً كثيرة عن روسيا . ولعلها كانت كتباً ممتازة ، لكنها قد أضرّت بك . فلما عدتَ كنت ممتلئا بالحماسة ظامئاً الى النشاط . فارتميت على العمل ارتماء ان صح التعبير . وهأنت ذا ، منذ وصولك أولَ يوم ، تُحكى لك حكاية حزينة تمزق القلوب هى حكاية امرأة أهينت . لقد حكُيت هذه الحكاية لك أنت ، أنت الرجل العفُّ الطاهر الذى يتصف بروح الفروسية ، وعن من ؟ عن امرأة ! وفى ذلك اليوم نفسه ترى تلك المرأة

نفسها ، فيسحرك جمالها ، جمالها الخيالى الشيطانى (هأنت ذا ترى اننى أعترف بجمالها) . أضف الى ذلك حالة أعصابك ، ومرض الصرع ، وما يحدثه ذوبان الثلج ببطرسبرج من أثر حزين فى النفس . أضف الى ذلك أيضاً أنك أثناء ذلك النهار الأول الذى قضيته فى مدينة مجهولة شبه أسطورية فى نظرك ، قد شهدت مشاهد عدة ولقيت ناسا كثيرين . لقد تعرفت ، على نحو لم يكن فى الحسبان قط ، بثلاث جميلات ، الآنسات ايبانتشين ، ومنهن آجلايا . أضف الى ذلك أيضاً ما كنت فيه من تعب ، وأضف اليه الدوار ، وأضف اليه صالون ناستاسيا فيليبوفنا والجوّ الذى كان يسوده ، و . . . فماذا يمكن أن تتوقع من نفسك فى تلك اللحظة ؟

قال الأمير هازاً رأسه وقد أخذ وجهه يحمر :

— نعم ، نعم ، تكاد تكون على حق . فعلاً ، لم أكن قد نمت فى الليلة السابقة بالقطار ، ولا فى الليلة قبلها ، وكنت مضطرباً جداً . . .

تابع يفغينى بافلوفتش كلامه قائلاً :

— فهذا بعينه ما أردت أن أخلص اليه . واضح أنك ، وقد أسكرتك الحماسة ، ارتميت على هذه الفرصة ارتماء لتبرز عظمة نفسك أمام الناس معلناً على رؤوس الأشهاد أنك على كونك أميراً بالولادة ، وعلى كونك رجلاً طاهراً ، لا ترى أن أى عار قد لحق بامرأة لم تُسقطها خطيئتها هى بل أسقطتها خطيئة رجلٍ منحل كريه من أبناء المجتمع الراقى . أمر مفهوم جداً ! ولكن ليست هذه هى المسألة يا عزيزى الأمير . ان الشىء الذى يجب أن نعرفه هو :

أكانت عاطفتك حقيقية ، صادقة ، طبيعية ، أم كانت ناشئة عن حماسة دماغية ؟ لقد غُفر فى المعبد لامرأة من هذا النوع ، لكن ما من أحد قال لها انها أحسنت صنعاً ، ولا انها تستحق جميع الأمجاد وجميع أنواع الاحترام . أليس كذلك ؟ أو لم يرشدك التفكير السليم بعد ثلاثة أشهر الى حقيقة الأمر ؟ لنسلّم بأنها بريئة الآن (هذه مسألة لا أريد أن ألح عليها) . هل ينفى هذا أن أعمالها لا تسوِّغ أى تسويغ ما يراه المرء فيها من عُجْب لا يطاق وزهو شيطانى لا يغتفر ، ووقاحة شديدة ، وأنانية مفرطة لا يرتوى لها ظمأ ؟ معذرة يا أمير ، اذا أنا اندفعت ، ولكن . . .

تمتم الأمير يقول من جديد :

— نعم ، ذلك كله ممكن . جائز أنك على حق . . . انها فى حالة عصبية شديدة فعلاً . وأنت على حق يقيناً ، ولكن . . .

— أتريد أن تقول انها تستحق الشفقة يا أميرى الطيب ؟ ولكن هل من حقك ، شفقة بها وارضاءً لها ، أن تجلل بالعار فتاة أخرى سامية طاهرة ، وأن تذلّها أمام تينك العينين اللتين يفيضان احتقاراً وكرهاً ؟ فأين تقف الشفقة بعد هذا ؟ أليس ههنا غلو لا يصدقه العقل ؟ حين يحب المرء فتاةً فهل يستطيع أن يحقّر شأنها ذلك التحقير أمام غريمتها ، وأن يهجرها فى سبيل أخرى على مرأى من هذه الأخرى ، بعد أن خطبها خطبةً شريفة ؟ . ذلك أنك خطبتها وأعلنت خطبتها بحضور أبويها وأختيها ! أفيمكن بعد هذا أن توصف بأنك رجل شريف يا أمير ؟ ثم . . . ألم تخدع فتاة تستحق العبادة حين أكدت لها أنك تحبها ؟

جمجم الأمير يقول بحزن لا يوصف :

— نعم ، نعم ، أنت على حق . آه . . . أنا أشعر بأننى آثم !

هتف يفغينى يافلوفتش يقول مستاء :

— ولكن هل يكفى هذا ؟ هل يكفى أن تصيح قائلاً : «آ . . . أنا آثم !» أنت آثم ، ولكنك ماضٍ فى غيِّك ! أين كان اذن قلبك ، قلبك «المسيحى» ؟ لقد رأيت وجهها فى تلك اللحظة : فهل كان يعبر عن الألم أقل من وجه **الأخرى** ، وجه **صاحبتك** مفرقة القلوب ؟ فكيف ، وقد رأيت هذا المنظر ، سمحت بحدوث ما حدث ، كيف ؟

تمتم الأمير المسكين يقول :

— ولكن . . . ولكننى لم أسمح بشىء . . .

— كيف لم تسمح بشىء ؟

— يميناً لم أسمح بشىء . وما زلت حتى الآن لا أفهم كيف حدث ذلك كله . . . لقد . . . لقد ركضت عندئذ وراء آجلايا ايفانوفنا ، ولكن أغمى فى تلك اللحظة على ناستاسيا فيليبوفنا ، ومنذ ذلك الحين لم يبيحوا لى أن اقترب من آجلايا ايفانوفنا .

— ولو ! كان يجب عليك أن تركض وراء آجلايا وأن تترك الأخرى مغمى عليها !

— نعم ، نعم ، كان يجب علىّ . . . ولكنها كانت قد تموت ! ستنتحر ، انك لا تعرفها . . . و . . . على كل حال كنت سأقص كل شىء بعد ذلك على آجلايا ايفانوفنا ، و . . اسمع يفغينى يافلوفتش : يلوح لى أنك لست على علم بكل شىء . هلاّ قلت لى لماذا لا يبيحون لى الاقتراب

من آجلايا ؟ لو سمحوا لى أن أفعل ، لشرحت لها كل شىء . اعلم هذه الحقيقة : هما كلتاهما لم تتكلما عندئذ عما كان ينبغى الكلام عليه ، وذلك هو السبب فى أن الأمور جرت بينهما هذا المجرى . . . يستحيل علىّ استحالة مطلقة أن أشرح لك هذا شرحاً واضحاً ، ولكن قد أفلح فى شرحه لآجلايا . . . آه ، رباه ! رباه ! انك تكلمنى عن وجهها فى تلك اللحظة حين هربت . . . آه . . . يا رب ! اننى أتذكر كيف كان وجهها فى تلك اللحظة ! قم بنا ، قم بنا !

كان الأمير قد قام بغتة وهو يحاول أن يجر يفغينى يافلوفتش من كمه .

— الى أين ؟

— الى عند آجلايا ايفانوفنا . لنذهب اليها فوراً ! . .

— ولكننى قلت لك انها رحلت عن يافلوفسك .

ثم . . . ما الداعى ؟

دمدم الأمير يقول ضاماً يديه بحركة التوسل والضراعة :

— انها سوف تفهم ، سوف تفهم ! سوف تفهم أن الأمر ليس **هذا** بل هو شىء آخر تماماً !

— كيف يكون شيئاً آخر تماماً ؟ انك سوف تتزوج مع ذلك ! ما تزال اذن تعاند . . . هل ستزوج أم لا ؟

— بلى . . . سأتزوج . . . سأتزوج !

— فكيف تقول اذن ان الأمر ليس هذا ؟

— لا ، ليس الأمر هذا ، ليس الأمر هذا ! ليس هاماً أن أتزوج . . . ما زواجى بشىء !

— كيف يمكنك أن تقول ان زواجك ليس هاماً ؟

ما زواجك مزاحة على كل حال ! انك تتزوج امرأة تحبها ، من أجل أن تحقق سعادتها . وآجلايا ايفانوفنا ترى هذا وتعرفه . أهذا أمر لا قيمة له ولا شأن ؟

— سعادتها ؟ لا ، لا . اننى أتزوج هكذا ، هى تريد أن أتزوجها . وما قيمة أن أتزوج ؟ اننى . . . هذا كله لا شأن له ! لو فعلت غير ما فعلت لماتت حتما . اننى أرى الآن أن فكرة زواجها بروغوجين كانت جنوناً ! الآن فهمت ما لم أكن أفهمه من قبل . اسمع ما سأقوله لك : اننى حين اشتجرتا لم أستطع أن أتحمل رؤية وجه ناستاسيا فيليبوفنا . . . (ثم أضاف الأمير قائلاً وهو يخفض صوته كأنه يفضى بسر) — أنت لا تعلم يا يفغينى بافلوفتش ، اننى لم أقل هذا لأحد فى يوم من الأيام ، أبداً ، أبداً ، لم أقله حتى لآجلايا . . ولكن الحقيقة هى أننى لم أطق أن أتحمل رؤية وجه ناستاسيا فيليبوفنا . . . انك منذ قليل قد أجدت وصف السهرة التى تمت فى بيتها . غير أن هناك أمراً تفصيلياً غاب عنك لأنك كنت تجهله : هو أننى نظرت الى وجهها ! وقبل ذلك ، فى الصباح ، حين رأيت صورتها لم أستطع أيضاً أن أحتمل تعبير هذا الوجه . . . انظر الى وجه فيرا ، بنت ليبيديف : ان لها عينين مختلفتين عن عينى ناستاسيا فيليبوفنا كل الاختلاف . اننى . . . اننى أخاف من وجهها !

أضاف الأمير هذه الجملة الأخيرة بلهجة تدل على أكبر الرعب .

— تخاف من وجهها ؟

فأجاب الأمير قائلاً بهمس وقد امتقع لونه :

— نعم . انها مجنونة !

فسأله يفغينى بافلوفتش وقد لاح فى وجهه فضول شديد :

— أأنت متأكد من هذا ؟

— نعم ، متأكد . الآن أنا متأكد . لقد اقتنعت بهذا اقتناعاً راسخاً فى هذه الأيام الأخيرة .

فصاح يفغينى بافلوفتش يقول مرتاعاً :

— فماذا تفعل اذن أيها الشقى ؟ أأنت تتزوج اذن بتأثير نوع من الخوف ؟ ذلك أمر لا يفهم المرء منه شيئاً . . . وربما كنت لا تحبها ايضاً ؟

— بلى بلى ! اننى أحبها بكل نفسى ! انها . . . انها طفلة . هى الآن أشبه بطفلة تماماً ! آه . . انك لا تعلم شيئاً !

— وفى الوقت نفسه أكدت لآجلايا ايفانوفنا حبك ؟

— نعم . . . نعم !

— كيف تفسر هذا ؟ أترغب اذن أن تحبهما كلتيهما فى آن واحد ؟

— نعم . . . نعم !

— فكّر فيما تقول يا أمير !

— بدون آجلايا سوف . . . يجب أن أراها حتماً ! سوف يوافينى الموت وأنا نائم بعد حين . لقد ظننت أننى سأموت هذه الليلة أثناء النوم . آه . . . ليت آجلايا تعلم ، ليتها تعلم كل شىء . . . أقصد أن تعلم كل شىء تماماً . ذلك أن الأمر الأساسى هنا هو أن يعرف المرء كل شىء ! لماذا لم يكتب لنا قط أن نعلم **كل شىء** عن شخص اخر

— اسمع . سأكتب رسالةً تحملها أنت اليها !

— لا يا أمير ، لا ! اعفنى من مثل هذه المهمات . لا أستطيع !

وافترقا . مضى يفغينى بافلوفتش وهو يحمل احساساً غريباً . لقد وصل الى اقتناع راسخ بأن الأمير مختل العقل قليلاً . وما معنى هذا **الوجه** الذى يخشاه كل هذه الخشية ويحبه كل هذا الحب ؟ وليس مستحيلاً فى الوقت نفسه أن يموت لفراق آجلايا فعلاً ، فلا تعرف الفتاة مدى ما كان يحمله لها من حب ! هأ هأ ! . . وكيف يمكنه أن يحب امرأتين ؟ وأن يحب كلاً منهما حباً يختلف عن حبه للأخرى ؟ ذلك هو الشىء الطريف . . . يا للأبله المسكين ! ما عسى يصير اليه الآن ؟

حين يكون هذا لازماً ، حين يكون هذا الشخص الآخر قد ارتكب ذنباً ! . . على كل حال ، أصبحت لا أعرف ماذا أقول ، لقد اختلطت فى عقلى الأمور . انك ألقيتنى فى اضطراب رهيب . . . هل يمكن أن تكون محتفظةً الى الآن بذلك التعبير الذى رأيته فى وجهها حين هربت ؟ آه . . . نعم . . . أنا آثم ! الأرجح أننى السبب فى كل شىء ! اننى لا أعرف ماذا كان ذنبى على وجه التحديد ، ولكننى مذنب . . . هناك شىء لن أستطيع أن أشرحه لك يا يفغينى بافلوفتش ، لأننى لا أملك الألفاظ التى يمكن أن تعبر عنه . ولكن . . . آجلايا ايفانوفنا ستفهم ! نعم ، لقد قدّرتُ دائماً أنها سوف تفهم .

— لا يا أمير ، لن تفهم ! ان آجلايا ايفانوفنا قد أحبتك حباً انسانياً ، كما تحب امرأة لا كما يحب . . . روح صرف . هل تريد أن أقول لك يا أميرى المسكين : أغلب الظن أنك ما أحببت واحدة منهما أبداً لا الأولى ولا الثانية !

— لا أدرى . . . جائز . . . جائز . . . انك على حق فى نقاط كثيرة يا يفغينى بافلوفتش . انك ذكى ذكاء متفوقاً يا يفغينى بافلوفتش . آه . . . هذا رأسى قد عاوده الصداع . لنذهب اليها ! ناشدتك اللّه . . . ناشدتك اللّه !

— ولكننى قلت لك انها غادرت بافلوفسك ، هى الآن فى كولمينو .

— فلنذهب الى كولمينو . لنسافر حالاً !

— مستحيل !

كذلك قال يفغينى بافلوفتش بصوت ممطوط . ونهض .

الفصل العاشر

مع ذلك لم يمت الأمير قبل زواجه لا فى حالة اليقظة ولا «اثناء النوم» كما تنبأ بذلك ليفغينى بافلوفتش . لعله كان ينام نوماً غير هادئ ولعله كان يرى أحلاماً سيئة . ولكنه اثناء النهار ، فى معاشرة الناس ، كان يبدو حسن الصحة بل وراضى النفس . واذا بدا فى وجهه كثير من الاستغراق أحياناً فان ذلك يحدث له حين يكون وحيداً . لقد أُستعجلت اعدادات الزواج الذى كان سيتم بعد زيارة يفغينى بافلوفتش بحوالى أسبوع . فكان يستحيل على اصدقاء الأمير الخلَّص ، اذا كان له اصدقاء خلَّص ، كان يستحيل عليهم وهم يرون ذلك الاستعجال كله الا أن يعدلوا عن الأمل فى أن تصل جهودهم الى «انقاذ» المخبول المسكين . وسرت شائعة تقول ان زيارة يفغينى بافلوفتش انما تمت بايحاء من الجنرال ايفان فيدوروفتش وزوجته اليزافيتا بروكوفيفنا . ولكن لئن دفعهما فرطُ طيبتهما كليهما الى أن يتمنيا «انقاذ» المختل المأسوف عليه من الوهدة التى وقع فيها ، فلقد اضطرا أن يقتصرا على تلك المحاولة الوحيدة الوجلة ، فلا وضعهما ولا عواطفهما ، فى أغلب الظن (وذلك أمر طبيعى) ، تسمح لهما بأن يبذلا جهوداً أكبر . وقد سبق أن قلنا ان المحيطين بالأمير عارضوه هم أنفسهم . واكتفت فيرا ليبيديفا بأن تسكب الدموع حين تخلو الى نفسها . ثم انها كانت تمكث فى البيت أكثر الوقت ، فقلَّت زياراتها للأمير . وفى تلك الاثناء كان كوليا يقوم باعداد جناز أبيه . لقد مات العجوز بنوبة جديدة وافته بعد النوبة الأولى بنحو ثمانية

أيام . وشارك الأمير مشاركة كبيرة فى حداد الأسرة . فقضى فى الأيام الأولى ساعات كاملة قرب نينا ألكسندروفنا . وسار فى الجنازة وشهد الدفن وحضر القداس الذى أقيم على روح الفقيد فى الكنيسة . وقد لاحظ أشخاص كثيرون أن وصوله الى الكنيسة وانصرافه منها قد أثارا همساتٍ تبادلها الناس فى الحفل على غير ارادة منهم ، وحدث مثلُ هذا فى الشارع وفى الحديقة العامة . فكان الناس ، اذا مرَّ الأمير سائراً على قدميه أو راكبا عربة ، تنتعش الأحاديث بينهم ويدل بعضهم بعضاً عليه ، وينطقون اسمه وينطقون اسم ناستاسيا فيليبوفنا . وقد بحثوا عن ناستاسيا فيليبوفنا فى جنازة الجنرال ، لكنها لم تحضرها . ولم تشارك «أرملة الكابتن» فى الجنازة ، فقد استطاع ليبيديف ان يصدَّها عن الخروج من البيت . وأحدثت صلاة الجنازة فى نفس الأمير أثراً أليماً قوياً . فلما سأله ليبيديف عن شىء ما أجاب بصوت خافت انه لأول مرة يشهد دفناً على الطقوس الارثوذكسية ، باستثناء احتفال مماثل يذكر أنه رآه اثناء طفولته فى كنيسة قرية .

قال ليبيديف هامساً :

— كيف يصدق المرء أن الرجل الراقد فى هذا التابوت هو ذلك الرجل نفسه الذى انتخبناه رئيساً منذ مدة قصيرة ؟ هل تتذكر ؟ ولكن عمن تبحث ؟

— لا أبحث عن أحد ، ولكن خيِّل الىَّ اننى . . .

— أتراك تبحث عن روغوجين ؟

— أهو هنا ؟

— هو فى الكنيسة .

— خيِّل الىَّ فعلاً أننى رأيت عينيه ، ولكن كيف . . . ماذا جاء به الى هنا ؟ هل دعوه ؟

كذلك سأل الأمير مدمدماً وقد لاح الاضطراب فى وجهه . فأجابه ليبيديف :

— لم يخطر ببال أحد أن يدعوه . ثم ان الأسرة لا تعرفه . كل انسان يستطيع أن يدخل الكنيسة . لماذا دُهشت هذه الدهشة كلها ؟ اننى ألقاه فى هذه الأيام كثيراً . فى الأسبوع الماضى رأيته أربع مرات ، هنا فى بافلوفسك .

تمتم الأمير قائلاً :

— لم أره حتى الآن مرة واحدة . . . منذ ذلك اليوم .

واذ أن ناستاسيا فيليبوفنا لم تقل للأمير يوماً انها لقيت روغوجين «منذ ذلك اليوم» ، فقد استنتج الأمير من ذلك أن روغوجين قد غاب واختفى عامداً . وبدا الأمير مشغول البال غارقاً فى التفكير طوال ذلك النهار . ولا كذلك ناستاسيا فيليبوفنا فقد كانت مرحة مرحاً غير مألوف ، مرحاً امتدَّ طوال النهار والسهرة .

وكان كوليا قد تصالح مع الأمير قبل موت أبيه ، واقترح عليه أن يتخذ كلاً من كيللر وبوردوفسكى فتى شرف لحفلة الزفاف (فالأمر هام ومستعجل لا يحتمل أى تأخير) . فأما عن كيللر فقد ضمن كوليا حسن سلوكه وأضاف الى ذلك أنه ربما كان «مفيداً» . وأما عن بوردوفسكى فلا حاجة الى أى تزكية له ، لأنه رجل هادئ ومتواضع . وقد قام ليبيديف ونينا ألكسندروفنا بتنبيه الأمير الى أنه ، اذا كان قد عزم أمره على الزواج ، فبوسعه على الأقل أن لا يقيم الاحتفال

به هنا ببافلوفسك ، فى فصل الاصطياف وجهارا ، وسط الجمهور المتوافد الى هنا حسب الموضة . أليس الأفضل أن يتم الاحتفال بالزفاف فى بطرسبرج ، بل وفى البيت أيضاً ؟ ولم يفت الأمير أن يدرك السبب الذى يكمن وراء هذه المخاوف ، ولكنه اقتصر على أن أجابهما موجزاً بأن ناستاسيا فيليبوفنا ترغب فى اقامة الحفلة هنا قطعاً .

حين علم كيللر فى الغداة أنه اختير فتى شرف لحفلة الزفاف جاء يمثُل أمام الأمير . توقف أولاً فى العتبة ، فما ان أبصر الأمير حتى رفع يده اليمنى ونصب سبابته فى الهواء ، وهتف يقول بصوت من يحلف يميناً :

— لن أشرب قط !

ثم دنا من الأمير وشدّ على يديه كلتيهما وهو يهزهما هزاً قوياً ، وقال انه فى حقيقة الأمر قد غضب فى البداية حين علم بما حدث ، حتى لقد أعلن غضبه أثناء لعبة بلياردو ؛ ولكن هذا الغضب انما يرجع الى أن ما يحمله للأمير من صداقة تتصف بنفاد الصبر واستعجال الأمر كان يجعله يتمنى أن يرى الأمير يتزوج أميرة من أسرة دى روهان» . ولكنه أدرك الآن أن أفكار الأمير أنبل اثنتى عشرة مرةً على الأقل من أفكار جميع من يحيطون به «جملة واحدة» ! لأن ما يسعى اليه الأمير ليس هو الشهرة ولا هو الغنى حتى ولا هو المجد ، وانما هو الحقيقة ! ان ميول الشخصيات السامية معروفة ، وان للأمير من سمو ثقافته ما يجعله يستغنى عن السعى الى أن يكون شخصية سامية ، بوجه عام !

«ولكن الأوباش والأوغاد لهم رأى آخر . ففى المدينة ، فى البيوت ، فى الاجتماعات ، فى القيلات ، فى حفلات

الموسيقى ، فى الحانات ، فى صالات البلياردو ، لا يتكلم الناس ولا يثرثرون الا عن الحدث المقبل ، حتى لقد سمعت انهم يهيئون لك زيطة قبيحة تحت نوافذك ، وذلك فى الليلة الأولى ! فاذا كنت ، يا أمير فى حاجة الى مسدس رجل شريف فأنا مستعد لأن أبادل مبادلةً نبيلة نصف دستة من طلقات النار قبل أن تغادر مضجع عرسك فى صباح الغد» . حتى لقد نصح كيللر الأمير باعداد مضخة من مضخات اطفاء الحريق فى فناء البيت ، كتدبير وقائى ضدَّ الجمهور الفضولى عند العودة من الكنيسة . ولكن ليبيديف اعترض على هذا الاقتراح قائلاً : «سيهدَّم البيت من أساسه اذا استعملت هذه المضخة» .

قال كيللر :

— واللّه يا أمير أن ليبيديف هذا يدبر لك مؤامرات ! انهم يريدون أن يحجزوا عليك ويجعلوك تحت وصاية . هل تستطيع أن تتخيل هذا ؟ سوف يحرمونك من ممارسة حريتك واستعمال مالك ، أى من الشيئين الذين يميِّزاننا جميعاً عن الدواب ! لقد سمعت ذلك ، سمعته تماماً ! هذه هى الحقيقة خالصةً !

تذكر الأمير تذكراً غامضاً أنه سبق أن سمع شيئاً من هذا القبيل ، ولكنه لم يلق اليه بالاً بطبيعة الحال . ولم يزد الآن على أن ضحك لملاحظة كيللر ، ثم نسيها فوراً . وواقع الأمر أن ليبيديف كان يتحرك ويسعى هنا وهناك منذ مدة . ان خطط هذا الرجل تنشأ فى نفسه دائماً بنوع من الوحى والالهام ، ولكنها من فرط حرارته فى انفاذها كانت تتعقد وتتفرع وتبتعد عن الهدف الذى يكون قد رسمه

لنفسه فى البداية . لذلك لم ينجح فى حياته كثيراً . وقد جاء يندم للأمير فيما بعد ، يومَ الزواج تقريباً (لقد كان هوساً عنده أن يأتى الى من تآمر عليهم ، فيعبر لهم عن ندمه ، لا سيما حين تخفق مؤامراته) ، فأعلن له أولاً انه قد خُلق ليكون تاليران* ، ولكنه لتعثر حظه تعثراً لا يُفسَّر قد بقى ليبيديف لا أكثر ، ثم كشف له عن تفاصيل مكيدته التى أثارت اهتمام الأمير كثيراً . قال انه بدأ يبحث فى أول الأمر عن حُماة من الأوساط العليا يستند اليهم ويعتمد عليهم عند الحاجة ، فذهب لهذا الغرض الى الجنرال ايفان فيدوروفتش . فبدا على الجنرال الارتباك ، ثم قال له انه يتمنى «للشاب» الخير الكثير ، ولكنه «رغم رغبته فى انقاذه لا يستطيع أن يتدخل ، لأن الأعراف لا تسمح له بذلك» . ولم تشأ اليزافيتا بروكوفيفنا أن تراه ولا أن تسمع عنه . أما يفغينى بافلوفتش والأمير «ش» فقد رفضا هما أيضاً . ولكنه ، هو ليبيديف ، لم يفقد شجاعته ولا خارت عزيمته : كان قد استشار رجلاً خبيراً من رجال القانون هو شيخ محترم كان صديقاً حميماً له ، بل وكان يدين له ببعض المنة . فانتهى رجل القانون هذا الى أن الحجز على الأمير ممكن تماماً ، بشرط أن يشهد شهود اكفاء بأن عقله مختل ، وأن جنونه كامل ؛ والمهم على كل حال أن يكون هنالك أشخاص من أصحاب النفوذ يمكن الاتكال على حمايتهم . ولم يفقد ليبيديف صبره ، حتى لقد جاء الى بيت الأمير فى ذات يوم بطبيب . كان الطبيب هو أيضاً شيخاً محترماً يصطاف فى بافلوفسك ، ويحمل وسام القديسة آنا . لقد جاء به تحت ستار أنه يريد أن يريه منزله ، متفقاً معه على

أن يدرس حالة الأمير وأن يطلعه على النتائج التى يصل اليها لا بصفة رسمية بل بصفة ودية مؤقتاً . لقد تذكر الأمير زيارة الطبيب تلك . تذكر أن ليبيديف قد ألحَّ عليه بالأمس ليقنعه بأنه مريض ، فبعد أن رفض الأمير رفضاً قاطعاً أن يستعين بالطب ، رأى ليبيديف يدخل عليه بصحبة طبيب ، مدعياً أنهما قادمان من عند السيد تيرينتيف الذى ساءت حالته كثيراً ، وأن الطبيب يريد أن يقول للأمير شيئاً فى موضوع المريض . وقد أثنى الأمير على ليبيديف ، واستقبل الطبيب استقبالاً يبلغ غاية المودة والبشاشة . وسرعان ما أخذوا يتكلمون عن ايبوليت . فطلب اليه الطبيب أن يقص عليه مشهد الانتحار تفصيلاً . فتكلم الأمير ففتن الطبيبَ بوصفه للحادث وتأويله اياه . ثم دار الحديث على طقس بطرسبرج ، ومرض الأمير ، وسويسرا ، وشنايدر . فبلغ الطبيب من شغفه بما ذكر الأمير عن طريقة شنايدر فى المعالجة أنه بقى معه قرابة ساعتين ، مدخناً اثناء ذلك لفائف سيجار الأمير الممتازة ، ومحتسياً ما قدمه اليه ليبيديف من شراب طيب جاءت به فيرا . ولم يفت الطبيبَ فى هذه المناسبة ، رغم أنه متزوج وربّ أسرة ، ان يغدق الثناء على فيرا اغداقاً بلغ من الجرأة أن الفتاة استاءت استياء عميقاً . وافترق الطبيب والأمير صديقين . قال الطبيب لليبيديف وهو يخرج من عند الأمير أنه اذا وُضع تحت وصاية أناس كالأمير فمن هم الذين يمكن جعلهم أوصياء ؟ فلما عرض له ليبيديف جانب المأساة فى الحادث الذى يوشك أن يقع ، هزَّ الطبيب رأسه بمكر وخبث ، وقال أخيراً أنه فضلاً عن أنه «لا يهم مَنْ يتزوج مَنْ» فان «المرأة الفاتنة التى تتحدث

عنها ليست جميلة جمالاً لا يضارع فحسب — وذلك وحده سبب كاف لأن يدير رأس رجل غنى — وانما هى تملك عدا ذلك ، فيما سمعت ، أموالاً طائلة آلت اليها من توتسكى وروغوجين ، وتملك عقود لؤلؤ ، وجواهر ماس ، وشالات ثمينة ورياشاً فاخرة . وهذا كله يشهد بأن الأمير العزيز ، اذ يختارها ، ليس رجلاً ضعيف العقل غريب الأطوار بل هو على عكس ذلك فتى حصيف الرأى ، له ذكاء رجلٍ من أبناء المجتمع الراقى ، يعرف مصلحته ويجيد الحساب ، الأمر الذى يفضى الى استنتاج معاكس هو فى صالح الأمير تماماً» . . . وقد أحدثت هذه النتيجة فى ليبيديف تأثيراً قوياً . وها هو ذا الآن يختم اعترافه للأمير قائلاً : «لن تجدنى بعد الآن الا رجلاً مخلصاً لك ، متفانياً فى سبيلك ، مستعداً لأن يسفح دمه من أجلك . فلكى أقول لك هذا الكلام انما جئت اليك» .

وكان الأمير خلال هذه الأيام الأخيرة مشغولاً كذلك بايبوليت . كان ايبوليت يستدعيه كثيراً . ان أسرة ايبوليت كانت تسكن فى بُيت صغير غير بعيد من بيته . فالأولاد (أى أخو ايبوليت وأخته) يتمتعون هنا بلذة الحياة فى الريف ، وفى وسعهم أن يهربوا من المريض بالنزول الى الحديقة على الأقل . ولا كذلك «أرملة الكابتن» المسكينة ، فلقد كانت أسيرة ارادته وضحية عسفه وطغيانه . فكان الأمير يقضى وقته فى التوفيق بينهما وردّ الصلح الى علاقاتهما . وقد استمر المريض يلقب الأمير بـ«المربية» ، مع عجزه عن منع نفسه من احتقاره لقيامه بدور الوسيط المصالح . وكان غاضباً على كوليا غضباً شديداً ، لأن كوليا انقطع

عن زيارته انقطاعاً يكاد يكون تاماً ، لملازمته أباه حين كان على فراش الموت أولاً ، ولملازمته أمه الأرملة بعد ذلك . وقد أخذ ايبوليت يصب سخرياته أخيراً على زواج الأمير وناستاسيا فيليبوفنا فى القريب ووصل به الأمر الى أن أهان الأمير . فضاق صبر الأمير أخيراً وانقطع عن زيارته . وبعد ذلك بيومين جاءت «أرملة الكابتن» فى الصباح المبكّر ممتلئة العينين بالدموع ، جاءت ترجو الأمير أن يأتى اليهم ، والا فان **الآخر** سيشرب دمها . وأضافت أن ايبوليت يرغب فى أن يكشف له عن سر كبير . فأذعن الأمير . فأعرب له ايبوليت عن رغبته فى أن يتصالحا ، حتى لقد أجهش باكياً . ولكن ما ان جفت دموعه حتى عاد أشد شراسة مما كان ، دون أن يرخى العنان لغضبه مع ذلك . كانت صحته سيئة جداً ، وكان كل شىء يدل على أنه لن يلبث أن يموت . ولم يكن لديه أى سر يكشف عنه عدا طلبات ماسة لفظها لاهثاً بانفعال (لعله كان مصطنعاً) «بالحذر من روغوجين» . «هذا رجل لا يتخلى عمّا يملك . انه ليس من طينتنا نحن يا أمير . اذا أراد شيئاً فليس يزعه وازع ولا يردعه رادع . . .» والخ ، والخ . أخذ الأمير يلقى عليه أسئلة مفصّلة ليستخرج منه وقائع محدّدة . ولكن ايبوليت لم يذكر أية وقائع غير احساساته أو انطباعاته الشخصية . وقد أرضاه كثيراً فى النهاية أن ألقى فى نفس الأمير رعباً شديداً . كان الأمير فى البداية يتحاشى الاجابة عن بعض الأسئلة الخاصة التى يلقيها عليه ايبوليت ، وكان يقتصر على الابتسام حين يسدى اليه ايبوليت نصائح كهذه النصائح : «اهرب ولو الى الخارج . سوف تجد فى كل مكان كهنة

روس . فى وسعك أن تتزوج هناك أيضاً» . ولكن ايبوليت خلص بعد برهة الى هذه الفكرة : «الحق أننى أخشى على آجلايا ايفانوفنا وحدها . ان روغوجين يعرف مدى ما تحمل لها من حب . والحب بالحب . لقد انتزعتَ منه ناستاسيا فيليبوفنا فسيقتل هو آجلايا ايفانوفنا . ورغم أن آجلايا ايفانوفنا لن تمت اليك بسبب بعد اليوم ، فسوف يؤلمك مقتلها كثيراً ، أليس كذلك ؟» حقق ايبوليت هدفه : لقد خرج الأمير من عنده مضطرباً أشد الاضطراب .

هذه التحذيرات عن روغوجين حدثت عشية الزواج . وفى ذلك المساء لقى الأمير ناستاسيا فيليبوفنا آخر لقاء قبل حفلة الزفاف ولكن ناستاسيا فيليبوفنا أصبحت لم تستطع أن تهدئه . انها فى هذه الآونة الأخيرة لا تفلح الا فى مفاقمة اضطرابه . كانت قبل ذلك ببضعة أيام ، أثناء خلوة بينهما ، قد روّعها ما رأته فى وجهه من حزن . فبذلت جميع ما تملك من جهود لتفرحه وتبهجه . حتى لقد حاولت أن تسرّى عنه بالغناء . كانت فى أكثر الأحيان تبحث فى ذاكرتها عما يمكن أن يسليّه . وكان الأمير يتظاهر فى جميع الأوقات تقريباً بأنه يبتهج كثيراً . حتى انه كان يندفع أحياناً فى ضحك صادق تجره اليه قوة الفكاهة وحلاوة النكتة لدى المرأة الشابة حين تقص ما تقصه متوقدة القريحة ، وذلك ما يحدث كثيراً . فكانت اذا رأت ضحكه تُسرّ سروراً عظيماً وتشعر بافتخار واعتزاز بنفسها لأنها استطاعت أن تحدث فيه أثراً طيباً . ولكنها تصبح الآن أشد حزناً وأكثر هماً ، ساعة بعد ساعة . وكان الأمير قد كوّن لنفسه رأياً نهائياً فيها ، فلولا ذلك لبدا له كل شىء فيها اليوم

لغزاً لا سبيل الى فهمه قطعاً . ولكنه ظل مقتنعاً اقتناعاً صادقاً بأنها قد تبعث بعثاً جديداً . لقد كان على حق حين قال ليفغينى بافلوفتش انه يحبها حباً صادقاً عميقاً . والواقع أن حبه هذا كان يشتمل على شىء من اندفاعة الحنان التى يشعر بها المرء نحو طفل ضعيف هزيل مريض يصعب بل يستحيل تركه وشأنه . ولم يشرح الأمير لأحد عواطفه نحوها ، وكان يكره أن يتكلم فى هذا الموضوع حين يستحيل تحاشيه . وكانا اذا خلا أحدهما الى الآخر لا يتكلمان فى «العواطف» ، فكأنهما قد تعاهدا على ذلك ؛ وكان جميع الناس يستطيعون أن يشاركوا فيما يجرى بينهما من حديث هو فى العادة مرح زاخر بالنشاط . لقد روت داريا ألكسيفنا فيما بعد أنها لم تشعر وهى تراهما خلال تلك الأيام الا بالمسرة والفرح والافتنان .

وكان الرأى الذى قام فى ذهن الأمير عن الحالة النفسية والعقلية لناستاسيا فيليبوفنا ، يعفى فكره من كثير من أنواع الحيرة الى حد ما . انها الآن امرأة مختلفة كل الاختلاف عن التى عرفها منذ نحو ثلاثة أشهر . أصبح لا يدهشه أن يراها تلح على استعجال الزفاف بعد أن رفضت فى الماضى فكرة الزواج باكية لاعنةً شاكية لائمة . انه يقول لنفسه : «اذن لقد أصبحت لا تخشى أن تسبب لى الشقاء بالزواج كما كانت تخشى ذلك فى الماضى» . فكانت هذه السرعة فى استرداد ثقتها بنفسها تبدو له غير طبيعية . لم يكن من الممكن أن تنشأ هذه الثقة من الكره لآجلايا فحسب ، لأن ناستاسيا فيليبوفنا قادرة على الشعور بعواطف أعمق ؛ لعلها قد نشأت خشية من مصيرها مع روغوجين ؟ صحيح

أن أمثال هذه العوامل وغيرها يمكن أن يكون لها أثر ووزن ؛ ولكن الأمير يرى أن السبب الأوضح فى هذا الانقلاب الذى حدث لناستاسيا فيليبوفنا انما هو السبب الذى اشتبه فيه منذ مدة طويلة : وهو أن هذه النفس المسكينة المريضة لم تستطع أن تتحمل المحنة . ورغم أن هذا التفسير قد أعفى الأمير من كثير من أنواع الحيرة ، ولو الى حد ما ، فانه لم يوفر له أثناء ذلك الوقت كله شيئاً من راحة أو هدوء . وكان فى بعض الأحيان يحاول أن لا يفكر فى شىء . أما الزواج فكان يبدو فعلاً أن الأمير يقبل عليه اقباله على أمر شكلى لا قيمة له . لقد كان يستخف بمصيره الشخصى . وأما الاعتراضات والمناقشات التى تشبه تلك التى أثارها يفغينى بافلوفتش ، فما كان فى وسع الأمير أن يجد لها أى جواب ، لأنه كان يشعر بأنه عاجز فى هذا المضمار كل العجز ، لذلك كان يتحاشى أى حديث من هذا النوع .

ثم انه قد لاحظ أن ناستاسيا فيليبوفنا كانت تعرف حق المعرفة وتدرك كل الادراك مكانة آجلايا فى نفسه . انها لا تتكلم فى هذا الأمر ، لكنه قد قرأ فى «وجهها» حين باغتته أحياناً (فى الأيام الأولى) وهو يتهيأ للذهاب الى آل ايبانتشين . وحين سافرت أسرة ايبانتشين صفا مزاجها وأشرق محيّاها . انه مهما يكن ضعيف الملاحظة قليل الحدس ، قد خطر بباله أن ناستاسيا فيليبوفنا ربما قررت أن تعمد الى القيام بفضيحة بغية أن تحمل آجلايا على ترك بافلوفسك ، فأقلقته هذه الفكرة . ولا شك فى أن الشائعات التى سرت فى الفيللات عن الزواج قد ساهمت ناستاسيا فيليبوفنا فى ترويجها من أجل أن تحنق غريمتها .

واذ كان من الصعب لقاء آل ايبانتشين فقد أركبت الأمير فى عربتها ذات يوم ، وأمرت الحوذى بأن يمرّ بهما تحت نوافذ بيتهم . فكان هذا مفاجأة للأمير رهيبة . لقد أحس ذلك بعد فوات الأوان ، كالعادة ، أى حين كانت المركبة تمرّ بالمنزل . ولم يقل شيئاً ، ولكنه بعد ذلك الحادث لبث مريضاً يومين ، وقد حاذرت ناستاسيا فيليبوفنا أن يكرر التجربة . وخلال الأيام التى سبقت الزواج أصبحت كثيرة الوجوم والتفكير . صحيح أنها كانت تفلح دائماً فى نفض حزنها واسترداد مرحها ، لكن هذا المرح غدا أكثر رصانة وأقل تعبيراً عن نفسه وأضأل اشعاعاً واشراقاً . وضاعف الأمير اهتمامه بها ورعايته لها . وقد حيّره أنه أصبح لا يسمعها تأتى على ذكر روغوجين فى لحظة من اللحظات . مرةً واحدة ، قبل الزواج بنحو خمسة أيام ، أرسلت اليه داريا ألكسيفنا من يقول له أن يأتى فوراً لأن حالة ناستاسيا فيليبوفنا سيئة جداً . فلما وصل وجدها فى حالة تشبه الجنون : كانت تصرخ وترتجف وتصيح قائلة ان روغوجين مختبـــئ فى الحديقة المجاورة للفيللا ، وانها رأته منذ هنيهة ، وانه سيقتلها فى الليل . . . سيقتلها بالسكين ! ثم لم تسترد هدؤها طوال النهار . ولكن الأمير علم من «أرملة الكابتن» التى كانت عائدة من بطرسبرج بعد أن قامت فيها ببعض الأعمال الصغيرة ، علم منها فى نفس المساء حين مضى يزور ايبوليت لحظةً ، أن روغوجين قد زارها اليوم ببطرسبرج وسألها عن بافلوفسك . فلما سألها عن الوقت الذى زارها فيه روغوجين حددت له ساعةً هى على وجه التقريب الساعة التى خيّل لناستاسيا فيليبوفنا فيها أنها ترى روغوجين فى الحديقة .

فما من شك اذن فى أنها رأت سراباً لا أكثر . ذهبت ناستاسيا فيليبوفنا بنفسها الى «أرملة الكابتن» لتسألها مزيداً من التفاصيل ، فاطمأنت تماماً .

فى عشية يوم الزواج ترك الأمير ناستاسيا فيليبوفنا وهى على أحسن حال من الحماسة الشديدة : كانت قد تلقت من خياطتها ببطرسبرج ما ستتزين به غداً فى حفلة الزفاف ، وهو ثوب العرس ، وطرحة الرأس وما الى ذلك . لم يكن الأمير يتوقع أن يراها تتحمس لزينتها هذا التحمس كله . وقد أطرى كل ما اشتملت عليه هذه الزينة ، فازدادت سعادتها من جراء اطرائه . لكنها صرّحت بما فى نفسها : كانت قد سمعت أن سكان بافلوفسك مستاؤون وأن عدداً من الخليعين يهيئون لها زيطةً تصاحبها موسيقى مع سماع قصيدة من الشعر نُظمت لهذه المناسبة . وكانت هذه الاعدادات كلها قد أيدها باقى الناس وحبّذوها . ومن أجل هذا بعينه انما كانت تريد أن ترفع رأسها وأن تبهر الملأ كافة بما فى زينتها من ذوق وأبهة وفخامة . «فليصرخوا ، وليصفروا ، اذا تجرأوا !» كانت عيناها تقدح شرراً من مجرد خطور هذه الفكرة ببالها . وكانت عدا ذلك تمنى نفسها بأملٍ تتحاشى أن تفصح عنه . كانت تتصور أن آجلايا ، أو شخصاً ترسله آجلايا ، سيكون مع الحفل فى الكنيسة متخفياً يفحصها . ومن ثم كانت تتأهب ذلك التأهب كله . تلكم هى الخواطر التى كانت تملأ رأسها فى الساعة الحادية عشرة من المساء ، حين تركها الأمير . ولكن لم تكن الساعة قد بلغت الثانية عشرة حين هرع من عند داريا ألكسيفنا من يدعو الأمير أن يجىء «بأقصى سرعة لأن الحالة سيئة

جداً . فوجد الأمير خطيبته غارقة فى دموعها . كانت قد أوصدت على نفسها الباب ، واستولى عليها يأس شديد واعترتها نوبة عصبية قوية . حتى لقد لبثت مدة طويلة لا تسمع شيئاً مما كان يقال لها من خلال الباب الموصد . وفتحت أخيراً ، ولم تدع لأحد غير الأمير أن يدخل ، وأسرعت تغلق الباب ثانية على الفور ، ثم سقطت جاثية على ركبتيها أمام الأمير . (تلكم هى على الأقل الرواية التى أوردتها فيما بعد داريا ألكسيفنا التى استطاعت أن تلمح جزءاً من المشهد) .

كانت ناستاسيا فيليبوفنا تصيح قائلة وهى تعانق قدميه فى تشنج :

ماذا أصنع ؟ ماذا أصنع ؟ ما هذا الذى أصنعه بك ؟

بقى الأمير الى جانبها ساعةً كاملة . اننا نجهل ما تبادلاه من كلام . ولكن داريا ألكسيفنا روت أنهما قد افترقا فى نهاية تلك الساعة هادئين سعيدين ، وأن الأمير أرسل من يسأل عن أنباء خطيبته مرة أخرى فى الليل ، غير أن ناستاسيا فيليبوفنا كانت قد نامت . وفى الصباح ، قبل أن تستيقظ ، جاء الى داريا ألكسيفنا من عند الأمير رسولان آخران . وأعقبهما ثالث كلّف بأن ينقل الى الأمير ما يلى : «ان ناستاسيا فيليبوفنا محاطة الآن بحشد من الخياطات والمزينين وفدوا من بطرسبرج خصيصاً ، وان ما حدث فى الليلة البارحة فلم يعد له أثر ، وانها مشغولة بزينتها كما تشغل بزينتها لزواجها امرأة جميلة هذا الجمال ، وانها فى هذه اللحظة بعينها عاقدة اجتماعاً للتشاور فيما يجب أن تختاره لزينتها

من جواهر الماس ، وفيما يجب أن تتبعه من أسلوب فى تصفيف هذه الجواهر عليها وترتيبها» . فاطمأن الأمير كل الاطمئنان .

ان كل ما سيلى سرده من تتمة قصة الزواج هذه انما نقله أشخاص مطلعون . ويبدو أن ما ذكروه صحيح . قالوا :

كان يجب أن يتم الزفاف فى الساعة الثامنة من المساء . وقد أكملت ناستاسيا فيليبوفنا استعدادها منذ الساعة السابعة . وكانت أفواج من العاطلين المتسكعين قد أخذت تتجمع حول فيللا ليبيديف وخاصة قرب منزل داريا ألكسيفنا منذ الساعة السادسة . وحوالى الساعة السابعة أخذت تمتلئ الكنيسة ايضاً ، ان خشية شديدة على الأمير قد استولت على فيرا ليبيديفا وعلى كوليا . غير أن هناك أعمالاً كثيرة يجب أن ينجزاها فى البيت . فقد كُلّفا بترتيب شقة الأمير استعداداً للاستقبال والمأدبة ، رغم انه ليس مقرراً أن تقام حفلة بمعنى الكلمة بعد الاحتفال الدينى فى الكنيسة . كان ليبيديف قد دعا ، عدا الأشخاص ، الذين كان حضورهم الزواج أمراً لا بد منه ، كان قد دعا بتيتسين وزوجته ، وجانيا ، والطبيب الذى يحمل وسام القديسة آنا ، وداريا ألكسيفنا . وحين استغرب الأمير دعوة الطبيب فسأل ليبيديف عن السبب الذى حمله على دعوة «شخص متعرف عليه بالكاد» أجاب هذا معجباً بنفسه : «وسام فى العنق ، شخصية محترمة ، زينة للحفلة» ، فأضحك الأمير . وقد ارتدى كل من كيللر وبوردوفسكى رداء «فراك» ، فكان مظهرهما لائقاً جداً . ان كيللر وحده ما يزال يوقظ فى نفس الأمير والذين حوله شيئاً من الخشية

لما يتصف به مزاجه من حب للعراك ظاهر . وكان كيللر ينظر بكثير من العداء الى المتسكعين الذين كانوا يتجمعون حول المنزل . وأخيراً ، فى الساعة السابعة والنصف ، مضى الأمير فى عربة الى الكنيسة . يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أنه كان قد حرص على أن لا يهمل أية عادة أو عرف من المتواضع عليها . كان كل شىء يتم علانية ، جهاراً ، بصورة مكشوفة «كما ينبغى» . استطاع الأمير أن يشق لنفسه ممراً فى الجمهور المزدحم ، وسط وشوشات وهمسات وصيحات تعجب متكررة . كان يسير أمامه كيللر ، ملقياً نظرات تهديد على يمينه وعلى شماله . واختفى الأمير فى هيكل الكنيسة لفترة ، ومضى كيللر ليجىء بالعروس . فلما صار هذا أمام بيت داريا ألكسيفنا رأى جمهوراً أكثف مرتين أو ثلاثاً وربما أوقح ثلاثاً من الجمهور الذى كان يرابط حول فيللا الأمير . وحين صعد درجات المدخل سمع صيحات من نوع جعله لا يستطيع أن يكظم غيظه فأوشك أن يوجه الى الجمهور تقريعاً مناسباً ، لولا أن صدّه عن ذلك ، لحسن الحظ ، بوردوفسكى وداريا ألكسيفنا نفسها التى كانت قد هرعت تستقبله على درجات المدخل . أمسك به الاثنان واقتاداه الى داخل المنزل . وكان مهتاجاً اهتياجاً شديداً ، فاستعجل الذهاب ، فقامت ناستاسيا فيليبوفنا ، وألقت على المرآة نظرة أخيرة فلاحظت وقد تقصلت شفتاها فى «ضحكة» ، أنها كانت «شاحبة كميتة» كما ذكر كيللر فيما بعد . ثم انحنت أمام الأيقونة فى تقى وورع ، وخرجت فصارت على درجات المدخل . فحيّا الجمهور ظهورها بضـــوضاء . الحق أن ما سُمع فى أول الأمر كان ضحـــكـــاً وتصفيقاً

ساخراً وربما صفيراً . ولكن صيحات أخرى انطلقت بعد لحظة :

— ما أجملها امرأة !

— ما هى بالأولى ولا بالأخيرة !

— الزواج يستر كل شىء ، يا حمقى !

— هاتوا جمالاً كهذا الجمال ان استطعتم . مرحى !

بهذا الكلام الأخير كان يصيح القريبون منها .

وهتف موظف من موظفى المكاتب يقول :

— أميرة ! ألا اننى مستعد لأن أبيـــع نفـــسى فى سبيل أميرة كهذه الاميرة ! «ليلة معـــى ثمـــنها الحياة !» .

تقدمت ناستاسيا فيليبوفنا . كان وجهها شاحباً شحوباً رهيباً ، لكن عينيها السوداوين الواسعتين ترميان الفضوليين بنظرات محرقة كأنها الجمر . لم يستطع الجمهور أن يحتمل هذه النظرات . وحلّت محلّ الاستياء صيحات حماسة . وكان باب العربة مفتوحاً ، وكان كيللر مدّ ذراعه الى العروس ليساعدها فى الركوب ، فاذا بالعروس تطلق صرخةً على حين فجأة ، وتبارح درجات المدخل ، وتمضى تقتحم الجمهور قُدماً . تجمّد الموكب ذهولاً . وابتعد الناس من أمامها . وظهر روغوجين بغتةً على مسافة خمس خطوات أو ست من درجات المدخل . لقد لمحت ناستاسيا فيليبوفنا نظرته بين هذا الحشد الكبير كله . فركضت اليه كالمجنونة وأمسكت يديه وقالت له :

— أنقذنى ! خذنى ! خذنى الى حيث تشاء ! حالاً !

فاختطفها روغوجين حاملاً اياها بذراعيه تقريباً ، وطار بها نحو عربتها طيراناً ان صح التعبير . وفى مثل لمح البصر سرعةً ، أخرج من محفظته ورقة مائة روبل ومدّها الى الحوذى قائلاً له :

— الى المحطة ! فاذا وصلت قبل سفر القطار نقدتك مائة روبل أخرى !

وقفز الى العربة أثر ناستاسيا فيليبوفنا ، وأغلق بابها . وبدون أى تردد ، ضرب الحوذى الخيل بسوطه .

فيما بعد ، حين روى كيللر الحادث اعتذر عن أنه ذُهل عن نفسه وأمكن أن يؤخذ بغتة ، وقال : «لو أُمهلت ثانية واحدة ، لعدت الى صوابى ، ولما سمحت بأن يقع ما وقع !» وقد أوشك هو وبوردوفسكى أن يركبا عربةً أخرى كانت واقفة هناك ، ليندفعا فى ملاحقة الهاربين ، ولكنهما لم يلبثا أن عدلا عن ذلك ، بحجة أنه «قد فات الأوان ! ولا مجال لاعادتها بالقوة !»

قال بوردوفسكى يحسم الأمر مضطرباً كل الاضطراب :

— ثم أن الأمير لن يريد ذلك !

وصل روغوجين وناستاسيا فيليبوفنا الى المحطة فى الوقت المناسب . وبعد أن نزلا من العربة ، فى اللحظة التى همّا فيها أن يركبا القطار استوقف روغوجين بسرعة فتاة كانت مارّة وكانت تضع على رأسها منديلاً وترتدى خماراً قاتم اللون بالياً بعض البلى لكنه ما يزال لائقاً ، وقال لها وهو يمد اليها نقوداً :

— هاكى خمسين روبلاً لقاء خمارك !

وقبل أن تفيق من ذهولها وتفهم ماذا يُراد منها ،

كان قد دسّ المال فى يديها ونضا الخمار والمنديل عن كتفيها ورأسها وألقاهما على كتفى ناستاسيا فيليبوفنا ورأسها . كانت ثيابها الفخمة تلفت الأنظار وقد تسترعى انتباه الركاب فى العربة . ولم تفهم الفتاة السبب الذى حمل هذا الرجل على أن يشترى منها بهذا الثمن الباهظ خرقاً لا قيمة لها ، الا فيما بعد .

وصلت أنباء الحادثة الى الكنيسة بسرعة لا يصدقها العقل . فحين شق كيللر لنفسه ممراً الى الأمير استوقفه عدد كبير من الناس الذين لا يعرفهم البتة ، ليسألوه عما حدث . كانوا يتكلمون بصوت عال ، ويهزون رؤوسهم بل ويضحكون . ولم يشأ أحد أن يخرج من الكنيسة . كانوا جميعاً يريدون أن يروا كيف سيستقبل الخطيب النبأ . فشحب الأمير ، ولكنه استقبل النبأ بهدوء ، قائلاً بصوت لا يكاد يُسمع : «كنت خائفاً ، ولكننى لم أكن أتوقع هذا مع ذلك . . .» — ثم أضاف يقول بعد لحظة صمت : «على كل حال . . . فى مثل حالتها . . . هذا شىء طبيعى» . ان كيللر وصف هذه الخلاصة فيما بعد بأنها «فلسفة لا نظير لها» . غادر الأمير الكنيسة دون أن يخرج عن هدوئه ورباطة جأشه : ان كثيراً من الناس على الأقل قد لحظوا ذلك وعلقوا بعدئذ عليه . وكان يبدو على الأمير أنه يرغب رغبة قوية فى العودة الى بيته والخلو الى نفسه بأقصى سرعة ممكنة . ولكنه لم يُمكَّن من ذلك . ان بعضاً من المدعوين قد تبعوه الى غرفته ، فمن هؤلاء بتيتسين وجافريلا آرداليونوفتش والطبيب الذى نوى مثل غيره أن لا يذهب . يضاف الى ذلك أن المنزل كله قد هاجمه المتسكعون يريدون اقتحامه فعلاً .

ها هو ذا الأمير يسمع كيللر وليبيديف فى مناقشة حادة مع أشخاص مجهولين تماماً يريدون غزو الشرفة عنوة . ان هيئاتهم تدل على أنهم من الموظفين فى دوائر الدولة . اقترب الأمير وسأل عن الأمر ، ثم أبعد ليبيديف وكيللر برفق وأدب ، وتكلم بلهجة ملؤها الكياسة والتهذيب ، متجهاً الى سيدٍ من المتجمهرين سمين الجسم شائب الشعر كان قد صعد درجات سلّم المدخل على رأس مجموعة من الراغبين فى الدخول ، فرجاه أن يشرفه بزيارته . فخجل السيد ولكنه قبل الدعوة ، وجاء بعده ثان فثالث . وانفصل عن الجمهور سبعة أفراد آخرين أو ثمانية ، فدخلوا كذلك وهم يحاولون أن يصطنعوا هيئة عدم التحرج . ولم يقتد بهم الآخرون . وما لبث المتسكعون أن سمُعوا يلومون أولئك الدخلاء . قُدّمت للقادمين مقاعد يجلسون عليها ، وبدأ الحديث ، وصبّ الشاى . وحدث ذلك كله بتواضع ، ولكن بطريقة لائقة جداً ، فلم يملك هؤلاء الضيوف الطارئون الا أن يُدهشوا . وقد قامت محاولات عدة لجعل الحديث مرحاً ، ولتوجيهه نحو الموضوع «المنشود» ، وأُلقيت أسئلة فيها شىء من عدم التحفظ ، وقيلت ملاحظات فيها شىء من «خبث ومكر» ، فكان الأمير يجيب جميع الناس ببساطة وبشاشة ، وكانت أجوبته فى الوقت نفسه تشتمل على وقار وعلى ثقة بحسن نية ضيوفه فلم تلبث الأسئلة الناشزة أن أختفت من تلقاء ذاتها . وشيئاً فشيئاً أخذ الحديث يدور على أمور هامة . فها هو ذا سيد منهم ، ينتهز فرصة كلمة قيلت فيحلف فجأة باستياء شديد ، أنه لن يبيع أرضه مهما يحدث من أمر ، وأنه سيصبر وسيصمد الى النهاية ، وأن «كل استثمار

خير من أى مال» «ذلك هو مذهبى الاقتصادى يا سيدى العزيز ان شئت أن تعرفه» . واذ كان يخاطب بكلامه الأمير فقد أيده الأمير بحرارة ، دون أن يعبأ بليبيديف الذى كان يهمس فى أذنه أن هذا السيد لا يملك مالاً ولا عقاراً ، وأنه لم يملك أرضاً فى يوم من الأيام قط . انقضى ما يقرب من ساعة . كان الضيوف قد فرغوا من احتساء الشاى ، وصاروا يشعرون بحرج من البقاء مدةً اطول . وجّه الطبيب والرجل الشائب الى الأمير كلمات وداع مؤثرة . واستأذن الباقون بالانصراف وودعوه بحرارة وصخب ، وأعربوا له عن تمنيات وآراء من النوع التالى : «لا داعى للحزن ، عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، الخ الخ» . صحيح أنه وجد بينهم أناس تجرأوا فطلبوا شمبانيا ، ولكن ردّهم الى الصواب أولئك الذين كانوا أكبر سناً منهم . حتى اذا انصرف الجميع مال كيللر على ليبيديف وقال له : «لو تُرك الأمر لنا نحن ، أنا وأنت ، لصرخنا وشتمنا ، وخضنا معركة ، وجللنا أنفسنا بالخزى ، وجاءتنا الشرطة . أما هو فانه لم يلبث أن كسب أصدقاء جدداً ، ويا لهم من أصدقاء ! اننى أعرفهم !» فقال ليبيديف متنهداً وكان قد سكر : «أخفى عن الحكماء والفهماء وأعلن للأطفال» . ذلك قول أدركت منذ مدة طويلة أنه يصدق عليه ، ولكننى أضيف اليه الآن أن الله وجميع القديسين قد حموا الطفل نفسه وأنقذوه من الهوة !»

وفى نحو الساعة العاشرة والنصف تُرك الأمير ليخلو الى نفسه أخيراً . وكان يشعر بصداع . وانصرف كوليا آخر المنصرفين ، بعد أن ساعد الأمير فى تبديل ملابسه المنزلية بملابس العريس . وافترقا بوداع حار . لم يتلبث كوليا على

الحادث الذى وقع فى ذلك اليوم ، لكنه وعد بأن يعود فى ساعة مبكرة من صباح الغد . وقد أكد فيما بعد أن الأمير لم ينبئه بشىء حين ودعه ، واذن كان يخفى نياته حتى عنه . وما انقضت برهة قصيرة حتى كاد يخلو البيت خلواً تاماً : ذهب بوردوفسكى الى عند ايبوليت ، ومضى كيللر وليبيديف الى مكان ما . ولم يبق غيرُ فيرا ليبيديفا التى أخذت تعيد الى البيت ترتيبه المألوف . وقبل أن تنصرف ، مضت تنظر ماذا يفعل الأمير . فرأته جالساً الى مائدته ، مسنداً عليها كوعيه ، مخفياً رأسه بيديه . فاقتربت منه برفق ، ولمست كتفه . فنظر اليها مستغرباً ، ولم يستطع أن يجمع شتات ذكرياته الا بعد قرابة دقيقة . فلما ثاب الى نفسه وفهم كل شىء ، ظهر عليه انفعال مفاجئ حاد . ورجاها أخيراً ، بالحاح شديد ، أن تجئ فتقرع بابه صباحَ غد فى الساعة السابعة ، موعد أول قطار . فوعدته فيرا بأن تفعل . فاستحلفها عندئذ أن لا تكلم فى هذا الأمر أحداً ، فوعدته أيضاً . وأخيراً ، حين فتحت الباب وهمّت أن تنصرف ، احتجزها مرة ثالثة ، وتناول يديها فقبلهما ثم قبلها هى نفسها على جبينها وقال لها بلهجة «عجيبة» «الى الغد !» . ذلك هو على الأقل ما روته فيرا فيما بعد . وقد خرجت من عنده خائفة عليه خوفاً شديداً . ولكنها اطمأنت فى الغد بعض الاطمئنان حين جاءت تقرع بابه بعد السابعة قليلاً ، كما اتفقا على ذلك ، لتنبهه الى أن قطار بطرسبرج سيسافر بعد ربع ساعة ، فبدا لها حين فتح الباب أنه مرتاح بل وأنه يبتسم . انه لم يكد يخلع ثيابه

للنوم ، ربكنه نام مع ذلك . قال انه يقدِّر أن يعود فى هذا اليوم نفسه . ان كل شىء يحمل على الاعتقاد بأن فيرا هى الشخص الوحيد الذى رأى الأمير أن من الممكن ومن الضرورى أن يطلعه على أنه ينوى السفر الى المدينة .

الفصل الحادى عشر

بعد ساعة كان الأمير قد وصل الى بطرسبرج ؛ وبين الساعة التاسعة والساعة العاشرة كان يقرع جرس منزل روغوجين . لقد دخل من الباب الرئيسى ، وانقضت برهة طويلة قبل أن يجيبه أحد . وأخيراً شُقَّ باب شقة العجوز ، أم روغوجين ، وظهرت خادم مسنة مهيبة المظهر ، فقالت دون أن تفتح الباب فتحاً كاملاً :

— ليس بارفيون سيميونوفتش فى بيته . من ذا تريد ؟

— بارفيون سيميونوفتش .

— ليس فى البيت .

وتفرست الخادم فى الأمير باستطلاع غريب .

— هل تستطيعين أن تقولى لى على الأقل أهو قضى الليلة هنا أم لا ؟ و . . هل عاد أمس وحده ؟

ظلت الخادم تحدق اليه ، ولم تجب بشىء .

— ألم تكن معه هنا أمس . . . أمس مساءً . . . ناستاسيا فيليبوفنا ؟

— ولكن اسمح لى أن أسألك من أنت ؟

— الأمير ليف نيقولايفتش ميشكين . أعرف بارفيون ويعرفنى .

— ما هو فى البيت .

وخفضت الخادم عينيها .

— وناستاسيا فيليبوفنا ؟

— لا أدرى .

— انتظرى ! اسمعى ! متى يعود ؟

— لا أدرى أيضاً .

وأُغلق الباب .

قرر الأمير أن يرجع بعد ساعة . ألقى نظرة على فناء المنزل ، والتقى بالبواب .

— هل بارفيون سيميونوفتش فى بيته ؟

— نعم .

— فكيف قيل لى منذ لحظة انه غائب ؟

— قيل لك ذلك فى شقته ؟

— لا . ان خادمة أمه هى التى قالت لى ذلك . ولكننى قرعت باب بارفيون سيميونوفتش أيضاً فلم يفتح لى أحد .

قال البواب :

— جائز أن يكون قد خرج . فهو لا ينبئ أحداً بغيابه . حتى لقد يخرج بالمفتاح أحياناً ، فتبقى الشقة مغلقة ثلاثة أيام متتالية .

— أأنت واثق أنه عاد أمس الى بيته ؟

— نعم . يحدث أحياناً أن يدخل من السلم الكبير فلا أراه .

— هل كانت ناستاسيا فيليبوفنا أمس معه ؟

— لا أدرى . انها لا تجىء الا فى النادر القليل . فلو أنها جاءت لكان من الجائز أن نلاحظ ذلك .

خرج الأمير ، وراح يذرع الرصيف غارقاً فى التفكير . ان نوافذ شقة روغوجين مغلقة كلها ، وان نوافذ الشقة التى تشغلها أمه مفتوحة كلها تقريباً . النهار مضىء دافئ . عبر

الأمير الشارع ووقف على الرصيف المقابل ينظر الى النوافذ مرةً أخرى . لم تكن النوافذ مغلقةً فحسب ، بل كانت الستائر البيضاء مسدلةً جميعها تقريباً .

لبث هنالك قرابة دقيقة . شيء غريب : خيِّل اليه أنه يرى أسفل احدى الستائر يرتفع فيظهر وراءه وجه روغوجين ثم ما يلبث أن يغيب . انتظر الأمير قليلاً ، وهمَّ أن يصعد وأن يقرع جرس الباب من جديد ، لكنه عدل عن رأيه وقرر أن يعود بعد ساعة . «من يدرى ؟ لعل ذلك لم يكن الا وهماً . . .»

ان الأمر الأساسى فى نظره الآن هو أن يسرع الى حى اسماعيلوفسكى ، الى آخر عنوان لناستاسيا فيليبوفنا . انه يعلم أن ناستاسيا فيليبوفنا ، حين رجاها أن تترك بافلوفسك قبل ثلاثة أسابيع ، قد نزلت فى هذا الحى عند احدى صديقاتها ، وهى أرملة معلم مدرسة . ان هذه المرأة ربة أسرة محترمة ، تؤجر شقة مفروشة جميلة وتجنى من كرائها القسط الأكبر من رزقها . فمن الجائز أن تكون ناستاسيا فيليبوفنا حين عادت تقيم فى بافلوفسك قد احتفظت لنفسها بذلك المسكن . ومن الجائز خاصةً أن تكون قد قضت ليلتها فيها بعد أن صحبها روغوجين اليها يوم الأمس . ركب الأمير عربة . وحدث نفسه أثناء الطريق بأنه كان ينبغى له أن يبدأ تحرياته هناك ، لأن من المستحيل أن تكون قد ذهبت الى منزل روغوجين فى الليل رأساً . وتذكر عندئذ أن البواب قال انها لا تجىء الا فى القليل النادر . فاذا كانت فى الأوقات العادية لا تجىء الا نادراً ، فلماذا يجب أن تكون الآن عنده ؟ ولكن الأمير ، رغم جميع هذه

الاستدلالات المعزية المشجعة التى حاول بها أن يقوى نفسه ، قد وصل الى حى اسماعيلوفسكى وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة .

وهناك أذهله أن يعلم أن أرملة معلم المدرسة لم يبلغها شيء من أنباء ناستاسيا فيليبوفنا ، لا اليوم ولا أمس . أكثر من ذلك : لقد هرعت الأسرة كلها لتراه كأنه انسان عجيب ، فجميع الأولاد ، وهم بنات تقع أعمارهن بين السابعة والخامسة عشرة ، ولا يفصل بين واحدة وواحدة منهن فى العمر الا سنة واحدة قد جئن فى أثر أمهن وأحطن بالأمير ينظرن اليه فاغرات الأفواه من الدهشة . وبعدهن جاءت خالة نحيلة صفراء ، تضع على رأسها منديلاً أسود ، ثم جاءت جدة الأسرة وهى سيدة طاعنة فى السن جداً على عينيها نظارتان . ألحت أرملة معلم المدرسة على الأمير راجية منه أن يدخل وأن يجلس . ففعل . وأدرك فوراً أن جميع هؤلاء الأشخاص يعرفونه معرفة تامة ، ويعلمون أنه كان يجب أن يتزوج أمس . وأدرك أنهن يحترقن رغبة فى سؤاله عن ذلك الزواج ، وعن المعجزة التى وقعت فجعلته يجئ اليهن ليسألهن عن امرأة كان ينبغى فى هذه اللحظة أن تكون معه فى بافلوفسك ، ولكنهن يمتنعن عن سؤاله ذوقاً وأدباً . وقد أرضى شوقهن الى الاطلاع ببضع كلمات قالها لهن عن ذلك الزواج . فكان من شأن صيحات الدهشة والاستغراب والتعجب التى رحن يطلقنها أنه اضطر أن يروى لهن الخطوط الكبرى طبعاً من كل ما حدث . واستقر رأى هذا المجلس من السيدات المليئات بالحكمة والعاطفة على أن عليه ، مهما كلف الأمر وقبل كل شيء ، أن يذهب مرة

أخرى الى منزل روغوجين فما يزال يقرع الجرس حتى يفتح له فيحصل من روغوجين على جميع الايضاحات . فاذا كان روغوجين غائباً بالفعل (وهذا ما يجب التأكد منه) أو اذا هو رفض أن يتكلم ، كان على الأمير عندئذ أن يذهب الى حى سيميونوفسكى ، فيمضى هنالك الى بيت سيدة ألمانية صديقة لناستاسيا فيليبوفنا ، تعيش مع أمها ؛ فلعل ناستاسيا فيليبوفنا ، وقد عصف بها الانفعال وأرادت أن تختبىء عن أعين الناس ، قد ذهبت تبيت عند هاتين السيدتين . كان الأمير مهدّماً حين نهض ، وكان «شاحباً شحوباً رهيباً» كما ذكرت هاته السيدات فيما بعد . كانت ساقاه تلتويان تحته فعلاً . واستطاع أن يفهم اخيراً من خلال صرير أصواتهن الرهيب أنهن يعرضن عليه أن ساعدنه فى البحث ، وأنهن يسألنه عن عنوانه بالمدينة . واذ لم يكن له بالمدينة عنوان فقد نصحنه بأن ينزل فى فندق . ففكر الأمير لحظة ثم ذكر لهن عنوان الفندق الذى سبق أن سكنه وأصيب فيه بنوبة . ومضى متجهاً الى منزل روغوجين . فى هذه المرة لم يُفتح له الباب فحسب ، بل ان باب مسكن العجوز ظل مغلقاً كذلك . نزل الأمير الى الفناء وأخذ يبحث عن البواب الى أن عثر عليه بعد عناء . كان البواب منصرفاً الى عمله فلم يكد ينظر اليه ولم يكد يجيبه عن أسئلته ، غير أنه أفهمه على نحو قاطع أن بارفيون سيميونوفتش قد «سافر فى الصباح المبكر الى بافلوفسك ولن يرجع منها اليوم» .

قال الامير :

— سأنتظر . أتراه يعود فى المساء ؟

— قد لا يعود قبل أسبوع . من يدرى ؟

— لكنه قضى الليلة هنا على كل حال ، أليس كذلك ؟

— هذا . . . نعم . . .

ذلك كله مشبوه غامض . جائز جداً أن يكون البواب قد تلقى فى هذه الفترة أوامر جديدة . كان منذ قليل كثير الكلام ، وهو الآن يشيح عنه . مع هذا قرر الأمير أن يعود مرة أخرى بعد ساعتين ، وأن يرابط أمام المنزل اذا اقتضى الأمر ذلك . أما الآن فلا يزال عليه أن يذهب الى الألمانية يسألها فعسى أن يعرف منها شيئاً . وها هو ذا يسرع الى حى سيميونوفسكى .

ولكنه لم يُفلح هنالك حتى فى أن يفهم الألمانية شيئاً . وأدرك من بضع كلمات أفلتت منها أنها قد حدث شقاق بينها وبين ناستاسيا فيليبوفنا قبل أسبوعين ، فلم تعرف عنها شيئاً منذ ذلك الحين ؛ وهى تبذل الآن كل جهودها لأن تعلن أنها أصبحت لا تهتم بها أى اهتمام ، «ولو تزوجت جميع أمراء العالم» . أسرع الأمير يودعها . وخطر بباله أن من الجائز أن تكون ناستاسيا فيليبوفنا قد سافرت الى موسكو ، كما فعلت ذلك من قبل ، وأن يكون روغوجين قد تبعها طبعاً ، هذا اذا لم يكن قد صحبها . «ليتنى أستطيع على الأقل أن أهتدى الى أى أثر !» وتذكر أثناء ذلك أن عليه أن يحجز غرفة فى فندق . فأسرع الى شارع ليتاينايا . فحُجزت له غرفة على الفور . وسأله خادم الطابق هل يريد أن يصيب وجبة خفيفة . فاذا هو من ذهوله يجيبه قائلا «نعم» ، ولكنه ما ان ثاب اليه وعيه حتى غضب من نفسه غضباً شديداً ، لأنه بتناول هذه الوجبة قد ضيّع نصف ساعة سدى ؛ ولم يدرك الا فيما بعد أنه ما من شىء

كان يجبره على أن يتناول الطعام الذى جاءه به الخادم . وقد شعر وهو يتنفس الهواء الخانق فى ذلك الممر المظلم أن احساساً غريباً يغزو نفسه ويجنح بالحاح معذب الى أن يصير فكرة . ولكن الأمير لم يستطع أن يتبيّن تلك الفكرة الجديدة الناشئة . وخرج من الفندق وهو فريسة اضطراب عميق وبلبلة شديدة . كان رأسه يدور . الى أين يجب أن يذهب ؟ وأسرع مرة أخرى الى منزل روغوجين .

لم يكن روغوجين قد عاد . قرع الأمير جرس الشقة مدة طويلة ، فلم يجب أحد . فقرع عندئذ جرس شقة العجوز . ففُتح الباب ، وقيل له أيضاً ان بارفيون سيمينونوفتش غائب ، وانه قد لا يرجع الا بعد ثلاثة أيام . وشعر الأمير بحرج وضيق لأنه لاحظ أن النظرة اليه تشتمل على استطلاع فظيع . وظل البواب فى هذه المرة مختفياً لا سبيل الى العثور عليه . انتقل الأمير الى الرصيف المقابل كما فعل فى المرة الماضية ، وأخذ يذرعه مدة نصف ساعة أو أكثر ، فى ذلك الحر الخانق ، مثبتاً نظره على النوافذ . لم يتحرك فى هذه المرة شيء : بقيت النوافذ مغلقة ، والستائر البيضاء ساكنة . اقتنع الأمير اقتناعاً حاسماً بأنه قد توهم فى المرة الأولى توهماً . ثم ان الزجاج متسخ اتساخاً شديدا ، ولم يُغسل منذ مدة طويلة ، فلا يمكن أن يرى أحد من ورائه شيئاً ، هذا اذا كان وراءه أحد . اشتدت عزيمة الأمير بهذه الفكرة ، فعاد الى بيت أرملة معلم المدرسة فى حى اسماعيلوفكسى .

وكن ينتظرنه هناك . لقد ذهبت هذه السيدة الى ثلاثة أماكن أو أربعة ، ذهبت حتى الى منزل روغوجين ، ولكنها

لم تظفر بأية نتيجة . أصغى الأمير الى كلامها صامتاً ، ودخل الى الغرفة ، وجلس على الأريكة ، وأخذ ينظر فيما حوله نظرة مَنْ لا يفهم ماذا يُقال له . هناك ظاهرة غريبة : ان ملكة الملاحظة عنده تكون تارة مشحوذة شحذاً قوياً ، وتكون تارة أخرى ذاهلة ذهولاً شديداً لا يُصدق . لقد أكدت الأسرة كلها فيما بعد أن الأمير «أدهشها» يومئذ بغرابة حالته . «لعل كل شيء قد أخذ يظهر منذ ذلك الوقت» . ونهض اخيراً ، وطلب أن يرى الغرف التى كانت تشغلها ناستاسيا فيليبوفنا . هما حجرتان عاليتان مضيئتان ، مؤثثتان تأثيثاً جميلاً ، فلا شك أنها كانت تدفع كراءهما غالياً . وقد روت سيدات هذا البيت فيما بعد أن الأمير أنعم النظر فى كل شيء من الاشياء التى رآها فى الشقة . فلما لمح على منضدة صغيرة رواية فرنسية هى رواية «مدام بوفارى» التى كانت ناستاسيا فيليبوفنا قد استعارتها من قاعة مطالعة كفأ زاوية الصفحة التى كان الكتاب مفتوحاً عليها ، واستأذن فى أن يأخذ الكتاب ، ثم وضعه فى جيبه رغم أنه قيل له ان الكتاب مستعار . وجلس قرب نافذة مفتوحة . فلما رأى على مائدة لعب ارقاماً مدونة بالطباشير سأل عمن كان يلعب هنا . فأُجيب بأن ناستاسيا فيليبوفنا كانت تلعب كل مساء مع روغوجين . فهما يلعبان تارة لعبة «المعتوه» ، وتارة لعبة الويست ، وتارة لعبة «الشبيه» ، أى كانا يلعبان كل اللّعب ، وهما انما ألفا هذه العادة فى الآونة الأخيرة ، بعد مغادرة ناستاسيا فيليبوفنا ضاحيةَ بافلوفسك للاقامة ببطرسبرج . لقد كانت ناستاسيا فيليبوفنا تشكى على الدوام من السأم لأن روغوجين كان يقضى سهرات كاملة دون أن يقول كلمة

واحدة ، فليس عنده موضوع يدير عليه الحديث ، وكانت هى تبكى فى كثير من الأحيان . فلما جاء روغوجين فى الغد استل من جيبه ورق لعب فجأة ، فانطلقت ناستاسيا فيليبوفنا تضحك ، وأخذا يلعبان . سأل الأمير أين الورق الذى كانا يلعبان به ؟ فلم تستطع السيدات أن تريه ذلك الورق ، لأن روغوجين كان عند انصرافه كل يوم يحمل الورق القديم ويجئ فى اليوم التالى بورق جديد دائماً .

نصحت السيدات الأمير بأن يعود الى منزل روغوجين مرة أخرى ، وأن يقرع الباب قرعاً أشد . ولكن فى المساء ، لا الآن ، «فلعل شيئاً سيكون واضحاً آنذاك» . وقد عرضت أرملة معلم المدرسة أن تذهب فى النهار بنفسها الى بافلوفسك لترى داريا ألكسيفنا ، فلعلهم قد علموا هناك شيئاً . ودُعى الأمير أن يعود فى نحو الساعة العاشرة من المساء ، ولو لوضع خطة عمل مشتركة للغد . كان يأس كامل يجتاح نفس الأمير رغم جميع هذه التعزيات والتشجيعات . وها هو ذا يعود الى فندقه سيراً على الأقدام وقد أرهقه حزن لا سبيل الى وصفه . كان يحس كأنه مسحوق بين فكى كلابة فى بطرسبرج هذه التى كان جوها خانقاً وكان هواؤها مثقلاً بالغبار فى الصيف . اصطدم أثناء سيره بأناس أفظاظ أو سكارى . وكان يتفرس فى المارة لا يدرى لماذا . لعله مشى خطى كثيرة لا فائدة منها . فلما وصل غرفته كان المساء يوشك أن يهبط على المدينة . قرر أن يرتاح قليلاً ، ليعود بعد ذلك الى روغوجين كما نُصح . فجلس على أريكة ، ووضع كوعيه على مائدة ، وغرق فى خواطره .

لا يدرى الا الله كم قضى من الوقت وهو على هذا

الوضع ، ولا ماذا دار فى رأسه من أفكار . كان خائفاً من أشياء كثيرة ، وكان يشعر بتفاقم هذا الخوف ، فيعانى من ذلك ألماً ممضاً . فكّر فى فيرا ليبيديفا ، ثم تساءل ألا يمكن أن يكون ليبيديف قد بلغ الى علمه شىء عن هذا الأمر ، ولو كان لا يعلم شيئاً فانه أقدر منه على أن يحصل على بعض المعلومات بسرعة وسهولة . ثم وافته صورة ايبوليت فتذكر أن روغوجين كان يزور ايبوليت . ثم تذكر اخيراً روغوجين نفسه : رؤيته فى الآونة الأخيرة ، مرة فى الجنازة ، ومرة فى الحديقة العامة ؛ ثم تذكر فجأة رؤيته هنا ، فى هذا الممر المظلم ، حيث تربص به مختبئاً فى ركن ممسكاً بيده سكيناً . تذكر الآن عينيه ، عينيه اللتين كانتا تحدقان اليه آنذاك فى الظلمات . ارتعش : ان الفكرة التى كانت ترتسم فى ذهنه غامضة منذ قليل ، تخطر الآن بباله فجأة .

كانت تلك الفكرة هى التالية تقريباً : اذا كان روغوجين فى بطرسبرج فانه مهما يختبئ زمناً طويلاً أو قصيرًا ، لا بد أن يعود ساعياً اليه ، سواء أكانت نياته حسنة ام سيئة ، والأرجح أنه سيبيت النية السيئة ، كما كان عليه آنذاك . وفى أقل تقدير ، اذا ارتأى روغوجين لسبب من الأسباب أن يبحث عنه فسوف يبحث عنه هنا طبعاً ، فى هذا الممر نفسه . فانه ، وهو لا يعرف له عنواناً ، سوف يفترض أن الأمير نزل نفس الفندق الذى نزله من قبل . ومهما يكن من أمر ، فسوف يبحث عنه هنا . . . اذا شعر بحاجة قوية اليه . ومن يدرى ؟ لعله سيشعر بهذه الحاجة القوية أشد ما يكون الشعور .

كذلك كان يفكّر الأمير ؛ وكانت هذه الفكرة تبدو له محتملة تماماً . لو استغرق فى تفكيره لما استطاع أن يشرح لنفسه مثلاً «لماذا يرى أن روغوجين سيشعر بمثل هذه الحاجة القوية اليه على حين فجأة ، أو لماذا يستحيل أنهما لن يلتقيا بعد اليوم أبداً ؟» غير أن الفكرة كانت أليمة . كان الأمير يقول لنفسه : «اذا كان سعيداً فلن يأتى . والأرجح أنه يأتى اذا كان شقياً . وهو شقى حتماً . . .»

وما دام اقتناعه هو هذا فقد كان ينبغى له أن ينتظر روغوجين فى الفندق ، فى غرفته . ولكنه كان كمن لا يستطيع احتمال فكرته الجديدة هذه ، فها هو ذا يندفع فيتناول قبعته ويخرج مسرعاً . الظلام فى الممر أوشك أن يصبح حالكاً . فلما صار الأمير قرب ذلك المكان الذى كان يعرفه ، قال يحدث نفسه : «ماذا لو ظهر من ذلك الركن فجأة وأوقفنى قرب السلم ؟» ولكن لم يظهر أحد . وتجاوز الباب ، ومضى الى الرصيف ، ونظر مدهوشاً الى ازدحام الناس فى الشوارع لحظةَ مغيب الشمس (وهذا منظر مألوف ببطرسبرج فى أيام العطلة الصيفية) ثم اتجه نحو شارع جوروخوفايا . حتى اذا صار على مسافة خمسين خطوة من الفندق ، عند أول مفرق ، شعر بأحد يلمس كوعه ، وسمع صوتاً يقول له هامساً قرب أذنه :

— ليف نيقولايفتش ، اتبعنى يا أخى ، هناك حاجة .

انه روغوجين .

شىء غريب : لقد أخذ الأمير يروى له على الفور ، فرحاً متدفقاً فى الكلام حتى ليكاد لا يتم النطق بألفاظه ، كيف انتظره منذ لحظة فى ممر الفندق .

فقال له روغوجين فجأة :

— كنت هناك فعلاً . هلمَّ بنا .

فدُهش الأمير من هذا الجواب ، غير أن دقيقتين على الأقل قد انقضتا بين اللحظة التى فهم فيها الجواب واللحظة التى دُهش فيها من هذا الجواب . وشعر عندئذ بخوف وأخذ يلاحظ روغوجين . كان ذلك يتقدمه نصف خطوة تقريباً . وكان ينظر الى أمام ، لا ينتبه الى المارة أى انتباه ، فاذا اقترب من أحدهم تحاشاه بحركة آلية على غير شعور .

سأله الأمير فجأة :

— لماذا لم تسأل عنى فى الفندق ما دمت قد ذهبت اليه ؟

فتوقف روغوجين ، ونظر اليه ، وفكّر ، ثم قال وكأنه لم يدرك السؤال ادراكاً واضحاً :

— اسمع يا ليف نيقولايفتش . سِرْ قدماً الى أن تبلغ منزلى ، أتعرفه ؟ أما أنا فأسير فى الجهة الأخرى من الشارع . ولكن احرصْ على أن نمضى معا . . .

قال هذا وعبر الشارع منتقلاً الى الرصيف الآخر ، منتبهاً مع ذلك الى الأمير ليرى هل سار كما أمره . فلما لاحظ أن الأمير واقف ينظر اليه محملقاً دلّه بيده على اتجاه شارع جوروخوفايا ، ثم استأنف سيره متلفتاً بغير انقطاع ليراقب الأمير ويحضه على أن يتبعه . حتى اذا تأكد من أن الأمير قد فهم عنه وأنه لا يعبر الشارع ليلحق به عادت اليه طمأنينته . وقد خطر ببال الأمير أن روغوجين يترصد مرور أحد وأنه انتقل الى الرصيف الثانى حتى لا يفلت منه ، فتساءل : «ولكن

لماذا لم يحدد الشخص الذى يجب ترصده ؟» وسارا على هذا النحو قرابة خمسمائة خطوة ، فاذا بالأمير يأخذ يرتعش لسبب ما . وكان روغوجين ما يزال يلتفت اليه ولكنه لا يلتفت اليه الآن الا من حين الى حين . ونفد صبر الأمير فحرك يده يدعو روغوجين اليه . فعبر ذلك الشارع قادماً نحوه رأساً .

— هل ناستاسيا فيليبوفنا عندك ؟

— عندى .

— وهل أنت الذى نظرت الىَّ من وراء ستارة النافذة ؟

— أنا . . .

— أف . . . أفأنت . . .

ولكن الأمير لم يعرف كيف يكمل جملته ، ولا ماذا يلقى من سؤال . وكان قلبه عدا ذلك يخفق خفقاناً بلغ من القوة أن الكلام أصبح يشق عليه . صمت روغوجين هو أيضاً ، ونظر اليه نظرة من يحلم ، كما فعل منذ قليل . . . ثم قال فجأة وهو يتهيأ لعبور الشارع من جديد :

— هيّا بنا . أنا ذاهب الى هناك . سر وحدك . لنمش منفصلين . . . ذلك أفضل . . . يمشى كل واحد فى جهة . . . سوف ترى .

فلما دخلا شارع جوروخوفايا أخيراً ، واقتربا من منزل روغوجين شعر الأمير مرة أخرى بأن ساقيه تنثنيان تحته حتى ليكاد يعجز عن السير . كانت الساعة قريبة من العاشرة مساء . وكانت نوافذ الجناح الذى تقيم فيه العجوز ما تزال مفتوحة . وكان كل شىء فى بيت روغوجين مغلقاً ، وكانت الستائر البيضاء المسدلة تبدو فى ضوء الغسق أشد وضوحاً .

ووصل الأمير الى مستوى المنزل وهو ما يزال على الرصيف المقابل . فلما رأى روغوجين يصعد درجات المدخل ويشير اليه أن يأتى بادر الى اللحاق به وأدركه .

همس روغوجين قائلاً له وهو يبتسم ابتسامة فيها مكر ويكاد يكون فيها رضى :

— البواب لا يعلم اننى عدت . قلت له منذ فترة اننى ذاهب الى بافلوفسك ، وقلت هذا الكلام نفسه لخادمة أمى . سوف ندخل دون أن يسمعنا أحد .

وكان قد أخرج المفتاح فهو الآن فى يده . وحين صعد السلم التفت نحو الأمير وأشار بأمره بأن يمشى دون ضوضاء . وفتح باب شقته بلطف ، وأدخل الأمير ، وتبعه محترساً ، فأغلق الباب ووضع المفتاح فى جيبه .

قال هامساً :

— هلمَّ .

كان يهمس همسًا منذ أن أخذ يكلم الأمير على رصيف شارع ليتاينايا . ان المرء يدرك أن نفسه مضطربة اضطراباً عميقاً رغم هدوئه الظاهر . وحين دخلا الصالة التى تقع قبل حجرة المكتب اقترب من النافذة ، ودعا الأمير اليه وقد لاح فى وجهه معنى السر . ثم قال :

— حين قرعت بابى فى هذا الصباح ، كنت أنا هنا ، وسرعان ما حزرتُ أن القارع هو أنت . اقتربت من الباب ماشياً على رؤوس الأصابع ، وسمعتك تكلم بافنوتيفنا . وكنت قد أمرتها منذ مطلع الصبح أن لا تجيب أى انسان يقرع جرس بابى ، أياً كان العذر الذى يتعلل به ، سواء أكان القارع أنت أم كان شخصاً آتياً من عندك ، أم

كان أى شخص آخر ، وخاصة اذا جئت أنت بنفسك ، وقد سميتك لها . فلما خرجتَ ، خطر ببالى أنك ربما رحتَ ترابط فى الشارع مترصداً مترقباً . فدنوت من هذه النافذة فأزحت ستارتها لألقى نظرة ، فرأيتك واقفاً هناك تنظر الىَّ فعلاً . . . هكذا جرت الأمور .

قال الأمير بصوت مختنق :

— ف . . . فأين ناستاسيا فيليبوفنا ؟

أجاب روغوجين ببطء بعد تردد قصير :

— هى . . . هنا .

— أين ؟

فرفع روغوجين عينيه الى الأمير ، وتفرس فيه محدقاً . ثم قال له :

— هيَّا . تعال . . .

انه ما يزال يتكلم هامساً ، بطيئاً ، ذاهلاً ذلك الذهول نفسه . حتى حين روى كيف أزاح الستارة كان رغم ما باح به ، يبدو عليه أنه يريد أن يعبّر عن شىء غير هذا تماماً .

ودخلا حجرة المكتب . لقد أُجريت فيها تغيرات منذ الزيارة الأخيرة التى قام بها الأمير . ان ستارة خضـــراء من قماش حريرى سميك بمدخل فى كل من طرفيها تشطر الغرفة الآن شطرين ، فتفصل حجرة المكتب بمعنى الكلمة عن مخدع النوم الذى يوجد فيه سرير روغوجين . كانت هذه الستارة الثقيلة مسدلة ، والمدخلان مغلقين . وكان الظلام يسود الغرفة . ان ليالى بطرسبرج «البيضاء» هى الآن فى نهايتها ، فلولا أن القمر كان بدراً ، لما كان فى وسع المرء أن يميز أى شىء فى هذه الشقة التى كانت ستائرها

المسدلة تزيدها ظلاماً . الحق أنه ما يزال فى امكان المرء أن يرى الوجوه ، ولو رؤية غامضة . كان وجه روغوجين شاحباً كما عُهد . وكانت عيناه ترسلان الى الأمير نظرة ثابتة براقة لكنها جامدة .

قال الأمير :

— هلا اشعلتَ شمعة ؟

فأجاب روغوجين وقد أمسكه من يده وأجبره على الجلوس :

— لا ، لا ينبغى . — وجلس هو أمامه . ان كرسيه يبلغ من القرب أن ركبتيه وركبتى الأمير تكاد تتلامس . وكانت توجد بينهما منضدة صغيرة مدورة متروية قليلاً . قال وكأنه يشجعه على البقاء :

— اجلس . لنجلس هنا لحظة . — وخيّم الصمت دقيقة . ثم أضاف يقول بلهجة يصطنعها المرء حين يجرى الحديث على تفاصيل تافهة فراراً من مواجهة المسألة الأساسية :

— قدّرت أنك قد تنزل ذلك الفندق نفسه . وحين ولجت الممر قلت لنفسى : من يدرى ؟ لعله هو أيضاً يجلس هنا وينتظرنى الآن ، فى هذه اللحظة بالذات كما انتظره ! هل ذهبت الى أرملة معلم المدرسة ؟

قال الأمير بمشقة كبيرة من جراء خفقان قلبه الشديد :

— نعم .

— قدّرت ذلك أيضاً . قلت لنفسى : سيكون هذا مبعث هذر أيضاً . . . ثم خطر ببالى أن أجئ بك الى هنا لنقضى هذه الليلة معاً . . .

— روغوجين ، أين ناستاسيا فيليبوفنا ؟

بذلك دمدم الأمير هامساً فجأة وهو ينهض . كانت

أعضاؤه كلها ترتعش .

نهض روغوجين هو أيضاً . وقال مومئاً برأسه الى الستارة :

— هى هناك .

فهمس الأمير سائلاً :

— أهى نائمة ؟

ونظر روغوجين اليه من جديد نظرته الثابتة السابقة .

— هيه . . . هيّا بنا الى هناك ! . . ولكنك . . . بل هيّا بنا !

وأزاح الستارة ، وتوقف ، والتفت نحو الأمير ثانية .

وقال له وهو يدعوه باشارة أن يتقدم :

— ادخل !

دخل الأمير . وقال :

— الظلام دامس .

فقال روغوجين مجمجماً :

— لا بأس ! سوف ترى .

— لا أكاد أميّز الا . . . السرير .

واقترح روغوجين قائلاً بصوت خافت :

— اقترب أكثر .

فتقدم الأمير خطوة ، ثم تقدم خطوة أخرى ثم توقف . لبث دقيقة أو دقيقتين جامداً لا يتحرك ، محاولاً أن يثقب بنظره الظلام . لم يقل أحد منهما كلمة واحدة طوال المدة التى بقيا خلالها قرب السرير . كان قلب الأمير يخفق خفقاناً يبلغ من القوة أن دقاته تكاد تُسمع فى صمت الموت الذى يخيم على الغرفة . حتى اذا ألفت عيناه الظلمة أمكنه أن يميز السرير . كان أحد ينام عليه ساكناً سكوناً مطلقاً . لا

صوت يُسمع ، لا نسمة . كان النائم مغطى من الرأس الى القدمين بملاءة بيضاء ، لكن أعضاءه لا ترتسم الا ارتساماً غامضاً . كل ما يراه المرء من نتوءات الملاءة أنه جسم انسان مسجّى تحتها . وفى كل جهة من حوله : على السرير ، فى أسفل السرير ، فوق المقعد المقابل ، وحتى على أرض الغرفة ، بُعثرت ثياب متناثرة على غير نظام : فستان فخم من حرير أبيض ، أزهار ، أشرطة . وعلى منضدة صغيرة قرب رأس السرير تلتمع جواهر ماس وضعت هنالك باهمال . وفى آخر السرير كتلة من تطريزات يخرج منها طرف قدم عارية كأنها منحوتة من مرمر ، قدم جامدة جموداً رهيباً . كلما أمعن الأمير النظر ، بدا له صمت هذه الغرفة أعمق وأدلّ على الموت . واستيقظت ذبابة على حين فجأة وطفقت تدندن ، وحوّمت فوق السرير ، ثم حطت على رأس السرير . سرت فى جسم الأمير رعدة .

قال له روغوجين وهو يلمس ذراعه :

— فلنخرج .

خرجا من مخدع النوم ، وعادا يجلسان على مقعديهما متقابلين كما كانا . ان الأمير يرتجف مزيداً من الارتجاف لحظة بعد لحظة ، ولا يحوّل نظرته المستفهمة عن وجه روغوجين .

قال روغوجين أخيرًا :

— أرى يا ليف نيقولايفتش أنك ترتجف ارتجافك عند دنوّ نوبة مرضك . هل تتذكر كيف كان يحدث هذا بموسكو ؟ أو كيف حدث هذا مرة قبل موافاة النوبة ؟ اننى أتساءل ما عسانى أفعل بك اذا وقع لك شىء من ذلك . . .

كان الأمير يصغى اليه بانتباه ، جاهداً أن يفهم عنه ، مستمراً على مساءلته بعينيه .

وقال يسأله أخيراً وهو يومئ الى جهة الستارة بايماءة من رأسه :

— أأنت فعلت هذا ؟

فهمس روغوجين خافضاً رأسه :

— نعم . . . أنا . . .

ولبثا خمس دقائق لا يتبادلان كلمة .

ثم بدأ روغوجين يتابع كلامه فجأة كأنه لم يقطعه :

— لأنه اذا وافتك الآن نوبة ، فان صراخك سيُسمع فى الشارع أو فى فناء المنزل ، فيدرك السامعون أن فى الشقة ناساً ، فيجيئون يقتحمون الباب ويدخلون . . . لأنهم جميعاً يظنون أننى غائب . اذا كنت لم أشعل شمعة ، فمن أجل أن لا يرى أحد من الشارع أو من فناء البيت شيئاً . اننى حين أتغيب ، أحمل مفاتيحى فلا يدخل أحد الى هنا خلال ثلاثة أيام أو أربعة ولو لترتيب الشقة . تلك هى القاعدة التى وضعتها . فيجب أن ندّبر أمرنا بحيث لا يعلم أحد اننا نبيت الليلة . . .

قال الأمير :

— انتظر . اننى سألت البواب والخادمة العجوز ألم تجئ ناستاسيا فيليبوفنا لتبيت هنا . . . فهما اذن يعرفان أنها جاءت .

— أعرف هذا . لقد قلت للخادمة بافنوتيفنا ان ناستاسيا فيليبوفنا جاءت الى هنا أمس ثم سافرت ثانية الى بافلوفسك بعد عشر دقائق . لا يعرف أحد منهم أنها باتت هنا .

ولقد دخلت معها بالأمس خلسة كما دخلت معك اليوم . كنت أقدّر ونحن فى الطريق أنها لن تحب أن تدخل خفية ، لكننى أخطأت التقدير ! كانت تتكلم همساً ، وتسير على رؤوس الأصابع ، وتشمر فستانها من حولها حتى لا يُسمع له حفيف ، حتى لقد فرضت علىّ الصمت باشارة من يدها حين كنا على السلّم . منك أنت انما كانت ما تزال خائفة . حين كنا فى القطار كان خوفها جنوناً مطبقاً . وهى التى طلبت أن تبيت هنا . كانت فكرتى الأولى أن أصحبها الى عند أرملة معلم المدرسة ، ولكننى لم أفلح فى حملها على ذلك . قالت : «اذا ذهبت الى هناك فسيهتدى اليّ الأمير فى الفجر . خبئنى عندك . وغداً أفرّ الى موسكو متى طلع الصبح» . وكانت تنوى أن تذهب من موسكو الى اوريول . لقد اضطجعت على السرير وهى تكرر أننا سنمضى الى اوريول . . .

— انتظر : ماذا تنوى أن تفعل الآن يا بارفيون ؟

— أخاف عليك فقط . انك بهذا الارتعاد المستمر ترعبنى . سنبيت الليلة هنا معاً . ليس عندى سرير الا ذلك السرير . ولكننى دبّرت الأمر على هذا النحو : نأخذ وسائد الأريكتين فنجعل منها سريرًا على الأرض قرب الستارة لى ولك ، وهكذا ينام أحدنا الى جانب الآخر . حتى اذا جاءوا وفتشوا الغرفة ، عثروا عليها وحملوها فوراً . وسيسألوننى عما حدث فأقول لهم اننى أنا الفاعل ، فيقتادوننى فوراً . أما الآن ، فلترقد قريبة منا ، قريبة منك ومنى . . .

قال الأمير محبذاً بحرارة :

— نعم ، نعم !

— يجب اذن أن لا نعترف وأن لا ندع لأحد أن

يأخذها .

قال الأمير :

— أبداً ! بحال من الأحوال ! لا ، لا ! . .

— ذلك ما عقدت عليه عزمى يا فتى . لن نتيح لأحد أن ينتزعها منا بحال من الأحوال ، مهما كلف الأمر ! سنقضى هذه الليلة بهدوء لقد ظللت بقربها النهار كله ، لم أخرج الا ساعة واحدة فى الصباح ، ثم خرجت فى المساء لأبحث عنك وأجئ بك . هناك شئ أخشاه : هو أن تنتشر من الجثمان رائحة بسبب هذا الحر الخانق . هل تشم شيئا ؟

— لعلى أشم ، لا أدرى . ولكن الرائحة ستشتد فى الصباح حتماً .

— لقد غطيتها بقماش مشمّع ، قماش مشمع أمريكى ممتازه ، وفرشت الملاءة فوق ذلك الغطاء . وحولها وضعت أربع زجاجات مفتوحة من سائل جدانوف ؛ وما تزال الزجاجات فى موضعها .

— كما فعلوا هناك . . . فى موسكو ؟

— بسبب الرائحة يا عزيزى . ليتك ترى كيف ترقد . . . غداً فى الصباح ، حين يطلع النهار انظر اليها . هيه ، ماذا ؟ أأصبحت لا تستطيع النهوض ؟

قال روغوجين ذلك مدهوشاً خائفاً حين رأى الأمير يرتعد ارتعاداً يبلغ من الشدة أنه أصبح لا يستطيع النهوض على قدميه .

دمدم الأمير يقول :

— ساقاى لا تطاوعانى . . . هذا من الرعب . . . أنا

أعرف ذلك . . . فمتى زال الرعب أمكننى أن أنهض . . .

— انتظر . . . سأصنع سريرنا ، فتتمدد . . . وأتمدد أنا بقربك . . . ونصغى . . . لأننى يا صديقى . . لا أعرف . . يا صديقى . . لا أعرف الآن كل شىء بعدُ . . . لذلك ألفت نظرك . . . حتى تعرف أنت . . . سلفاً . . .

كان روغوجين وهو يتمتم بهذه الأقوال المبهمة قد أخذ يهيئ السرير . واضح أنه ربما كان منذ الصباح يفكر فى طريقة ترتيب الوسائد ليجعل منها سريراً . لقد قضى الليلة البارحة راقداً على الديوان . ولكن الديوان لا يتسع لشخصين ، وهو يحرص حرصاً مطلقاً على أن يرقدا معاً . لذلك أخذ ينتزع عن الديوانين جميع وسائدهما المختلفة الأحجام ، ويجرها من أول الغرفة الى آخرها بكثير من العناء ، ليصنع منها سريراً أمام الستارة . حتى اذا فرغ من ذلك كيفما اتفق ، اقترب من الأمير فأمسكه بحنان وحماسة من يده وأنهضه وساعده على الوصول الى ذلك السرير . فظهر عندئذ أن الأمير كان قد استرد قدرته على السير بنفسه . «انقضى اذن رعبه» . ولكنه ، مع ذلك ، كان ما يزال يرتعد .

أرقد روغوجين الأمير على الوسادة اليسرى ، أفضل الوسادتين ، ورقد هو على الوسادة اليمنى مرتدياً جميع ملابسه عاقداً يديه وراء عنقه . واستأنف كلامه قائلاً على حين فجأة :

— لأن الجو حار حقاً يا صديقى ، وسوف تنتشر الرائحة لا محالة . . . اننى أخشى أن أفتح النوافذ . عند أمى أصص أزهار كثيرة ، عندها أزهار كثيرة عطرة عبقة . خطر ببالى أن آتى بها الى هنا . لكن ذلك يمكن أن

ينبّه بافنوتيفنا . فهى شديدة حب الاطلاع .

قال الأمير مؤيداً :

— هى شديدة حب الاطلاع .

— كان يمكن شراء باقات أزهار . . . واحاطتها بها احاطة تامة . لكننى قدرت يا صديقى أنه أمر يمزّق القلب تمزيقاً . . . أن تُرى مغطاة بالأزهار هكذا ! . .

— قل لى . . .

كذلك بدأ الأمير يسأله مرتبكاً ، كانسان يبحث فى ذاكرته عن شىء يريد أن يسأل عنه ولكنه لا يكاد يتذكره حتى ينساه .

— قل لى . . . بأى شئ فعلت ؟ بسكين ؟ بتلك السكين نفسها ؟

— نعم ، بتلك السكين نفسها . . .

— انتظر أيضاً ! أريد أن أسألك يا بارفيون . . . هناك أسئلة كثيرة سوف ألقيها عليك . . . أسئلة عن كل شىء . . . ولكن قل لى أولاً لأعرف : هل كنت تنوى أن تقتلها قبل زواجنا ، بطعنة سكين ، على عتبة الكنيسة ؟ أنعم أم لا ؟

أجاب روغوجين بخشونة ، مدهوشاً من السؤال ، حتى لكأنه لم يدركه :

— لا أعرف أكنت أنوى ذلك أم لا . . .

— ألم تصطحب سكينك أبداً حين جئت الى بافلوفسك ؟

— لم أصطحبها أبداً .

وأضاف يقول بعد لحظة صمت :

— عن هذه السكين ، اليك كل ما أستطيع أن

أقوله لك يا ليف نيقولايفتش : لقد تناولتها فى هذا الصباح من درج مقفل بالمفتاح ، لأن كل شىء قد تم بين الساعة الثالثة والساعة الرابعة . كنت احتفظ بها دائماً بين صفحات كتاب . . . و . . . و . . اليك شيئاً آخر أدهشنى : لقد نفذت السكين تحت الثدى الأيسر ، الى عمق سبعة سنتمترات تقريباً . . فلم ينسكب من الدم الا نصف ملعقة على القميص . . لا أكثر . . .

قال الأمير وهو ينصب قامته بتأثير انفعال فظيع :

— هذا أعرفه . . . أعرف هذا . . . قرأت عنه . . . ذلك ما يسمى نزيفاً داخلياً . . . حتى ليتفق أن لا تنسكب قطرة واحدة . يحدث هذا حين تنفذ الطعنة الى القلب مباشرة . . .

قاطعه روغوجين يقول فجأة وهو يجلس على مضجعه مذعوراً :

— صه ! هل تسمع ؟ هل تسمع ؟

أجابه الأمير وهو ينظر اليه ، قائلاً بلهجة الذعر تلك نفسها :

— لا !

— صوت مشى ! هل تسمع ؟ فى الصالة . . .

أصاخ الاثنان بسمعيهما .

وهمس الأمير بثقة :

— سمعت .

— هل هو صوت مشى ؟

— صوت مشى .

— هل يجب اقفال الباب ؟

— نعم . . .

أحكما وضع المزلاج ، وعادا يرقدان . وأعقب ذلك صمت طويل .

وفجأة عاد الأمير يهمس بلهجة التعجل والاضطراب تلك نفسها ، كأنه وقد استرد تسلسل تفكيره يخشى أن يضيعه من جديد . قال وهو يثب عن مضجعه :

— ها ! . . نعم . . . أردت أن أطلب منك . . . ورق اللعب ! ورق اللعب . . . قيل لى انك كنت تلاعبها بالورق .

قال روغوجين بعد لحظة صمت :

— نعم .

— فأين هو . . . ذلك الورق ؟

قال روغوجين بعد صمت أطول :

— هو ذا . . . خذ . . .

قال ذلك ، وأخرج من جيبه ورق لعب ملفوفاً بغلاف ، ومستعملاً من قبل ، ومدّه الى الأمير . فتناوله الأمير ، ولكن كأنما مستغرباً . ان شعوراً جديداً أليماً بالحزن قد هصر قلبه . وأدرك فجأة أنه فى هذه اللحظة ومنذ مدة غير قصيرة كان يقول ويفعل غيرَ ما كان ينبغى أن يقول وما ينبغى أن يفعل ، وأن ورق اللعب هذا الذى يمسكه الآن بيديه والذى أسعده كثيراً لن ينفعه بعد اليوم فى شىء . وها هو ذا ينهض ويضم يديه احداها الى الأخرى بحركة تدل على لوعة لا حدود لها . وكان روغوجين مضطجعا جامداً فلم يبد عليه أنه أبصر هذه الحركة ، غير أن عينيه الثابتتين المحملقتين كانتا تتقدان فى الظلام . جلس الأمير على كرسى ونظر اليه

مرتاعاً . وانقضى على هذا نصف ساعة . وفجأة قال روغوجين وهو ينفجر فى ضحك صاخب ، ناسياً أن عليه أن يتكلم بصوت خافت :

— الضابط . . . هل تتذكر ذلك الضابط ؟ . . هل تتذكر كيف جلدته بالسوط فى حفلة الموسيقى ؟ هأ هأ هأ ! . . هل تتذكر ؟ وطالب كلية الحربية . . . طالب الكلية الحربية . . . الذى وثب . . .

انتفض الأمير من كرسيه وقد اعتراه رعب جديد . وحين هدأ روغوجين (وقد هدأ فجأة) ، مال الأمير نحوه برفق ، وجلس الى جانبه ، وأخذ يلاحظه . كان قلبه يدق دقاً قوياً ، وكان يتنفس بمشقة وعناء . كف روغوجين عن الالتفات اليه ، حتى لكأنه نسيه . لكن الأمير ظل يرمقه منتظراً . وكان الوقت يمضى ، وأقبل الصبح . كان روغوجين يأخذ يدمدم بين الفينة والفينة على حين فجأة ، فيقول بصوت عال ثاقب كلمات مفككة ، ويطلق صرخات تتخللهـا ضحكات ؛ فكان الأمير عندئذ يبسط عليه يده المرتعشة ، فيمسح له رأسه برفق ، ويلاعب بأصابعه شعره وخديه . . . ذلك كل ما كان يستطيع أن يفعله ! وكانت تعاوده الرعدات التى تسرى فى جسمه . ومرة أخرى أصبحت ساقاه تنثنيان تحته . ان احساساً جديداً كل الجدة كان قد غزا قلبه ، وملأ نفسه بكآبة لا نهاية لها . وطلع النهار أثناء ذلك . اضطجع الأمير أخيراً على مرقده ، وقد هدّه التعب وأنهكه الأسى ، وأطبق بوجهه على وجه روغوجين الشاحب الجامد . وسالت دموع من عينيه على خدى روغوجين ، ولكن لعله كان لا يحس انسكابها بل ولا يشعر بها . . .

المهم على كل حال أنه حين فُتح الباب بعد ساعات طويلة وُجد القاتل هاذياً مغمى عليه ، ووُجد الأمير جالساً بقربه ، جامداً صامتاً على مضجعه : فكلما صرخ المريض أو هذى أسرع الأمير يمسح بيده المرتعشة شعره وخديه ملاطفاً مهدئاً . ولكن الأمير كان قد أصبح لا يفهم شيئاً من الاسئلة التى أُلقيت عليه ولا يتعرف الناس الذى دخلوا وأحاطوا به . فلو جاء شنايدر نفسه فى تلك اللحظة من سويسرا ليرى تلميذه المريض الذى كان يعالجه فى الماضى لتذكر الحالة التى كان عليها الأمير فى السنة الأولى من معالجته بسويسرا ، ولقال بحركة تنم على اليأس كما فعل حينذاك : «أبله !»

الفصل الثانى عشر

خاتمة

هرعت أرملة معلم المدرسة الى بافلوفسك ومضت رأساً الى بيت داريا ألكسيفنا التى كانت ما تزال مشدوهة منذ الليلة البارحة . فقصت عليها كل ما كانت تعرفه ، وألقتها بذلك الى رعب لم يستطع شىء أن يهدئه . وقررت المرأتان فوراً أن تقابلا ليبيديف الذى اضطرب هو أيضاً من جهتين ، جهة أنه صديق للأمير وجهة أنه مالك للشقة التى يسكنها الأمير . وقصت فيرا ليبيديفا عليهم كل ما كانت تعرفه . وارتأى ثلاثتهم بنصيحة من ليبيديف أن يسافروا الى بطرسبرج ليمنعوا بأقصى سرعة ممكنة «ما قد يحدث فعلاً» . وهكذا فتحت الشرطة باب بيت روغوجين منذ الغداة فى الساعة الحادية عشرة من الضحى ، بحضور ليبيديف والسيدات وأخى روغوجين ، سيميون سيميونوفتش روغوجين ، الذى يقيم فى الجناح المنفرد من المنزل . ومما شجع على اتخاذ هذه المبادرة أكثر من أى شىء آخر ما ذكره البواب من أنه رأى بارفيون سيميونوفتش يرجع الى البيت متسللاً خفية ، من جهة سلّم الباب ، فى صحبة ضيف . فلم يبق عندئذ أى تردد ، فحُطم باب الدخول الذى لم يفتح بأمر القانون .

أُرقد روغوجين مدة شهرين مصاباً بالتهاب الدماغ . فلما شُفى حُقق معه وحُكم عليه . وقد جاءت أقواله فى التحقيق صادقة كل الصدق دقيقة كل الدقة مقنعة كل الاقناع ، فبفضلها أُخرج الأمير من القضية منذ البداية . أما فى المحاكمة فقد كان روغوجين صامتاً طول الوقت . لم يعارض المحامى

البارع البليغ المكلف بالدفاع عنه حين برهن بكثير من الوضوح ومن المنطق على أن الجريمة انما ارتكبت على أثر التهاب دماغى سبقت بدايته وقوع الكارثة بمدة طويلة ، وسببته تلك الأحزان التى زخر بها قلب المتهم . ولكن روغوجين لم يضف شيئاً لتدعيم هذا الرأى ، واقتصر — كما فعل فى التحقيق — على أن يبسط تفاصيل الحادث بوضوح وجلاء ودقة وتحديد . استفاد روغوجين من الظروف المخففة فحكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً فى سيبيريا . وقد سمع الحكم بصرامة صامتاً «مستغرقاً فى التفكير» . وآلت ثروته الضخمة الى أخيه ، الا جزءاً يسيراً كان قد بدّده فى مجون الآونة الأولى . وقد سُرّ أخوه سيميون سيميونوفتش بذلك سروراً عظيماً . ان أمه العجوز ما تزال حية ، ويبدو أنها تتذكر ابنها الحبيب ، بارفيون فى بعض الأحيان ، ولو تذكراً غامضاً مبهماً . لقد صان الله فكرها وقلبها من ادراك النازلة الفظيعة التى زارت بيتها .

وليبيديف وكيللر وجانيا وبتيتسين وآخرون كثيرون من أشخاص روايتنا ، ظلوا يعيشون كما كان يعيشون فى الماضى . انهم لم يتغيروا كثيراً ، فلا نكاد نجد ما نقوله عنهم . ومات ايبوليت وهو فى حالة اضطراب شديد ، قبل الموعد الذى كان يتوقعه بقليل ، بعد نحو أسبوعين من موت ناستاسيا فيليبوفنا . وتأثر كوليا بهذه الأحداث كلها تأثراً عميقاً . فاقترب من أمه اقتراباً حاسماً . ان نينا ألكسندروفنا قلقة عليه ، فهى تجده مسرفاً فى التأمل والتفكير بالقياس الى سنه . ومن يدرى ؟ قد يصبح فى المستقبل رجلاً طيباً . يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أنه هو الذى عُنى بترتيب

الاجراءات التى حددت مصير الأمير فى المستقبل . كان منذ مدة طويلة قد ميّز يفغينى بافلوفتش رادومسكى على جميع الناس الذين عرفهم فى الآونة الأخيرة . فكان أول من ذهب اليه فقصّ عليه كل ما يعرفه عن الحادث وعن حالة الأمير الراهنة . ولم يخطىء ظنه : فقد أظهر يفغينى بافلوفتش اهتماماً كبيراً وعناية حارة بمصير «الأبله» المسكين ؛ وبفضل جهوده ومساعيه وضع الأمير مرة أخرى فى معهد شنايدر بسويسرا . وسافر يفغينى بافلوفتش هو نفسه الى الخارج منتوياً أن يقيم فى أوروبا مدة طويلة . كان ينعت نفسه ، مخلصاً كل الاخلاص ، بأنه «رجل لا تحتاج اليه روسيا» . وهو يزور صديقه المريض عند شنايدر فى أحيان كثيرة ، مرة كل بضعة أشهر على الأقل . ولكن شنايدر يبدو أكثر هماً وغمًا فى كل مرة ، فهو يهز رأسه ، ويُفهم الزائر أن أعضاء التفكير عند مريضه معطلة تعطلاً كاملاً ، وأنه اذا كان لا يقطع بأن حالة المريض لا يمكن أن تشفى ، فهو متشائم فى تخميناته أشد التشاؤم . فكان يفغينى بافلوفتش يبدو متأثراً تأثراً شديداً ، لأنه رجل ذو قلب حساس . وقد برهن على ذلك اذ قبل أن يكتب اليه كوليا ، واذ كان يجيب على رسائله أحياناً . وقد ظهرت فى هذه المناسبة صفة غريبة من صفات طبعه . ونحن نسرع بأن نشير اليها لأنها صفة حسنة . ان يفغينى بافلوفتش ، بعد كل زيارة من زياراته لمعهد شنايدر ، يكتب — عدا ما يكتبه الى كوليا — رسالة الى شخص آخر ببطرسبرج شارحاً حالة الأمير الصحية الراهنة شرحاً مفصلاً ولطيفاً الى أبعد الحدود . وتبدأ مراسلاته هذه — الى جانب ما تشتمل عليه من اعراب عن الاخلاص

والاحترام — تعبر (أكثر فأكثر) عن بعض الآراء يبسطها بصراحة وعن بعض الأفكار وبعض العواطف يعرضها بصـــدق . الخلاصة ، يبدأ يظهر شيء يمكن أن يشبه علاقة صداقة حميمة . والشخص الذى يبعث اليه يفغينى بافلوفتش بتلك الرسائل (وان تكن قليلة متباعدة) ، ويستحق منه كل هذا الاهتمام وكل هذا الاحترام لم يكن الا فيرا ليبيديفا . لا نعرف على وجه الدقة كيف انعقدت هذه الصلات . لا شك فى أن منشأها هو كارثة الأمير التى حزنت لها فيرا حزناً سقطت بسببه مريضة . أما الظروف الأخرى التى لابست انعقاد تلك الصلة فنحن نجهلها . واذا كنا قد تكلمنا عن تلك المراسلات فلأنها قد نقلت فى بعض الأحيان أنباء عن أسرة ايبانتشين ، ولا سيما عن آجلايا ايفانوفنا . ففى رسالة مكتوبة بباريس ، غامضة بعض الغموض ذكر يفغينى بافلوفتش أن آجلايا ايفانوفنا ، بعد أن وقعت فى غرام دام مدة قصيرة لكونت بولندى مهاجر ، تزوجته فجأة رغم ارادة أهلها ، وأن أهلها لم يوافقوا على هذا الزواج أخيراً الا لاتقاء فضيحة ضخمة . وبعد صمت دام ستة أشهر تقريباً ، بعث يفغينى بافلوفتش الى مراسلته رسالة ملأى بالتفاصيل يذكر فيها أنه أثناء زيارته الأخيرة للبروفسور شنايدر فى سويسرا ، التقى بأسرة ايبانتشين كلها ، (عدا ايفان فيدوروفتش طبعاً ، لأن أعماله تحتجزه فى بطرسبرج) ، والتقى كذلك بالأمير «ش» ؛ وأن لقاءهم هذا كان غريباً : لقد استقبلوه جميعاً بحماسة ، حتى ان آديلائيدا وألكسندرا وجدتا أنه يقع على عاتقهما أن تشكرا له «اهتمامه الملائكى بالأمير المسكين» . أما اليزافتا بروكوفيفنا فانها حين رأت

الأمير مريضاً مذلاً هذا الاذلال قد طفقت تبكى من كل قلبها . لقد زال حقدها عليه زوالاً تاماً . وأما الأمير «ش» فقد عبّر فى هذه المناسبة عن حقائق ذكية وُفّق فيها كل التوفيق . وقد بدا ليفغينى بافلوفتش أنه لم يقم بين الأمير «ش» وبين آديلائيدا اتفاق تام حتى الآن . ولكن بدا له فى الوقت نفسه أنه لا بد أن يأتى يوم نرى فيه آديلائيدا الحارة المندفعة تذعن بارادتها اذعاناً صادقاً أمام ذكاء الأمير «ش» وخبرته . ثم ان المحن التى ألمت بالأسرة قد أثرت فيها تأثيراً كبيراً ولقنتها دروساً كثيرة ، ولا سيما مغامرة آجلايا مع الكونت البولندى المهاجر . ان ما كانت الأسرة ترتجف خوفاً منه حين رضيت أن تزوجه آجلايا قد تحقق فى ستة أشهر ، مع مفاجآت ما كان لأحد أن تخطر له ببال . لقد اتضح أن هذا الكونت ليس «كونتاً» . واذا كان مهاجراً فانه لم يهاجر الا فى أعقاب قصة مشبوهة غامضة . لقد استطاع أن يستولى على آجلايا بالنبل الخارق الذى تتصف به نفسه الممزقة ألماً على وطنه ؛ وبلغ من استيلائه على الفتاة أنها حتى قبل الزواج قد أصبحت عضواً فى لجنة أُنشئت فى الخارج لاصلاح بولنده . وعدا ذلك أصبحت مريدة من مريدات كاهن كاثوليكى شهير استولى على فكرها حتى ملأها بالاندفاع والتعصب . أما الثروة الضخمة التى يملكها «الكونت» ، والتى قدم لاليزافيتا بروكوفيفنا والأمير «ش» براهين على وجودها تكاد تكون قاطعة ، فقد تبيّن أنها لم توجد فى يوم من الأيام . أكثر من ذلك أن الكونت وصديقه الكاهن الشهير ، قد أفلحا ، بعد زواج آجلايا بستة أشهر لا أكثر ، أن يفسدا علاقات آجلايا بأعضاء

أسرتها افساداً كاملاً ، فهم الآن لم يروها منذ عدة أشهر . . .
الخلاصة : هناك أشياء كثيرة يمكـــن أن تـــــروى ، ولكن اليزافيتا بروكوفيفنا وبنتيها والأمير «ش» كانوا قد بلغوا جميعاً من شدة الارتياع لهذا «الهول» الرهيب أنهم خشوا حتى من الالماع الى بعض الأمور فى حديثهم مع يفغينى بافلوفتش ، مع علمهم بأن يفغينى بافلوفتش كان ، دون أن يحدثوه بشىء ، مطلعاً اطلاعاً تاماً على آخر ما وصلت اليه آجلايا باندفاعات هواها . ان اليزافيتا بروكوفيفنا المسكينة تود لو ترجع الى روسيا . يقول يفغينى بافلوفتش انها قد انتقدت بمرارة وتحيز كل ما هو أجنبى . «انهم فى أى مكان هنا لا يعرفون كيف يجب أن يُخبز الخبز . وهم فى الشتاء يتجمدون كالفئران فى قبو . على الأقل أتيح لى الآن أن أبكى على هذا الشاب المسكين كما يبكى الروس» . كذلك قالت اليزافيتا بروكوفيفنا متأثرة وهى تومئ الى الأمير الذى لم يتعرفها . ثم ختمت كلامها شبه غاضبة وهى تودع يفغينى بافلوفتش : «كفى حماسات سخيفة . آن لنا أن نسمع صوت العقل . كل هذا ، كل هذه البلاد الأجنبية التى تشيدون بها ، كل أوروبا هذه التى تعظمونها ، كل هذا ليس الا خيالاً ، ونحن أنفسنا لسنا فى البلاد الأجنبية الا خيالاً . . . تذكروا ما أقوله لكم . . ولسوف ترون بأعينكم !»

حواش

الصفحة

ص ٧ • مصرف لومبارد : هو المؤسسة الحكومية التى كانت صندوق ادخار واقراض .

ص ١٧ • واحدة من الجزر التى يشكلها فرعا نهر نيفا .

ص ١٧ • حكاية الأولاد . — حكاية ابن بافليشيف (راجع المجلد الأول . الجزء الثانى . الفصل الثامن) .

ص ١٩ • كانت تقام فى بافلوفسك أثناء الصيف حفلات موسيقية .

ص ٢٢ • ربما باستثناء لومونوسوف وبوشكين وجوجول . — ميخائيل لومونوسوف (١٧١١ — ١٧٦٥) أول عالم طبيعى روسى ذو شهرة عالمية ، وشاعر وضع أسس اللغة الادبية الروسية الحديثة . وألكسندر بوشكين (١٧٩٩ — ١٨٣٧) شاعر روسى عظيم وأستاذ لا يجارى فى النثر الأدبـى («قصص بيلكين» و «ابنة الضابط» و «عبد بطرس الأكبر» وغيرها) . ونيقولاى جوجول (١٨٠٩ — ١٨٥٢) أديب روسى عظيم ، كان له تأثير حاسم على تطور مذهب الواقعية النقدية ونشوء أجناس الهجاء الادبية .

ص ٢٣ • حتى من عهد ما قبل فاموسوف . — الاقطاعى فاموسوف — أحد أبطال الكوميديا الشعرية «وذو العقل يشقى» للكاتب والديبلوماسى الروسى الرائع ألكسندر غريبويدوف (١٧٩٥ — ١٨٢٩)

ص ٢٨ • عن حادثة مصرع ستة أشخاص بيد شاب قتلهم جميعا قتلا رهيبا . — الاشارة هنا الى جريمة القتل التى وقعت فى دار التاجر جيمارين سنة ١٨٦٨ ، وراح ضحيتها ستة أشخاص : زوجة جيمارين ، وأمه ، وابنه البالغ ١١ سنة ، واحدى قريباته ، والبواب والطاهية . واتضح أن القاتل شاب من النبلاء ، فى الثامنة عشرة من عمره ، ويدعى فيتولد غورسكى . وكان تلميذا يعطى دروسا خصوصية

لابن جيمارين . وكانت ديانة غورسكى هى الكاثوليكية ، ولكنه اعترف أثناء المحاكمة بأنه غير مؤمن . وقد بدا لدوستويفسكى مثالا مميزا لذلك القطاع من الشباب الذى أثرت عليه النظريات «العدمية» فى فترة الستينات تأثيراً سلبياً حسب قناعة الكاتب .

ص ٦١ ◦ لقد قتل بوشكين . — أصيب الشاعر الروسى العظيم ألكسندر بوشكين اصابة قاتلة فى بطنه من رصاصة أطلقها عليه أثناء مبارزة الضابط جورج دانتيس ، ربيب السفير الهولندى فى ٢٧ يناير ١٨٣٧ . وقد توفى الشاعر فى ٢٩ يناير فى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين .

ص ٧٢ ◦ حتى أن ألبس القلنسوة الحمراء . — كان القانون فى روسيا يحظر المبارزات ، ولم يسمح بها للضباط الا فى عام ١٨٩٤ . وكان ينص على فرض عقوبات شديدة على من يشارك فى مبارزة . واشتراك «الملازم» كيللر فى المبارزة يمكن أن يعرضه لارتداء «القلنسوة الحمراء» ، أى لتنزيله من رتبة الضابط الى مرتبة الجندى .

ص ٩٥ ◦ يجرى المشهد فى فترة الليالى البيضاء بمدينة بطرسبرج .

ص ٩٦ ◦ صدحت الشمس فى قبة السماء . — يقصد دوستويفسكى الكلمات التى استهل بها الشاعر الألمانى العظيم جوته (١٧٤٩ — ١٨٣٢) مسرحية «فاوست» بعنوان «مقدمة فى السماوات» .

ص ٩٦ ◦ ما معنى هاتين الكلمتين «ينبوع الحياة» فى رؤيا القديس يوحنا ؟ هل سمعت الكلام عن الكوكب الافسنتين يا أمير ؟ — رؤيا القديس يوحنا اللاهوتى (القرن الأول بعد الميلاد) هى آخر كتب العهد الجديد ، وتتضمن تنبؤات بنهاية العالم ويوم الحساب الرهيب . والاشارة هنا الى الرمز فى الاصحاحين الأخيرين (٢١ و٢٢) . ففى الاصحاح الثانى والعشرين يذكر «ماء حياة» و«شجرة حياة» الى جانب

الحديث عن الشمس : «ولا يكون هناك ليل ، ولا يحتاجون الى سراج او نور شمس لأن الرب الاله ينير عليهم . . .» (الآية ٥) . وقد أبرز دوستويفسكى الاشارة الى «ينابيع الحياة» الواردة فى آخر الاصحاح : «ومن يعطش فليأت . ومن يرد فليأخذ ماء حياة **مجانا**» (التشديد لدوستويفسكى) . هل سمعت عن الكوكب الافسنتين يا أمير ؟ — جاء فى رؤيا يوحنا اللاهوتى أنه مع اقتراب الساعة سيسقط الكوكب الافسنتين «على ثلث الأنهار وعلى ينابيع المياه» ، فيصبح «ثلث المياه افسنتينا» ويموت «كثيرون من الناس من المياه لأنها صارت مرة» (الاصحاح الثامن) .

ص ٩٨ ◦ السم الذى سينزل على الأرض فيلوّث «ينابيع الحياة» ؟ — الاشارة هنا الى ما ورد فى رؤيا القديس يوحنا اللاهوتى (الاصحاح الخامس عشر والسادس عشر) من صب جامات غضب الله على الأرض ، عندما «كملت سبع ضربات السبعة الملائكة» وسكب «الملاك الثالث جامه على الأنهار وعلى ينابيع المياه فصارت دما» (الآية ٤) .

ص ١٠١ ◦ للسيطرة على الانسانية خلال زمن لا نعرف له حدا . — الاشارة هنا الى ما جاء فى الاصحاح الثانى عشر من رؤيا القديس يوحنا اللاهوتى : «ويل لساكنى الأرض والبحر لأن ابليس نزل اليكم وبه غضب عظيم عالماً ان له زماناً قليلاً» .

ص ١٠١ ◦ على غرار فولتير . — فولتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨) — الاسم الحقيقى هو ماري فرانسوا آرويه . مفكر وفيلسوف منوّر فرنسى ، لعب دوراً هائلاً فى التحضير الفكرى للثورة الفرنسية الكبرى ، وفى تطوير الفكر الفلسفى الاجتماعى فى اوربا بما فى ذلك روسيا . ومن الجدير بالذكر أن دوستويفسكى انكب على قراءة أعمال فولتير بصفة خاصة أثناء كتابته لهذه الرواية فى شتاء ١٨٦٨ — ١٨٦٩ .

ص ١٠٢ • ان مفكر راحلا يتذمر قائلا : «أصبحت الانسانية مسرفة في الجلبة ومفرطة في الصناعة ، شحيحة الهدوء النفسي» . — نجد هنا صدى للجدال الذى نشب بين المفكر والأديب والفيلسوف الثورى الروسى ألكسندر هيرتسين (١٨١٢ — ١٨٧٠) والفيلسوف والشاعر والشخصية الاجتماعية الروسية فلاديمير بتشيرين (١٨٠٧ — ١٨٨٥) وانعكس فى المراسلات التى جرت بينهما . واذ أقر بتشيرين بأن المجتمع البرجوازى يحمل معه «استبداد» الحضارة المادية وانهيار الحياة الروحية ، فقد استخلص من ذلك نتيجة مؤداها أن خلاص البشرية ليس فى العلم بل فى الدين . أما هيرتسين فقد برهن على أن العلوم والتكنولوجيا والصناعة التى يقيمها المجتمع البرجوازى تعتبر ركائز تقدمية عظيمة للتطور الاجتماعي ، سوف تساعد البشرية على التحرر من سلطة المستغلين . وكتب يقول : «مم نخاف اذن ؟ أنخاف من صخب العجلات وهى تحمل لقمة الخبز لجمهور جائع مهلهل الثياب ؟»

المفكر الراحل هو فلاديمير بتشيرين ، الذى هاجر من روسيا عام ١٨٣٦ وعاش فى الاديرة البريطانية ، وان ظل يتابع باهتمام القضايا الاجتماعية-الفلسفية وحركة التحرر الروسية .

ص ١٠٢ • لقد كان مالتوس رجلاً من محبى البشر . — توماس مالتوس (١٧٦٦ — ١٨٣٤) قس بريطانى ، رجل اقتصاد ، مؤسس «نظرية مالتوس» . وقد ادعى أن البطالة والأحوال المعيشية البائسة للكادحين فى ظل الرأسمالية هى نتيجة «للزيادة المطلقة للبشر» ولمفعول «القانون الطبيعى للسكان» ، اذ أن السكان يزدادون بمتوالية هندسية بينما تزداد وسائل المعيشة ، فى أحسن الأحوال ، بمتوالية حسابية . ولذلك كان مالتوس يعتبر أن الزيادة فى السكان مكتوب عليها الهلاك ، أما الاصلاحات الاجتماعية فلا جدوى منها . وكانت آراء مالتوس موضع نقاش فى «حلقة بتراشيفسكى»

التى انضم اليها دستويفسكى فى بداية حياته .

ص ١٠٤ • أثناء حرب القرم (١٨٥٤ — ١٨٥٦) تعرضت مدينة كارس فى شمال شرقى تركيا للحصار من جانب الجيوش الروسية خلال عدة شهور فى عام ١٨٥٥ .

ص ١١٠ • هذه الفكاهة تقوم على الصلة اللفظية التى لا تمكن ترجمتها ، بين كلمة بوروك الروسية (ومعناها الرذيلة) ، وكلمة بوروخود (ومعناها السفينة البخارية) .

ص ١٢٢ • من بعدى الطوفان . — تنسب هذه العبارة ، التى أصبحت مثلا واستشهد بها دوستويفسكى مراراً ، الى لويس الخامس عشر (١٧١٠ — ١٧٧٤) .

ص ١٢٨ • المقصود هنا الطبيب الروسى الشهير سرغى بوتكين (١٨٣٢ — ١٨٨٩) . وكان دوستويفسكى يتعالج لديه ، وقد اثنى عليه كمشخص ممتاز .

ص ١٣٨ • قطع ذهبية قيمة الواحدة منها عشرة روبلات .

ص ١٣٨ • قطع ذهبية فرنسية قيمة الواحدة منها ٢٠ فرانكاً .

ص ١٥٦ • نابوليون الذى اعتمد على كرم انجلترا . — بعد هزيمة نابوليون فى معركة ووترلو وتنازله الثانى عن العرش عام ١٨١٥ حاول أن يهرب الى امريكا ، ولكن نظراً للحصار البريطانى المضروب على ميناء روشتوف اضطر الى الدخول فى مفاوضات مع أعدائه الانجليز ، ثم نُفى الى جزيرة سانت هيلين .

ص ١٥٨ • ان هذا «العجوز الجنرال» سيزورها فى جبل العصافير . — المقصود هنا كبير أطباء مستشفيات السجون فى موسكو فيودور غاز (١٧٨٠ — ١٨٥٣) الذى بذل الكثير من الجهود للتخفيف من قسوة الظروف التى كان يتعرض لها المسجونون والمرسلون الى المنفى فى عهد القيصر نيقولاى الأول . وقد ذاعت شهرة غاز بين السكان لعطفه المخلص على المسجونين ومساعدته للمرضى منهم وانفاقه موارده كلها

عليهم . وقد سمع دوستويفسكى عن غاز أثناء قضائه فترة الأشغال الشاقة فى سيبيريا واهتم به .

ص ١٦٥ • لوحة كنت رأيتها فى ذلك الصباح عند روغوجين . — المقصود هنا لوحة «المسيح ميتا» (١٥٢١) للمصور والرسام الألمانى هانس هولبين الأصغر (١٤٩٧ أو ١٤٩٨ — ١٥٤٣) . وقد هزت هذه اللوحة أعماق دوستويفسكى و «ظل متسمرًا أمامها أكثر من عشرين دقيقة . وكادت هذه الدقائق من التوتر الروحى أن تنتهى بنوبة صرع» — كما كتبت زوجته .

ص ١٦٧ • «قومى طليثا» : انجيل مرقص ، الاصحاح الخامس ، ٤١ .

ص ١٦٧ • اخرج لعازر : انجيل يوحنا ، الاصحاح الحادى عشر ، ٤٣ .

ص ١٨٧ • اننى أودع انساناً . — هذه العبارة التى قالها ابيوليت قريبة المعنى من قول بيلاطس عن المسيح : هذا هو الانسان ! (انجيل متى ، الاصحاح ١٩ ، الآية ٥) .

ص ١٩٢ • تحذر أصحابنا الروس من أمثال لاسنير ! — لاسنير بيير — فرانسوا (١٨٠٠ — ١٨٣٦) بطل المحاكمة الجنائية التى أثارت ضجة كبيرة فى باريس فى الثلاثينات . وهو قاتل تميز بالغرور الشديد والوحشية الرهيبة .

ص ٢١٠ • فكرت فيك كما يفكر المرء فى ضياء . — اسم البطلة نفسه — آجلايا — يعنى «المنيرة» (فى اللغة اليونانية) . وموضوعات النور و «الفجر الجديد» و «الحياة الجديدة» نجدها مصاحبة لآجلايا دائما فى سياق الرواية .

ص ٢٢٩ • فنحن لسنا من الماسونيين . — الماسونية (من الفرنسية franc maçon — «الحجّار الحر») هى حركة دينية أخلاقية نشأت فى بداية القرن الثامن عشر فى انجلترا ، ثم انتشرت فى كثير من البلدان ومن بينها روسيا . وسعى الماسونيون الى خلق منظمة سرية عالمية بحجة توحيد البشر . وقد حظرت الماسونية فى روسيا عام ١٨٢٢ . وتشير عبارة كوليا ايفولجين

الى الاهتمام الشديد الذى كان الماسونيون يولونه لمسائل السرية والتخفى .

ص ٢٦٥ • «بودكوليوسين» : بطل مسرحية جوجول الهزلية «زواج» . انه نموذج الطبع الضعيف ، مع انتفاضات استقلالية : لقد قفز من النافذة فى لحظة الزواج .

ص ٢٦٦ • جورج داندان بطل كوميديا «جورج داندان» لمولير (١٦٦٨) .

ص ٢٦٩ • «بيروجوف» — كتب دوستويفسكى عام ١٨٦١ عن بيروجوف بطل قصة «شارع نيفسكى» لنيقولاى جوجول (١٨٣٥) معتبرا اياه من أروع ما أبدع جوجول .

ص ٢٧٤ • صر ملكًا يهوديًا ! — يشير جانيا الى العبارة التى كتبت فوق رأس المسيح المصلوب «هذا هو يسوع ملك اليهود» ، ولكنه يقصد بـ«ملك اليهود» معنى آخر هنا ، معنى ملك البورصة ، روتشيلد .

ص ٢٨٩ • «نوزدريوف» : شخصية مضحكة هزلية من شخصيات رواية جوجول «النفوس الميتة» : نموذج بوهيمى ، متشدق ، شرير .

ص ٢٩٦ • «ياروشكا» : تصغير اسم ياروفى .

ص ٢٩٦ • «كابيتوشكا» : تصغير اسم كابيتون .

ص ٣٢٨ • ان كاتبها جندى قديم شهد اقامة الفرنسيين بموسكو . — كانت المقالة التى أعطاها الأمير للجنرال ليقرأها منشورة فى مجلة «الارشيف الروسى» . ويبدو أنها مقالة «دير نوفوديفيتشى بموسكو عام ١٨١٢ . رواية شاهد عيان ، الموظف المدنى سيميون كليمتش» (١٨٦٤ ، العدد ٤) .

ص ٣٣٠ • قد فقد ساقه اليسرى ودفنها فى مقبرة فاجانكوفو . — قرأ دوستويفسكى فى الصحف (مايو ١٨٦٧) وصفا لدفن الجنرال كامينسكى . ونجد فى «يوميات» زوجة دوستويفسكى اشارة الى تمثال أقيم فى درسدن للجنرال كامينسكى «الذى

بترت ساقاه هنا» . . «وهاتان الساقان الشهيرتان هما المدفونتان هنا ، على التل ، أما الجسد نفسه فنقل الى بطرسبرج . فما أغرب مصير هذا الرجل ، ان يكون مدفوناً فى مكانين مختلفين» .

ص ٣٣١ ◦ «استرح أيها الرفات الغالى الى أن يطلع الصباح المشرق» . — احدى قبريات الكاتب والمؤرخ الروسى نيقولاى كارامزين (١٧٦٦—١٨٢٦) . وقد نقشت هذه العبارة عام ١٨٣٧ على قبر والدة الشقيقين ميخائيل وفيودور دوستويفسكى بناء على رغبتهما .

ص ٣٣٢ ◦ ولكن ساق تشرنوسفيتوف أحدث كثيراً من ذلك التاريخ . — رافائيل ألكسندروفتش تشرنوسفيتوف (ولد ١٨١٠) كان أحد أعضاء جماعة بتراشيفسكى ، ونفى عام ١٨٤٩ الى قلعة كيلسجولم . وفى عام ١٨٥٤ أرسل الى لجنة المعوقين مخطوطة ساق صناعية من اختراعه . وفى عام ١٨٥٥ صدر له كتاب فى بطرسبرج بعنوان : «وصايا حول كيفية عمل الساق الصناعية» .

ص ٣٣٢ ◦ «الأرشيف الروسى» : مجلة تاريخية أسسها سنة ١٨٦٣ ، ب . بارتينيف . ورغم أن عدد النسخ التى كان يطبع منها ضئيل ، فقد كانت تعد على الدوام أفضل نشرة من هذا النوع .

ص ٣٣٣ ◦ ان أحد الذين سجلوا ذكريات حياتهم . — الاشارة هنا الى ألكسندر هيرتسين الذى كتب عن ذلك فى مؤلفه «حوادث وأفكار» الذى يعتبر من روائع الأدب الروسى الكلاسيكى .

ص ٣٣٤ ◦ اننى أعرف قضية واقعية عن جريمة قتل كان الدافع اليها سرقة ساعة . وقد تحدثت الجرائد عن هذه الجريمة منذ وقعت . — فى دفتر مذكراته الخاص برواية «الأبله» أشار دوستويفسكى نفسه الى مصدر هذه الحادثة التى رواها الأمير اذ كتب : «أنظر «موسكوفسكيبى فيدوموستى» بتاريخ ٥ نوفمبر ١٨٦٧ . حادثة قتل المواطن سوسلوف على يد

الفلاح بلابانوف من مركز ميشكينسكى ، محافظة ياروسلافل (ذبح سوسلوف الذى كان يشعل السماور ، ليستولى على ساعته وهو يقول : «يا الهى ، اغفر لى بحق المسيح») .

ص ٣٣٦ ◦ وغداة غد مات وصيف نابوليون البارون بازانكور . — ج . — ب . دى بازانكور Bazancourt (١٧٦٧—١٨٣٠) بارون وجنرال فرنسى شارك فى حملات نابوليون الأول . وقد أدخله الجنرال ايفولجين فى روايته الخرافية ليضفى عليها مصداقية تاريخية .

ص ٣٣٩ ◦ اننى قرأت فى الآونة الأخيرة كتاب شاراس عن معركة واترلو . — جان باتيست أدولف شاراس (١٨١٠—١٨٦٥) شخصية سياسية بورجوازية ليبرالية ومؤرخ عسكرى فرنسى . وقد قرأ دوستويفسكى كتابه المعنون (تاريخ حملة ١٨١٥ . واترلو) فى مدينة بادن–بادن عام ١٨٦٧ .

ص ٣٤٠ ◦ وكانت حاشيته تتألف من دافو ، وأنا ، والمملوك رستان . — دافو لوى (١٧٧٠—١٨٤٥) مارشال ووزير حربية نابوليون الأول . المملوك روستان (١٧٨٠—١٨٤٥) حارس نابوليون الأول المحبب .

ص ٣٤٠ ◦ لم يكن كونستان من الحاشية . كان قد ذهب يحمل رسالة . . . الى الامبراطورة جوزيفين . — المقصود هنا وصيف نابوليون المحبب الذى يرد ذكره كثيراً فى الذكريات والروايات التى تتحدث عن نابوليون . وجوزيفين (١٧٦٣—١٨١٤) زوجة نابوليون الأول الأولى التى انفصل عنها عام ١٨٠٩ .

ص ٣٤٣ ◦ ابنى ، le roi de Rome — أعطى نابوليون لابنه جوزيف فرانسوا شارل (١٨١١—١٨٣٢) لقب ملك روما .

ص ٣٤٤ ◦ «منفاه فى الجزيرة القائظة» . — مقطع من قصيدة بوشكين «نابوليون» (١٨٢٦) .

ص ٣٤٧ • لقد كفلت لى هذه القافية . — يستغل الجنرال فى هذه العبارة جناساً لفظياً بين كلمة bobami ومعناها : حمص وكلمة babami (ومعناها : نساء) .

ص ٣٤٧ • هذه كلمات مستمدة من كتاب جوجول «النفوس الميتة» : «أين شبابى ؟ أين نضارتى ؟» — اقتباس محرف من رواية جوجول (بداية الفصل السادس ، الجزء الأول) : «يا شبابى ! يا نضارتى !»

ص ٣٤٨ • «جريشا» : تصغير جريجورى .

ص ٣٥٥ • «كامنى أوستروف» : جزيرة فى نهر نيفا شمال بطرسبرج ، كانت مكان استجمام للنبلاء .

ص ٣٥٨ • فريدريك كريستوف شلوسر (١٧٧٦—١٨٦١) : مؤرخ ألمانى وضع كتاباً بعنوان «التاريخ العام» نشر فى الترجمة الى الروسية فى ١٨٦١—١٨٦٩ .

ص ٣٦٥ • «جلاشا» : تصغير آجلايا .

ص ٣٨٠ • هل قرأت ، يا أمير ، شيئاً عن موت رجل إسمه ستيبان جليبوف . — ستيبان جليبوف (١٦٧٢—١٧١٨) عشيق يفدوكيا لوبوخينا الزوجة الأولى لبطرس الأول (الأكبر) (١٦٧٢—١٧٢٥) القيصر الروسى . وقد اعتقل جليبوف وحكم عليه «بالاعدام القاسى» لاتهامه بالتآمر على بطرس الأكبر ولصلاته بلوبوخينا التى اودعت الدير راهبة . وقد قرأ دوستويفسكى وصف وفاة جليبوف فى الجزء السادس من «تاريخ ولاية بطرس الأكبر بقلم ن . ج . اوستريلوف» (١٨٥٩) : «. . . لم يعترف الرائد ستيبان جليبوف بأى شئ رغم أنه عذب بفظاعة بالسوط والحديد المحمى والجمرات المشتعلة . وربط ثلاثة أيام الى عمود فوق لوح بمسامير خشبية . وفى ٢٥ مارس وضع على الخازوق فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، وتوفى فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى» .

ص ٣٨١ • آندره ايفانوفتش اوسترمان (١٦٨٦—١٧٤٧) ، ابن قسيس من فستفاليا ، جاء الى روسيا فى السنة الثامنة عشرة من عمره . وقد ألحقه بطرس الأكبر بوزارة الخارجية . فاشترك فى مباحثات صلح نيستاد سنة ١٧٢١ ومعاهدة ١٧٢٣ مع ايران . وقد كان يوجه عملياً السياسة الداخلية والخارجية لروسيا فى عهد الامبراطورة آنا ايفانوفنا .

ص ٣٩٦ • اطعن قلبى ، ولكن دع لى اللحية ، كما قال توماس موروس . — توماس موروس (١٤٧٨—١٥٣٥) مفكر انسانى انجليزى عظيم ، أحد مؤسسى الاشتراكية الطوباوية . اتهم بالخيانة العظمى وأعدمه الملك هنرى الثامن باعتباره معارضاً للاصلاح . يقال أن توماس موروس الذى حكم عليه بالاعدام قد تضرع الى الجلاد أن لا ينال لحيته بسوء ، قائلاً له : «ليس يهمنى كثيراً أن يصيب لحيتى أذى ، ولكن يهمك أنت أن يقول الناس عنك انك تجيد مهنتك اجادة تامة ، لأن القرار ينص على أن عليك أن تقطع رأسى لا لحيتى» .

ص ٤٢٠ • وتعلن : Non possumus! – عبارة تعنى حسب التقاليد رفض البابا الاستجابة لطلبات السلطة الدنيوية . وقد اشتهر هذا التعبير بصفة خاصة بعد أن منع البابا بى التاسع فى عام ١٨٦٠ نابوليون الثالث من التخلى عن مقاطعة رومان للملك الايطالى فكتور عمانويل وطرد الأخير من الكنيسة لضمه هذه المقاطعة الى ايطاليا .

ص ٤٢٢ • «ممنوع الايمان بالله ، ممنوع التملك ، ممنوع أن يكون للمرء شخصية ، fraternité on la mort – شعار من عهد الثورة الفرنسية الكبرى أصبح مثلا ، وكثيراً ما تناوله الكتاب الروس بالسخرية .

ص ٤٢٢ • «مليونا رأس !» — اشارة الى ما ورد فى كتاب «حوادث وأفكار» لالكسندر هيرتسين عن الصحفى الجمهورى الألمانى

ك . هينتسين (١٨٠٩—١٨٨٠) «الذى كتب يقول فيما بعد أنه يكفى أن **تضرب مليونى شخص** فى العالم حتى تسير قضية الثورة على أحسن وجه» .

ص ٤٢٥ • من أنصار الكنيسة القديمة . — هم الجماعات والكنائس الروسية التى لم تقبل الاصلاحات الكنسية فى القرن السابع عشر وأصبحت معارضة أو معادية للكنيسة الرسمية الأرثوذكسية . وكانت الحكومات القيصرية المتعاقبة تطاردهم حتى ١٩٠٦ .

ص ٤٢٥ • أناس مثقفون ثقافة عالية انتموا الى ملة «الخليستى» . — (من كلمة «خليست» الروسية وتعنى «سوط») طائفة مسيحية نشأت فى روسيا فى القرن السابع عشر . وهم مسيحيون روحانيون يعتقدون أنه بالامكان الاتصال المباشر «بالروح القدس» ، ويؤمنون بتجسد الذات الالهية فى أبناء الطائفة الاتقياء .

ص ٤٣٦ • ان حركاتى واشاراتى . . . تجئ فى غير محلها . — كتب دوستويفسكى الى زوجته فى ٢٠ مايو ١٨٦٧ : «اننى حتى فى اليقظة ، وعندما نكون معا ، أكون منطوياً ، عبوساً وليست عندى على الاطلاق موهبة التعبير عن كل ما فى نفسى . وليس لدى شكل أو حركة . وكان أخى المرحوم ميشا كثيراً ما يلومنى على ذلك بمرارة» .

ص ٤٣٨ • فلنصبح خداما لنكون الأوائل . — هذه العبارة التى قالها الأمير ميشكين قريبة من وصية المسيح لحواريه : «. . . اذا أراد أحد أن يكون أولا فيكون آخر الكل وخادماً للكل . (انجيل مرقس ، الاصحاح التاسع ، الآية ٣٥) .

ص ٤٣٩ • قد سمعت العويل الوحشى «للروح التى صرعت الشاب المسكين وطرحته أرضا» . — يستخدم دوستويفسكى هنا عبارات الانجيل (انجيل مرقس ، الاصحاح التاسع ، الآيات من ١٧ الى ٢٧) .

ص ٤٤٠ • «ان الشاب متعصب للسلافية» . — ان الدعوة السلافية التى كان ينتمى اليها دوستويفسكى لا تقتصر على أن تكون مذهبا يهدف الى الانبعاث السياسى لجميع السلافيين ، بل كان كذلك فلسفة قومية تتضمن حلا روسيا للمشكلات الاجتماعية والأخلاقية .

ص ٤٥٤ • ان هذه الأبيات جزء من قصيدة بوشكين التى عنوانها «انطفاء فرح الأيام المجنونة» (١٨٣٠) ، والتى تعد من أجمل القصائد الغنائية .

ص ٤٧٦ • . . . ومولع بذلك المذهب العدمى المعاصر الذى أوضحه السيد تورجينيف . — المقصود رواية «الآباء والبنون» (١٨٦٢) للكاتب الروسى الكبير ايفان تورجينيف (١٨١٣—١٨٨٣) التى ربط معاصروها بين ظهورها وبين استخدام كلمة «عدمية» لوصف الميول السائدة آنذاك فى أوساط الشباب الديمقراطى المتعدد الأصول الطبقية . وكان دوستويفسكى يقدر هذه الرواية تقديراً عالياً .

ص ٤٩٩ • . . . أميرة من أسرة دى روهان . — آل روهان سلالة أمراء عريقة وشهيرة فى فرنسا .

ص ٥٠١ • انه قد خُلق ليكون تاليران . — أصبح اسم الدبلوماسى الفرنسى ووزير خارجية ثلاثة عهود شارل موريس تاليران (١٧٥٤—١٨٣٨) رمزاً للدلالة على الشخص الحاذق الصفيق .

ص ٥١٣ • «ليلة معى ثمنها الحياة ! . . .» — استشهاد من قصيدة بوشكين عن الملكة المصرية كليوباترا المتضمنة فى قصة «ليال مصرية» (١٨٣٥) .

ص ٥١٨ • «أخفى عن الحكماء والأفهماء وأعلن للأطفال . . .» — اقتباس غير دقيق من الانجيل (كلام المسيح) : «. . . لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والأفهماء وأعلنتها للأطفال» (انجيل متّى ، الاصحاح الحادى عشر ، الآية ٢٥) .

ص ٥٢٧ • رواية فرنسية هى رواية «مدام بوفارى» . — رواية الكاتب الفرنسى غوستاف فلوبير (١٨٢١—١٨٨٠) التى صدرت عام ١٨٥٧ . وقد قرأها دوستويفسكى في صيف ١٨٦٧ بتوصية من تورجينيف الذى وصفها بأنها أعظم عمل «فى العالم الأدبى كله خلال السنوات العشر الأخيرة» .

ص ٥٤٠ • لقد غطيتها بقماش مشمّع ، قماش مشمّع أمريكى ممتاز . — أثناء كتابة «الأبله» اهتم دوستويفسكى بقضية التاجر الموسكوفى مازورين الذى قتل الجواهرى كالميكوف عام ١٨٦٦ . وقد أثرت هذه الحادثة على الصياغة الفنية فى الرواية لشخصية روغوجين وبعض تفاصيل جريمته . وكان مازورين ابناً لمواطن فخرى عريق ، ورث عن أبيه حوالى مليونى روبل ، ولكنه بددها . ودعا مازورين الى ضيافته الجواهرى كالميكوف الذى لم يحدس شيئاً ، وذبحه بموسى كان يحتفظ بها فى مكتبه . وقد عثر فى بيته ، بالاضافة الى الموسى ، على سكين مطبخ بها آثار دماء . وغطى مازورين جثة القتيل «بمشمع أمريكى» ووضع حولها أربع زجاجات من «سائل جدانوف» (سائل أطلق عليه اسم مركبه جدانوف ، وهو مطهر ومزيل للروائح الخبيثة) . وظلت جثة كالميكوف ممددة عدة أشهر فى الدكان المغلق فى بيت مازورين الخاوى ، حيث كان القاتل يسكن مع أمه . وقد استخدم دوستويفسكى فى الرواية بعض التفاصيل السابقة .

فهرست

الجزء الثالث ٣

الجزء الرابع ٢٦٣

حـــواش ٥٥٣